بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن سعيد بن أحمد آل عزمي الغامدي كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : الكتاب والسنة ....

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه .... في تخصص : الكتاب والسنة ....

عنوان الأطروحة : ((الإحسان في ضوء الكتاب والسنة النبوية دراسة موضوعية ....)) .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٣/١٢/١٤٢٤هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : أ.د/ سليمان بن صادق البيرة	الاسم : أ.د/ عبد الله بن علي الغامدي	الاسم : أ.د/ عبد الوهاب بن عبد الله العاصي
التوقيع : [signature]	التوقيع : [signature]	التوقيع : [signature]

يعتمد

رئيس قسم

الاسم : [signature]

التوقيع : ٣٦/٢/...

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .





المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
قسم الدراسات العليا

الإحسان في ضوء الكتاب والسنة النبوية

«دراسة موضوعية»

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة

إعداد الطالب
أحمد بن سعد بن أحمد آل غرم الغامدي

إشراف
فضيلة الأستاذ الدكتور/ سليمان الصادق البيرة

١٤٢٢هـ

المجلد الثاني

المبحث الرابع
إحسان الإنسان إلى الخلق

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **الإحسان إلى الإنسان بالقلب، واللسان، والجوارح**

المطلب الثاني: **الإحسان إلى غير الإنسان**

المطلب الأول

الإحسان إلى الإنسان، بالقلب، واللسان، والجوارح

أولاً: الإحسان إلى المسلم القريب والبعيد

إنَّ المُحسن الصادق، شخصية اجتماعية راقية، كونتها مجموعة كبيرة جداً من مكارم الأخلاق، التي استهدت بهدى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وجعلت التخلق بها دينًا يثاب عليه المرء المحسن، ويحاسب على تركه، فاستطاعت بذلك أن تجعل شخصية المحسن الصادق نموذجًا فذًا للإنسان الاجتماعي الراقي المهذب التقي الخير النظيف.

بيد أنَّ الباحث المستقصي نصوص تلك التوجيهات الاجتماعية في الإسلام، يجد نفسه أمام حشد كبير جدًا من النصوص التي تحض على كل خلق من هذه الأخلاق الاجتماعية الرفيعة، مما يدل على عناية الإسلام البالغة بتكوين شخصية المحسن الاجتماعية تكوينًا دقيقًا، لا يكتفي بالعموميات، بل يقف عند كل جزئية من الجزئيات الخلقية التي تكوِّن جانبًا من جوانب الشخصية الاجتماعية المتكاملة، وهذا الاستيعاب والشمول لم يتوافرا في منهج من مناهج التربية الاجتماعية توافره في هذا الدين.

ولا مناص للباحث من الوقوف عند هذه النصوص جميعًا، والإلمام بما تضمنته من هدى وتوجيه وتشريع، ليستطيع تجلية الشخصية الاجتماعية الراقية التي تميز بها المحسن الواعي وتفرَّد.

ولقد وقفنا فيما سلف في هذا البحث عند بعض هذه النصوص التي جلَّت جوانب من شخصية المحسن المستجيب لهَدْي دينه، الوقَّاف عند أمر ربه ونهيه.

والآن نمضي بعون الله تعالى مع النصوص الأخرى الكثيرة التي تصوغ شخصية المحسن الاجتماعية، وتحدد طابعها المتميز في شتى النواحي[(١)] وهي تدور بين العدل والإحسان.

١ ـ العدل مع الإنسان

العدل لغةً: مصدر عدل يعدل عدلاً وهو مأخوذ من مادة (ع د ل) التي تدل ـ كما يقول ابن فارس ـ على معنيين متقابلين: أحدهما يدل على الاستواء، والآخَرُ على اعوجاج، ويرجع لفظ العدل مصدراً إلىٰ: خلاف الجور وهو ما قام في النفوس أنَّه مستقيم، وقد يستعمل هذا المصدر

---

(١) انظر: شخصية المسلم: د/ محمد علي الهاشمي (١٦٢، ١٧٦).

استعمال الصفات، فيقال: رَجُلٌ عَدْلٌ، وَالْعَدْلُ من النَّاسِ الْمَرْضِي المستقيم الطريقة[1].

العدل اصطلاحًا: هو فصل الحكومة على مافي كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسنة رسولهﷺ لاالحكم بالرأي المجرد[2].

وقيل: بذل الحقوق الواجبة وتسوية المستحقين في حقوقهم[3].

وقال ابن حزم: هو أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه[4].

وقال الجرجاني: العدل الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط.

والعدالة في الشريعة: عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب مما هو محظور دينًا[5].

أنواع العدل:

والعدل ضربان: مطلق يقتضي العقلُ حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو الإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذى عمن كف أذاه عنك. وعدل يُعْرَفُ كونه عدلاً بالشرع. ويمكن أن يكون منسوخًا في بعض الأزمنة، كالقصاص أرش الجنايات، وأخذ مال المرتد، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة، الآية: ١٩٤]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى، الآية: ٤٠] فسمى ذلك سيئة واعتداء للمشاكلة. وهذا النحو هو المعنى بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل، الآية: ٩٠]، فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه[6].

شمولية العدل وأقسامه وكيفية تحققه:

يتأتى العدل في كل مجال من عقائد وشرائع وسير مع الناس في الأمانات وترك الظلم والإنصاف وإعطاء الحق[7].

كما قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل،

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٦)، والصحاح (٥/ ١٧٦٠) ولسان العرب (٥/ ٢٨٣٨)، والمفردات (٣٢٥).

(٢) فتح القدير (١/ ٤٨٠).

(٣) الرياض الناضرة للسعدي (٢٥٣).

(٤) مداواة النفوس (٨١).

(٥) التعريفات (١٥٣).

(٦) انظر: بصائر ذوي التمييز (٤/ ٢٨ـ٣٠).

(٧) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٤).

الآية: ٩٠]، فهذه الآية عامة في كل ما يفتقر صلاحه إلى العدل؛ لأن الألف واللام فيه للعموم كما يشعر بذلك حذف المعمول[(١)].

فشملت العدل بين العبد وبين ربه، وذلك بإيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر، وذلك لمقتضى خلق الله تعالى له حيث جعل الغاية من خلقه عباده كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات، الآية: ٥٦] والعدالة تقتضي القيام بعبادة الله على النحو الذي ذكر ومن لم يفعل كان مفرطًا وذلك هو الظلم بعينه.

وشملت العدل بينه وبين نفسه، وذلك بمنعها عما فيه هلاكها كما قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات، الآية: ٤٠]وعزوب الأطماع عن الاتباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى.

لأنه إذا لم يفعل ذلك جرته نفسه إلى اتباع الهوى وارتكاب حدود الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[يوسف، الآية: ٥٣]، وإذا فعل ماأمرته كان مجانبًا للعدل معها كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[الطلاق، الآية: ١].

وشملت العدل بينه وبين الخلق، وذلك ببذل النصيحة لهم، وترك خيانتهم فيما قل أو كثر، والإنصاف من النفس لهم بكل وجه، ولايوصل إلى أحد مساءة بقول ولا بفعل، لا في سر ولا في علن، والصبر على مايصيبه منهم من البلوى وإذا لم يفعل ذلك فلا أقل من الإنصاف من النفس وترك الأذى[(٢)]. ومن الآيات العامة في العدل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾[الأعراف، الآية: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد/ الآية: ٢٥]. ومع هذا العموم فقد خص الله تعالى بعض الصور بالعدل منها:

١ـ العدالة في الشهادة كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق، الآية: ٢]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة، الآية: ٨]

٢ـ العدالة في الكتابة للحقوق قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٢].

٣ـ الإملاء في الكتابة بالحق، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٢].

٤ـ العدالة في الولاية على الضعفاء قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ

(١) انظر: أضواء البيان (٣/ ٣١٦).

(٢) انظر: أحكام القران «لابن العربي» (٣/ ١١٧٢).

﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [النساء، الآية: ١٢٧].

٥ـ العدل بين الزوجات كما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ [النساء، الآية: ٣].

٦ـ العدل في الصلح بين المتنازعين سواءً كانوا أفرادًا أم جماعات كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات، الآية: ٩].

٧ـ العدل في القول عامة بما يتفق مع قواعد الدين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢﴾ [الأنعام، الآية: ١٢٥][1].

٨ـ العدل في الحكم بين الناس كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥﴾ [النساء، الآية: ١٠٥].

٩ـ العدل في الحكم في حقوق الله تعالى كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة، الآية: ٩٥].

وقال الماوردي: إن مما تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل، الذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، ويكبر به النسل، ويأمن به السلطان.

وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه لا يقف عند حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل.

ونقل عن بعض البلغاء قوله: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع، وكثرة الورع. فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن يبدأ بعدل الإنسان في نفسه، ثم بعدله في غيره. فأما عدله في نفسه، فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين: من تجاوز أو تقصير، فإن التجاوز فيها جَوْرٌ، والتقصير فيها ظُلْمٌ، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها فهو على غيره أجور.

فأما عدله مع غيره، فقد تنقسم حال الإنسان مع غيره على ثلاثة

---

(١) انظر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، لأحمد حداد (٣/ ١٢٥١ـ١٢٥٣).

أقسام:

القسم الأول: عدل الإنسان فيمن دونه، كالسلطان في رعيته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء:

باتباع الميسور وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة، فإن اتباع الميسور أدوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلط أعطف على المحبة، وابتغاء الحق أبعث على النصرة.

القسم الثاني: عدل الإنسان مع من فوقه. كالرعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها، ويكون ذلك بثلاثة أشياء:

بإخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء؛ فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن. وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلط عليه مَنْ كان يدفع عنه واضطر إلى اتقاء مَنْ كان يقيه... وفي استمرار هذا حَلُّ نظامٍ شامل، وفسادُ صلاحٍ شامل.

القسم الثالث: عدل الإنسان مع أَكْفائه، ويكون بثلاثة أشياء: بترك الاستطالة، ومجانبة الإدلال، وكف الأذى؛ لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال ألطف، وكف الأذى أنصف، وهذه أمور إن لم تخلص في الأَكْفاء أَسْرَعَ فيهم تقاطعُ الأعداء، ففسدوا وأفسدوا. وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسَّرَف، لأن العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل ماخرج عن الأولى إلى ماليس بأولى خروج عن العدل إلى ما ليس بالعدل.

ولست تجد فسادًا إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حالة العدل، إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان، وإذًا لا شيء أنفع من العدل كما أنه لا شيء أضر مما ليس بعدل[1].

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ: «إن حظ العبد من العدل أمر ظاهر لا يخفى، فأول شيء يجب عليه من العدل في صفات نفسه أن يجعل الشهوة، والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين، فإنه لو جعل العقل خادمًا للشهوة والغضب فقد ظلمه، هذا في الجملة، أما تفصيلات ما يجب عليه في العدل في نفسه فمراعاة حدود الشرع كلها، وَإِنَّ عدله في كل عضو أن يستعمله على الوجه الذي أذن الشرع فيه.

وأما عدله في أهله وذويه فأمر ظاهر يدل عليه العقل الذي وافقه

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (١٤١ـ١٤٤).

الشرع.

وأما إن كان من أهل الولاية فإن العدل في الرعية من أوجب واجباته»[١].

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعري - رضي الله عنهما - أن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلمٌ بِحَقٍّ لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً، ومن ادعى حقًا غائبًا، أو بينة فاضرب له أمدًا ينتهي إليه؛ فإن جاء ببينة أعطيته بحقه فإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية؛ فإن ذلك أبلغ من العذر، وأجلى للعمى، ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيته اليوم فرجعت فيه لرأيك، وهديت فيه لرشدك، أن تراجع إلى الحق؛ لأن الحق قديم لا يُبْطِلُ الحقَّ شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، والمسلمون عدول بعضهم على بعض في الشهادة إلا مجلود في حد، أو مجرب عليه شهادة الزور، أو ظنين في ولاء أو قرابة، فإن الله - عز وجل - تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان، ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال والأشباه، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله فيما ترى وأشبهها بالحق، وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس عند الخصومة والتنكر؛ فإن القضاء في مواطن الحق يوجب الله له الأجر، ويحسن به الذخر، فمن خلصت نيته في الحق ولو كان على نفسه، كفاه الله مابينه وبين الناس، ومن تزين لهم بما ليس في قلبه شانه الله، فإن الله - تبارك وتعالى - لا يقبل من العباد إلا ماكان له خالصًا، وما ظنك بثواب من عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته[٢].

وقيل الذي يجب أن يستعمل الإنسان معه العدالة خمسة:

الأول: بينه وبين رب العزة بمعرفة أحكامه وامثالها.

والثاني: العدالة من قوى نفسه وهو أن يجعل هواه مستسلمًا لعقله المستهدي بهدي الشريعة، فقد قيل أعدل الناس من أنصف عقله من هواه.

والثالث: بينه وبين أسلافه الماضين في إنفاذ وصاياهم، والدعاء لهم.

والرابع: بينه وبين معاملته من أداء الحقوق والانصاف في المعاملات

---

(١) انظر: أسماء الله الحسنى للغزالي (٩٨-١٠١).

(٢) السنن الكبرى، للبيهقي(١٠/ ٢٥٣).

من المبايعات والمقارضات والكرامات.

والخامس: بث النصيحة بين الناس على سبيل الحكم، وذلك إلى الولاة وخلفائهم[1].

يؤيد ذلك ما جاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ عز وجل ـ وكلتا يديه يمين، الذين يعد لون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا**»[2].

وسائل اكتساب العدل:

يمكن اكتساب هذه الفضيلة الشريفة بثلاثة أمور وهي:

١ـ إصلاح القوة المفكرة بالعلم الشرعي.

٢ـ إصلاح القوة الشهوانية بالعفة.

٣ـ إصلاح قوة الحمية بالحلم[3].

أهمية العدل وفضله:

العدل فضيلة تُنْظَمُ في مقدمة الفضائل والصفات الحميدة التي لا يتصف بها إلا الكُمَّل من الناس، ولرفعة مقامها وشرف منزلتها كانت من صفات الله عز وجل العَلِيّ، فالله تعالى لكمال عدله حرم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرما، وذلك لشناعة أمره، ووخامة عاقبته.

والعدل ميزان الله المبرء من الزلل، الذي تتشنف الآذان لسماعه وتبهج القلوب لذكره. وقد علم الله تعالى أنه لا يُصْلِحُ الناسَ في معاشها ومعادها إلا العدل والإحسان فأمر بهما وجمع بينهما في آية واحدة، حيث قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل، الآية: ٩٠].

وأمر به خاتم رسله وصفوة خلقه محمدًا ﷺ فقال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى، الآية: ١٥].

وأمر عباده المؤمنين بالعدل في أنفسهم ومع أقاربهم وأعدائهم قولاً وعملاً. فقال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ

---

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة (٢٤٤).

(٢) صحيح مسلم (٢/١٤٥٨) (١٨٢٧).

(٣) انظر: الذريعة (٤٧) وما بعدها.

﴿أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء، الآية: ١٣٥]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة، الآية: ٨].

وأخبر تعالى عن حبه لأهل العدل فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات، الآية: ٩].

وقد كان النبي ﷺ يبايع المسلمين على العدل أين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم. فعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكارهنا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالعدل أين كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

وكان ﷺ يأمر بالعدل والإحسان سواء، كما روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا فإن الله ـ عز وجل ـ محسن يحب المحسنين**»(٢).

والحكم بين النّاس بالعدل مع أنه واجب فهو كذلك صدقة كما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الناس صدقة»(٣). والسلامى المِفْصل(٤).

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة الإمام العدل لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل. . . .**»(٥).

ومن ثلاثة الأصناف الذين هم أهل الجنة السلطان المقسط.

عن عياض بن حمار المجاشعي: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في

---

(١) سنن النسائي (٧/ ١٣٩) (٤١٥٣) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٧١) (٣٨٧٢).

(٢) معجم الطبراني الأوسط (٦/ ٣٤٣) (٥٧٣١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٩٧) رجاله ثقات وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٤٧) (٤٩٤).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (٥/ ٣٠٩).

(٤) انظر: فتح الباري (٦/ ١٣٢).

(٥) صحيح البخاري، الفتح (٣/ ٢٩٣)(١٤٢٣).



خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشًا. فقلت: رب، إذًا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك. وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له، والذين هم فيكم تبع لا يتبعون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» وذكر البخل أو الكذب [والشنظير الفحاش]»[(١)].

ومعنى يثلغوا رأسي: يشدخوه[(٢)]، ولا زبر له: لا عقل له يزجره ويمنعه ممّا لا ينبغي[(٣)]، والشنظير: الشيء الخلق[(٤)].

وقد حذرت النصوص الشرعية من الظلم وتوعدت صاحبه بالخزي والندامة في الدنيا والآخرة ومنها: ماروي عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك، إلا أتى الله ـ عز وجل ـ مغلولاً يوم القيامة، يده إلى عنقه، فكه بره، أو أوبقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة»[(٥)].

وما روى عن بريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل، فهو في النار»[(٦)].

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢١٩٨) (٢٨٦٥).

(٢) النهاية (١/ ٢٢٠) (والشَّدْخ): كَسْرُ الشيء الأجوف. النهاية (٢/ ٤٥١).

(٣) النهاية (٢/ ٢٩٣).

(٤) النهاية (٢/ ٥٠٤).

(٥) مسند أحمد (٥/ ٢٦٧) (٢١٧٩٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٩٧) (٥٧١٨).

(٦) سنن أبي داود (٤/ ٥) (٣٥٧٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨١٨) =

وقال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبه الحق وإيثاره»[١].

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «بالصدق في الأخبار، والعدل في الإنشاء من الأقوال والأعمال تصلح في جميع الأعمال، وهما قرينان كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام، الآية: ١١٥][٢].

وقال أيضًا: «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»[٣].

وقال أيضًا: «العدل نظام كل شيء. فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق. ومتي لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة »[٤].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن من له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بُغْيَة العدل الذي يسع الخلائق يجد أنه لاعدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تَضْمَنُهُ من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزءمن أجزائها، وفرع من فروعها، وأن مَنْ أحاط علما بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة.

فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها. وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر فهي من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها»[٥].

العدل من صفات المحسنين:

وأولهم رسولنا محمد ﷺ فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال بينا النبي ﷺ يقسم ذات يوم، فقال ذو الخويصرة ـ رجل من بني تميم ـ يارسول الله اعدل قال: «**ويلك من يعدل إذا لم أعدل**». فقال عمر: ائذن لي فلأضرب عنقه، قال «لا، إن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية . . »[٦].

= (٤٤٤٦).

(١) مداوة النفوس (٩٠).

(٢) الحسبة (٢٢).

(٣) الحسبة (١٤٧).

(٤) المصدر السابق (١٤٨).

(٥) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (١١٠).

(٦) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٨١) (٥٨١١).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن قريشًا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجتريء عليه إلا أسامة حِبّ رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «**أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، فقال: أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت قطعت يدها...**»[1].

وهذا عيسى بن مريم عليه السلام ينزل آخر الزمان حكما عدلا بين الناس: فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليُوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**»[2].

ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن عطاء قال كان عمر رضي الله عنه يكتب إلى عماله أن يوافوه بالموسم فيوافوه، فقام فقال: أيها الناس، إني استعملت عليكم عمالي هؤلاء، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أمولكم، ولا من أعراضكم، ولكن استعملتهم ليحجزوا بينكم، أو يردوا عليكم فيئكم، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم، فما قام من الناس أحد يومئذ إلا «فلان» قام فقال: ياأمير المؤمنين إن عاملك «فلان» ضربني مائة سوط فقال: يضرب مائة!! فاستقد منه. فقام عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنك متى تفتح هذا على عمالك تكثر عليهم، وتكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد منه، وقد رأيت النبي ﷺ يقيد نفسه. فقال: دعنا إذن نرضيه. قال: أرضوه. قال: فافتديت منه بمائتي دينار، فكان كل سوط بدينارين[3].

صور من عدل المحسنين:

منها ما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن زوج بريرة كان عبدًا يقال له: مغيث قال: كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعباس ـ رضي الله عنه ـ: «**يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثًا؟!**»فقال النبي ﷺ: «**لو راجعتيه**»قالت: يارسول الله تأمرني؟ قال: «**إنما أنا شافع**»قالت: لا حاجة لي

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٣١٥) (١٦٨٨).
(٢) صحيح مسلم (١/ ١٣٥) (١٥٥).
(٣) تاريخ المدينة، لابن شبه (٨٠٦ـ٨٠٧).

فيه[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشترى رجل عقارًا، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب. فقال الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب. فقال الذي شرى الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها. قال: فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد، فقال أحدهما: لى غلام. وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسكما منه وتصدقا**»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء ذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن دواد فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى**». قال أبوهريرة: والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذ وما كنا نقول إلا المدية[3].

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنت جالسا عند عمر رضي الله عنه فأتاه ناس من أهل الكوفة فشكو إليه سعدًا حتى قالوا ما يحسن الصلاة، فقال سعد: أما أنا والله فقد كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ، قال عمر رضي الله عنه: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، وكيف كانت صلاة رسول الله ﷺ؟ قال: أركد في الأولين وأحذف في الأخريين قال: فأرسل عمر رضي الله عنه إلى الكوفة فطيف به في مساجدها، فيقولون فيه خيرًا ويثنون خيرًا حتى انتهوا إلى مجلس بني عبس وفيه رجل يكنى أبا سعدة فقال: اللهم كان لا ينفر في السرية، ولا يعدل في القضية، ولا يقسم بالسوية، فقال سعد: اللهم إن كان كاذبًا فأطل عمره، وأشدَّ فقره، وأعم بصره، واعرض عليه الفتن. قال عبد الملك بن عمير: فأنا رأيته بعدُ كبيرًا فقيرًا ذاهب البصر فقال له: كيف أنت يا أبا سعدة؟ فيقول: شيخ كبير فقير مفتون أجيبت فيَّ دعوة سعد[4].

---

(١) صحيح البخاري (٥٠/٢٠٢٣) (٤٩٧٩).
(٢) صحيح مسلم (٢/١٣٤٥) (١٧٢١).
(٣) صحيح البخاري، الفتح (٦/٤٥٨) (٣٤٢٧).
(٤) تاريخ المدينة، لابن شبة (٣/٨١٦ـ٨١٧).

من ثمرات العدل:

١ـ أنه من أعظم الأعمال الموصلة إلى رضوان الله تعالى وأنه سبب في دخول الجنة.

٢ـ أنه سبب في سلامة المجتمع من الآفات والشرور.

٣ـ أن صاحب العدل محمود السيرة محبوب لدى النفوس الصحيحة.

٤ـ أن العدل سببٌ رئيس في دوام الملك واستتباب الأمن.

٢ ـ الإحسان أو الإنعام إلى الإنسان:

وقد تقدم الحديث بما فيه الكفاية عن تعريف الإحسان ومباحث أخرى هي موضوع الرسالة وبقي مسائل منها:

الأولىٰ: الفرق بين العدل والإحسان:

ومن الفروق الواضحة بينهما أن الإحسان درجة أعلى ودائرة أشمل من العدل، لأن العدل يعني أن يأخذ الإنسان ماله ويعطي ما عليه، والإحسان يعني أن يأخذ الإنسان أقل ممَّا له وأن يعطى أكثر مما عليه، فالإحسان بذلك زائد على العدل، والعدل يكون في الأحكام والإحسان يكون في المكارم، وإذا كان تحري العدل من الواجبات فإن تحري الإحسان ندب وتطوع، وكلاهما مأمور به في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل، الآية: ٩٠]. وبالعدل والإحسان يستحق العبد الخلافة لله تعالى في الأرض وعمارتها وغاية الإحسان أن يقع من الإنسان أفضل الإحسان من غير فكر ولا روية كأنه مطبوع عليه[١].

الثانية: شمول الإحسان:

من الواضح للباحث المدقق في النصوص الكريمة الواردة في الإحسان أنه مع العدل يشكل مضامين العلاقة بين الإنسان والإنسان الآخر وأحكامها، وأن دائرة هذا الإحسان تتسع لتشمل النفس والأسرة والأقارب ثم المجتمع والإنسانية عامة، والحياة بأسرها.

فالدائرة الأولى: وهي دائرة الإحسان إلى النفس وتتضمن كمال الطاعة وإتقانها وإخلاصها لله تعالى على أكمل وجه وكأن الطائع يرى ربه تعالى، كما تتضمن القيام على شؤون نفسه بما يصلحها في الظاهر والباطن. قال الله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء، الآية: ٧].

وقد سبق الحديث عن هذه الدائرة وتجلى أمرها بوضوح.

أما الدائرة الثانية: فتشمل الإحسان إلى القرابة الأدنين وهم الوالدان، والزوجة، والأولاد. قال الله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء، الآية: ٢٣].

أما الدائرة الثالثة: فإنها تشمل الإحسان إلى القرابة الأبعد من الوالدين، والزوجة، والأولاد، وهم الإخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأبناؤهم وبقية الأنساب والأصهار. قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [البقرة، الآية: ٨٣].

---

(١) انظر: المفردات، للراغب (١١٩)، والذريعة إلى مكارم الشريعة (٣٥).

أما الدائرة الرابعة: فهي أوسع من سابقتيها فإنها تضم الإحسان إلى المسلم وتشمل الجيران، والإخوان في الله وبقية أفراد المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان والإحسان هذا أكثر ما ينصب على الجانب الفقير في المجتمع، كاليتامى والمساكين وابن السبيل والمماليك. قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء، الآية: ٣٦] وفي الآية أمر بالإحسان إلى من ذكر ونهى عن الترفع عليهم كبرًا واختيالاً.

أما الدائرة الخامسة: وهي الأوسع في العلاقات الإنسانية فتشمل الإحسان إلى المخالفين في العقيدة الذين لا يدينون بدين الإسلام قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة، الآية: ٨-٩]. وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ ﴾ [المائدة، الآية: ١٣]. (١)

وأما الدائرة السادسة: وهي الإحسان مع غير الإنسان وتضم الإحسان إلى الملائكة الكرام عليهم السلام والنباتات والحيوانات والجمادات وغيرها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف، الآية: ٥٦].

هذا إجمال ينساق الحديث بعده إلى التفصيل:

أ- الإحسان مع المسلم القريب:

يعتبر الإسلام الأقارب ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ذوو الأرحام: وهم كل من يجمع بينك وبينه نسب، والنسب اشتراك من جهة أحد الأبوين(٢).

وهم أصول، وفروع، وحواشٍ، ومن سواهم. وبيانهم كالآتي:

أولاً: قرابة الأصول، وهم نوعان:

أ - أصل مباشر كالأب والأم.

ب - وأصل غير مباشر كالجد والجدة.

ثانيًا: قرابة الفروع، وهم نوعان:

---

(١) انظر: فلسفة التربية الاسلامية، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني (١٤١).

(٢) انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٣٣)، والمفردات (٥١١).

أ ـ الفرع المباشر ويضم الأولاد وبنات الصلب.

ب ـ والفرع غير المباشر وهم الأحفاد، أبناء الأبناء، وأبناء البنات وأبناؤهم.

ثالثًا: قرابة الحواشي:

وهم الإخوة والأخوات وأبناؤهم والأعمام والعمات وأبناؤهم.

رابعًا: من سواهم من الأرحام:

وهم الخال وأبناؤه والخالة وأبناؤها.

النوع الثاني: قرابة الرضاع.

وهم كل من يجمع بينك وبينهم سبب الرضاع سواء أكان الرضاع من جهة الأصول أم الفروع أم الحواشي أم ممن سواهم من ذوي الأرحام.

النوع الثالث: الأصهار:

وهم أهل بيت المرأة وأقاربها[1].

وهؤلاء جميعاً هم عشيرة الرجل الأدنون، منهم الوارث وغيره، يعطي كل واحد من البر والصلة بحسب قربه وبعده، ولا ريب أن أقرب القرابة هما الوالدان. قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء، الآية: ٣٦].

---

(١) انظر: المفردات(٢٩٥).

أ ـ الإحسان إلى الوالدين:

من أبرز صفات المحسن الحق، الإحسان إلى الوالدين والبر بهما، وذلك لأنه من أجل الأمور التي حض عليها الإسلام، وأكدتها نصوصه القاطعة الحاسمة، والمحسن الواعي المستجيب لهذه النصوص الوفيرة من الكتاب والسنة الداعية إلى الإحسان إليهما وحسن مصاحبتهما، لا يسعه إلا أن يكون البر بهما سجية من ألزم سجاياه، وخليقة من أبرز خلائقه[1].

مكانتهما:

لقد رفع الإسلام مقام الوالدين إلى مرتبة لم تعرفها أمم الأرض في غير هذا الدين، إذ جعل الإحسان إليهما والبر بهما في مرتبة تلي مرتبة الإيمان بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء، الآية: ٣٦].

وقد عاب الله تعالى على الشَّقيِّ العاق الذي قال كما حكى الله عنه: ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾ [الأحقاف، الآية: ١٧].

وتأتي السنة النبوية مؤكدة وجوب الإحسان إلى الوالدين، ومحذرة من عقوقهما أو الإساءة إليهما، مهما تكن الأسباب.

فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: « **سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله قال: الصلاة في وقتها، قال: ثم أي، قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي، قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن ولو استزدته لزادني**»[2].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ، فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «**فهل من والديك أحدٌ حي**» قال: نعم بل كلاهما، قال: «**فتبتغي الأجر من الله؟**»، قال: نعم، قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»[3].

وفي رواية له قال ﷺ: «**ففيهما فجاهد**»[4].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أكبر الكبائر؛ الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور، أو شهادة الزور**»[5].

ولعلك تدرك أيها المحسن شناعة العقوق، وكيف قرنه الله بالإشراك وقتل

---

(١) انظر: شخصية المسلم (٥٥).

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٩٧) (٥٠٤).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٩٧٥) (٢٥٤٩).

(٤) المصدر السابق.

(٥) صحيح البخاري (٦/ ٢٥١٩ (٦٤٧٧).

النفس، وفي حديث أبي هريره رضي الله، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رغم أنفه، ثم رغم أنفه**». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة**»[1].

وعندما حرص الإسلام كل الحرص على الإحسان إلى الوالدين جميعًا، والقيام بحقوقهما وأوجب ذلك لهما سواء كانا صغيرين أم كبيرين، وهو أشد التأكيد، خص الأم بمزيد رعاية وإحسان، جزاء ما كابدت من مشاق ومتاعب، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان، الآية: ١٤].

وفي الآية استدرار عطف الأبناء على الأمهات، بما زادت به من مشقة الحمل والولادة والرعاية إلى حد الفصال، بما لا يقدر عليه الوالد.

وتأكيدًا على هذا المعنى النبيل أكَّد النَّبيُّ ﷺ أولوية الأم وأحقيتها في البر، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»[2].

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال النبي ﷺ: «**إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومَنْعَ وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[3].

وليس يفهم من ذلك التأكيد التقصير في حقوق الأب، وإنَّما التأكيد لحق الأم في زيادة البر؛ ولأنَّ العقوق إليها أسرع منه إلى الأب؛ لشدة ضعفها وعدم قدرتها على انتزاع حقها كاملا، إضافة إلى أنه في الغالب يجد الأبناءُ الجشعون في حوزة آبائهم ما يدعوهم من الماديات إلى البر بهم ما لم يجدوه في حوزة الأمهات.

ميادين الإحسان إلى الوالدين:

إن المحسن الصادق يسعى جاهدًا بكل ما أوتي من قدرة للإحسان إلى والديه بما يدفع عنهما الأذى ويديم عليهما الصحة الدينية والنفسية والجسدية فلا يقدم عليهما أحدًا كائنًا من كان انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان، الآية: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء، الآية: ٣٦].

وجاء المعروف والإحسان هنا منكرين، ليفيدا التعميم والتكثير

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٨) (٢٥٥١).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٩٧٤) (٢٥٤٨).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٨٤٨) (٢٢٧٧).

والتعظيم وليذهب العقل في الاحسان إليهما وإسداء المعروف لهما كل مذهب ومن ذلك الإحسان:

١ـ محبتهما والشوق إلى لقائهما وسماع حديثهما.

٢ـ طلاقة الوجه والمحيا وحنو البسمة لهما.

٣ـ اختيار أطيب الكلام لهما. وكأنه عبد بين يدي سيده.

٤ـ إحاطتهما بأجمل مظاهر الود والتقدير والاحترام.

٥ـ عدم المشي أمامهما، وإجلاسهما في خيرة المجلس.

٦ـ تقبيل يديهما وغض الصوت عندهما.

٧ـ تحري محبوبهما في المأكل والمشرب والمسكن والمركب وغيرها.

٨ـ الترفق في دعوتهما إلى الخير، والتودد في إقناعهما بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجة القوية والأسلوب الأمثل.

٩ـ الإنصات لحديثهما في تذلل وخضوع.

١٠ـ الإكثار من الدعاء لهما، بدوام الصحة والسعادة في الدنيا والآخرة وحسن الخاتمة. وإدامة الاستغفار لهما.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء، الآية: ٢٤]. وقد كان الدعاء للوالدين طريقة الأنبياء عليهم السلام كما قال الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح، الآية: ٢٨]. وعن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء، الآية: ٨٦]. غير أن الاستغفار والدعاء لهما بالرحمة إذا كانا كافرين منسوخ ولا يجوز كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة، الآية: ١١٣].

ولا يجوز الاحتجاج باستغفار إبراهيم لأبيه؛ لأن الله تعالى بين عذره فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة، الآية: ١١٤].

١١ـ التحدث بإحسانهما ومشاق تربيتهما له، وحسن صنعهما به.

١٢ـ إكرام أهل ودهما في حياتهما وبعد مماتهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا من جهتهما، وإنفاذ عهدهما.

فعن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبدالله ، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم

الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر صلة الولد أهل ود إبيه**»[1].

١٣ـ قضاء الديون التي على الوالدين، للعباد ولرب العباد تبارك وتعالى. فعن الفضل بن العباس ـ رضي الله عنه ـ أنه كان رديف رسول الله ﷺ غداة النحر، فأتته امرأة من خثعم فقالت: يارسول الله إن فريضة الله عز وجل في الحج على عباده، أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يركب إلا معترضًا، أفأحج عنه. قال: «**نعم حجي عنه، فإنه لو كان عليه دين قَضَيتِهِ**»[2].

١٤ـ إيثارهما على النفس والزوجة والولد.

ففي حديث الثلاثة الذين آوو إلى الغار عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا في المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب شيءٍ يومًا، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فلبثت والقدح على يديَّ انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج. . .**»[3].

١٥ـ تقديم طاعتهما وامتثال أوامرهما في غير معصية الله تعالى على طاعة كل أحد حتى نوافل الطاعات. ما لم يكن في ذلك ضرر بالغ أو هلاك محقق. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم وصاحب جريج. وكان جريج رجلاً عابداً. فاتخذ صومعة. فكان فيها. فأتته أمه وهو يصلي. فقالت: ياجريج، فقال: يارب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته. فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي. فقالت: ياجريج، فقال: يارب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته. فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي. فقالت: ياجريج. فقال: يارب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته. فقالت: اللهم لا تمته حتى**

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٩) (٢٥٥٢).

(٢) سنن النسائي (٨/ ٢٢٧) (٥٣٨٩) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣/ ١٠٩١) (٤٩٨٢).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٧٩٣) (٢١٥٢).

ينظر في وجوه المومسات. فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته. وكانت امرأة بغي يُتَمَثَّلُ بحسنها. فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها. فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها. فوقع عليها. فحملت. فلما ولدت قالت: هو من جريج. فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه. فقال: ماشأنكم؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغي. فولدت منك! فقال: أين الصبي؟ فجاؤا به. فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى. فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه. وقال: ياغلام! من أبوك؟ قال: فلان الراعي. قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب. قال: لا ، أعيدوها من طين كما كانت. ففعلوا...»(١).

١٦ـ إغداق النفقة عليهما بجود وكرم، وبيد سخية سحاء الليل والنهار، بما يجب لهما عليه وزيادة، من غير تسخط أو تذمر. قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [البقرة، الآية: ٢١٥]. وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران، الآية: ٩٢]. وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مالاً ووالدًا، وإن والدي يحتاج مالي، قال: «**أنت ومالك لوالديك، وإن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم**»(٢).

يفعل المحسن كل ذلك، ويتمنى بقلبه لو كان يقدر على أكثر منه، ابتغاء مرضاة الله تعالى، واحتسابًا للأجر، لا لعوض مادي أو محمدة دنيوية، وهو بهذه الصفة في عبادة الله تعالى أيما عبادة، فإن أدَّاها على وجه الإتقان والإخلاص، وكأنه ينظر إلى ربه تعالى، فقد جمع بين الإحسان الذي هو بمعنى المشاهدة والإحسان الّذي بمعنىٰ الإنعام على الغير، وبهما حاز أرفع الدرجات.

ولا يفوتني هنا أن أُذَكِّر أولئك النفر الجفاة، الذين عقوا آباءَهم وأمهاتهم جريًا على ما جلبه فساد المادية الغربية، والمباديء الهدامة، واتباعًا لخطوات الشيطان من تقطيع لأواصر البنوّة والأبوة، وتنكرًا لإحسان الآباء وتقديم للزوجة والأولاد على الأبوين، مما جعلهم يعاملونهم كالضعفة والمساكين، أو أوكلوا بهم الخدم يبالغون في شتمهم وسبابهم، أو زجوا بهم في دور العجزة والمسنين، أو تركوهم يهيمون على وجوههم في الطرقات،

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٩٧٦) (٢٥٥٠).
(٢) سنن أبي داود (٣/ ٨٠١) (٣٥٣٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣١١) (١٤٨٧).

يستجدون الناس عطفهم وإحسانهم.

أقول لهم بكل حرقة وأسى، اتقوا الله تعالى في آبائكم، وأمهاتكم، واحذروا عقوبة الله، وسخطه عليكم، فكما تدين تدان، والله المستعان.

من ثمرات الإحسان إلى الوالدين:

١ـ تحصيل أعظم الأجر من الله تعالىٰ.

٢ـ دفع مصارع السوء بالبر بهما.

٣ـ البركة في النفس والولد والمال.

٤ـ الإحسان إليهما بابٌ من أبواب الجنَّة.

ب ـ الإحسان إلى الزوجة:

مكانتها:

رفع الإسلام الزوجة مكانة عالية لم نعرفها في غير هذا الدين، فأوصى بها وبحسن معاشرتها أشد وصاية، ومن توصياته السامية الراقية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم، الآية: ٢١] والآية جاءت في معرض الامتنان على الأوزاج، وفيها معنى طلب المودة والرحمة بهن. وقال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء، الآية: ١٩].

ومن السنة النبوية ما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنَّهنَّ خُلِقْنَ من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»**(١).

وفي رواية له قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها»**(٢).

وفي أعظم وصية له ﷺ في حجة الوداع كان للمرأة نصيبٍ وافٍ. فعن عمرو بن الأحوص ـ رضي الله عنه ـ أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، فذكر في الحديث قصة فقال: **«ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأما حقكم على نسائكم، فلا يوطئن فرشكم مَنْ تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»**(٣). ومعنى عوان: أي أسيرات.

وتسمو التوصيات الشرعية بالزوجات، إلى أن تجعل خيرية الزوج منوطة بحسن عشرته لزوجته، كما يروي أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم**

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٩٨٧) (٤٨٩٠).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٠٩١) (١٤٦٨).

(٣) سنن الترمذي (٣/ ٤٥٨) (١٦٣) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ ٣٤١) (٩٢٩).

لنسائهم خلقًا»[1].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي. . .**»[2].

وعن إياس الدوسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد طاف الليلة بآل محمد نساء كثير، يشكون أزواجهنَّ، ليس أولئك بخياركم**»[3].

وقد لاحظ القرآن الكريم أن من أسباب سوء العشرة للزوجات كراهية الزوج لبعض خِلْقَةِ زوجته، أو خُلقها، وغفلته عما يرضيه عنها، لذلك لم يترك له العنان يفعل ما شاء، في تهور ونزوات جامحة، تفصم عرى الزوجية، فخاطبة مخاطبة عقلية، ووعده الخير الكثير، إن هو ترفع بنفسه عن تلك النزوات، في نبل وسعة صدر، وسمو خلق، بعيدًا عن طمع الجشعين وتفاهة الفارغين فقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء، الآية: ١٩].

وفي الحقيقة أن الإنسان ربما أحب الشيء وفيه عطبه وربما أبغضه وفيه مصلحته، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة، الآية: ٢١٦].

وليس من العدل والإحسان أن يسلب الرجل زوجته محاسنها كلها ويتناساها من أجل خلق لم يرضه عنها، وفي هذا المعنى جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النَّبي ﷺ : «**لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة إنْ كره منها خُلُقًا رضي منها آخر أو قال غيره**»[4] ومعنى يَفْرَكْ: يبغض[5][6].

ميادين الإحسان إلى الزوجة:

إن المحسن الحق لا يسعه بعد معرفته هذه النصوص القاطعة الآمرة بالإحسان إلى زوجته إلا أن يكون زوجًا مثاليًا تنعم امرأته بحسن عشرته، ودماثة خلقه، وتسعد برفقته المهذبة، الراقية الممتعة مهما امتدَّ بهما العمر، وطالت بهما الأيام، ومن الإحسان إلى الزوجة ما يأتي:

١ـ التعاون على البر والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ

---

(١) سنن الترمذي (٣/ ٤٥٧) (١١٦٢) وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي حسن صحيح (١/ ٣٤٠) (٩٢٨).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٧٠٩) (٣٨٩٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٢٦) (٣٣١٤).

(٣) سنن أبي داود (٢/ ٦٠٨) (٢١٤٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٧).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٠٩١) (١٤٦٩).

(٥) انظر: النهاية (٤/ ٤٤١).

(٦) انظر: شخصية المسلم (٦٩ـ ٧٤).

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟﴾ [المائدة، الآية: ٢].

٢ـ إظهار الود والرحمة وإحاطاتها بهما تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم، الآية: ٢١].

٣ـ الدعاء لها بالصلاح وأن تكون قرة عين له. كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء، الآية: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان، الآية: ٧٤].

٤ـ أن يُنَضِّرَ حياتها بالسعادة والسرور والمرح، وإشاعة الرحمة والرضا في بيتها.

فعن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله ﷺ يسترني بردائه، لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السِّنَّ حريصة على اللَهو**»(١).

٥ـ يمد لها يد العون إن رآها بحاجة إلى المساعدة، ويواسيها بألطف القول إن آنس منها شكوى من تعب أو سأم أو ضيق. وقد سئلت أمنا عائشة ـ رضي الله عنه ـ ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته قالت: «**كان يكون في مِهْنَةِ أهله، تعني خدمة أهله، فإذاحضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**»(٢).

وعنها رضي الله عنها: «**أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السبقة**»(٣).

٦ـ يشعرها أنها في ظل زوج كريم سمح، يحميها ويرعاها ويهتم بشؤونها ويوفر لها حاجتها المشروعة كلها وأكثر حسب استطاعته ومن غير إسراف.

ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك**»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٦٠٩) (٨٩٢).
(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٣٩) (٦٤٤).
(٣) سنن أبي داود (٣/ ٦٥) (٢٥٧٨) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٩٠) (٢٢٤٨).
(٤) صحيح مسلم (١/ ٦٩٢) (٩٩٥).

وعن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دِينِهِ فهو شهيد، ومن قُتِل دون أهله فهو شهيد»**(١).

٧ـ يرضي أنوثتها بالتجمل لها بالزينه. لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٨].

٨ـ يعطيها جانبًا من وقته واهتماماته، ولا يشغل وقته كله عنها ولو بنوافل الطاعات وهي من أشرف الأعمال فكيف بغيرها نجد دليل ذلك فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي النبي ﷺ: **«ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار»**. قلت: إني أفعل ذلك، قال: «فإنك إذا فعلت ذلك هَجَمَتْ عَيْنُك ونَفِهَتْ نفسك، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك حقًا فصم وأفطر وقم ونم»(٢). ومعنى هجمت: غارت ودخلت في موضعها(٣). ونَفِهَت: أَعْيت وكلَّت(٤).

٩ـ يحفظ لسانه من أن ينال أحدًا من أهلها بسوء، أو أن يفشي لها سرًا، ويكمل نقصها في العلم والسلوك بلطفٍ ولباقة وكياسة حتى يسلك بها الصراط المستقيم، من دون أن يعنفها أو يلومها أمام أحد من الناس.

١٠ـ يلج بيتها بالسلام ويخرج به، بوجه طلق وثغر باسم، ومُحِبٍّ صبوح. ولا يفوته ترطيب جفاف الحياة الرتيبة مع زوجته بالمداعبة والملاطفة، والنكتة المُرْضية السارة، يطلقها بين الحين والحين.

١١ـ يتجنب الانفعال للأسباب التافهة التي تثور لها ثائرة الأزواج الجهلة، إذا جاء الطعام أو اللباس، أو الشراب أو غيرها، على غير ما يريدون. متأسيًا في حلمه ورضاه بالرسول ﷺ كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: **«ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، كان إذا اشتهى شيئًا أكله، وإن كرهه تركه»**(٥).

١٢ـ التوفيق في إحسانه بين بر الأم وإرضاء الزوجة، في ذكاء ولباقة وحلم، وقوة شخصية في التعامل معهما، بحيث لا يجور على أحد الطرفين مع تقديم بر الأم وإرضاء الزوجة.

١٣ـ الاضطلاع بالمسؤولية التامة عن زوجته وتحقيق القوامة الشرعية

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٣٠) (١٤٢١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٠) (٦٤٤٥).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٣٨٧) (١١٠٢).

(٣) النهاة (٥/ ٢٤٧).

(٤) النهاية (٥/ ١٠٠).

(٥) صحيح مسلم (٢/ ١٦٣٢) (٢٠٦٤).

التي حباه الله إياها بقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء، الآية: ٣٤].

وبما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**»(١).

على أن مسؤولية الزوج المحسن لا تقتصر على مظهر زوجته الخارجي من الحجاب الشرعي فقط بل تتعداه إلى عباداتها وسلوكها في الحياة، وأي تقصير منها في جانب من الجوانب يخل برجولته، ويقدح في حسن إسلامه وقوامته. فكان من الواجب عليه أن يقود أسرته إلى السلامة والهدى الرشاد ويأخذ بأيديهم حتى يحلهم دار الكرامة والرضوان في جنان الخلد. يحدوه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم، الآية: ٦].

وقد دعمت الشريعة الإسلامية قوامة الرجل على المرأة، وأوجبت عليها طاعته في غير معصية الله تعالى، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»(٢).

وبلغ من حرص الإسلام على تأكيد قوامة الرجل على المرأة، ووجوب طاعتها له وإرضائه أنه لم يأذن لها بصيام النافلة إلا بإذنه ولا تستقبل أحدًا من محارمها إلا بإذنه. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما أنفقت من نفقة عن غير أمره فإنه يؤدَّى إليه شطره**»(٣).

١٤ـ يبر ودها في حياتها وبعد مماتها. فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإني لم أدركها قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة فقال رسول الله ﷺ: إني قد**

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٤٥٩) (١٨٢٩).
(٢) سنن الترمذي (٣/ ٤٥٦) (١١٥٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٣٧) (٥٢٩٤).
(٣) صحيح البخاري (٥/ ١٩٩٤) (٤٨٩٩).

رزقت حبَّها»[1].

من هنا كان الزوج المحسن الواعي من أنجح الأزواج في الحياة الاجتماعية، ومن أحبهم إلى نفس المرأة الصالحة بمعرفته لكوامنها النفسية وكيفية التعامل معها.

على أن المحسن يفعل ذلك كله طلبًا لمرضاة الله تعالى، واحتسابًا للأجر منه وحده دون سواه لعلمه أن ذلك الإحسان إلى الزوجة من أَجَلِّ الطاعات وأسمى القربات لله تعالى مستنيرًا بحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**إنك مهما أنفقت على أهلك من نفقة، فإنك تؤجر فيها، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك**»[2].

وبحديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ وفيه قال رسول الله ﷺ: «**وفي بُضْع أحدكم صدقة**» قالوا: يارسول الله ﷺ أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر. قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[3]. والبضع: يطلق على الجماع[4].

فإن زاد على حسن العشرة بأن يأتي ذلك وهو على حالة من الإتقان والإخلاص لله تعالى وكأنه يشاهده تعالى فقد جمع بين أهم معاني الإحسان وحاز قصب السبق فيه.

١٥ـ العدل بين الزوجات في المبيت والنفقة، قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء، الآية: ٣]. وهذا العدل فيما يقدر عليه الإنسان أما الميل القلبي فمرفوع عن صاحبه.

١٦ـ إذا تعذرت العشرة الحسنة، ورغب الزوجان أو أحدهما في فراق صاحبه، وجب عليهما الفراق الجميل وألا يَنْسَىٰ أحدهماالفضل لصاحبه، قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة، الآية: ٢٣٦، ٢٣٧][5].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٨٨٨) (٢٤٣٥).

(٢) مسند أحمد (١/ ٢٨٠) (١٤٨٣). وصحح إسناده أحمد شاكر (٣/ ٤٥) (١٤٨٠).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٦٩٧) (١٠٠٦).

(٤) انظر: النهاية (١/ ١٣٣).

(٥) انظر: شخصية المسلم (٧٤ـ ٩٠).

ج ـ الإحسان إلى الأولاد:

مكانتهم:

يرى المحسن أن الأولاد بهجة العمر، وأنس المعيشة، وأنهم مجالٌ تستثمر فيه الصالحات، وتجنىٰ فيه الحسنات، ونصرة للإسلام، وقوة للمسلمين، إذا حَسُنَت تربيتهم، وصَلُحت تنشئتهم.

أما إذا ساءت تربيتهم، وقل توجيههم فإنه يراهم بذلك بلاءً ونكدًا على الوالدين والمجتمع بعامة.

مسؤلية الآباء عن الأولاد:

يدرك المحسن عظم مسؤوليته تجاه أولاده، فيقوم بها خير قيام ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأداءً للأمانة، وتحقيقًا للأهداف السامية من إنجابهم، مستجيبًا لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم، الآية: ٦].

ولما رواه ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على النَّاس راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأة راعيةٌ في بيت بعلها وولده، وهي مسؤولةٌ عن رعيتها، والعبد راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1].

وما لم يضع المحسن لهذه المسؤولية منارات تربوية، تتمثل في الأهداف التربوية الصالحة، ووسائل تحقيقها، يجعلها نصب عينيه، ويتابع تنفيذها أو الإشراف عليها بنفسه، فإن مسؤوليته حين ذلك قاصرة لا تثمر الثمرات المرجوة.

الأهداف التربوية الصالحة ووسائل تحقيقها:

يجب على المحسن أن تكون الأهداف التربوية التي يضعها ووسائل تحقيقها صالحة، ويمكن تحقيقها، ومتوافقة، حتى لا تتبعثر الجهود أو تتصادم.

أولاً: الأهداف التربوية الصالحة: وهي:

١ـ الإحسان الديني والسلوكي.

ويقصد به إجمالاً امتثال الأوامر الشرعية، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، مقرونة بالمحبة لها، والإتقان والإخلاص لله تعالى في أدائها.

---

(١) صحيح مسلم (٢/١٤٥٩) (١٨٢٩).

واجتناب المناهي الشرعية، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، مقرونة ببغضها والإخلاص لله تعالى في تركها، وهو على حالة حين امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وكأنَّه ينظر إلى ربه تعالى.

ومن مفردات الأوامر والمناهي الشرعية نتعرف على الإحسان الديني والسلوكي والأخلاقي الذي تسهم هذه الرسالة في بيانه.

٢ـ الإحسان العلمي والعملي.

ويقصد به إجمالاً، اتساع دائرة معارف الأولاد في شتى التخصصات، وقدرتهم على المشاركة فيها، وتعميق قدراتهم في التخصص العلمي المناسب لاستعداداتهم وميولاتهم الحقيقية، وإشاعة حب العمل وغرسه في قلوب الأولاد والقدرة على انتقاء الأحسن منه المناسب لقواهم العقلية والبدنية وإتقانه والارتقاء بمستوى الانتاج في النوع والعدد.

٣ـ الصحة النفسية.

ويقصد بها سلامة الأولاد من الأمراض النفسية، بدفعها وأخذ الوقاية منها مثل: الاكتئاب، وازدواج الشخصية أو انفصامها وغير ذلك.

٤ـ الصحة الجسدية.

ويقصد بها حسن التغذية، وسلامة أجساد الأولاد من الأمراض والعاهات.

ويرجع في الرعاية النفسية والجسدية إلى أهل الاختصاص وكتاباتهم.

ثانيًا: وسائل التربية الصالحة.

لقد انفردت الوسائل التربوية الإسلامية، دون غيرها من الطرق التربوية البشرية، بأنها أبرزت جيلاً إسلاميًا محسنًا من الرعيل الأول على مستوى الفرد والجماعة، في مدة لا تتجاوز ثلاثة وعشرين عامًا، وكان العامل الرئيس في هذا التفوق الكبير الذي وقفت وستقف المدارس التربوية مجتمعة، عاجزة عن بلوغ معشاره، هو ارتكازها على القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، تستمد منهما التوجيه وَتُصْدِرُ عن أوامرهما، وتلك الوسائل الكريمة السامية هي القادرة الآن على تحقيق التربية الصالحة ومن أبرزها:

١ـ كثرة الدعاء الصادق للأولاد بالصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة لا سيما في الأوقات والأماكن والأحوال التي هي مظنة الاستجابة. وكان الدعاء للذرية هدي الأنبياء عليهم السلام ومنهم إبراهيم عليه السلام كما حكى الله عنه بقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم، الآية: ٤٠]. بقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ

ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٧]. ووصف الله تعالى عباده المحسنين بالدعاء لذرياتهم فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان، الآية: ٧٤].

٢- إدراك نفسيات الأولاد، ومعرفة مستواهم العقلي وأعمارهم الزمنية والعقلية، من أجل سرعة الدخول إليها، والقدرة على حسن صياغتها. ولعل أقرب دليل على ذلك معرفة الرسول ﷺ لنفسية أسامة بن زيد رضي الله عنه وتحديد مستواه العقلي الذي أهله بعد ذلك إلى تسلمه قيادة جيش فيه أكابر الصحابة وهو في الثامنة عشر من عمره(١).

٣- إشعارهم بالحب والحنان والعطف والرحمة، بالدنو منهم، وملاعبتهم، وإسماعهم من كلمات الود ما يبهج قلوبهم، لينشأوا نشأة نفسية صحيحة، تعمر قلوبهم الثقة، وأخيلتهم التفاؤل. مما يجعلهم يقبلون على سماع توجيهاته برغبة وصدق، وتصبح طاعتهم له سلسة ونابعة من القلب. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عَنْ النبي ﷺ أنه كان يأخذه والحسن ويقول: «**اللهم إني أحبهما فأحبَّهما**» أو كما قال(٢).

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا**»(٣).

وعن شداد -رضي الله عنه- قال: «**خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حسناً أو حسيناً، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها. قال. فرفعت رأسي، وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يارسول الله، إنك سجدت بين ظهراني الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك، قال: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**»(٤).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «**قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من**

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٩٧) (١٠٤).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٦٥) (٣٥٢٤).

(٣) مسند أحمد (٢/ ٣٨٣) (٦٦٩٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٥٧) (٥٤٤٤).

(٤) سنن النسائي (٢/ ٢٢٩) (١١٤١) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/ ٢٤٦) (١٠٩٣).

الولد، ما قَبَّلْتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[1].

٣ـ إشباع غرائزهم الفطرية المستحبة والمباحة، والإنفاق عليهم بسخاء وطيب نفس بما يكفيهم وزيادة من غير إسراف ابتغاء مرضاة الله تعالى. وقد سبق «**أن أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله**»[2]. وفي حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يحبس، عمن يملك قوته**»[3].

وعن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها، كانت له صدقة**»[4].

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن من جِدَتِهِ كن له حجابًا من النار يوم القيامة**»[5].

وتخصيص البنات هذا بالذكر وعظيم الأجر تنبيه لأولئك الزاهدين في البنات إلى الإحسان إليهن. والقيام بواجبهم نحوهن.

وعن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**»[6].

٤ـ العدل بين الأولاد في الحنو والنفقة، والحذر كل الحذر من التفرقة بينهم، سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا. لأن الولد الذي يشعر بالعدل بين إخوانه ينشأ نشأة نفسية صحيحة لا يأكل قلبه الحسد والغيرة.

وفي حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ إلماحة قوية للآباء بمراعاة هذا المبدأ الشرعي قال: «**أعطاني أبي عطيّة فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يارسول الله، قال: أعطيت سائر ولدك مثل هذا قال: لا، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين**

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٣٥) (٥٦٥١).

(٢) انظر: في صحيح مسلم (١/ ٦٩١) (٩٩٤).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٦٩٢) (٩٩٦).

(٤) صحيح مسلم (١/ ٦٩٥) (١٠٠٢).

(٥) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢١٠) (٣٦٦٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٦) (٦٤٨٨).

(٦) مسند أحمد (٥/ ١١٦) (١٦٧٢٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٧١) (٥٥٣٥).

أولادكم قال: **فرجع فرَدَّ عطيَّته**»[١].

٥ـ الصبر على مشاق تربيتهم، والحلم عند مخالفتهم، والتدرج في توجيهاتهم. متأسيًا بالرسول ﷺ في صبره وحلمه في تربيته لأصحابه. فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن أناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فلم يسأله أحدٌ منهم إلا أعطاه، حتى نفد ماعنده، فقال لهم حين نفد كل شيء أنفق بيديه: «ما يكن عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعفَّ يعفَّه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، ولن تعطوا عطاء، خيرًا وأوسع من الصبر»[٢].

٦ـ تقديس النصوص الشرعية، وتعميق قيمتها في قلوب الأولاد باعتبارها المرجعية في التوجيه والتحاكم.

لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء، الآية: ٦٥].

٧ـ غرس الأخلاق والمثل الإسلامية في قلوب الأولاد واعتبارها مراتب سامية يجب تحقيقها. ولعل من أهمها الكرم، والشجاعة، والصبر، والصدق. والأمانة.

فعن أسامة بن شريك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الناس لم يعطوا شيئًا خيرًا مِنْ خلق حسن**»[٣].

٨ـ توحيد القدوة الحسنة في شخص الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله. لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب، الآية: ٢١].

٩ـ انتقاء الوسائط المعرفية والتعلمية والسلوكية، والمهنية بعناية وحذر، شريطة أن تتحقق فيها الفضيلة الشرعية، والجودة العالية. وهذا من تمام النصيحة التي تجب على المربي وفي حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلِّين. .**»[٤].

وعن عمران بن حُصَيْن ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم جدال المنافق عليم اللسان**»[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٩١٤) (٢٤٤٧).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٧٥) (٦١٠٥).

(٣) معجم الطبراني الكبير (١/ ١٧٩) (٤٦٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٩٨) (١٩٧٧).

(٤) سنن الترمذي (٤/ ٥٠٤) (٢٢٢٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٥٩) (٢٣١٦).

(٥) صحيح ابن حبان(الإحسان) (١/ ٢٨١) (٨٠). وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٠٧) (٢٣٩).

١٠- الحيلولة بين الأولاد ومصادر الشر بأنواعها، مع إيجاد البدائل المشروعة إن أمكن.

فعن أبي موسى -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإماأن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبًا، ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثًا**»[١].

ويدخل في حكم الجليس وسائل الإعلام بمختلف أنواعها.

١١- تنمية قدراتهم على التصويب وانتقاء الأحسن شرعًا وعقلاً. ويحصل ذلك بالمران والتجربة. مرة بعد مرة مع طلب التعليل. وهنا يجب على المربي التوجيه عند الخطأ برفق وإقناع من دون ضجر. ولعل في قوله تعالى عن اليتامى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء، الآية: ٦]. دلالة على هذا المعنى وكذا في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضَرْب كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى فإذا هو رجل رِبْعَة أحمر كأنما خرج من ديماس، وأنا أَشْبَهُ ولد إبراهيم به، ثم أُتِيتُ بإنائين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته، فقيل: اتخذت الفِطرة أما إنَّك لو أخذت الخمر غوت أمتك**»[٢]. والضَرّبُ: النحيف خفيف اللحم، الرجِلُ: الذي شعره ليس شديد الجعودة ولا شديد البسوطة والربعة: الذي ليس بطويل ولا قصير، والديماس: هو الحمام أو الكِنُ. أي: كأنه لم ير شمسًا، فهو في غاية الإشراق والنضارة.

١٢- مراعاة التكامل والشمول والتوازن، بين مطالب الروح والجسد والعقل، بإعطاء كل جانب حقَّه وأنْ لا يطغىٰ جانبٌ علىٰ آخر. ولعل في الحديث السابق عن الإحسان إلى النفس مايفي بالغرض مما أغنى عن إعادته هنا.

١٣- الترفق بالأولاد في الأوامر والنواهي، والتدرج بهم من القليل إلى الكثير، ومن الصغير إلى الكبير، في يُسرٍ وسهولة وسعة صدر. فعن عائشة رضي الله عنها وذكرت قصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مهلاً ياعائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»[٣]، وفي رواية أخرى لها رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا كون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلاشأنه**»[٤].

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٢٦) (٢٦٢٨).
(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٢٤٣) (٣٢١٤).
(٣) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٤٢) (٥٦٧٨).
(٤) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠٤) (٢٥٩٤).

وفي رواية أخرى لها ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ياعائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»(١).

١٤ـ استخدام مبدأ العقاب بقدر وعند الحاجة الماسة مع مراعاة الموقف وفي مثل ترك الصلاة أو التساهل في أدائها فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»(٢).

وبتحقيق هذه الوسائل تتحقق بإذن الله تعالى الأهداف التربوية الصالحة فإن قام بها الأب على وجه الاتقان والإخلاص وكأنه ينظر إلى ربه فقد استجمع الإحسان إلى الأولاد والإحسان في عبادته الله تعالى في تربيته أولاده.

د ـ الإحسان إلى الأقارب:

مكانتهم:

المحسن الحقيقي لا يحصر إحسانه وبره في والديه وزوجته وأولاده فقط، بل يتعداهم إلى بقية أقاربه بالنسب والصهر سواء الوارث منهم وغير الوارث، فيعم الجميع ببره وإنعامه لا يستثني منهم أحدًا، كالغيث لا يترك سهلاً ولا جبلاً إلا أصابه بوابله أو طله. مع مراعاة الترتيب في القرابة.

وذلك أن الإسلام رفع شأن القرابة واحتفى بهم إلى منزلة لم تصل إلى القليل منها النظم والأديان الأخرى، فأوصى بهم أشد وصاة، ورغب في صلتهم، وتوعد من قطعهم، فجاءت آيات القرآن الكريم مؤكدة هذه المكانة العالية تترى، مرة باسم الرحم، وأخرى باسم القرابة، تحضُّ على الإحسان إليهم، وتحذِّر من الإساءة لهم، واضعة مرتبتهم بعد مرتبة الوالدين وإن كان الوالدان من القرابة إلا أنَّ إفرادهم دليل على انفراد منزلتهم بالمكانة العالية جدًا وأن حقوقهم أعظم وآكد.

وكذا يدخل في القرابة الزوجة والأولاد وبدأت بالحديث عن كل أولئك لشدة قربهم. ومن الآيات الحاضة على بر القرابة والإحسان إليهم قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء، الآية: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء، الآية: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النساء، الآية: ١]. والمعنى اتقوا الله الذي

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠٣) (٢٥٩٣).

(٢) سنن ابن داود (١/ ٣٣٤) (٤٩٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٢٠٢١) (٥٨٦٨).

يسأل بعضكم بعضًا به، واتقوا الأرحام لا تقطعوها[1]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد، الآية: ٢٢/٢٣].

ومن السنة النبوية ما روى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله الخلق، فلمَّا فرغ منه، قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال لها: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى يارب، قال: فذاك، قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم:** ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وهذه المكانة الرفيعة أكدها النبي ﷺ من الوهلة الأولى عند مبعثه ﷺ كما في حديث أبي سفيان رضي الله عنه مع هرقل وفيه: «**قال هرقل لأبي سفيان ـ قبل إسلامه ـ: ماذا يأمركم قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدقة، والعفاف، والصلة. . .**»[3].

وفي حديث عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ قال: «**لما قدم النَّبيُّ ﷺ المدينة انجفل الناس قِبَلَهُ، وقيل قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله ﷺ، ثلاثًا فجئت في الناس لأنظر فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: ياأيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**»[4]. وتوعد النَّبيُّ ﷺ قاطع الأرحام بعدم دخول الجنة، فعن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع**». قال سفيان: يعني قاطع الرحم[5].

وصلة الرحم بركة في العمر والرزق، كما روي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسأ له في أثره، فليصل رحمه**»[6].

وقطيعة الرحم من الذنوب التي تخشى أشد الخشية، أن يعجل الله

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٥/ ١٧١).
(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٨٢٨) (٤٥٥٢).
(٣) صحيح البخاري (١/ ٧) (٧).
(٤) سنن ابن ماجه (٢/ ١٠٨٣) (٣٢٥١) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٢٢) (٢٦٣٠).
(٥) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨١) (٢٥٥٦).
(٦) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٣٢) (٥٦٤٠).

عقوبتها في الدنيا، مع ما ينتظر صاحبها من العذاب في الآخرة. فعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أنْ يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يَدَّخِرُه له في الآخرة من البغْيِ، وقطيعة الرحم**»[1].

ميادين الإحسان إلى القرابة:

للإحسان إلى القرابة ميادين واسعة كلها متفرعة من بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. ومنها:

١ـ توثيق أواصر الود والمحبة، بالإنصاف من النفس، والكلمة الطيبة، والوجه الطلق، واللقاء الحسن، والزيارة المتكررة، وإطعام الطعام، والهدية، والإيثار، وعيادة مريضهم، وتشييع ميتهم.

٢ـ احتمال أذاهم بالصبر والحلم، والعفو والسماحة، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، والقطيعة بالمواصلة.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال: «**ياسول الله إن لي قرابة أَصِلُهُم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأَحْلُمُ عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهُم الملَ، ولا يزال معك من الله ظَهِير عليهم ما دمت على ذلك**»[2].

٣ـ إغداق النفقة على من تجب له النفقة منهم، بما يكفيه وزيادة لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء، الآية: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة، الآية: ٢١٥].

٤ـ الصدقة على فقراء القرابة الذين لا تجب لهم النفقة، ومواساتهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الإسراء، الآية: ٢٢].

وجاء عن سليمان بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**»[3].

٥ـ مشاركتهم في الأفراح والأتراح، والدعاء لهم بالصلاح والفلاح. وأن يحب لهم ما يحب لنفسه.

٦ـ الحرص الشديد على تعليم جاهلهم، ونصح ضالهم في رفق ولين.

---

(١) صحيح ابن حبان، الإحسان (٢/ ٢٠٠)(٤٥٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٢٢٢) (٢٦٣٠).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٢) (٢٥٥٨).

(٣) سنن النسائي (٥/ ٩٢) (٢٥٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧١٧) (٣٨٥٨).

كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء، الآية: ٢١٤].

٧ـ تفقد القرابة البعيدة المنسية. أخذًا بوصية الرسول ﷺ كما جاء عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمة ورحمًا، أو قال ذمة وصهرًا...**»[1]. والذمة مارية رضي الله عنها، والصهر هاجر عليهما السلام فإنهما مصريتان.

٨ـ أن يكون بره وإحسانه لا لعوض، وإنما ابتغاء وجه الله تعالى. لأن المعاوضة في الإحسان تجارة لا تليق بالمحسن الحق. فعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافيء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»[2].

فإن كان الوصال والبر والإحسان لله تعالى وابتغاء مرضاته يؤديه المحسن وكأنه ينظر إلى الرحمن فقد تسنم درجة الإحسان القصوى.

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٩٧٠) (٢٥٤٣).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٣٩) (٥٦٤٥).

٣ ـ الإحسان إلى المسلم البعيد:

أ ـ الإحسان إلى الجار:

الجيران ثلاثة، جار له حق واحد وهو الجار غير المسلم، وجار له حقان، وهو الجار المسلم، حق الجوار وحق أخوة الإسلام، وجار له ثلاثة حقوق، وهو الجار المسلم القريب. حق الجوار وحق الأخوة الإسلامية وحق القرابة. والمحسن الصادق يعي حق الجار والمنزلة الكريمة التي منحها الإسلام له وذلك بالإحسان إليه، وكف الأذى عنه كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النساء، الآية: ٢١].

والجار ذو القربى: هو قريب المسكن، والجار الجنب: البعيد المسكن. والصاحب بالجنب: الصاحب في السفر وغيره[١]. وقيل غير ذلك.

وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه**»[٢].

ويجب على المحسن أن يعلم أن الإحسان إلى الجار من ركائز الإيمان بالله واليوم الآخر فلا يستتم إيمان للمرء بغير إحسان إلى جاره. ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت. وفي رواية. فليحسن إلى جاره**»[٣].

والإحسان إلى الجار دليل الخيرية، والعكس بالعكس، فعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير الأصحاب خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**»[٤].

وقد حذر الإسلام بقوة من الإساءة إلى الجار، واتهم المسيء بقلة الدين وتوعده بالعقوبة الأخروية، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنَّة من لا يأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[٥] . وعن أبي هريرة

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٢٠ـ١٢٣).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٣٩) (٥٦٦٨).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٦٨) (٤٧).
(٤) سنن الترمذي (٤/ ٣٣٣) (١٩٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٢٠)
(٥) (٣٢٧٠). صحيح مسلم (١/ ٦٨) (٤٦).

ـ رضي الله عنه ـ قال: «**قال رجل يارسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنَّها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في النار قال: يارسول الله إن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من الأَقِط ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في الجنة**»(١).

وعظم الرسول ﷺ حق الجار كما في حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «**قال رسول الله ﷺ لأصحابه: ما تقولون في الزنا؟ قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو محرم إلى يوم القيامة، قال: فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: فقال: ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة بيوت أيسر عليه من أن يسرق من جاره**»(٢).

وأوجب النَّبي ﷺ على كل مسلم أن يحب لجاره ما يحب لنفسه. فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره أو قال لأخيه ما يحب لنفسه**»(٣).

ميادين الإحسان إلى الجار:

من النصوص الشرعية والتوجيهات السامية في حسن الجوار يدرك المحسن الحصيف حق جاره عليه، ومن حقوقه عليه ما يأتي:

١ـ الصبر على هناته وأذاه، فلا يقابل أذاه بمثله بل يدفع السيئة بالحسنة. وفي حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله عز وجل: رجل يلقي العدو في الفئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه، والقوم يسافرون فيطول سُرَاهم حتى يحبوا أن يَمَسُّوا الأرض، فينزلون فيتنحَّى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم، والرجل يكون له الجار يؤذيه جواره، فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظَعْن، قلت: ومن هؤلاء الذين يشنؤُهم الله؟ قال: التاجر الحلاف، أو البائع الحلاف، والبخيل المنان، والفقير المختال**»(٤).

٢ـ يحب له ما يحب لنفسه، فهو سمح موطأ الكنف له، حسن العشرة معه، لطيف المعاملة، لا يمنعه من الاستفادة من بيته أو متاعه. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يمنع جار جاره أن يغرز**

---

(١) مسند أحمد (٣/ ١٨٤) (٩٣٨٣). وصحح إسناده أحمد شاكر (١٨/ ٢٠٠) (٩٦٧٣).

(٢) مسند أحمد (٧/ ١٥) (٢٣٣٤٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٠٠) (٥٠٤٣).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٦٧) (٤٥).

(٤) مسند أحمد (٦/ ١٨٧) (٢٠٨٣٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٩) (٣٠٧٤).

خشبه في جداره. . .»(١).

٣ـ يعينه في الشدائد، ويبهج معه في الرخاء، يأسى لأساه، ويفرح لما يسره ويرضيه، ويؤثره على نفسه، إن افتقر بره وأسعفه، وإن جاع أشبعه. فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ياأبا ذر إذا طبخت مَرَقَةً فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**»(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**يانساء المسلمات لا تَحْقِرَنَّ جارة لجارتها ولو فِرْسنَ شاة**»(٣). والفرسن: الحافر وهو كناية عن الشيء القليل الذي ربما يستحى من إهدائه(٤).

٤ـ يحفظه في غيبته، وينصحه في حضرته، ويصون عرضه، ويستر عورته، ويحفظ شرفه، ويغض طرفه عن محارمه. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن،**». قالوا: ماذاك يارسول الله، قال: «**الجار لا يأمن جاره بَوَائِقَهُ**». قالوا: يارسول الله وما بوائقه؟ قال: «**شره**»(٥).

٥ـ يزوره وإن مرض يعوده، وإن وفاه الأجل شيعه وواسى أهله وأحسن إليهم. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله ناداه مناد أَنْ طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً**»(٦).

٦ـ يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويدعوه إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة. وإذا استشاره نصح له. لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل، الآية: ١٢٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»(٧).

٧ـ يبدأ ببر جاره الأدنى قبل الأقصى. كما جاء عن عائشة رضي الله

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٨٦٩) (٢٣٣١).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٢٥) (٢٦٢٥).
(٣) صحيح البخاري (٢/ ٩٠٦) (٢٤٢٧).
(٤) انظر: النهاية (٤/ ٤٢٩).
(٥) مسند أحمد (٢/ ٥٦١) (٧٨١٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٩٤) (٧١٠٢).
(٦) سنن الترمذي (٤/ ٣٦٥) (٢٠٠٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٩١) (٦٣٨٧).
(٧) سنن الترمذي (٥/ ١٢٥) (٢٨٢٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٣٦) (٦٧٠٠).

عنها قالت: يارسول الله إن لىَّ جارين فإلى أيهما أهدى قال: **«إلى أقربهما بابًا»**[1].

٨ـ يحتسب بره وإحسانه لجاره عند الله تعالى حتى كأنه يراه سبحانه وتعالى لا يطلب من أحد المعاوضة أو المَحْمَدة الدنيوية.

هذا وإن في الحقوق ما يشترك فيها الجار وغيره، إلا أن حق الجار فيها آكد وأعظم. ومن وجد جارًا كهذا المحسن، فقد وجد رُكْنًا من السعادة في الدنيا عزيزًا.

فقد روى نافع بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«من سعادة المرء الجار الصالح، والمركب الهنيء، والمسكن الواسع»**[2].

ب ـ الإحسان إلىٰ الإخوان في الله تعالىٰ:

مكانة الأُخوة في الله تعالىٰ:

الإسلام بهديه المتميز السامي قد أحل الأخوة الإيمانية مكانة عالية هي أرقىٰ العلاقات البشرية قاطبة؛ حيث اعتبر عامة المسلمين إخوة في الدين من غير تمييز لعنصر علىٰ عنصر، أو لون علىٰ لون إلا بالتقوىٰ. فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات: ١٠]. وقال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهو بهٰذه النظرة الرفيعة أوجب علىٰ أهله تطبيقها في واقعهم ومعاشهم، فألزمهم التعاطف والتراحم والتلاحم كما جاء ذٰلك في أحاديث الرسول ﷺ منها: ما رواه النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّىٰ»**[3].

وحديث أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يَشُدُّ بعضه بعضًا، ثم شبَّك بين أصابعه...»**[4].

ويؤكد الرسول ﷺ وجوب المحبة بين المؤمنين، وأنها شرط من شروط دخول الجنة بما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا، أَوَلا أدلُّكم**

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٩١٦) (٢٤٥٥).

(٢) مسند أحمد (٣/ ١٩٩٩) (١٤٩٤٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٢) (٣٠٢٩).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٩٩٩) (٢٥٨٦).

(٤) صحيح البخاري (٥/ ١٢٤٢) (٥٦٨٠).

علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أَفْشُوا السلام بينكم»[1].

وكما أوجب الإسلام الأخوة الإيمانية، حرم كل ما يقطعها أو يضعف قوتها، فعن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هٰذا ويعرض هٰذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله**»[3].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[4].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يَبِعْ بعضكم علىٰ بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوىٰ هاهنا،** ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات، **بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم علىٰ المسلم حرام، دمه وماله وعِرضه**»[5].

وزيادة في النهي عن التقاطع بين المؤمنين أخَّرَ الله ـ تعالىٰ ـ قبول توبة المذنب حتىٰ يصطلح مع أخيه المسلم الذي هجره بغير حق. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغْفَرُ لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول: أَنْظِروا هٰذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هٰذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هٰذين حتىٰ يصطلحا**»[6].

فضل الأخوة الإيمانية:

أعدَّ الله ـ تعالىٰ ـ للمؤمنين المتحابين فيه منازل عالية في الآخرة كما في حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٨٣) (٥٤٠).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٥٦) (٥٧٢٧).
(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٥) (٢٥٦٣).
(٤) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٥٣) (٥٧١٩).
(٥) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٦) (٢٥٦٥).
(٦) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٧) (٢٥٦٥).

«قال الله ـ عز وجل ـ: **المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء**»[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول يوم القيامة: أَيْنَ المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلُّهم في ظلي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي**»[2].

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن السبعة الذين يظلهم الله ـ تعالىٰ ـ في ظله يوم لا ظل إلا ظله، عن النبي ﷺ قال: «. . . **ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه** . . .»[3].

وهٰذه المحبة الإيمانية سبب قوي في محبة الله ـ تعالىٰ ـ للمسلم، كما روىٰ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرىٰ، فأرصد الله له علىٰ مدرجته مَلَكًا، فلما أتىٰ عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هٰذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ـ عز وجل ـ، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»[4].

شرط الأخوة الإيمانية:

لم يَكْتفِ الإسلام بهٰذه الأخبار التي فيها معنىٰ الطلب، بل اشترط في هٰذه العلاقة الكريمة أن تكون خالية من المطامع والمنافع والشهوات؛ حتىٰ تثمر الثمرات الطيبة في الدنيا والآخرة، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحب إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»[5].

ميادين الإحسان إلىٰ الإخوان في الله ـ عز وجل ـ:

من هٰذه النصوص السابقة وغيرها يصوغ المحسن شخصيته نحو إخوانه في الله ـ تعالىٰ ـ فيعمهم ببره وإحسانه، ومن ذٰلك:

١ ـ أن يخبر أخاه بحبه له، وأن تكون محبته له في الله ـ تعالىٰ ـ، مجردة عن كل منفعة، بريئةً من أي عوض، نقية من كل شائبة، فعن المقدام بن معدي كرب ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الرجل**

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٥٩٧) (٢٣٩٠) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٩٥) (٤٣١٢).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٨) (٢٥٦٦).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٢٣٤) (٦٢٩).

(٤) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٨).

(٥) صحيح مسلم (١/ ٦٦) (٤٣).

أخاه فليخبره أنه يحبه»[1].

وقد كان النبي ﷺ يفعل ذٰلك حينما أخذ بيد معاذ ـ رضي الله عنه ـ حيث يقول: يعثني رسول الله ﷺ فقال: «**يا معاذ: إني لأحبك**»، فقلت: يا رسول الله وأنا والله أحبك، قال: «**فإني أوصيك بكلمات تقولهن في كل صلاة: اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[2].

٢ ـ طلاقة الوجه والتبسُّم، وإفشاء السلام، والمصافحة أو العناق عند اللقاء من غيبة، وأن يدعوه بأحب الأسماء إليه. كما روىٰ أبوذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقىٰ أخاك بوجهٍ طَلْقٍ**»[3].

وعن جرير ـ رضي الله عنه ـ قال: ما حجبني النبي ﷺ مُنْذُ أسلمت، ولا رآني إلا تَبَسَّمَ في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت علىٰ الخيل، فضرب بيده في صدري، وقال: «**اللهم ثبِّته واجعله هاديًا مهديًّا**»[4].

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «**إذا تصافح المسلمان لم تُفرَّقْ أكفُّهُما حتىٰ يغفر لهما**»[5].

٣ ـ الجود والكرم وإيثار الإخوان علىٰ النفس:

ومن أعجب الصور التطبيقية لهٰذه الأخلاق الأخوية ما صنع الأنصار بالمهاجرين، وقد مدحهم الله بذٰلك فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[الحشر: ٩].

وقد أكبر المهاجرون لهم ذٰلك كما روىٰ أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المَهْنَاءِ حتىٰ لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «**لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله ـ عز وجل ـ لهم**»[6].

---

(١) سنن أبي داود (٥/ ٣٤٣) (١٥٢٤).

(٢) مسند أحمد (/ ٢١٦٢١).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٢٦) (٢٦٢٦).

(٤) صحيح البخاري (٣/ ١١٠٩) (٢٨٧١).

(٥) المعجم الكبير، للطبراني (٨/ ٢٨٠) (٨٠٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٣٧)، (٤٣٣).

(٦) مسند أحمد (٤/ ٥٧) (١٢٦٦٢). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩١٣) (٤٠٢٧).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثة، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون رَحِمِهِ للأُخوة التي آخىٰ النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث، ويوصىٰ له»[1].

٤ ـ الرفق والتذلل للإخوان. كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

٥ ـ السماحة معهم والعفو عن زلاتهم، ومقابلة ذٰلك بالإحسان إليهم. كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وما أحسن ما قال الحريري ـ رحمه الله ـ:

سامح أخاك إذا خلط ... منه الإصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه ... إن زاغ يومًا أو قسط
واحفظ صنيعك عنده ... شَكَرَ الصنيعة أو غمط
وَأَطِعْهُ إن عاصَىٰ وهُنْ ... إن عزَّ وادْنُ إذا شمط
واقضِ الوفاء ولو أخـ ... ـلَّ بما اشترطت وما شرط
واعلم بأنك إن طلبـ ... ـت مهذبًا رمت الشطط
من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنىٰ فقط[2]

٦ ـ الزيارة والهدية؛ لحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من عاد مريضًا، أو زار أخًا له في الله، ناداه منادٍ أنْ طِبْتَ وطاب ممشاك وتبوَّأت من الجنة منزلاً»**[3].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها»[4].

٧ ـ أن ينصر أخاه المسلم ويؤازره، ويشد من عضده. لما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»**. فقال رجل: يا رسول الله: أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: **«تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذٰلك نصره»**[5].

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٦٧١)، (٤٣٠٤).
(٢) جواهر الأدب، لأحمد الهاشمي (١٩٨).
(٣) سنن الترمذي (٤/ ٣٦٥)، (٢٠٠٨). وصححه الألباني في الجامع (٢/ ١٠٩١) (٦٣٨٧).
(٤) صحيح البخاري (٢ / ٩١٤)، (٢٤٤٥).
(٥) صحيح البخاري (٦/ ٢٥٥٠)، (٦٥٥٢).

٨ ـ الدعاء لهم بظهر الغيب. كما جاء في حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل**»(١).

٩ ـ النصح لهم، وأن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه. ويدفع عن أعراضهم، ويحملهم أحسن المحامل. فعن تميم الداريِّ ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**». قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(٢).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»(٣).

١٠ ـ حفظ الإخوان من غوائل اللسان كالغيبة والنميمة، والبهتان، والسباب، والسخرية، والتنابز بالألقاب؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢]. وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

١١ ـ يتجنب معهم الجَدَلَ، والمزاح المؤذي، والإخلاف بالوعد. فعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**، ثم تلا رسول الله ﷺ هٰذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف، الآية: ٥٨](٤).

وأما المزاح فقد كان النبي ﷺ يمزح، إلا أنَّه لا يقول إلا حقًّا ليس فيه أذيّة لأحد. فعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحًا، وببيت في أعلىٰ الجنة لمن حسن خُلُقه**»(٥).

وجاء في تحريم إخلاف الوعد ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا**

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٩٤)، (٢٧٣٢).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٦٢)، (٥٥).
(٣) صحيح البخاري (١/ ١٤) ،(١٣).
(٤) سنن الترمذي (٥/ ٣٧٨)، (٣٢٥٣)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٨٤)، (٥٦٣٣).
(٥) سنن أبي داود (٥/ ١٥٠)، (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٠٦)، (١٤٦٤).

اؤتمن خان»[1].

١٢ ـ إجابة دعوته، وتشميته إذا عطس، واتباع جنازته إذا مات؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«حق المسلم علىٰ المسلم ست»، قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»**[2].

وعن بعض الحكماء في الأخ علىٰ الحقيقة قال: «من تلقاه في الغيبة، وتأنس بذكره في الخلوة، وتعذره من غير معذرة، وتبسط إليه من غير خيفة، ولا تُخْفِي منه ما يعلمه الله منك، وتأمن بغيبته كما تأمن بمشاهدته، ثم قال:

أبلغ أخاك أخا الإحسان لي حسنًا ... إنــي وإن كنــت لا ألقــاه ألقــاه

وإن طـرْفِـيَ مـوصـولٌ بـرؤيتـه ... وإن تبــاعــد عــن مثــوايَ مثــواه

الله يعلــم أنــي لســت أذكــره! ... وكيـف يـذكـره مَـنْ لسـت أنسـاه[3]

صور من أخوة المحسنين:

ـ عن أبي حيان التيمي ـ رحمه الله ـ قال: رُؤي على عَلي بن أبي طالب ثوبٌ كأنه كان يكثر لُبسه، فقيل له فيه، فقال: «هٰذا كسانيه خليلي وصفيي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ إن عمر ناصح لله فنصحه الله»[4].

ـ وعن شعبة ـ رحمه الله ـ قال: خرج عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ علىٰ أصحابه فقال: «أنتم جلاء حُزني»[5].

ـ وعن أبي صالح، طهمان مولىٰ العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ قال: أرسلني العباس إلىٰ عثمان أدعوه، فأتيته في دار القضاء، فقلت: إن العباس يدعوك، فقال: نعم، أَفْرَغُ من شأني ثم آتيه. قال: فأتاه، فلما دخل عليه قال: أفلح الوجه أبا الفضل، قال: ووجهك. قال: إن رسولك أتاني وأنا في دار القضاء، ففرغت من شأني، ثم أتيتك فما حاجتك؟ قال: لا والله، إلا أنه بلغني أنك أردت أن تقوم بعليٍّ وأصحابه فتشكوهم إلىٰ الناس، وعلي ابن عمك وأخوك في دينك، وصاحبك مع نبيك، قال: أجل، فوالله لو أن عليًا شاء أن يكون أدنىٰ الناس لكان، ثم أرسلني إلىٰ علي، فأتيته، فقال: إن أبا الفضل يدعوك، فلما جاءه قال: إنه بلغني أن عثمان أراد أن يقوم بك وأصحابك، وعثمان ابن عمك وأخوك في دينك، وصاحبك

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٢١)، (٣٣).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٧٠٤)، (٢١٦٢).

(٣) شعب الإيمان (٦/ ٣٣١)، (٨٣٩٠).

(٤) كتاب الإخوان، لابن أبي الدنيا (٢٣٨).

(٥) المرجع السابق (١٥٠).

مع نبيك ﷺ، فقال عليٌّ: والله لو أن عثمان أمرني أن أخرج من داري لفعلت»[1].

ـ وعن عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ قال: «ما أعطيت أحدًا مالاً إلا وأنا أستقله، وإني أستحي من الله ـ عز وجل ـ إن سألت الله ـ عز وجل ـ لأخ من إخواني وأبخل عنه بالدنيا، وإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الدنيا بيدك كُنْتَ أبخل»[2].

من ثمرات الأُخوة الإيمانية:

مما سبق يتبين لنا ثمرات الأخوة الإيمانية ومنها:

١ ـ أنها تحقق التماسك والتكافل بين أفراد المجتمع الإسلامي.

٢ ـ أنها تعين علىٰ التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، ودفع الإثم والعدوان.

٣ ـ أنها ميدان فسيح لتحصيل الحسنات.

٤ ـ فيها محبة الله ـ تعالىٰ ـ للمتآخين فيه.

٥ ـ أنها من لذائذ الدنيا للمؤمنين، فمسكين من لا أخ له.

---

(١) المنتقىٰ من مكارم الأخلاق (٩١).

(٢) كتاب الإخوان (٢١٤).

ج ـ الإحسان إلىٰ الأيتام والأرامل :

تعريف الأيتام:

الأيتام: جمع يتيم، واليُتم بالضم: الانفراد، وقال في القاموس: اليتيم الفرد، وكل شيء يعز نظيره[١].

وفي الاصطلاح: اليُتم: هو انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه[٢].

وأما الأرامل في اللغة: فجمع أرمل، وهو: من افتقر وفني زاده[٣].

وفي الاصطلاح: هي المرأة التي لا زوج لها، وسميت بذلك لافتقارها إلىٰ من ينفق عليها، ولا يقال لها أرملة إلا إذا كانت فقيرة، فإن كانت موسرة فليست بأرملة[٤].

مكانة الأيتام والأرامل الاجتماعية في الإسلام:

أوصىٰ الإسلام أقوىٰ الوِصَاةِ بالضعفة والإحسان إليهم، ومنهم الأيتام والأرامل، وإن كانت الوصية أكبر باليتيم لشدة حاجته وقلة حيلته، وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة علىٰ العمل بما فيه صلاحهم، ومن آيات القرآن الكريم قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ . . . ﴾ [النساء: ٣٦]. ومن السنة في شأن الأرملة ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الساعي علىٰ الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل، الصائم النهار**»[٥].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: الساعي هو الذي يذهب ويجيء في تحصيل ما ينفع الأرملة والمسكين»[٦].

وقد ذمَّ القرآن الكريم الذين لا يكرمون اليتيم، وجعل تلك الإساءة من شأن الكافرين، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الفجر: ١٦ ـ ١٨]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

واستجدىٰ القرآن الكريم عطف الأولياء علىٰ اليتامىٰ بقوله ـ تعالىٰ ـ:

---

(١) القاموس المحيط (٤/١٩٣)، المفردات (٥٠٠).
(٢) المفردات (٥٠٠).
(٣) أساس البلاغة، للزمخشري (١٧٩).
(٤) تاج العروس، للزبيدي (٧/٣٥١)، المصباح المنير (١/٢٥٧).
(٥) صحيح البخاري، الفتح(٩/٤٩٧)، (٥٣٥٣).
(٦) المصدر السابق (٩/٤٩٩).

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ ﴾ [النساء: ٩]. والآية: «تأمر الأوصياء والأولياء بأن يخشوا الله ـ تعالىٰ ـ ويتقوه في أمر اليتامىٰ فيفعلوا بهم ما يحبون أن يُفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم»(١).

وقد حذَّر الرسول ﷺ من تضييع حق اليتيم والأرملة بما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والأرملة**»(٢).

ومعنىٰ الحديث: «ألحق الحرج، وهو الإثم عن ضيع حقهما، وأحذر من ذٰلك تحذيرًا بليغًا، وأزجر عنه زجرًا كبيرًا»(٣).

ميادين الإحسان إلىٰ الأيتام:

إن الأمر بالإحسان إلىٰ الأيتام، شامل وعام لكل ما من شأنه صلاح أحوالهم في الدنيا والآخرة، وذٰلك لا يكون إلا بأن ينزلهم المحسن منزلة أبنائه في النصح والرعاية والرفق والحنان؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

ومعنىٰ الآية: أحسنوا إحسانًا بالوالدين وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين. وهٰذا الإحسان جاء منكرًا ليفيد التعميم والتكثير وليذهب العقل فيه كل مذهب من شمول واتساع واستمرار. وهٰذا مما يدعو المحسن الحقيقي ألا يدع شيئًا من أعمال البر والإحسان يقدر عليه يفعله لليتيم إلا فعله. ومن ذٰلك الإحسان:

١ ـ قيام المحسن علىٰ اليتيم بالكفالة وحسن الرعاية؛ حتىٰ لا يَضِيعَ أو يتعثر في حياته. فعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هٰكذا**، وقال بإصبعه السبابة والوسطىٰ وفرّج بينهما»(٤).

٢ ـ إشعار المحسنُ، اليتيمَ بالعطف والحنان، وإدخال السرور عليه بما يعوضه عن والده، حتىٰ يشب صحيح النفس يألف المحسن ويشعر بقربه وصدق مودته. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً شكا إلىٰ النبي ﷺ

---

(١) جامع أحكام القرآن (٥/ ٥١).

(٢) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢١٣)، (٨٧٦٣)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٢٤٣)، (١٢٨٢): إسناده صحيح.

(٣) رياض الصالحين (١٦١).

(٤) صحيح البخاري (٥/ ٢٠٣٢)، (٤٩٩٨).

قسوة قلبه، فقال: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»[1].

٣ ـ يتعاهده المحسن بالكلمة الطيبة الحسنة في أمره ونهيه بالرفق واللين؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء: ٨]. وقوله: ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

٤ ـ يحقق المحسن مبدأ الأخوة الإيمانية في اليتامىٰ وذٰلك بمخالطتهم وتثمير أموالهم إن كان وصيًّا عليهم؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾[البقرة: ٢٢٠]. وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. أي: بِقُرْبٍ هو أحسنُ القُرْبِ وذٰلك بالمتاجرة فيه بما يصلحه وينميه لا بما يفسده ويهلكه، وإذا كان محتاجًا أكل منه بالمعروف غير مفسد له، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ...﴾ [النساء: ٦]. وقد حرم الله أموال اليتامىٰ أن تؤكل بالباطل أشد التحريم، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢].

٥ ـ الإنفاق علىٰ الأيتام بما يسد كفايتهم، واستخلاص حقوقهم من الغنيمة والفيء، كما قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥]. فانظر أيها المحسن كيف قرن الله حق اليتامىٰ ممن ليس له مال في النفقة مع حق الوالدين، وذٰلك دليل علىٰ أن النفقة علىٰ الأيتام من أفضل البر. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]. وكل ذٰلك حرصًا من الإسلام علىٰ أن يعيش اليتامىٰ في سعادة وهناء.

٦ ـ رزقُ الأيتام من الأموال المقسومة إذا حضروا قسمتها؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٩١)، (٨٧٩١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٣): رجاله رجال الصحيح.

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: ٨ ـ ٩].

٧ ـ العدلُ في مهور اليتامىٰ من النساء التي في حجور الأوصياء وأرادوا نكاحهن؛ لما روي عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، فقالت: يا ابن أختي: هي اليتيمة تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهُوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلىٰ سُنَّتِهِنَّ من الصداق، وأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هٰذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ ـ إلىٰ قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، والذي ذكر الله أنه يُتلىٰ عليكم في الكتاب الآية الأولىٰ التي قال فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرىٰ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، يعني هي رغبة أحدكم ليتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنُهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها من يتامىٰ النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن»[1].

٧ ـ إكرام اليتيم والجود عليه بإطعام الطعام وغيره؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر: ١٧ ـ ١٨]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٨ ـ يحذر المحسن أشد الحذر من ظلم اليتيم ومنعه حقوقه؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحىٰ: ٩]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: ١ ـ ٢].

٩ ـ دفع أموال اليتامىٰ إليهم إذا بلغوا النكاح، وأُنِسُوا منهم التصرف فيها، من بعد تجربة صادقة مَرَّةً بَعْدَ مرة، والإشهاد عليهم بتسلمها؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء: ٦].

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٥/ ٢٠٣٢)، (٢٤٩٤).

وهٰذا الإحسان المذكور هنا إنما هو إضافة إلىٰ حقوقهم الاجتماعية الأخرىٰ التي تجب لهم كغيرهم من أفراد المجتمع الإسلامي، وجِماع ذٰلك أن يكون المحسن لليتيم كالأب الرحيم[1].

الإحسان إلىٰ اليتامىٰ من صفات المحسنين:

والشواهد كثيرة، منها:

١ ـ ما ذكر الله ـ تعالىٰ ـ من شأن الخضر ـ عليه السلام ـ مع جدار الأيتام بقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . . ﴾[الكهف: ٨٢].

٢ ـ ما روي عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسول الله: أَلِيَ أجر أن أنفق علىٰ بني أبي سلمة؟ إنما هم بني. فقال ﷺ: «**أنفقي عليهم، فلك أجر ما أنفقت عليهم**»[2].

٣ ـ ما روي عن زينب امرأة عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي ﷺ فقال: «**تصدقن ولو من حليكنَّ**»، وكانت زينب تنفق علىٰ عبدالله وأيتام في حجرها، فقالت لعبدالله: سَلْ رسول الله ﷺ: أيجزي عني أن أنفق عليك وعلىٰ أيتامي في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله ﷺ. فانطلقت إلىٰ النبي ﷺ فوجدت امرأة من الأنصار علىٰ الباب، حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال، فقلنا: سل النبي ﷺ: أيجزي عني أن أنفق علىٰ زوجي وأيتام لي في حجري؟ وقلنا: لا تخبر بنا. فدخل فسأله، فقال: «**من هما؟**» قال: زينب. قال: «**أي الزيانب؟**» قال: امرأة عبدالله. قال: «**نعم، لها أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة**»[3].

صور من الإحسان إلىٰ اليتامىٰ:

عن عمران بن حصين قال: كنت مع نبي الله ﷺ في مسير له، فأدلجنا ليلتنا. حتىٰ إذا كُنَّا في وجه الصبح عرّسنا، فغلبتنا أعيننا حتىٰ بزغت الشمس. قال: فكان أول من استيقظ منا أبوبكر، وكنا لا نوقظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتىٰ يستيقظ، ثم استيقظ عمر، فقام عند نبي الله ﷺ، فجعل يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتىٰ استيقظ رسول الله ﷺ فلما رفع رأسه ورأىٰ الشمس قد بزغت قال: «**ارتحلوا**»، فسار بنا، حتىٰ إذا ابيضت الشمس، نزل فصلىٰ بنا الغداة، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٠٠).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (٣/٣٢٨)، (١٤٦٧).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (٣/٣٢٨)، (١٤٦٦).

انصرف قال له رسول الله ﷺ: «**يا فلان، ما منعك أن تصلي معنا**»؟ قال: يا نبي الله، أصابتني جنابة، فأمره رسول الله ﷺ فتيمَّم بالصَّعيد، فصلىٰ، ثم عجَّلني في ركب بين يديه، نطلب الماء، وقد عطشنا عطشًا شديدًا. فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين. فقلنا لها: أين الماء؟ قالت: أيْهاهُ. أيْهاهُ، لا ماء لكم. قلنا: فكم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: مسيرة يوم وليلة. قلنا: انطلقي إلىٰ رسول الله ﷺ. قالت: ومن رسول الله؟ فلم نملِّكها من أمرها شيئًا. حتىٰ انطلقنا بها، فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ فسألها فأخبرته مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها مؤتمة، لها صبيان أيتام. فأمر براويتها، فأنيخت، فمجَّ في العزلاوين العلياوين، ثم بعث بِرَاويتها، فشربنا، ونحن أربعون رجلاً عطاش حتىٰ روينا. وملأنا كل قربة معنا وإداوة، وغسلنا صاحبنا، غير أنا لم نسقِ بعيرًا، وهي تكاد تنضرج من الماء (يعني المزادتين)، ثم قال: «**هاتوا ما كان عندكم**»، فجمعنا لها من كِسَرٍ وتمر، وصَرَّ لها صُرَّة، فقال لها: «**اذهبي فأطعمي هٰذا عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ مِنْ مائك**». فلما أتت أهلها قالت: لقد لقيت أسحر البشر، أو إنه لنبي كما زعم. كان من أمره ذيت وذيت. فهدىٰ الله ذاك الصرم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا[1].

عن عبدالله بن جعفر قال: بعث رسول الله ﷺ جيشًا استعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «**فإن قتل زيد أو استُشْهِدَ فأميركم عبدالله ابن رواحة. . .**» وفيه أنه ﷺ قال: «**اللهم اخلف جعفرًا في أهله، وبارك لعبدالله في صفقة يمينه**»، قالها ثلاث مرارٍ. قال ـ أي عبدالله بن جعفر ـ فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا، وجعلت تُفرح لهً، فقال: «**الْعَيْلَةَ تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة**»؟[2].

من ثمرات الإحسان إلىٰ الأيتام:

١ ـ رِفْعَةُ درجة كافل اليتيم في الجنة.

٢ ـ عظم أجر المحسن إلىٰ اليتيم.

٣ ـ كفالة اليتيم والإحسان إليه ترقق القلب.

٤ ـ الإحسان إلىٰ اليتيم دليل علىٰ تآزر المجتمع وشدة تماسكه.

ميادين الإحسان إلىٰ الأرامل:

حرص الإسلام علىٰ رعاية المرأة عمومًا؛ لضعفها وقلة قدرتها علىٰ

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٧٤)، (٦٨٢).

(٢) مسند أحمد: (١/ ٣٣٦) (١٧٥٣) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. (٣/ ١٩٢) (١٧٥٠).

التكسب، فكيف بالأرملة التي فقدت زوجها بموت أو طلاق مع فقرها وفاقتها، لا شك أنه أشد حرصًا وعناية بها.

والمحسن الحقيقي هو الذي يستشعر ذٰلك الضعف والفاقة فينزل الأرامل منزلة أخواته الشقائق في البر والرعاية من دون أن يعرض نفسه أو إياها للريبة. ومظاهر الإحسان وميادينه بالأرامل كثيرة كثرة احتياجاتهن النفسية والأمنية والمعاشية، ومنها:

١ ـ يحرص المحسن علىٰ تزويج الأرامل، أو الزواج منهن والدعوة إلىٰ ذٰلك؛ لما فيه من كفاية لمؤونتهن، ولعل غالب أزواج الرسول ﷺ منهن، كأم سلمة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة بنت زمعه ـ رضي الله عنهن ـ، فحفصة ـ رضي الله عنها ـ تأيمت من خُنيس بن حذافة السهمي الذي توفي شهيدًا من جراحات أصابته ببدر ـ رضي الله عنه ـ.

وأم سلمة ـ رضي الله عنها ـ تأيمت من أبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ الذي كان توفي شهيدًا إثر أحد، فتزوجها الرسول ﷺ وضمَّ عيالها إليه وجعلهم عياله.

وزينب بنت خزيمة بن الحارث، تأيمت من عُبيدة بن الحارث الذي استشهد ببدر ـ رضي الله عنه ـ، وقيل: من عبدالله بن جحش الذي استشهد بأحد ـ رضي الله عنه ـ[1].

وأما سودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ فقد تأيمت من السَّكران بن عمرو، وكان لها فضل السبق إلىٰ الإسلام والهجرة إلىٰ الحبشة[2].

٢ ـ تلمس احتياجات الأرامل والإنفاق عليهن من الصدقات الواجبة والمستحبة.

٣ ـ الرفع من قيمة الأرملة الاجتماعية، بما يعود عليها بالصحة النفسية، وحتىٰ لا يرغب عنها الناس.

٤ ـ علىٰ المرأة المحسنة أن تتفطن لحاجات أختها الأرملة التي لا يفطن لها الرجال فتسعىٰ في سدها من غير أن يشعر أحد بذٰلك.

٥ ـ إن كان للأرملة أيتام فإن من أعظم الإحسان إليها، الإحسان إلىٰ أيتامها.

٦ ـ علىٰ المحسنات أن يسعين جاهدات في إدخال السرور علىٰ الأرامل والحنو عليهن، وإرفادهن ولو بالقليل.

---

(١) انظر: مرشد المختار إلىٰ خصائص المختار، لابن طولون (٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٢) انظر: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، لابن حجر (١٣٧).

الإحسان إلىٰ الأرامل من صفات المحسنين:

وقد كان الرسول ﷺ نصير الأرامل وعصمتهن كما وصفه عمه أبو طالب بقوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامىٰ عصمة للأرامل[1]

ومن صور الإحسان إلىٰ الأرامل:

١ ـ عن عمرو بن ثابت ـ رحمه الله ـ قال: لما مات علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ وجدوا بظهره أثرًا، فسألوا عنه، فقالوا: هٰذا مما كان ينقل الجرب بالليل علىٰ ظهره إلىٰ منازل الأرامل[2].

٢ ـ وقال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «وددت أنه ليس من الناس عبد ابتلي بسعة، إلا نظر قطيعًا من ماله فجعله في الفقراء والمساكين والأرامل، بدأت بنفسي وأهل بيتي، ثم كان الناس بعد...»[3].

٢ ـ ومن أحسن ما قيل في إحسان عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ للأرامل ما قاله جرير ـ رحمه الله ـ:

كم بالمواسم من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

أذهبت خلته حتىٰ دعا ودعت يا رب بارك لطر الناس في عمر

ممن يعدك تكفي فقد والده كالفرخ في الوَكْرِ لم ينهض ولم يَطِرِ

هٰذه الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هٰذا الأرمل الذكر

فترقرقت عينا عمر وقال: إنك لتصف جهدك، فقال: ما غاب عني وعنك أشد، فجهز إلىٰ الحجاز عيرًا تحمل الطعام والكسىٰ والعطايا يبث في فقرائهم[4].

٤ ـ وعن بكار بن منقذ ـ رحمه الله ـ قال: خرجنا مع الحسن ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ السوق فإذا جارية تقول: يا أبتاه مثل يومك لا أرىٰ. قال: الحسن وأبوك مثل يومه ما رأىٰ، يا بنية دليني علىٰ منزلك، فانطلقت بين يديه، وانطلق الحسن ونحن معه، حتىٰ وقف علىٰ باب الدار، فنادىٰ: يا أهل هٰذه الدار مالي أرىٰ هٰذا الباب مهجورًا بعد أن كان معمورًا، قال: فنادته امرأة من داخل الدَّار ياعبدالله هٰكذا أبواب الأرامل واليتامىٰ؟! فانصرف الحسن باكيًا[5]!!

---

(١) انظر: السيرة، لابن هشام (٢/ ١٤).

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي (٣/ ٤٥)، (٣٤٤٣).

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٩٧).

(٤) حلية الأولياء (٥/ ٣٢٨).

(٥) الاعتبار، لابن أبي الدنيا (١/ ٣٦).

من ثمرات الإحسان إلىٰ الأرامل:

١ ـ عظم ثواب من أحسن إليهن وأنه مثل ثواب الصائم القائم المجاهد.

٢ ـ أن ذٰلك يرقق القلوب ويردها إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ.

٣ ـ أنه عنوان تكافل المسلمين وتماسك أخوتهم الإيمانية.

د ـ الإحسان إلىٰ الفقراء والمساكين :

التعريف:

الفقراء لغة: جمع فقير، وهو المكسور فقار ظهره، واشتق منه اسم الفقير الذي له بُلْغَةٌ من العيش ولا تكفي حاجته، تشبيهًا له به لذلته ومسكنته، فكأنه مكسور الفقار(١).

أما المساكين لغة: فجمع مسكين، وهو من أسكنه الفقر أي قلل حركته، أُطْلِقَ علىٰ من لا شيء له يكفي عياله(٢).

أما في الاصطلاح:

فالفقير: هو الذي لا شيء له. أو له شيء لا يكفيه.

والمسكين: الذي لا شيء له يغنيه، ولا يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصَدَّقُ عليه ولا يُسْأَلُ الناسَ شيئًا.(٣)

مكانة الفقراء والمساكين الاجتماعية في الإسلام:

يرىٰ الإسلام الفقراء والأغنياء سواء في الواجبات والتكاليف والحقوق، فلا فرق بين الناس باعتبار أيًّا كان سوىٰ التقوىٰ كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهو بهٰذه النظرة العادلة التي لم تكن في دين أو نظام سواه يُلْزِمُ أتباعه بتطبيقها في واقعهم الاجتماعي ويعلل ذٰلك بأن الفقر والغنىٰ بيد الله ـ تعالىٰ ـ يبتلي بهما من يشاء من عباده ليعلم الشاكر والصابر، والكافر والساخط، وكذا يبتلي ـ جل وعلا ـ الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء ليؤدي كل واحد ما يجب عليه تجاه ربه وتجاه غيره من الناس.

فالأغنياء جعل الله ـ تعالىٰ ـ في أموالهم حقًّا له، يتمثل أوَّلاً: في الاعتراف له بالفضل، واعتقاد أن المال ماله علىٰ الحقيقة، استخلفهم فيه ليعملوا فيه بما أمر ـ سبحانه وتعالىٰ ـ.

والثاني: إدامة شكره ـ تعالىٰ ـ علىٰ ما أنعم به، وأن ما آتاهم من مال

---

(١) مجمل اللغة، لابن فارس (٣/ ٧٠٣)، والصحاح، للجوهري (٢/ ٧٨٢).

(٢) انظر: القاموس المحيط (٤/ ٢٣٥)، والمصباح المنير (١/ ٣١٣).

(٣) انظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٢/ ٩٦١)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ١٠٦ ـ ١١٩)، والكليات، للكفوي (٦٩٦).

ليس بحولهم ولا قوتهم، وإنما هو محضُ مِنَّةٍ مِنْهُ ـ جل وتعاظم ـ، وأن ما بذلوه من أسباب في تحصيله هي قدر الله ـ تعالىٰ ـ وتوفيقه ومعونته.

وأما حق الفقراء علىٰ الأغنياء فيتمثل أوَّلاً: في مخالطتهم والرفع من قيمهم الاجتماعية باعتبار الأخوة الإيمانية وواجباتها هي الرابطة، وباعتبار التقوىٰ هي ميزان التفاضل.

والحق الثاني: أداء ما أوجب الله ـ تعالىٰ ـ في أموالهم لإخوانهم الفقراء بنفس طيبة، من مال طيب يرجون به ثواب الله ـ تعالىٰ ـ، من غير احتقار، أو سخرية، أو نظرة دونية، مهما دقت مع مراعاة نفسيات إخوانهم الفقراء.

فإن أدىٰ الأغنياء هٰذا الواجب فقد جازوا الامتحان الرباني في أموالهم غير أن أهل الإحسان أوجب الله ـ تعالىٰ ـ في أموالهم صدقات زائدة علىٰ فرض الزكاة وذٰلك جزاء ما زادهم من إحسان.

وابتلاء الفقراء والمساكين بالأغنياء لا يكون الفوز منه إلا بالرضىٰ عن الله ـ تعالىٰ ـ، وبما قدره من الفقر والمسكنة، ودفعه بالوسائل المشروعة من التعرض لأرزاقه ـ تعالىٰ ـ بالدعاء الصادق، والضرب في الأرض، ابتغاء فضله. والتوكل عليه واعتقاد أنه لا يحول من الفقر إلىٰ الغنىٰ إلا الله ـ تعالىٰ ـ.

وعدم منازعة الله ـ تعالىٰ ـ قدره بما أنعم به علىٰ الأغنياء حين يراهم يروحون ويسرحون في النعيم والرفاه، فيحسدهم علىٰ ما آتاهم الله من فضله، بتمني زوال النعمة عنهم، أو مناصبتهم العداء، أو إلزامهم فوق ما يجب عليهم.

فإذا تساوىٰ الطرفان في أداء الواجبات كان التفاضل بالتقوىٰ، وإذا كان أحد الطرفين مُقَصِرًا في واجبه كان الطرف الأفضل خيرًا منه، وهٰذا ما تقرره النصوص الشرعية. منها ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلىٰ، والنعيم المقيم، فقال: «**وما ذاك**»؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به مَنْ سبقكم، وتسبقون به مَنْ بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل صنيعكم**»؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله! قال: «**تسبحون وتكبرون وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وتكبرون الله ثلاثًا وثلاثين**». فرجع فقراء المهاجرين إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: «**ذٰلك**

فضل الله يؤتيه من يشاء»[1].

وأما النظرة الدونية للفقراء والمساكين فإنها ليست من الإسلام في شيء، بل هي نظرة جاهلية كما فعلت قريش عندما اصطفىٰ الله محمدًا ﷺ بالرسالة، وقد كان فقيرًا كما حكىٰ الله ـ تعالىٰ ـ عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١]. ولذٰلك صدوا عنه وناصبوا شريعته العداء. وهٰذا التمييز الظالم صدهم عن الهداية كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

وقد عوتب النبي ﷺ حينما وَجَّهَ وجهه إلىٰ الكبراء من قريش رجاء إسلامهم، ونهى عن أن يستجيب لما اشترطوا عدم مخالطة الفقراء لهم في مجلسه. فنهاه الله عزوجل عن ذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ [الأنعام].

ولعظم مكانة الفقراء الاجتماعية في الإسلام أمر الله ـ تعالىٰ ـ نبيه محمدًا ﷺ بحسن صحبتهم وجميل معاشرتهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

ولم يكتف الإسلام بهٰذه النظرة السامية الكريمة للفقراء حتىٰ رفع منزلتهم بجعلهم أداة فعالة من أدوات النصر؛ فقد رَوَىٰ مصعب بن سعد ـ رحمه الله ـ قال: رأىٰ سعد ـ رضي الله عنه ـ أن له فضلاً علىٰ من دونه، فقال رسول الله ﷺ: **«هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»**[2].

وقد امتدح الله الفقراء المؤمنين المخلصين لدينهم بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ [الحشر: ٨].

ونوه الرسول ﷺ بسابقتهم في دخول الجنة، وأنهم أكثر أهلها، وفيه دليل علىٰ رفع مكانتهم الاجتماعية والدينية، إنْ هم صبروا كما روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم (١/٤١٦)، (٥٩٥).

(٢) صحيح البخاري (٣/١٠٦١)، (٢٧٣٩).

عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلىٰ الجنة بأربعين خريفًا. . .**»[1].

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»[2].

عناية الإسلام بالفقراء والمساكين:

لقد عني الإسلام بالفقراء والمساكين أيما عناية، فرعىٰ حاجاتهم المعيشية والنفسية، آمرًا أتباعه بالإحسان إلىٰ الفقراء والمساكين، ومحذرًا إياهم من الإساءة إليهم أو التفريط في أداء حقوقهم، فقال تعالىٰ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم]. وقال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ. . .﴾ [النساء: ٣٦].

وقد رغب في الإنفاق عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥]. ووعد الله ـ تعالىٰ ـ المنفق عليهم بالربح في الدنيا والآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

واستعطف الله ـ تعالىٰ ـ الأغنياء بالصدقة علىٰ الفقراء باسم القرض له، وأن ذٰلك قرض عليه يوفيهم إياه عند قدومهم عليه يوم القيامة بأفضل مما أعطوه من الثواب وجزيل الأجر، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

وحبب الله تعالىٰ الإنفاق إلىٰ النفوس بما يضاعفه للمنفق، فقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وجعل ـ جل ذكره ـ النفقة عليهم طهارة وزكاة للمال والبدن، فقال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا. . .﴾ [التوبة: ١٠٣].

---

(١) صحيح مسلم (٣/١١٤٧)، (٢٩٧٩).

(٢) صحيح البخاري (٥/٢٣٩٧)، (٦١٨٠).

العذاب، فقال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

وشنع الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ أولٰئك الكفرة الذين لا يبالون بحق ضعفائهم في مشاركتهم العيش، فقال تعالىٰ: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]. وفي ذٰلك تنفير للأغنياء المؤمنين من هٰذه الصفة الذميمة وهي صفة البخل.

وخوف الله ـ تعالىٰ ـ الأغنياء مانعي الفقراء والمساكين حقوقهم، محق أموالهم ولو بعد حين، كما حكىٰ الله تعالىٰ عن أصحاب الجنة الذين عزموا عقد الصرام علىٰ حين غفلة من الفقراء والمساكين حتىٰ لا يطعموا منها بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٠].

كما أثنىٰ ـ تعالىٰ ـ علىٰ المحسنين إلىٰ الفقراء والمساكين بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٩].

ميادين الإحسان إلىٰ الفقراء والمساكين:

يحرص المحسن الحقيقي علىٰ تحقيق الأخوة الإيمانية مع إخوانه الفقراء والمساكين، ويزيدهم من بره وإحسانه، بما يسد حاجاتهم ما استطاع إلىٰ ذٰلك سبيلاً، ومنها:

١ ـ الوفاء بحقوقهم الواجبة كالزكاة؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ. . . ﴾ [التوبة: ٦٠]. والأضحية والهدي، وكفارة اليمين، والظهار، وكفارة الجماع في نهار رمضان، والفدية لمن لا يستطيع الصيام، وغيرها.

٢ ـ بذل الجاه والسعي معهم لاستحصال حقوقهم في الأموال العامة كأموال الغنيمة، والفيء؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ. . ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ. . . ﴾ [الحشر: ٧].

ومن ذٰلك حقوقهم في بيت مال المسلمين، وقد كان أصحاب الرسول ﷺ يفعلون ذٰلك، فعن أبي عبدالرحمٰن، عبدالله بن يزيد ـ رحمه الله ـ قال:

ﷺ يفعلون ذٰلك، فعن أبي عبدالرحمٰن، عبدالله بن يزيد ـ رحمه الله ـ قال: جاء ثلاثة نفر إلىٰ عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ وأنا عنده فقالوا: يا أبامحمد إنا والله ما نقدر علىٰ شيء، لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم: «ما شئتم، إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسَّر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم...»[1].

٣ ـ الوفاء بحقوقهم المستحبة والتي هي من باب الواجب علىٰ المحسنين دون غيرهم؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩].

٤ ـ بسط الوجه وحنو الابتسامة، ولين الجانب لهم.

٥ ـ مخالطتهم ومؤاكلتهم ومشاربتهم ورفع مكانتهم؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول: **«شر الطعام طعام الوليمة يدعىٰ لها الأغنياء، ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصىٰ الله ورسوله ﷺ»**[2].

٦ ـ ردهم بموعد صادق للإحسان إليهم، أو بالحسن من القول عند عدم الجِدَةِ، والدعاء لهم بما يسُدُّ خلاتهم.

٧ ـ الرفع من قيمة العمل عند من يقدر عليه منهم، وإرشاده إلىٰ ما يناسب حاله منه؛ لما روي عن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«لأن يأخذ أحدكم أَحْبُلاً فيأخذ حُزْمَةً من حطب، فيبيع، فيكف الله به وجهه خير من أن يسأل الناس أُعْطِيَ أم مُنع»**[3].

٨ ـ الإسهامُ في إقامة المؤسسات الخيرية ومشاريع البر التي تعود بالصالح عليهم ليعيشوا حياة كريمة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة].

الإحسان إلىٰ الفقراء والمساكين من صفات عباد الله المحسنين:

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

صور من الإحسان إلىٰ الفقراء والمساكين:

عن جرير بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار. قال: فجاءه قوم حفاة عُراة مجتابي النمار، أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مُضَرَ، بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢٢٨٥)، (٢٩٧٩).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٩٨٥)، (٤٨٨٢).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٨٣٦)، (٢٢٤٤).

خطب الناس فقال: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء: ١]، إلىٰ آخر الآية. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾. والآية التي في سورة الحشر: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٨]. تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره (حتىٰ قال): ولو بشق تمرة». قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تعجز عنها. بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس، حتىٰ رأيت كومين من طعام وثياب. حتىٰ رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مُذْهَبة. فقال رسول الله ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده. من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[١].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أصاب عمر بخيبر أرضًا، فأتىٰ النبي ﷺ فقال: «أصبت أرضًا لم أصب قط مالاً أنفس منه! فكيف تأمرني به؟ قال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**». فتصدق عمر أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث. في الفقراء والقربىٰ والرقاب، وفي سبيل الله، والضيف، وابن السبيل، لا جناح علىٰ من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقًا غير متمول فيه»[٢]. النمار: أزر مخططة من صوف، وتمعَّر: تغيَّر، والمذهب: المموَّه بالذهب

من ثمرات الإحسان إلىٰ الفقراء والمساكين:

١ ـ أنه يحدث انشراحًا في الصدر، وسعادة في النفس للمحسن بما يرىٰ من سرور الفقراء والمساكين من إحسانه إليهم.

٢ ـ أنه يحدث ترابطًا وثيقًا وتكافلاً بين هاتين الفئتين من المجتمع الإسلامي، فإنَّ النّفوس جُبلت علىٰ حب من أحسن إليها.

٣ ـ أنَّ فيه سلامة لدين الفقراء والمساكين من الوقوع في الحسد المذموم للأغنياء.

٤ ـ أنّه من أسباب النّصر وزيادة الرزق للأفراد والمجتمعات.

٥ ـ عظم أجر المحسنين، ورفع درجاتهم في الآخرة؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الساعي علىٰ الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل، الصائم النهار**»[٣].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٧٠٤)، (١٠١٧).
(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٠١٩)، (٢٦٢٠).
(٣) صحيح البخاري، الفتح (٩/ ٤٩٧) (٥٣٥٣).

هـ ـ الإحسان إلىٰ الخادم والمملوك وابن السبيل :

التعريف:

الخادم: معروف. واحد الخَدَم، ويقع علىٰ الذكر والأنثىٰ. مأخوذ من الخِدْمَة، وهي: المِهْنَة[1].

والمملوك لغة: العبد الذي سُبِيَ ولم يُمْلَكْ أبواه[2]. ويسمىٰ المملوك: رقيقًا[3].

والرِّقُّ في اللغة: الضعف. ومنه رقَّة القلب.

وفي الاصطلاح: عبارة عن عجز حكمي شرع في الأصل عن الكفر.

أما أنه عجز: فلأنه لا يملك ما يملكه الحرُّ من الشهادة والقضاء وغيرهما.

وأما أنه حكمي: فلأنَّ العبد قد يكون أقوىٰ في الأعمال من الحرِّ حسًّا[4].

وأما أنه شرع في الأصل عن الكفر: فمعناه أنه ثبت جزاء للكفر، فإن الكفار لما استنكفوا عن عبادة الله ـ تعالىٰ ـ، وألحقوا أنفسهم بالبهائم، في عدم النظر والتأمل، في إثبات التوحيد، وفي آيات الله ـ تعالىٰ ـ جازاهم الله ـ تعالىٰ ـ بجعلهم عبيد عبيده، متملكين مبتذلين، بمنزلة البهائم، ولذا لا يثبت الرق ابتداء علىٰ المسلم. ثم صار حقًّا للعبد بقاء، بمعنىٰ أن الشارع جعل الرقيق ملكًا من غير نظر إلىٰ معنىٰ الجزاء وجهة العقوبة، حتىٰ يبقىٰ رقيقًا، وإن أسلم واتقىٰ. وضد الرق العتق[5].

وابن السبيل: قال مجاهد ـ رحمه الله ـ هو الذي يجتاز بك مارًّا. والسبيل: الطريق، فنُسب المسافر إليه لمروره عليه ولزومه إياه[6].

مكانتهم وعناية الإسلام بهم:

هٰؤلاء الأصناف الثلاثة من المجتمع الإسلامي، هم من الضعفة الذين أحاطهم الإسلام برعاية خاصة، شأنهم في ذٰلك شأن غيرهم من الضعفاء كاليتامىٰ والأرامل والفقراء والمساكين، إلا أن ابن السبيل قد يكون قويًّا مكتسبًا في بلده، فلما لزم الطريق ضاقت نفقته أو فقدت منه، فوجبت رعياته حتىٰ يغتني أو يعود إلىٰ بلده.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) اللسان (١٠/ ٤٩٣).

(٣) انظر: القاموس المحيط (١١٤٥).

(٤) التعريفات (١١١).

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٢٤).

وأما الخادم فقد يكون مملوكًا، وقد يكون أجيرًا، له حكم الأجير من الوفاء بالعقود والإحسان في معاملته.

وقد أثبت الرسول ﷺ أخوة المماليك للسادة بما روي عن المعرور بن سويد ـ رحمه الله ـ قال: لقيت أباذر ـ رضي الله عنه ـ بالرَّبَذَةِ وعليه حُلَّة، وعلىٰ غلامه حُلَّةٌ فسألته عن ذٰلك فقال: إني ساببت رجلاً فعيَّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: **«يا أباذر أعيَّرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خَوَلُكُم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليُلْبِسْهُ مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»**[1].

وقد أمر الله ـ تعالىٰ ـ بالإحسان إلىٰ المماليك وابن السبيل بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦].

ورغب ـ تعالىٰ ـ في الإنفاق علىٰ ابن السبيل فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ . . . ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وجعل له حقًّا في أموال الأغنياء يسد به حاجته، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الروم: ٣٨].

وجعله من مصارف الزكاة الواجبة كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠].

وأوجب له حقًّا في أموال الغنيمة والفيء، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ . . . ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . . . ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٥١)، (٣٠).

وقد توعَّد الله ـ تعالىٰ ـ من يمنع ابن السبيل حقه الواجب ولا سيما ما تتوقف حياته عليه بأشد العقوبة في الآخرة، كما روىٰ أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إلٰه غيره لقد أُعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل**» ثم قرأ هٰذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا. . .﴾ [آل عمران: ٧٧][(١)].

وقد أشرك عمر ـ رضي الله عنه ـ ابن السبيل فيما تصدق به من أرضه التي أوقفها بخيبر[(٢)].

وأعظم من ذٰلك ما فعله النبي ﷺ من رعاية ابن السبيل حتىٰ بعد موته، كما روىٰ عمرو بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة»[(٣)].

وفي قصة الثلاثة الذين امتحنهم الله ـ تعالىٰ ـ بابن السبيل دليل علىٰ مكانته وعناية الإسلام به، كما رواها أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمىٰ، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم مَلَكًا، فأتىٰ الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قَذِرَني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا، وجلدًا حسنًا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر، هو شك في ذٰلك ـ: أن الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر ـ، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يُبارَكُ لك فيها. وأتىٰ الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هٰذا، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يبارك لك فيها. وأتىٰ الأعمىٰ فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدًا، فأنتج هٰذان وولَّد هٰذا، فكان لهٰذا وادٍ من إبل، ولهٰذا وادٍ من بقر، ولهٰذا وادٍ من الغنم. ثم إنه أتىٰ الأبرص في صورته**

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٨٣١)، (٢٢٣٠).

(٢) انظر الحديث في صحيح البخاري (٢/ ٩٨٢)، (٢٥٨٦).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٠٠٥) (٢٥٨٨).

وهيئته، فقال: رجل مسكين، تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيرًا أتبلَّغ عليه في سفري. فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثتُ لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت. وأتىٰ الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهٰذا، فردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هٰذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلىٰ ما كنت. وأتىٰ الأعمىٰ في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل. وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمىٰ فردَّ الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط علىٰ صاحبيك»(1).

وقد رخص الإسلام لابن السبيل استعمال المراكب وأموال الصدقة والإفادة من نتاجها. قال البخاري ـ رحمه الله ـ باب: استعمال إبل الصدقة وألبانها لأبناء السبيل، وذكر حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن ناسًا من عُرَيْنَةَ اجتووا المدينة، فرخص لهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا الراعي واستاقوا الذَّوْدَ، فأرسل رسول الله ﷺ، فأُتِيَ بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَرَ أعينهم، وتركهم بالحرة يعضون الحجارة»(2).

وأما الرقيق فقد تشوف الإسلام إلىٰ عتقهم في مثل كفارة القتل الخطأ، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ . . .﴾ [النساء: ٩٢]. وكفارة الظهار؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا . . .﴾ [المجادلة: ٣].

وكفارة اليمين، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ . . .﴾ [المائدة: ٣١]. وقد جعل الإسلام من مصارف الزكاة فك الرقاب كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠]. قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «﴿وفي الرقاب﴾ أي: في فك

---

(1) صحيح البخاري (٣/١٢٧٦)، (٣٢٧٧).

(2) صحيح البخاري (٣/٥٤٦)، (١٤٣٠)، باب (٦٧).

الرقاب، قاله ابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وهو مذهب مالك وغيره ـ رحمهم الله ـ. فيجوز للإمام أن يشتري رقابًا من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين، ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين، وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز»[1].

ميادين الإحسان إلىٰ الخادم والمملوك وابن السبيل:

أولًا: الإحسان إلىٰ الخادم والمملوك:

المحسن الصادق، لا تمنعه مكانته من التواضع لخدمه ومماليكه والإحسان إليهم بضروب البر، ومنها:

١ ـ أن يكون المحسن لين العريكة، سهل التعامل، يمسك عن العتاب المقذع؛ لما روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ليس له خادم، فأخذ أبوطلحة بيدي، فانطلق بي إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أنسًا غلام كَيِّسٌ، فليخدمك. قال: فخدمته في السفر والحضر ما قال لي لشيء صنعته: لِمَ صنعتَ هٰذا هٰكذا، ولا لشيء لَمْ أصنعه: لِمَ لَمْ تصنع هٰذا هٰكذا»[2].

٢ ـ النفقة عليه بما يسد حاجته إن كان مملوكًا. ولا يكلف من العمل ألا ما يُطيق، سواء أكان مملوكًا أم أجيرًا؛ لما روي عن خيثمة ـ رحمه الله ـ قال: كنا جلوسًا مع عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ إذ جاءه قَهْرَمان له فدخل، فقال: أعطيت الرَّقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم. قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفىٰ بالمرء إثمًا أن يحبس عمَّن يملك قوته**»[3]. والقهرمان الخازن.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**للملوك طعامُهُ وكسوتُهُ، ولا يُكلَّف من العمل إلا ما يطيق**»[4].

٣ ـ مراعاة حالته النفسية، فلا يقول: عبدي وأمتي، ولا يقول: أطعم ربك، وما شابهها من الألفاظ، كما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يقل أحدكم: أطعم ربَّك. . اسق ربك، وليقلْ: سيِّدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأَمَتي، ولْيقُلْ: فتايَ وفتاتي وغلامي**»[5].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «ندب السادةَ إلىٰ مكارم الأخلاق،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١١٥).
(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٠١٨)، (٢٦١٦).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٦٩٢)، (٩٩٦).
(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٢٨٤)، (١٦٦٢).
(٥) صحيح البخاري (٢/ ٩٠١)، (٢٤١٤).

وحضَّهم عليها، وأرشدهم إلىٰ الإحسان وإلىٰ سلوك التواضع؛ حتىٰ لا يروا لأنفسهم مَزِيَّةً علىٰ عبيدهم؛ إذ الكل عبيد الله، والمال مال الله، لٰكن سخر بعضهم لبعض، وملَّك بعضهم بعضًا؛ إتمامًا للنعمة، وتنفيذًا للحكمة، فإن أطعموهم أقل مما يأكلون، وألبسوهم أقل مما يلبسون صفةً ومقدارًا جاز إذا قام بواجبه عليه، ولا خلاف في ذٰلك. والله أعلم»[1].

٤ ـ الترفق بالمملوك وعدم عقابه إلا في حدٍّ يوجب ذٰلك؛ وذٰلك لما روي عن جرير ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**»[2]، ولِما روي عن زاذان أن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ دعا بغلام له فرأىٰ بظهره أثرًا، فقال له: أَوْجَعْتُكَ؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق، قال: ثم أخذ شيئًا من الأرض فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هٰذا؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ضرب غلامًا له حدًّا لم يأته أو لطمه فإن كفارته أن يعتقه**»[3].

٥ ـ ومن أعظم الإحسان إلىٰ المملوك عتقه أو مكاتبته، وإعانته علىٰ ذٰلك؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّما امْرِىءٍ مسلم أعتق امرءًا مسلمًا، استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا من النار**». قال سعيد بن مرجانة (صاحب علي بن الحسين) ـ رضي الله عنه ـ، فذكرته لعلي بن الحسين، فأعتق عبدًا له قد أعطاه به ابن جعفر عشرة آلاف درهم، أو ألف دينار»[4].

وأما في مكاتبة المملوك فيقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]. قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «إن العبد إن طلب الكتاب فالمستحب كتابته»[5].

وقيل نزلت هٰذه الآية في غلام لحويطب بن عبدالعزىٰ يقال له صبح، وقيل صبيح، طلب من مولاه أن يكاتبه، فأبىٰ، فأنزل الله ـ تعالىٰ ـ هٰذه الآية، فكاتبه حويطب ـ رضي الله عنه ـ علىٰ مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا، فأداها، وقتل بحنين في الحرب[6]. والمكاتبة: طلب العتق.

٦ ـ مؤاكلة الخادم ومشاربته، فإن ذٰلك أدعىٰ لمودته وحسن عشرته؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أتىٰ**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٢٤).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠٣)، (٢٥٩٢).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٧٨)، (١٦٥٧).
(٤) صحيح مسلم (١/ ١١٤٧)، (١٥٠٩).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٦٢).
(٦) المرجع السابق.

أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين، فإنه وَلِيَ علاجه»[1].

٧ ـ الدعاء للخادم مملوكًا كان أم غير مملوك، بالخير والصلاح؛ لما روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت أمي، أم أنس، إلىٰ رسول الله ﷺ، وقد أزرتني بنصف خمارها وَرَدَّتْني بنصفه، فقالت: يا رسول الله هٰذا أُنيس ابني أتيتك به يخدمُك، فادع الله له، فقال: **«اللهم أكثر ماله وولده»**. قال أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادُّون علىٰ نحو المائة اليوم[2].

٨ ـ العفو عن الخادم؛ لما روي عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كان في الثالثة قال: **«اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة»**[3].

٩ ـ حسن تعليم الرقيق وتأديبهم، وإن كانت أمة أحسن إليها بعتقها والزواج منها؛ لما روي عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أدَّب الرجل أَمَتَهُ، فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، كان له أجران، وإذا آمن بعيسىٰ ثم آمن بي، فله أجران، والعبد إذا اتقىٰ ربه وأطاع مواليه فله أجران»**[4].

١٠ ـ الوفاء بالعقود المبرمة بين الخادم الأجير وصاحب الخدمة، ومنها ألا يكلفه من العمل ما لم ينص عليه في العقد إلا بحقه، وأن يدفع إليه أجرته ساعة إنهاء العمل من دون مماطلة أو بخس، وأن يحط عنه من العمل إن كان فوق قدرته أو غبنه في قيمته، أو يزيده في قيمة الأجرة المتفق عليها، وأن لا يقول له إلا حسنًا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: **«قال الله: ثلاثة أنا خَصْمُهم يوم القيامة: رجل أعطىٰ بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفىٰ منه ولم يعطِ أجره»**[5].

وفي حديث الثلاثة الذين آووا إلىٰ الغار، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، عن رسول الله ﷺ قال: «. . . **وقال: الآخر: اللهم إني كنت**

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٩٠٢)، (٢٤١٨).
(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٩٢٩)، (٢٤٨١).
(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٢٧١)، (٣٢٦٢).
(٤) صحيح البخاري (٣/ ١٢٧١) (٣٢٦٢).
(٥) صحيح البخاري (٢/ ٧٧٦)، (٢١١٤).

استأجرت أجيرًا بفرق أرُزٍّ، فلما قضىٰ عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتىٰ جمعت منه بقرًا وراعيها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني، وأعطني حقي، فقلت: اذهب إلىٰ تلك البقر وراعيها، فقال: اتق الله ولا تهزأ بي، فقلت: إني لا أهزأ بك، فخذ تلك البقر وراعيها، فأخذه فانطلق بها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذٰلك ابتغاء وجهك، فافرج ما بقي. ففرج الله عنهم»[1].

ثانيًا: ميادين الإحسان إلىٰ ابن السبيل:

السفر مشقة، وهو قطعة من العذاب، لا سيما من لا دراية له بالأسفار، فما الظن برجل مسافر ناءٍ عن أهله وبلده وعشيرته، وقفت به ذات اليد، فلا سفره أتم ولا في أهله بقي، فالغالب عليه الجوع والعطش ورثاثة الحال، ناهيك عن انكسار نفسه بتعرضه للمسألة سيما إن كان في قومه عزيزًا أو مستور الحال. وقد راعت الشريعة الإسلامية حاجة ابن السبيل أشد رعاية فأمرت بالإحسان إليه ورغبت فيه، ومن ذٰلك:

١ ـ الإحسان إلىٰ ابن السبيل بإصلاح طريقه بما ييسر عليه مسيره في سهولة وسرعة، وإعانته علىٰ إصلاح مركبه أو حمولته، ودلالته على الطريق إن ضل عنها، وأحسنها إن اشتبهت عليه أو جهلها. لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل سُلامىٰ من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يَعْدِلُ بين اثنين صدقة، ويعين الرجل علىٰ دابته، فيحمله عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلىٰ الصلاة صدقة، ويميط الأذىٰ عن الطريق صدقة**»[2]. وفي رواية له: «**ودلُّ الطريق صدقة**»[3].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك علىٰ الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له..**»[4]. وفي رواية له: «فقال: **والله لأنحينَّ هٰذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم، فأُدخل الجنة**»[5]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قضىٰ النبي ﷺ إذا تشاجروا في الطريق بسبعة أذرع»[6]. قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «والحكمة في جعلها سبعة أذرع لتسلكها الأحمال والأثقال دخولاً

(١) صحيح البخاري (٥/٢٢٢٨)، (٥٦٢٩).
(٢) صحيح البخاري (٣/١٠٩٠)، (٢٨٢٧).
(٣) صحيح البخاري (٣/١٠٥٩)، (٢٧٣٤).
(٤) صحيح البخاري (١/٢٣٣)، (٦٢٤).
(٥) صحيح مسلم (/)، (١٩١٤).
(٦) صحيح البخاري (٢/٨٧٤)، (٢٣٤١).

وخروجًا»[1].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**عُرِضت عليَّ أعمال أمتي حَسَنِها وسيِّئها، فوجدت من محاسن أعمالها الأذىٰ يُماط عن الطريق..**»[2].

٢ ـ ومن الإحسان إلىٰ ابن السبيل غض البصر عن محارمه، وكَفُّ الأذىٰ عنه، وردُّ السلام عليه، وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر؛ لِما روي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوسَ علىٰ الطرقات**»، قالوا: ما لنا بد؛ إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «**فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقَّها**». قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غضُّ البصر، وكف الأذىٰ، وردُّ السلام، وأمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر**»[3].

٣ ـ عدم العبث بما يُستظل به من أشجار وغيرها؛ لما روي عن عبدالله بن حبشي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قطع سِدْرَةً صوَّبَ الله رأسه في النار**». وسُئل أبو داود ـ رحمه الله ـ عن معنىٰ هٰذا الحديث، فقال: «هٰذا حديث مختصر يعني: من قطع سدرة في فَلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلمًا، بغير حق يكون له فيها، صوَّب الله رأسَه في النار»[4].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا اللَّعانين**». قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: «**الذي يتَخَلَّىٰ في طريق الناس أو في ظلهم**»[5].

٤ ـ الحرص علىٰ سلامة ابن السبيل حتىٰ يبلغ أهله؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حقها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنة فأسرعوا السير، وإذا عرَّسْتُم بالليل فاجتنبوا الطريق؛ فإنها مأوىٰ الهوام بالليل**»[6]. وفي رواية: «**طريق الدواب ومأوىٰ الهوام**».

---

(١) فتح الباري (٤/ ١٥٠).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٩٠)، (٥٥٣).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٨٧٠)، (٢٣٣٣).

(٤) سنن أبي داود (٥/ ٤٠٤)، (٥٢٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٤)، (٦٤٧٦).

(٥) صحيح مسلم (١/ ٢٢٦)، (٢٦٩).

(٦) صحيح مسلم (٢/ ١٥٢٥)، (١٩٢٦).

والتعريس: النزول في أواخر الليل للنوم والراحة.[1]

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «أرشد إليه ﷺ؛ لأن الحشرات ودوابَّ الأرض من ذوات السموم والسباع تتمشَّىٰ في الليل علىٰ الطريق لسهولتها...»[2].

٥ ـ ومن الإحسان إليه الصدقة عليه، والإسهام في مشاريع الخير الدائمة لرعايته، من إيقاف العقارات وغيرها. وفي ذٰلك حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان! فتنحَّىٰ عن ذٰلك السحاب فأفرغ ماءه في حرَّة، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبت ذٰلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحوِّل الماء بمسحاته! فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السَّحابة! فقال له: يا عبدالله: لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هٰذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك! فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هٰذا فإني أنظر إلىٰ ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثه**». وفي رواية له: « **وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل**»[3].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن عمر ـ رضي الله عنه ـ تصدَّق بمال له علىٰ عهد رسول الله ﷺ، وكان يقال له ثَمْغٌ، وكان نخلاً، فقال عمر: يا رسول الله: إني استفدت مالاً وهو عندي أنفس، فأردت أن أتصدق به، فقال النبي ﷺ: «**تصدَّقْ بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث، ولٰكن ينفق ثمره**، فتصدَّق به عمر فصدقته **تلك** في سبيل الله والرقاب والمساكين والضيف وابن السبيل ولذي القربىٰ، ولا جناح علىٰ من وليه أن يأكل منه بالمعروف أو يوكل صديقه غير متمول به»[4]. الحرة: هي الأرض ذات الحجارة السود والشرجة: مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، وذكر الحديث، وفيه: «**وإن هٰذا المال خضرة حلوة، ونِعْمَ صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة**»[5].

٦ ـ تطبيبه وتمريضه إن احتاج إلىٰ ذٰلك، وإعانته إن ألمت به كوارث،

---

(١) شرح صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح مسلم (٣/ ٢٢٨٨)، (٢٩٨٤).

(٤) صحيح البخاري (٣/ ١٠١٧)، (٢٦١٣).

(٥) صحيح البخاري (٣/ ١٠٤٥)، (٢٦٨٧).

كما هو الحال الآن في حوادث المواصلات المروعة، والقيام بواجب الأخوة الإيمانية إن مات من غسل وتكفين وصلاة عليه ودفن له. فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه أقبل هو وأبوطلحة مع النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ صفية مردفها علىٰ راحلته فلما كانوا ببعض الطريق عثرت الناقة، فصرع النبي ﷺ والمرأة، وإن أباطلحة قال: أحسب قال: اقتحم عن بعيره، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله جعلني الله فداءك هل أصابك من شيء؟ قال: «**لا، ولٰكن عليك بالمرأة**»، فأبقىٰ أبوطلحة ثوبه علىٰ وجهه، فقصد قصدها، فألقىٰ ثوبه عليها، فقامت المرأة فشد لهما علىٰ راحلتهما فركبا فساروا حتىٰ إذا كانوا بظهر المدينة، أو قال: أشرفوا علىٰ المدينة، قال النبي ﷺ: «**آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون**»، فلم يزل يقولها حتىٰ دخل المدينة»(١).

٧ - إيواؤه وإطعامه حتىٰ يرحل. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته، بعد موته، علمًا نشره، وولدًا صالحًا تركه، ومصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته**»(٢).

الإحسان إلىٰ ابن السبيل والمماليك والخدم من صفات المحسنين:

قال الله - تعالىٰ -: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٣٦].

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، واللهِ ما قال لي أُفًّا قط، ولا قال لي لشيء لِمَ فعلت كذا، وهلاَّ فعلت كذا»(٣).

صور من الإحسان إلىٰ ابن السبيل والخادم والمملوك:

عن أبي عبدالرحمٰن السلمي - رحمه الله - قال: لما حُصِرَ عثمان - رضي الله عنه - أشرف عليهم فوق داره ثم قال: «**أُذكِّرُكُمْ** بالله هل تعلمون أن حراء حين انتفض قال رسول الله ﷺ: «**اثبت حراء، فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد**»؟ قالوا: نعم، قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العُسْرَةِ: «**من ينفق نفقة متقبلة**». والناس مُجْهَدون

(١) صحيح البخاري (٣/ ١١٢٢)، (٢٩٢٠).

(٢) سنن ابن ماجه (١/ ٨٨) (٢٤٢)،وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٤٣) (٢٢٣١).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٨٦٢) (٢٣٠٩).

معسرون، فجهزت ذٰلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن، فابتعتها، فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: نعم، وأشياء عدَّها»[١].

وعن ابن العباس ـ رحمه الله ـ أن نفرًا وردوا علىٰ عجوز في بعض البوادي يسألونها بيع شاة، فقالت: «ما كنت لأبيع ابن السبيل شيئًا، ولٰكن خذوها علىٰ ما عند الله. . .»[٢].

ـ وأما صور الإحسان إلىٰ الخادم والمملوك فمنها:

عن أبي قلابة ـ رحمه الله ـ: «أن رجلاً أتىٰ سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ فوجده يعتجن، فقال: أين الخادم؟ فقال: أرسلته في حاجة، قال: لم يكن ليجتمع عليه شيآن! أن نرسله ولا نكفيه عمله. . .»[٣].

عن رياح بن جراح العبدي ـ رحمه الله ـ قال: جاء فتح الموصلي إلىٰ منزل صديق له يقال له عيسىٰ التمار، فلم يجده، فقال للخادم: أخرج إليَّ كيس أخي، فأخرجته ففتحه وأخذ منه درهمين، وجاء عيسىٰ إلىٰ منزله فأخبرته الخادم بمجيء فتح وأخذ الدرهمين، فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة، فنظر فإذا هي صادقة، فعتقت»[٤].

من ثمرات الإحسان إلىٰ ابن السبيل والخادم والمملوك:

١ ـ أن كل ما يقدمه المحسن لهٰؤلاء الأصناف صدقة علىٰ نفسه له أجرها يوم القيامة.

٢ ـ أن الإحسان إليهم نماء في المال والنفس والولد.

٣ ـ أن الإحسان إليهم من موجبات رحمة الله للمحسنين.

٤ ـ أن في ذٰلك دليلاً علىٰ صدق الأخوة وتكافل المجتمع المسلم.

و ـ الإحسان إلىٰ المجتمع :

التمهيد:

إن المحقق المنصف يستبين له من أول وهلة إذا طالع النصوص الشرعية في الإسلام أنه دين لم يهتم بأمور الآخرة فحسب، بل هو دين شامل كامل يهتم بشؤون الدنيا، والعلاقات الاجتماعية بين الناس، قريبًا من اهتمامه بعلاقة الناس مع خالقهم مرتبًا علىٰ ذٰلك الثواب والعقاب.

فإذا كان الأفراد هم أساس المجتمعات، والدعائم التي يبنىٰ عليها كل نهضة اجتماعية، فقد عُنِيَت الشريعة الإسلامية أشد العناية بتربية المسلم،

---

(١) سنن الترمذي (٥/٦٢٥)، (٣٦٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/٢٠٨).

(٢) صفة الصفوة (٤/٣٩٣).

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي (٦/ ٤٦٥)، (٨٩٢١).

(٤) الإخوان، لابن أبي الدنيا (١/ ٢٠٥)، (١٦٢).

فنمت فيه جوانب الخير والبناء، وَسَلَّت من نفسه نزعات الشر والهدم؛ ليغدو فردًا محسنًا، إذ من مجموع الأفراد المحسنين يتكون المجتمع المحسن القوي الراقي النظيف.

لذٰلك نجد المحسن الواعي لأحكام دينه اجتماعيًّا بطبعه لا يوصد قلبه وبيته دون مجتمعه ليقطع علاقته بهم فيحيا بعيدًا عنهم؛ لأنه صاحب رسالة في الحياة، وأصحاب الرسالات لا بد لهم من الاتصال بالناس، يخالطونهم، ويعاملونهم، ويبادلونهم الأخذ والعطاء.

وهو بهٰذه الشخصية الاجتماعية التي استنارت بهدي القرآن، وارتوت من منهل السنة النبوية الصحيحة نسيجُ وَحْدِهِ، وطرازٌ رفيع في علاقة الإنسان المهذب الراقي النبيل المتَحلي بمكارم الأخلاق الإسلامية، لا تلك العلاقات المصطنعة التي تخفي وراءها المآرب والأغراض النفعية فقط[1].

ميادين الإحسان إلىٰ المجتمع المسلم:

ميادين الإحسان إلىٰ المجتمع المسلم كثيرة ومتنوعة، منها:

أولاً: حسن الخلق:

أ ـ تعريفه:

تعريفه لغة: قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: الحاء والسين والنون أصل واحد. فالحُسْنُ: ضد القبح، ويقال: رجل حَسَنٌ، وامرأة حَسْناءُ، وحُسَّانَةٌ، والحُسْنُ: الجَمَالُ[2].

ـ والخُلُق: اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها[3].

واصطلاحًا: قال الماوردي ـ رحمه الله ـ: الأخلاق: غرائز كامنة، تظهر بالاختبار، وتقهر بالاضطرار[4].

وقال في موضع آخر: حسن الخلق: أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة[5].

وقال الجرجاني: الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة يصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلىٰ فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعًا بسهولة، سميت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذٰلك خلقًا سيئًا، وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال علىٰ الندور

---

(١) انظر: شخصية المسلم ص(٢١٥).
(٢) المقاييس (٢/ ٥٧).
(٣) المقاييس (٢/ ٢١٤).
(٤) تسهيل النظر وتعجيل الظفر (٥).
(٥) أدب الدنيا والدين (٢٣٧).

بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذٰلك في نفسه[1].

وعن عبدالله بن المبارك ـ رحمه الله ـ في تفسير حسن الخلق، قال: «هو: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذىٰ»، وعنه قال: «حسن الخلق أن لا تغضب ولا تحقد»[2].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «حسن الخلق أن لا تغضب ولا تحقد»[3].

تحسين الأخلاق وتقويمها:

من الأخلاق ما هو جِبِلِّيٌّ، وما هو مكتسب، وقد أخطأ من قال إن الأخلاق غرائز نفسية لا يمكن تقويمها، يرد ذٰلك النصوص الشرعية التي تقرر أن الأخلاق الكريمة منها ما يطبع عليه صاحبه، وهٰذا محض فضل من الله ـ تعالىٰ ـ، ومنها ما يمكن تحصيله بالمجاهدة، وفي حديث أشج عبد القيس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**». قال: يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم جبلني عليهاأو حديثاً؟ قال: «**بل الله جبلك عليها**»، قال: «الحمد لله الذي جبلني علىٰ خلتين يحبهما»[4].

وعقب ابن حجر ـ رحمه الله ـ علىٰ هٰذا الحديث بقوله: «فترديده السؤال وتقريره عليه يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي، وما هو مكتسب»[5].

ونقل عن القرطبي قوله: «الخلق جبلة في نوع الإنسان، وهم في ذٰلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها، إن كان محمودًا، وإلا فهو مأمور بالمجاهدة فيه حتىٰ يصير محمودًا، وكذا إن كان ضعيفًا فيرتاض صاحبُهُ حتىٰ يقوىٰ»[6].

ومن الأدلة علىٰ إمكانية تحسين الأخلاق وتقويمها:

١ ـ أن الله أمر بحسن الخلق، فكيف يأمر بما لا طاقة إليه، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

٢ ـ أن الرسول ﷺ كان يدعو الله ـ تعالىٰ ـ في حسن الخلق، فكيف يدعو الله إلىٰ ما لا سبيل إليه.

---

(١) التعريفات، للجرجاني (١٠٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (١٦٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (١٦٠).

(٤) سنن أبي داود(٥/ ٣٩٥) (٥٢٢٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٨١) (٤٣٥٤).

(٥) فتح الباري (١٠/ ٤٥٩).

(٦) المصدر السابق.

٣ ـ أنه بالمشاهدة نرىٰ تغير أخلاق الناس وحتىٰ الحيوانات، كل ذٰلك دليل واضح، ولم يبق عذر لسيء الخلق في مجاهدة نفسه إلىٰ حسن الخلق[١].

أقسام حسن الخلق:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «حسن الخلق قسمان: أحدهما مع الله ـ عز وجل ـ وهو أن تعلم أن كل ما يكون منك يوجب عذرًا، وأن كل ما يأتي من الله يوجب شكرًا، فلا تزال شاكرًا له معتذرًا إليه سائرًا إليه بين مطالعة مِنَّتِهِ، وشهود عيب نفسك وأعمالك.

والثاني: حسن الخلق مع الناس، وجماعه أمران: بذل المعروف قولاً وفعلاً، وكف الأذىٰ قولاً وفعلاً. وهٰذا إنما يقوم علىٰ أركان خمسة: العلم، والجود، والصبر، وطيب العود، وصحة الإسلام.

(١) أما العلم: فلأنه به يعرف معالي الأخلاق وسفاسفها، فيمكنه أن يتصف بهٰذا ويتحلىٰ به، ويترك هٰذا ويتخلىٰ عن هٰذا.

(٢) وأما الجود: فسماحة نفسه وبذلها وانقيادها لذٰلك إذا أراده منها.

(٣)وأما الصبر: فلأنه إن لم يصبر علىٰ احتمال ذٰلك والقيام بأعبائه لم يتهيأ له.

(٤) وأما طيب العود: فَأَنْ يكون الله ـ تعالىٰ ـ خَلَقَهُ علىٰ طبيعة منقادة سهلة الانقياد، وسريعة الاستجابة لداعي الخيرات.

(٥) وأما صحة الإسلام: فهي جِماع ذٰلك، والمصحح لكل خلق حسن، فإنه بحسب قوة إيمانه وتصديقه بالجزاء، وحسن موعود الله وثوابه، يسهل عليه تحمل ذٰلك ويلذُّ له الاتصاف به، والله الموفق والمعين»[٢].

وقال القزويني ـ رحمه الله ـ: ومعنىٰ حسن الخلق: «سلامة النفس نحو الأرْفَقِ الأحمد من الأفعال، وقد يكون ذٰلك في ذات الله ـ تعالىٰ ـ، وقد يكون فيما بين الناس»[٣].

أما ما يتعلق بذات الله ـ عز وجل ـ فهو: «أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله ـ تعالىٰ ـ ونواهيه، بفعل ما فُرِضَ عليه، طيب النفس به، سَلِسًا نحوه، وينتهي عما حرم عليه، راضيًا به، غير متضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، ويترك كثيرًا من المباح لوجهه ـ تعالىٰ وتقدَّس ـ، إذا رأىٰ أن تركه أقرب إلىٰ العبودية من فعله، مستبشرًا لذٰلك، غير ضَجِرٍ منه، ولا

---

(١) انظر: نحو ثقافة إسلامية، للأشقر (١٦٢ ـ ١٦٣).

(٢) تهذيب السنن، شرح سنن أبي داود (١٣/ ١٣٠).

(٣) مختصر شعب الإيمان (١١٦).

متعسر به».

أما في المعاملات بين الناس فهو: «أن يكون سمحًا لحقوقه، لا يطالب غيره بها، ويوفي ما يجب لغيره عليه منها، فإن مرض ولم يعد، أو قدم من سفر فلم يزر، أو سلَّم فلم يرد عليه، أو ضاف فلم يكرم، أو شفع فلم يجب، أو أحسن فلم يشكر، أو دخل علىٰ قوم فلم يمكَّن، أو تكلم فلم ينصت له، أو استأذن علىٰ صديق فلم يؤذن له، أو خطب فلم يزوَّج، أو استمهل الدَّيْنَ فلم يمهل، أو استنقص منه فلم ينقص، وما أشبه ذٰلك، ولم يغضب، ولم يعاقب، ولم يتنكر من حاله حالٌ، ولم يستشعر في نفسه أنه قد حُفِيَ وأُوحش، وأنه لا يقابل كل ذٰلك إذا وجد السبيل إليه بمثله، بل يضمر أنه لا يعتد بشيء من ذٰلك، ويقابل كلاًّ منه بما هو أحسن وأفضل وأقرب منه إلىٰ البر والتقوىٰ، وأشبه بما يُحْمَدُ ويُرْضَىٰ، ثم يكون في إيفاء ما يكون عليه، كهو في حفظ ما يكون له، فإذا مرض أخوه المسلم عاده، وإن جاء في شفاعة شفَّعه، وإن استمهله في قضاء دَيْنٍ أمهله، وإن احتاج منه إلىٰ معونة أعانه، وإن استسمحه في بيع سمح له، ولا ينظر إلىٰ أن الذي يعامله كيف كانت معاملته إياه فيما خلا، وكيف يعامل الناس، إنما يتخذ الأحسن إمامًا لنفسه، فينحو نحوه ولا يخالفه»[1].

وقد أحسن القاضي عياض ـ رحمه الله ـ عندما قال: «وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء علىٰ تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها فضلاً عما فوقه، وأثنىٰ الشرع علىٰ جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق، وهو الاعتدال في قوىٰ النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلىٰ غايتها»[2].

وكل ما سبق ذكره عن أنواع وأقسام حسن الخلق إنما هو علىٰ سبيل الإجمال والتمثيل وذكر الأهم وليس علىٰ سبيل الحصر وفيما تقدم من أول هٰذه الرسالة، وما سيأتي بيان لجملة وافرة من أنواع حسن الخلق.

وقد قرر الفيروزآبادي ـ رحمه الله ـ أن الخلق يقوم علىٰ أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل. فالصبر يحمله علىٰ الاحتمال وكظم الغيظ وإماطة الأذىٰ والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.

---

(١) مختصر شعب الإيمان (١١٦ ـ ١١٧).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ (١/١٢٦).

والعفة تحمله علىٰ اجتناب الرذائل والقبيح من القول والفعل. وتحمله علىٰ الحياء وهو ركن كل خير، وتمنعه من الفحش والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشجاعة تحمله علىٰ عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشِّيَم، وعلىٰ البذل والندىٰ الذي هو شجاعة النفس وقوتها علىٰ إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله علىٰ كظم الغيظ والحلم فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن السطوة والبطش؛ كما قال النبي ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**». وهٰذه هي حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر معها علىٰ قهر خصمه.

والعدل يحمله علىٰ اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله علىٰ خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والتقتير، وعلىٰ خلق الحياء الذي هو توسط بين الذلة والقحة، وعلىٰ خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلىٰ خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة. والتوسط منشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هٰذه الأربعة[1].

مكانة حسن الخلق وفضله:

لم يعط الإنسان نعمة هي أجمل ولا أفضل من حسن الخلق، ولا يسع الناس منك شيء مثل حسن الخلق، وإن كاد حسن الخلق ليذهب بخيري الدنيا والآخرة. وأهله المؤمنون هم صفوة الله ـ تعالىٰ ـ في الأرض، ولولاهم لأظلمت الدنيا علىٰ كل ذي مروءة. وقد جاءت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية تترىٰ تأمر به، وتنهىٰ عن ضده، وترفع شأن أهله. فقال ـ تعالىٰ ـ في الإحسان إلىٰ الناس فعلاً وقولاً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ

(١) بصائر ذوي التمييز (٢/ ٥٦٩).

﴿مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٣ ـ ٣٥].

ومن خصال الأخلاق الكريمة ما ذكره الله من صفات عباده المخلصين بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢ ـ ٧٢].

وبالأخلاق كان الصالحون يوصون أتباعهم كما حكىٰ الله ـ تعالىٰ ـ عنهم بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٧ ـ ١٩].

وقال ـ تعالىٰ ـ مادحًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «جمع النبي ﷺ بين تقوىٰ الله وحسن الخلق؛ لأن تقوىٰ الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوىٰ الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلىٰ محبته»[1].

ولعل من الأحسن أن نقول إن حسن الخلق يصلح ما بين العبد وربه، وما بينه وبين الناس؛ لأن النبي ﷺ كان حسن الخلق، وإنما كان يتخلق بما في القرآن، يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، ويقف عند متشابهه، كما ورد عن أمنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ، أن سعد بن هشام سألها فقال: يا أم

---

(١) الفوائد (٧٥).

المؤمنين: أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[1].

وذلك استجابة منه ﷺ لوصية الله - تعالىٰ - بحسن الخلق كما في حديث عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما - في قوله - تعالىٰ -: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وعنه - أيضًا - قال: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، أو كما قال»[2].

ومن هنا عظم النبي ﷺ شأن الخلق الحسن وسمو مكانته، ورفعة درجاته حتىٰ جعل البر تلك الكلمة الجامعة لخصال الخير قاطبة كله أو أعظم خصاله هو حسن الخلق، فعن النواس بن سمعان - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[3].

وقد أدرك النبي ﷺ أن حسن الخلق خير نعمة أعطيها العبد، فعن أسامة بن شريك - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «**خير ما أعطي الناس خُلُقٌ حسن**»[4].

وهٰكذا يسمو الرسول ﷺ بمكانة الخلق الحسن حتىٰ حصر رسالته ﷺ فيه، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[5].

كما جعل النبي ﷺ حسن الخلق شارة واضحة للخيرية وكمال الإيمان، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا**»[6].

وقد كان النبي ﷺ يدعو الله - تعالىٰ - في حسن الخلق، كما روىٰ عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم كما**

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٥)، (٧٤٦).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (٨/ ٣٠٥)، (٤٦٤٣، ٤٦٤٤).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٩٠٨)، (٢٥٥٣).

(٤) سنن ابن ماجة(٢/ ١١٣٧) (٣٤٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٢٧)، (٣٣٢١).

(٥) مسند أحمد (٣/ ٨٠) (٨٧٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٦٤)، (٢٣٤٩).

(٦) سنن الترمذي (٣/ ٤٥٧)، (١١٦٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٦٦)، (١٢٣٢).

أحسنت خَلْقي، فأحسن خُلُقي»[1].

وقد كان ﷺ يوصي بحسن الخلق أحسن وصاة، فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[2].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما بلغ أباذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلىٰ هٰذا الوادي فاعلم لي علم هٰذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتىٰ قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلىٰ أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر. . .»[3].

وأخبر ﷺ عن حبه لذوي الخلق الحسن وشدة قربهم منه يوم القيامة، كما روىٰ جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مِنْ أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة، الثرثارون، والمتشدقون، والمُتَفَيْهقون**». قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»[4].

ومن فضائل حسن الخلق ما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خُلُقه درجة الصائم القائم**»[5].

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة الصَّوْم والصلاة**»[6].

صور من أخلاق المحسنين:

من تلك الصور الراقية عن الخلق الحسن ما رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «خدمت النبي ﷺ، عشر سنين فما قال لي أفٍّ، ولا

---

(١) مسند أحمد (١/ ٦٦٥)، (٣٨١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٨٠)، (١٣٠٧).

(٢) سنن الترمذي (٤/ ٣٥٥)، (١٩٨٧)، وقال: هٰذا حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٨١)، (٩٧).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (٧/ ١٧٥)، (٣٨٦١).

(٤) سنن الترمذي (٤/ ٣٧٠)، (٢٠١٨)، وقال: هٰذا حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٤٩)، (٢٢٠١).

(٥) سنن أبي داود (٥/ ١٤٩)، (٤٧٩٨). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩١١) (٤٠١٣).

(٦) سنن الترمذي (٤/)، (٢٠٠٣).

لِمَ صنعت، وألا صنعت»(١).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ينل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنْتَهَكَ شيءٌ من محارم الله فينتقم لله ـ عز وجل ـ(٢).

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «**ما رأيت رجلاً الْتَقَمَ أذن رسول الله ﷺ فيُنَحِّي رأسه، وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده، حتىٰ يكون الرجل هو الذي يدع يده**».

وفي رواية للترمذي قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده، حتىٰ يكون الرجل الذي ينزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتىٰ يكون الرجل هو الذي يصرفه، ولم ير مقدِّمًا ركبتيه بين جليس له»(٣).

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كأني أنظر إلىٰ رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومه، فأدموه فهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(٤).

من ثمرات حسن الخلق:

١ ـ أنه من أعظم وأشرف الطاعات.

٢ ـ أنه نماء وسعادة للفرد والمجتمع. قال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «إذا حَسُنَتْ أخلاق الإنسان كثر مصافوه، وقل معادوه، فتسهَّلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب»(٥).

وقال أحد البلغاء ـ رحمه الله ـ: «الحسن الخُلُق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة، والسَّيِّءُ الخُلُقِ الناسُ منه في بلاء، وهو من نفسه في عناء».

٣ ـ أنه يدل علىٰ صفاء النفس واعتدال الطباع.

ومما سبق يتبين أن من الإحسان إلىٰ المجتمع، حسن الخلق؛ لذٰلك وجب علىٰ كل مريد للإحسان، أن يحسن خلقه؛ لينعم وينعم به غيره، وتسير الحياة الاجتماعية في يسر وسهولة وهناء.

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٤٥)، (٥٦٩١).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٨١٤)، (٢٣٢٨).

(٣) سنن أبي داود (٥/ ١٤٦)، (٤٧٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩١٠)، (٤٠٠٩).

(٤) صحيح البخاري، الفتح (١٢/ ٣٠٥)، (٦٩٢٩).

(٥) أدب الدنيا والدين (٢٣٦).

ثانيًا: حسن المعاملة:

التمهيد:

يقول الراغب ـ رحمه الله ـ: «اعلم أنه لما صعب علىٰ كل أحد أن يحصل لنفسه أدنىٰ ما يحتاج إليه إلا بمعاونة عدة رجال له، فلقمة طعام لو عددنا تعب محصليها من الزراع والطحان والخباز وصناع آلاتها لصعب حصره، احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة، فيتظاهروا، ولأجل ذٰلك قيل: الإنسان مدني بالطبع، أي: لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر الناس بعضهم إلىٰ بعض، سخر الله كل واحد من كافتهم لصناعةٍ مَّا يتعاطاها، وجعل بين طبائعهم وصنائعهم مناسبات خفية، واتفاقات سماوية، يؤثر الواحد بعد الواحد حرفة من الحرف ينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه بمزاولتها، فإذا جعل إليه صناعة أخرىٰ فربما وُجِدَ متبلدًا أو متبرمًا بها، وقد سخرهم الله ـ تعالىٰ ـ لذٰلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الأقوات والمعاونات، ولولا ذٰلك لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها، ومن البلاد إلا أطيبها، ومن الصناعات إلا أنظفها، ومن الأعمال إلا أرفعها... قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾... [الزخرف: ٣٢]»[(١)].

ومن هٰذا التشابك بين مصالح الناس، وعدم استغناء بعضهم عن بعض، احتاجوا إلىٰ الخلق الحسن في تعاملهم لدوام المنفعة واستمرارها في يسر وسهولة، والعيش في سعادة وهناء بما يرضي الله ـ عز وجل ـ.

تعريف حسن المعاملة:

تعريف الحسن:

تقدم قريبًا تعريفه في حسن الخلق.

المعاملة لغةً: مصدر عامَلَ، وهٰذا المصدر مأخوذ من مادة (ع م ل) التي تدل علىٰ كل فِعْلٍ يُفْعَلُ[(٢)].

المعاملة اصطلاحًا:

قال التَّهانَوِيُّ ـ رحمه الله ـ: «المعاملة عند الفقهاء عبارة عن العقد علىٰ العمل ببعض الخراج، وتطلق المعاملات أيضًا علىٰ الأحكام الشرعية المتعلقة بأمر الدنيا باعتبار بقاء الشخص كالبيع والشراء والإجارة ونحوها»[(٣)].

---

(١) الذريعة(٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) المقاييس، لابن فارس (٤/ ١٤٤).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون (٣/ ١٠٣٦).

حسن المعاملة اصطلاحًا:

يمكن من التعاريف السابقة أن يقال: إن حسن المعاملة هو: الوفاء بما أبرمه الإنسان من عقود مع غير، مع الإحسان إليه.

أقسام حسن المعاملة:

يمكن تقسيم حسن المعاملة إلىٰ قسمين:

الأول: حسن المعاملة الدنيوية: وهي الوفاء بالعقود والعهود مع الناس، مع الإحسان إليهم. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

والثاني: حسن المعاملة الأخروية، وهي: الوفاء بالعهود التي أخذها الله علىٰ الإنسان وهو في ظهر أبيه آدم ـ عليه السلام ـ بإفراده وحده دون سواه بالعبادة والإحسان في أدائها.

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الفرق بين حُسْنِ المُعاملة وحُسْن العشرة:

أن كل عشير مُعامَلٌ، وليس كل مُعامَلٍ عشيرٌ. بمعنىٰ أن العشير أخص من حيث القرب، والمعامل أوسع من حيث العدد.

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: «المُعاشَرَةُ مصدر قولهم: عاشرت فلانًا، إذا خالطته، وكلاهما مأخوذ من مادة (ع ش ر) التي تدل علىٰ المخالطة والمداخلة[1].

أقسام حسن العشرة:

يمكن تقسيم حسن العشرة إلىٰ قسمين:

الأول: حسن العشرة مع النساء، وهو الغالب في الاستعمال، والمراد بالنساء الزوجات، وقيل عموم النساء والعشير الأغلب فيه الزوج، ويحتمل الجميع زوجًا كان أم وليًا. والمراد بحسن العشرة من الزوج توفية المرأة حقها من المهر والنفقة والسكنىٰ وغيرها مما يجب عليه وزيادة، وألا يكون فظًّا ولا غليظًا، ولا مظهرًا ميلاً إلىٰ غيرها، وقيل حسن العشرة مع المرأة أن يتصنع لها كما تتصنع له[2]. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النساء: ١٩].

والثاني: حسن العشرة مع عامة الناس:

---

(١) المقاييس (٤/ ٣٢٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٩٧).

وقد قيل: إذا أردت حسن المعاشرة فالقَ عدوك وصديقك بالطلاقة، ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عِطْفَيْكَ، ولا تكثر الالتفات ولا تقف علىٰ الجماعات. وإذا جلست فلا تتكبر علىٰ أحد، تحفظ من تشبيك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس، وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئًا، وحديثك منظومًا مرتبًا، وأصغ إلىٰ كلام مُجالسك. واسكت عن المضاحك، ولا تتصنع المرآة في التزين، ولا تُلِح في الحاجات. ولا تشجع أحدًا علىٰ الظلم، وإذا خاصمت فأنصف، وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حُجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلىٰ من وراءك، واهدىء غضبك وتكلم، وإذا قربك سلطان فكن منه علىٰ حذر، واحذر انقلابه عليك، ولا يحملنك لطفه بك علىٰ تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذٰلك مستحقًّا عنده. وإياك وصديق العافية فإنه أعدىٰ الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عِرْضِكَ. ولا تجالس الملوك؛ فإن فعلت فالتزم ترك الغيبة، ومجانبة الكذب، وصيانة السر، وقلة الحوائج، وعليك بتهذيب الألفاظ، والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم، وإن ظهرت المودة. ولا تتجشأ بحضرتهم، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم، ولا تجالس العامة، فإن فعلت فآداب ذٰلك ترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلىٰ أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، وإياك أن تمازح لبيبًا أو سفيهًا؛ فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة، ويذهب بماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الإيمان والود، ويشين فقه الفقيه، ويجرِّىء السفيه، ويميت القلب، ويباعد عن الرب ـ تعالىٰ ـ، ويكسب الغفلة والذلة. ومن بُلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه[1].

شمولية حسن المعاملة:

تقرر الشريعة الإسلامية الغراء أن حسن المعاملة يدخل في كل شيء بين الإنسان وغيره، يؤيد ذٰلك المفهوم حديث أبي يعلي، شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِدُّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»[2]. ومعنىٰ كتب: فرض وأوجب، وقوله: «علىٰ كل شيء» أي: في كل شيء، أو إلىٰ كل شيء. وإفادة كل شيء، عموم

---

(١) المستطرف (١/١٨٦ ـ ١٨٧).

(٢) صحيح مسلم (٢/٧٢٦)، (١٩٥٥).

الأشياء، وما بقي من الحديث مثال لحسن المعاملة.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وذكرت قصة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»[1].

وفي رواية عنها ـ رضي الله عنها ـ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»[2].

وفي رواية ثالثة لها ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي علىٰ الرفق ما لا يعطي علىٰ العنف، وما لا يعطي علىٰ ما سواه**»[3].

ضوابط في حسن المعاملة، منها:

١ ـ أن يؤدي المحسن ما أمره الله ـ تعالىٰ ـ به بإتقان وإخلاص، وكأنه يرىٰ ربه ـ تعالىٰ ـ معتذرًا إليه ـ تعالىٰ ـ عن النقصان، وأن لا يرىٰ عمله صالحًا لربه، فهو مع إحسانه معتذر في إحسانه؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ. . .﴾ [المؤمنون: ٦].

٢ ـ أن يحب المحسن لغيره ما يحبه لنفسه من الخير، ويعاملهم بالذي يحب أن يعاملوه به، فيعطيهم حقوقهم كاملة موفورة، وقد نصح لهم غاية النصح وأرضاهم كل الرضا مما يقدر عليه. فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[4].

٣ ـ أن تعلم أيها المحسن أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك، ويهبها لك، ومع هٰذا لا يقتصر علىٰ مجرد العفو والمسامحة حتىٰ ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هٰذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هٰذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا. . .»[5].

فعن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله ـ عز**

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٤٢)، (٥٦٧٨).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠٤)، (٢٥٩٤).
(٣) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠٣)، (٢٥٩٢).
(٤) صحيح البخاري: (١/ ١٤)، (١٣).
(٥) بدائع الفوائد: (٢/ ٤٦٨).

وجل ـ: «**نحن أحق بذٰلك منه، تجاوزوا عنه**»[1].

صور من حسن معاملة المحسنين:

١ ـ ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ يتقاضاه، فأغلظ، فَهَمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً**». ثم قال: «**أعطوه سنًّا مثل سنِّه**». قالوا: يا رسول الله إلاَّ أَمْثَلَ من سِنِّهِ. قال: «**أعطوه، فإن من خيركم أحسنكم قضاء**»[2].

٢ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه جبذة شديدة حتىٰ نظرت إلىٰ صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»[3].

٣ ـ وعن زياد بن الربيع اليُحْمِدِي، عن أبيه، قال: «رأيت محمد بن واسع يبيع حمارًا بسوق (بَلْخَ)، فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: لو رضيته لم أبِعْهُ»[4].

٤ ـ وروي أن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ باع بَغْلَةً له بأربعمائة درهم، فلما استوجب المال قال له المشتري: اسمح لي يا أباسعيد، قال: «قد أسقطت عنك مائة». قال له: «فأحسن يا أباسعيد». فقال: «قد وهبت لك مائة أخرىٰ»، فقبض من حقه مائتي درهم، فقيل له: «يا أباسعيد: هٰذا نصف الثمن»، فقال: «هٰكذا يكون الإحسان، وإلا فلا»[5].

من فوائد حسن المعاملة:

١ ـ أن فيها مرضاة الله ـ تعالىٰ ـ وعظم الأجر والمغفرة.

٢ ـ يزيد الألفة بين المسلمين، ويُعَمق روح الأخوة الإيمانية لديهم.

٣ ـ تكسب ثقة الآخرين مما يُديم التعامل معهم.

٤ ـ تيسير مصالح الناس ورفع المشقة عنهم.

٥ ـ تنزع الغل والحقد والحسد من القلوب المريضة.

لذٰلك وجب علىٰ أهل الإحسان حسن معاملة غيرهم، وأن يكونوا نموذجًا فريدًا وقدوة حسنة حتىٰ يعم السرور ويغتبط المجتمع بأفراده ومقدراته.

---

(١) صحيح مسلم: (٢/ ١٠٩٥) (١٥٦١).
(٢) صحيح البخاري ـ الفتح ـ: (٤/ ٤٨٣) (٢٣٠٦).
(٣) صحيح البخاري ـ الفتح ـ: (٦/ ٢٥١) (٣١٤٩).
(٤) الورع، لابن أبي الدنيا: (١٠٦).
(٥) إحياء علوم الدين: (٢/ ٨١).

ثالثًا: الكرم :

الكرم لغة:

مصدر قولهم: (كَرُمَ) فلان يكْرُم، وهو مأخوذ من مادة (ك ر م) التي تدل علىٰ شرف في الشيء في نفسه أو شرف خُلُقٍ من الأخلاق[1].

وقال الجوهري ـ رحمه الله ـ: «الكرم ضد اللُّؤم»[2].

والكريم: الذي كَرَّمَ نفسه عن التدنس بشيء من مخالفة ربه، وهو ـ أيضًا ـ واسع الخُلُق[3].

واصطلاحًا:

قال ابن مسكويه: «الكرم: إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر، الكثيرة النفع»[4].

وقيل: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والإطعام في المَحْلِ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل[5].

وقيل: هو الإعطاء بالسهولة[6].

وقيل: الكرم هو إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لغرض جلبًا للنفع، أو خلاصًا عن الذم، فليس بكريم. فالكريم من يوصل النفع بلا عِوَض[7].

أنواع الكرم:

قال الكفوي: الكرم إن كان بمال فهو جود. وإن كان بكف ضرر مع القدرة فهو عفو. وإن كان ببذل النفس فهو شجاعة[8].

وقال الفيروزابادي ـ رحمه الله ـ: «والكرم إذا وُصِفَ به الله فهو اسم لإحسانه وإنعامه، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتىٰ يظهر منه ذٰلك. قال بعض العلماء: الكرم كالحرية، إلا أن الحرية قد تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلا في الكبيرة؛ كإنفاق مال في تجهيز جيش الغزاة، وتحمل حمالة ترفأ بها دماء قوم. وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ

---

(١) لسان العرب: (٧/ ٣٦٨١ ـ ٣٦٨٤)، ومقاييس اللغة: (٥/ ١٧٢).

(٢) الصحاح: (٦/ ٢٠١٩ ـ ٢٠٢١).

(٣) بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٤٣).

(٤) تهذيب الأخلاق: (٣٠).

(٥) التعريفات: (١٨٤).

(٦) الإحياء: (٣/ ٢٤٦).

(٧) التوقيف علىٰ مهمات التصاريف: (٢٨١).

(٨) الكليات: (٥٣).

عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، إنما كان كذٰلك لأن الكرم الفعال المحمودة، وأكرمها ما يقصد به أشرف الوجوه، وأشرف الوجوه ما يقصد به وجه الله، فمن قصد به ذٰلك فهو التقي. فإن أكرم الناس أتقاهم، وكل شيء يُشْرُفُ في بابه وُصِفَ بالكرم، نحو قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٧]، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝﴾ [الواقعة: ٧٧]، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝﴾ [الإسراء: ٢٣]»[١].

الفرق بين الكرم والجود:

قال الكفوي: «الكرم يكون مسبوقًا باستحقاق السائل والسؤال منه.

والجود: صفة ذاتية للجواد ولا يستحق بالاستحقاق والسؤال، والجواد يطلق علىٰ الله ـ تعالىٰ ـ، دون السخي».

وقال أبوهلال العسكري: « الجود: كثرة العطاء من غير سؤال من قولك: جادت السماء إذا جاءت بمطر غزير، والله ـ تعالىٰ ـ جواد لكثرة عطائه فيما تقتضيه الحكمة».

أما الكرم: فيتصرف علىٰ وجوه: منها: العزة، ومنها الفضل، ومنها الحُسْنُ، ومنها التفضيل، ومنها طيب النفس قليلاً كان أو كثيرًا، والجود سعة العطاء سواء أكان عن طيب نفس أو لا، ويجوز أن يقال: الكرم هو إعطاء من يريد (المُعْطِي) إكرامه وإعزازه، والجود قد يكون كذٰلك، وقد لا يكون[٢].

مكانة الكرم وفضله:

إن الكرم من أفضل خلائق الإسلام وأحسن شمائل المحسن الاجتماعية، فعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «**تُطعم الطعام وتقرأ السلام علىٰ من عرفت ومن لم تعرف**»[٣].

وقال جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ: «لا مال أعون من العقل، ولا مصيبة أعظم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشاورة، ألا وإن الله ـ عز وجل ـ يقول: «**إني جواد كريم، لا يجاورني لئيم**». واللؤم من الكفر، وأهل الكفر في النار، والجود والكرم من الإيمان، وأهل الإيمان في الجنة»[٤].

وقال عبدالله بن الحارث ـ رحمه الله ـ: «من لم يكرم ضيفه فليس من

---

(١) بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) انظر الكليات: (٣٥٣)، والفروق اللغوية: (١٦٧، ١٦٨).

(٣) صحيح البخاري: (١/ ١٩) (٢٨).

(٤) الإحياء: (٣/ ٢٦١).

محمد ﷺ ولا من إبراهيم ـ عليه السلام»[1].

وقال الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: «المروءة: حفظ الرجل دينه، وحِذْرُهُ نَفْسَهُ، وحسن قيامه بضيفه، وحسن المنازعة، والإقدام في الكراهية، والنجدة: الذبُّ عن الجد، والصبر في المَوانِ. والكرم: التبرع بالمعروف قبل السؤال، والإطعام في المَحْلِ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل»[2].

والكرمُ مِنْ شَرَفِ مكانِهِ ونفاسةِ شأْنِهِ اتصف الله ـ تعالىٰ ـ به وأحبه. كما روىٰ سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سَفْسافَها**»[3].

وعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يَدَيْهِ إليه، أن يردهما صِفْرًا**»[4].

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥].

وقد أمر رسول الله ﷺ بالكرم كما جاء عن أبي شريح العدوي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته**»، قيل: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «**يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذٰلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[5].

وقد وصف الرسول ﷺ المؤمن بالكرم، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خِبٌّ لئيم**»[6].

والغِرُ: ليس بذي نُكْر[7]، والخِبُ: الرجل الخداع[8].

---

(١) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا: (١١٠).

(٢) الإحياء: (٣/ ٢٤٦).

(٣) مستدرك الحاكم: (١/ ١١١) (١٥١). واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد، والطبراني في الكبير: (٦/ ١٨١)، وقال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده صحيح: (٣/ ٣٤٤)، وعزاه للخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي، وذكره الألباني في الصحيحة: (٣/ ٣٣٦، ٣٣٧)، وصححه في صحيح الجامع: (١/ ٣٧٠) (١٨٠١).

(٤) سنن الترمذي: (/) (٣٥٥٦)، وسنن أبي داود: (٢/ ١٦٥) (١٤٨٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: (١/ ٢٧٨) (١٣٢٠).

(٥) صحيح البخاري ـ الفتح ـ: (١٠/ ٥٢١) (٦٠١٩).

(٦) سنن أبي داود: (٥/ ١٤٤) (٤٧٩٠)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٢/ ٦٤٤) (٩٣٥).

(٧) النهاية (٣/ ٣٥٤).

(٨) النهاية (٢/ ٤).

وقال عبدالله بن جعفر ـ رضي الله عنه ـ: «أُمطرُ المعروف مطرًا، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً»(١).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إن الجميع يتمادحون بالشجاعة والكرم، حتىٰ إن ذٰلك عامة ما تمدح به الشعراء ممدوحيهم في شعرهم، وكذٰلك يتذامون بالبخل والجبن، ثم قال: ولما كان صلاح بني آدم لا في دينهم ولا دنياهم إلا بالشجاعة والكرم، بَيَّنَ الله ـ سبحانه ـ أنه من تولىٰ عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذٰلك، ومن تولىٰ عنه بإنفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذٰلك، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

ثم قال ـ رحمه الله ـ: وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضَّل الله السابقين، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]. وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال في سبيله ومدحه في غير آية من كتابه، وذٰلك هو الشجاعة والسماحة في طاعته ـ سبحانه ـ وطاعة رسوله ﷺ»(٢).

وقال عبدالرحمٰن بن مهدي ـ رحمه الله ـ: «ليتقِ الرجل دناءةَ الأخلاق كما يتقي الحرام؛ فإن الكرم دين»(٣).

وقال مالك بن دينار ـ: رحمه الله ـ: «المؤمن كريم في كل حال، لا يحب أن يؤذي جاره، ولا يفتقر أحد من أقربائه، ويبكي وهو يقول: وهو ـ والله ـ مع ذٰلك غني القلب، لا يملك من الدنيا شيئًا، إن أَزَلَّتْهُ عن دِينه لم يَزِلَّ، وإن خدعته عن ماله انخدع، لا يرىٰ الدنيا من الآخرة عِوَضًا، ولا يرىٰ البخل من الجود حظًّا، منكر القلب، ذو هموم قد تفرَّد بها، مكتئب محزون ليس له في فرح الدنيا نصيب. إن أتاه منها شيء فرَّقه، وإن زوي عنه كل شيء فيها لم يطلبه، ويبكي ويقول: هٰذا ـ والله ـ الكرم.. هٰذا والله الكرم»(٤).

وقد ذم الله ـ تعالىٰ ـ البخل وأهله، وجعله من صفات الكافرين، وتوعد الله أهله بالعقوبة، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر: ١٧ ـ ١٨]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَرَءَيْتَ

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٤٧).
(٢) انظر الاستقامة: (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٧٠).
(٣) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا: (١٢).
(٤) المرجع نفسه.

﴿ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

وقال ـ تعالىٰ ـ عن المنافقين: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝٣٧﴾ [النساء: ٣٧].

الكرم من صفات المحسنين:

المحسن الحق المقتفي تعاليم دينه كريمٌ جواد، يداه مبسوطتان تمطران بالخير علىٰ أبناء مجتمعه، وفي جميع وجوه البر، ومن أحسن ما قيل في ذلك ما أنشد سلام بن مطيع ـ رحمه الله ـ عن حسن الخلق قال:

تـراه إذا مـا جئتـه متهـلـلاً ... كـأنـك تعطيـه الـذي أنـت سـائلـهْ

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجـاد بهـا، فلْيَتَّـقِ اللهَ سـائلـهْ

هو البحر من أي النواحي أتيتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المعروفُ، والجودُ ساحلُهْ

وهٰكذا كان المحسنون السابقون، ومنهم المضياف الكريم إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧].

وعن المقداد ـ رضي الله عنه ـ قال: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ، فانطلق بنا إلىٰ أهله، فإذا ثلاثة أعنز، فقال النبي ﷺ: «**احتلبوا هٰذا اللبن بيننا**». قال: فكنا نحتلب فيشرب كل إنسان منا نصيبه، ويرفع للنبي ﷺ نصيبه. .»[1][2].

وعن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما أسيرُ مع رسول الله

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ١٨٢).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٦٢٥) (٢٠٥٥).

ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقت الناس يسألونه حتىٰ اضطروه إلىٰ سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هٰذه العضاة نَعَمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جَبانًا**»[1].

وقال حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ: «ما أصبحت صباحًا قط فرأيت بفنائي طالب حاجة قد ضاق بها ذرعًا، فقضيتها إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها، ولا أصبحت صباحًا لم أر بفنائي طالب حاجة، إلا كان ذٰلك من المصائب التي أسأل الله ـ عز وجل ـ الأجر عليها»[2].

وقال أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ: «ما احتذىٰ النعال ولا انتعل ولا ركب المطايا، ولا لبِسَ الكَوْرَ من رجل بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في الجود والكرم»[3].

صور من كرم المحسنين:

١ ـ عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت امرأة إلىٰ النبي ﷺ ببُرْدَةٍ. فقال سهلٌ للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شَمْلَةٌ. فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشية. فقالت: يا رسول الله: أَكْسُوكَ هٰذه. فأخذها النبي ﷺ فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة. فقال: يا رسول الله ما أحسن هٰذه، فاكْسُنيها. فقال: «**نَعَمْ**». فلما قام النبي ﷺ لامَهُ أصحابه، فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها، ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يُسألُ شيئًا فيمنعه! فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلِّي أكفَّن فيها»[4].

٢ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن فلانًا أهدىٰ إليَّ ناقة، فعوضته منها ست بكرات، فظل ساخطًا، لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقفي، أو دوسي**»[5].

٣ ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أهدي لرجل رأس شاة، فقال: إن أخي وعياله أحوج منَّا إلىٰ هٰذا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلىٰ آخر حتىٰ رجعت إلىٰ الأول بعد سبعة»[6].

---

(١) صحيح البخاري ـ الفتح ـ: (٦/ ٣٥) (٢٨٢١).
(٢) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا: (١٠٧).
(٣) مسند أحمد (٣/ ١٣٧)، (٩٠٨٩).
(٤) صحيح البخاري، الفتح (١٠/ ٤٥٦)، (٦٠٣٦).
(٥) سنن الترمذي (٥/ ٧٣٠)، (٣٩٤٥).
وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٢٥)، (٢١١٩).
(٦) فتح الباري (٧/ ١٢٠)، وعزاه لابن مردويه.

٤ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فبعث إلىٰ نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ: «**من يضم أو يضيف هٰذا**»؟ فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلىٰ امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: «**ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما**»، فأنزل الله: : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][(١)].

من ثمرات الكرم:

١ ـ أنه من كمال الإيمان.

٢ ـ أن صاحبه محبوب إلىٰ النفوس.

٣ ـ أن الكرم يزيد في المال بركة.

٤ ـ أنه دليلُ تكافلٍ بين المؤمنين.

٥ ـ عظم أجر الكريم عند الله ـ تعالىٰ ـ.

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٧/ ١١٩)، (٣٧٩٨).

رابعًا : كظم الغيظ :

الكظيم لغة:

مصدر قولهم: كَظَمَ، يَكْظِمُ، وهو مشتق من مادة (ك ظ م)، التي تدل كما يقول ابن فارس ـ رحمه الله ـ علىٰ معنىٰ واحد هو الإمساك، والجمع للشيء، ومن ذلك الكظم للغيظ الذي يعني: اجتراع الغيظ والإمساك عن إبدائه، وكأنه يجمعه الكاظم في جوفه، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. معناه: الحابسين الغيظ، أي: لا يجازون عليه[(١)].

واصطلاحًا:

قال المناوي ـ رحمه الله ـ: الكظم: الإمساك علىٰ ما في النفس من صفح أو غيظ[(٢)].

الغيظ لغة:

مصدر قولهم: غاظَهُ يَغيظُهُ، وهو مأخوذ من مادة (غَ يَ ظَ) التي تدل علىٰ معنىٰ واحد هو: «كرب يلحق الإنسان من غيره»[(٣)].

واصطلاحًا:

قال الكفوي ـ رحمه الله ـ: الغيظ تَغَيُّرٌ يلحق المغتاظ، وذلك لا يصح إلا علىٰ الأجسام كالضحك والبكاء ونحوهما[(٤)].

وقيل: هو أصل الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه[(٥)].

كظم الغيظ اصطلاحًا:

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: كَظْمُ الغيظِ: رَدُّهُ في الجوف، والسكوتُ عليه، وعدمُ إظهاره مع قدرة الكاظم علىٰ الإيقاع بعدوه[(٦)].

الفرق بين الغيظ والغضب:

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: الغيظ أصل الغضب، وكثيرًا ما يتلازمان، لٰكن فرق ما بينهما، أن الغيظ لا يظهر علىٰ الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح، مع فعلٍ ما، ولا بُدَّ، ولهٰذا جاء إسناد الغضب إلىٰ الله ـ

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٨٤)، وانظر: لسان العرب (٧/ ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧).
(٢) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (٢٨٢).
(٣) مقاييس اللغة (٤/ ٤٠٥).
(٤) الكليات (٦٧١).
(٥) انظر: التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (٢٨٢)، والمحرر الوجيز (٣/ ٢٣٣).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٣٣).

تعالىٰ[1].

مكانة كظم الغيظ وفضله:

كظم الغيظ أحد شقي حسن الخلق، وهما بذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، وهو دليل قوة النفس، وعلامة قهر شهوة الغضب ولا يبلغه المؤمن إلا بعد شدة مجاهدة ابتغاء مرضاة الله ـ تعالىٰ ـ وكاظم الغيظ من أحب الناس عند الله ـ تعالىٰ ـ؛ لأنه انتصر علىٰ شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء، وصاحبه الذي أغضبه، وشيطانه الذي سوَّل له، فاستحق الدرجة العالية في الدنيا والآخرة؛ لما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أي الناس أحب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ؟ وأي الأعمال أحب إلىٰ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحب الناس إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ سرور يدخله علىٰ مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه دَيْنًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخٍ في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في هٰذا المسجد ـ يعني مسجد المدينة ـ شهرًا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، رجاء يوم القيامة، ومن مشىٰ مع أخيه في حاجة حتىٰ يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام**»[2].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من جُرْعَةٍ أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله ـ تعالىٰ**»[3].

وعن معاذ بن أنس، عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كظم غيظًا وهو قادر علىٰ أن ينفذه دعاه الله ـ عز وجل ـ علىٰ رؤوس الخلائق حتىٰ يخيره من الحور العين ما يشاء**»[4].

كظم الغيظ من صفات المحسنين:

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) قضاء الحوائج، لابن أبي الدنيا (٤٠/)، (٣٦)، وحسن إسناده الألباني في الصحيحة (٦٠٨/٢)، (٩٠٦).

(٣) سنن ابن ماجه (١٤٠١/٢)، (٤١٨٩)، وقال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٤) سنن أبي داود (١٣٧/٥)، (٤٧٧٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٩٠٧/٣)، (٣٩٩٧).

مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٠ ـ ٩٢].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٣]. ولا يكون العفو والصفح والغفران إلا بعد كظم الغيظ غالبًا.

وسائل يستعان بها علىٰ كظم الغيظ:

إذا كان كظم الغيظ بهٰذه المنزلة العظيمة عند الله، وأنه من أهم صفات المحسنين، فإن من وسائله الآتي:

١ ـ الدعاء الصادق وحسن اللجوء إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بأن يجعلك من الكاظمين الغيظ.

٢ ـ الاستعاذة بالله ـ تعالىٰ ـ من الشيطان الرجيم عند الغضب؛ لما روي عن سليمان بن صرد ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «اسْتَبَّ رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمَرُّ عيناه وتنتفخ أوْداجُهُ. قال رسول الله ﷺ: «**إني أعرف كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقال الرجل: وهل ترىٰ بي من جنون؟!»[1]

٣ ـ الجلوس إن غضب وهو قائم أو الاضطجاع إن غضب وهو جالس. لما روي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**»[2].

٤ ـ احتساب أجر كظم الغيظ علىٰ الله ـ تعالىٰ ـ، والطمع في فيما أعده من عظيم الأجر للكاظمين الغيظ في الجنة.

وذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في سيرة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «أن رجلاً كلمه يومًا حتىٰ أغضبه، فَهَمَّ به عمر، ثم أَمْسَكَ نفسه، ثم قال

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢٠١٥)، (٢٦١٠).

(٢) سنن أبي داود (٥/ ١٤١)، (٤٧٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٠٨)، (٤٠٠٠).

للرجل: أردت أن يستفزني الشيطان بعزَّة السلطان، فأنال منك ما تناله مني غدًا؟ قم عافاك الله، لا حاجة لنا في مقاولتك»[1].

٥ ـ أن يعلم المحسن أن كظم الغيظ من قوة العقل وكمال الرجولة؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصُرَعَةِ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[2].

علامة كظم الغيظ:

من علامة كظم الغيظ ما ذكره ابن قدامة ـ رحمه الله ـ قال: «الكاظم إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلىٰ الباطن، فاحتقن فيه فصار حِقْدًا، وعلامة ذٰلك دوام بغض الشخص، واستثقاله والنفور منه»[3].

صور من كظم الغيظ:

١ ـ ما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: قلت: يا رسول الله هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذْ عرضت نفسي علىٰ ابن عبدياليل بن عبدكلال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله ـ عز وجل ـ قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم**». قال: «**فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**». فقال له رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»[4].

٢ ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قَدِمَ عيينة بن حصن بن حذيفة، علىٰ ابن أخيه، الحُرِّ بن قيس، وكان من النَّفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً وشبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي: لك وجه عند هٰذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، فاستأذن الحُرُّ لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْلَ، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتىٰ هَمَّ به، فقال له الحرُّ: يا أمير المؤمنين إن الله ـ تعالىٰ ـ قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢١٠).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ٢٠١٤)، (٢٦٠٩).
(٣) انظر: مختصر منهاج القاصدين (١٨٥).
(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٤٢٠)، (١٧٩٥).

وإن هٰذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»[1].

تحقيق الإحسان في صفة كظم الغيظ:

يتحقق الإحسان في هٰذه الصفة النبيلة بأن يرد المؤمن غيظه في جوفه، ويكف غضبه الشديد عن الإمضاء مع سكوته عليه، لا يظهره بقول ولا بفعل، فإذا فعل ذٰلك مع قدرته علىٰ إنفاذ غيظه، لم يمنعه من إنفاذه إلا ابتغاء وجه الله ـ تعالىٰ ـ كأنه يراه، فإنه محسن في كظم الغيظ. فإن زاد علىٰ هٰذا القدر عفوًا أو صفحًا، أو مغفرة أو إصلاحًا فقد زاد إحسانه.

من ثمرات كظم الغيظ:

١ ـ أن كظم الغيظ دليل صلاح العبد ورغبته فيما عند الله ـ تعالىٰ ـ.

٢ ـ أنه يعزز الود بين المؤمنين.

٣ ـ أنه انتصار للمؤمن علىٰ الشيطان.

٤ ـ عظم أجره وجزيل ثوابه عند الله ـ تعالىٰ ـ.

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٨/ ٣٠٤)، (٤٦٤٢).

خامسًا: العفو والصفح:

العفو لغة:

مصدر قولهم: عَفَا، يَعْفُو، عَفْوًا، وهو مأخوذ من مادة (ع ف و) التي تدل علىٰ معنيين أصليين: الأول: ترك الشيء، والآخر: طَلَبُه[1]. (أي: طلب العفو).

العفو اصطلاحًا:

قال المناوي ـ رحمه الله ـ: العَفْو: القصد لتناول الشيء والتجاوز عن الذنب[2].

وقال الكفوي ـ رحمه الله ـ: العفو: كف الضرر مع القدرة عليه[3].

مكانة العفو والصفح وفضلاهما:

لقد اعتنت الشريعة الإسلامية بهٰذين الخلقين الكريمين عناية تامة آمرة بهما وحاضة عليهما ورافعة من شأنهما وشأن أصحابهما. مُرَتِّبَةً علىٰ الامتثال بهما الأجر الجزيل في الجنة وجعلتهما من أسمىٰ الأخلاق الإسلامية.

ولسمو مكانة العفو فقد اتصف الله ـ جل جلاله ـ به ونسبه إليه كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣]. والآيات في ذٰلك كثيرة.

وقد رغب الحق ـ تعالىٰ ـ في العفو والصفح، فأمر عباده المؤمنين بهما، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

وأمر المحسنين بالعفو في قوله ـ تعالىٰ ـ لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ولأهل الفضل من بعده من المحسنين: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

وكما أمر به علىٰ وجه الإلزام فقد حض عليه ورغب فيه علىٰ سبيل الندب، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]. والتعقيب بقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ حض لأصحاب النفوس الزكية علىٰ التخلق بخلق العفو الذي من شأنه التجاوز عن المسيء عند المقدرة علىٰ المؤاخذة.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ

---

(١) المقاييس (٤/٥٦).

(٢) التوقيف (٢٤٣).

(٣) الكليات (٥٣)، وانظر: (٥٩٨).

قال: «**تعافوا فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب**»[1].

وقال - تعالىٰ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن: ١٤].

وفي هٰذه الآية لما كانت العداوة من الأقرباء بل أشد الأقرباء، حضَّ الله الأزواج والآباء علىٰ العفو والصفح والمغفرة التي تعني ستر الذنب وعدم إشاعته ونسيانه، وذٰلك أدعىٰ لدوام العشرة التي أمر بها الإسلام.

ورغب - تعالىٰ - في آخر الآية بمغفرته للذين يغفرون للأزواج والأولاد.

وهٰكذا كما أمر الله - تعالىٰ - بهما رفع شأن أصحابهما فقال - تعالىٰ - واصفًا عباده المؤمنين بالصفات الحميدة التي منها المغفرة: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٦ - ٣٧].

وعن الحسن - رحمه الله - قال: «أفضل أخلاق المؤمن العفو»[2].

وقد يُشْكِلُ علىٰ ذٰلك وصف الله - تعالىٰ - عباده المؤمنين بقوله - تعالىٰ -: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٩].

والجواب أن يقال: المؤمن يتجاوز ويصفح عمن أساء له من إخوانه المؤمنين، وأما غيرهم فلا، والأحسن من ذٰلك ما أورده البخاري - رحمه الله - قال: «باب الانتصار من الظالم لقوله - جل ذكره -: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٩]. قال إبراهيم - يعني النخعي، رحمه الله -: «كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا»[3].

وقال معاوية - رضي الله عنه -: «عليكم بالحلم والاحتمال حتىٰ تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال»[4].

والحقيقة أن العفو كمال وعز للعافي في الدنيا والآخرة؛ لما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[5].

---

(١) سنن أبي داود (٤/ ٥٤٠)، (٤٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٢٧)، (٣٦٨٠).

(٢) الآداب الشرعية (١/ ٧١).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (٨/ ٦٣١)، (٤٨٨٨).

(٤) الإحياء (٣/ ١٩٥).

(٥) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠١)، (٢٥٨٨).

العفو والإحسان من صفات المحسنين:

إن المحسن الحقيقي يعفو ويصفح ابتغاء مرضاة الله - تعالىٰ - لقوله - تعالىٰ -: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال - تعالىٰ -: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

وقال - تعالىٰ -: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

وقال - تعالىٰ -: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٠ - ٤٣]. والإحسان من عزم الأمور.

وقال - تعالىٰ -: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥]. والجميل هو الحسن المرغوب فيه.

وهٰكذا كان الرسول ﷺ:

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن هٰذه التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]. قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولٰكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»[1].

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «كل الناس مِنِّي في حِلٍّ»[2].

وعن جرير بن عبدالله - رضي الله عنه - أنه قام يوم مات المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنىٰ عليه، وقال: «عليكم باتقاء الله وحده لاشريك له، والوقار والسكينة، حتىٰ يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن، ثم

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٨/ ٥٨٥)، (٤٨٣٨).
(٢) الآداب الشرعية (١/ ٧١).

قال: استغفروا لأميركم فإنه كان يحب العفو. . .»[1].

صور من العفو والصفح:

١ ـ عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ «أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نجدٍ، فلما قَفَلَ رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِضاة، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرَّق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وَعَلَّقَ بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي. فقال: «**إن هٰذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا**». فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: «الله» ثلاثًا، ولم يعاقبه وجلس»[2].

٢ ـ وفي السيرة النبوية، لابن هشام ـ رحمه الله ـ: أن الرسول ﷺ يوم فتح مكة قال: «**يا معشر قريش: ما ترون أني فاعل فيكم**»؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[3].

وفي رواية لأبي الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه ﷺ قال لهم: «**مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته:** ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾» [يوسف: ٩٢][4].

قال الجاحظ ـ رحمه الله ـ: «ولو لم يكن من كرم عفوه ورجاحة حلمه إلا ما كان منه هٰذا اليوم لكان ذٰلك من أكمل الكمال وأوضح البرهان علىٰ مبلغ حلمة وعظيم عفوه وصفحه»[5].

وعن معاوية بن سويد ـ رضي الله عنه ـ قال: «لطمت مولىً لنا فهربت، ثم جئت قُبيل الظهر وصليت خلف أبي، فدعاه ودعاني، ثم قال: امتثل منه، فعفا»[6].

٤ ـ ولما أتي عبدالملك بن مراون ـ رحمه الله ـ بأسارىٰ ابن الأشعث، فقال لرجاء بن حيوة: «ماذا ترىٰ»؟ قال: «إن الله ـ تعالىٰ ـ قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم»[7].

تحقيق الإحسان في صفة العفو والصفح:

يمكن للمؤمن أن يحقق الإحسان في صفة العفو والصفح؛ وذٰلك بأن

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (١/١٣٩)، (٥٨).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (٦/٩٦)، (٢٩١٠).

(٣) (٤/٤١).

(٤) الأخلاق (٤٥)، (٨٢).

(٥) البيان والتبيين (٢/٢٩).

(٦) صحيح مسلم (٢/١٢٧٩)، (١٦٥٨).

(٧) الإحياء (٣/١٩٦).

يكف ضرره عمن أساء إليه مع القدرة علىٰ إنفاذه، ويتجاوز عن الذنب بالكلية واعتباره كأن لم يكن بإزالته أثر الذنب من النفس ابتغاء مرضاة الله يفعل ذٰلك كله علىٰ حال كأنه يعاين ربه ـ تعالىٰ ـ بعيني قلبه.

من ثمرات العفو والصفح:

١ ـ أنه من أرفع خصال الخلق الإسلامي.

٢ ـ أنه وسيلة صالحة لإدامة الأخوة الإسلامية وتماسك المجتمع المسلم.

٣ ـ أنه يزيل من قلوب المعفو والمصفوح عنهم الكراهية والغِلَّ.

٤ ـ عِظَمُ أجر من اتصف بهما.

سادسًا : الحلم :

الحلم لغة:

مصدر حَلُمَ فلان، أي: صار حليمًا، وهو مأخوذ من مادة (ح ل م) التي تدل علىٰ ترك العَجَلَةِ. قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: الحِلْمُ: خلاف الطيش، وقال الجوهري ـ رحمه الله ـ: الأناة، وقيل: هو الأناة والعَقْلُ، وهو نقيض السَّفه، وجمعه أَحْلامٌ وحُلُومٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الطور].

وحَلُمَ يَحْلُمُ حِلْمًا: أي صار حليمًا، تأنىٰ وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة وقوة[1].

الحلم اصطلاحًا:

قال ابن المناوي: الحلم هو احتمال الأعلىٰ الأذىٰ من الأدنىٰ، أو رفع المؤاخذة عن مستحقها بالجناية في حق مستعظم. أو هو رزانة في البدن يقتضيها وفور العقل[2].

منزلة الحلم وفضله:

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «الكمال عزيز والكامل قليل الوجود، وأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن، فصورة البدن تسمىٰ خَلْقًا، وصورة الباطن تسمىٰ خُلُقًا، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت واستعمال الأدب، ودليل كمال صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق، فالطبائع: العفة والنزاهة والأنفة من الجهل ومباعدة الشَّرَهِ، والأخلاق: الكرم والإيثار وستر العيوب وابتداء المعروف والحلم عن الجاهل. فمن رزق هٰذه الأشياء رَقَّتْهُ إلىٰ الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت خلة أوجبت النقص»[3].

ولكمال الحلم اتصف الحق ـ تبارك وتعالىٰ ـ به وهو ـ جل في علاه ـ لا يتصف إلا بكل صفة حميدة عالية المقام، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

والله ـ تعالىٰ ـ يحب الحلم، وكل محبوب لله ـ تعالىٰ ـ مرغوب فيه

---

(١) لسان العرب (٢/ ٧٩ ـ ٩٨١)، والصحاح (٥/ ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤)، ومقاييس اللغة (٢/ ٩٣).

(٢) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (١٤٦).

(٣) صيد الخاطر (٢٨٩).

مثاب صاحبه، كما جاء عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: وقال نبي الله ﷺ لأشج عبدالقيس ـ رضي الله عنه ـ: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «**لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علىٰ ذٰلك**»[2].

والحلم من صفات أنبياء الله ـ تعالىٰ ـ التي يجب أن يتصف بها المحسن؛ لما روي عن عبدالله بن سَرْجِس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**السمت الحسن، والتؤدة والاقتصاد، جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة**»[3].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم»[4].

وقال معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ: «لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتىٰ يغلب حلمُهُ جهلَه، وصبرُه شهوتَه، ولا يبلغ ذٰلك إلا بقوَّة العلم»[5].

وقال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «نحن معشر قريش نَعُدُّ الحلم والجود السُّؤدُدَ، ونعدُّ العفاف وإصلاح المال المروءة»[6].

وقال أبوعمرو بن العلاء ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «كان أهل الجاهلية لا يُسَوِّدُونَ إلا من كانت فيه ست خصال، وتمامها في الإسلام سابِعَةٌ: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والحسب، وفي الإسلام زيادة العفاف»[7].

وقال الجاحظ: وهٰذه الحال (أي حال الحلم) محمودة ما لم تؤد إلىٰ ثَلْمِ جاهٍ، أو فساد سياسة، وهي بالرؤساء والملوك أحسن؛ لأنهم أقدر علىٰ الانتقام من مُغضبهم، ولا يعد فضيلةً حلمُ الصغير عن الكبير، وإن كان قادرًا

---

(١) صحيح مسلم (٤٨)، (١٨).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٩٨٢)، (٢٥٥٨).
(٣) سنن الترمذي (٤/ ٣٦٦)، (٢٠١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٧٨)، (٣٠١٠).
(٤) الإحياء (٣/ ١٧٨).
(٥) المرجع نفسه.
(٦) الآداب الشرعية (٢/ ١٥).
(٧) المرجع السابق.

علىٰ مقابلته في الحال؛ فإنه وإن أمسك فإنما يعد ذٰلك خوفًا لا حلمًا[1].

أنواع الحلم:

الحلم نوعان:

أحدهما: ما يرد علىٰ النفس من قضاء الله من المصائب التي امتحن الله بها عباده، فيصبر العاقل تحت ورودها، ويحلم عن الخروج إلىٰ ما لا يليق بأهل العقل.

والآخر: ما يرد علىٰ النفس بضد ما تشتهيه من المخلوقين، فمن تعوَّد الحلم فليس بمحتاج إلىٰ التصبر لاستواء العدم والوجود عنده[2].

موارد الحلم:

قال ابن حبان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: الحلم منه ما يكون سجية وطبعًا، ومنه ما يكون تجربة وتكلفًا، ومنه ما يكون مُركَّبًا منهما معًا. وأول الحلم: المعرفة ثم التثبت، ثم العزم، ثم التصبر، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الصمت، والإغضاء، وما الفضل إلا للمحسن لمن أساء، فأما من أحسن إلىٰ المحسن، وحلم عمن لم يؤذه فليس ذٰلك بحلم ولا إحسان، والناس بالنسبة للمرء ضروب ثلاثة: رجل أعز منك، ورجل أنت أعز منه، ورجل ساواك في العز، فالتجاهل علىٰ من أنت أعز منه لؤم، وعلىٰ من هو أعز منك جَنَفٌ، وعلىٰ من هو مثلك هِرَاشٌ كهراش الكلبين، ونقار كنقار الديكين، ولا يفترقان إلا عن الخدش والعقر والهجر، ولا يكاد يوجد التجاهل، وترك التحالم إلا من سفيهين، وقد قيل:

ما تم حلم ولا علم بلا أدب ... ولا تَجَاهَلَ في قومٍ حليمان

وما التجاهل إلا ثوب ذي دنس ... وليس يلبسه إلا سفيهان

فالواجب علىٰ العاقل إذا غضب واحتدَّ أن يذكر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه محارمه وتعديه حرماته ثم يحلم ولا يخرجه غيظه إلىٰ الدخول في أسباب المعاصي.

ولذٰلك قال محمد بن السعدي لابنه عروة لما وُلِّيَ اليمن: إذا غضبت فانظر إلىٰ السماء فوقك، وإلىٰ الأرض تحتك، ثم عظم خالقهما[3].

بيان الأسباب الجالبة للحلم:

قال الماوردي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: الحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة العِرْضِ وراحة الجسد واجتلاب الحمد.

---

(١) تهذيب الأخلاق (٢٣).

(٢) روضة العقلاء (٢٠٨ ـ ٢١٤).

(٣) المرجع نفسه.

وأسباب الحلم الباعثة عليه عشرة وهي:

(١) الرحمه للجهال، وذٰلك من خير يوافق رقة، وقد قيل في منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال.

(٢) القدرة علىٰ الانتصار، وذٰلك من سعة الصدر وحسن الثقة.

(٣) الترفع عن السباب، وذٰلك من شرف النفس وعلو الهمة. وقد قيل: إن الله ـ تعالىٰ ـ سمىٰ نبيه يحيىٰ ـ عليه السلام ـ ﴿سَيِّدًا﴾؛ وذٰلك لحلمه ولذٰلك قال الشاعر:

لا يبلغ المجد أقوام وإن كرموا   حتىٰ يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويُشتَمُوا فترىٰ الألوان مُسْفِرَةً   لا صفح ذلٍّ ولٰكن صفح أحلام

(٤) الاستهانة بالمسيء، وذٰلك عن ضرب من الكبر ومن مستحسنه ما روي أن مصعب بن الزبير لما ولي العراق جلس يومًا لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادىٰ: أين عمرو بن جُرْمُوزٍ، وهو الذي قتل أباه، الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ فقيل له: إنه قد تباعد في الأرض. فقال: أَوَ يظن الجاهل أني أقيده بأبي عبدالله؟ فليظهر آمنًا ليأخذ عطاءً موفورًا.

(٥) الاستحياء من جزاء الجواب، والباعث عليه صيانة النفس وكمال المروءة، ولذٰلك قيل: ما أَفْحَشَ حليمٌ، ولا أَوْحَشَ كريمٌ.

(٦) التفضل علىٰ الساب، ويبعث عليه الكرم وحب التآلف، وقد حُكِيَ عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمري بإحدىٰ ثلاث خصال: إن كان أعلىٰ مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه.

(٧) استنكاف الساب وقطع السباب، والباعث عليه الحزم، وقد قال الشعبي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: ما أدركت أمي فأبرها، ولٰكن لا أسب أحدًا فيسبها، ولذٰلك قيل: في إعراضك صونُ أَعراضِكَ. وقد قال الشاعر:

وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذىٰ   وفي الخُرْقِ إغراء فلا تك أخرقا

وقال آخر:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب   حلمي أصم وأذني غير صماء

(٨) الخوف من العقوبة علىٰ الجواب، ويبعث عليه ضعف النفس وربما أوجبه الرأي واقتضاه الحزم، وقد قيل: الحلم حجاب الآفات. وقال الشاعر في هٰذا:

ارفق إذا خفت من ذي هفوة خرقًا   ليس الحليم كمن في أمره خَرَقُ

(٩) الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة، والباعث عليه الوفاء وحسن العهد.

(١٠) المكر وتوقع الفرص الخفية: ويبعث عليه الدهاء، وقد قال

بعض الأدباء:

«غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله. قال إياس بن قتادة:

تُعاقِبُ أيدينا وَيَحْلُمُ رأينا ونشتُمُ بالأفعال لا بالتكلم

فهٰذه عشرة أسباب تدعو إلىٰ الحلم، وبعض الأسباب أفضل من بعض، وإذا كان بعض أسبابه مفضولاً، فإن ذٰلك لا يقتضي أن نتيجته من الحلم مذمومة، وإنما الأوْلىٰ بالإنسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه، وإن كان الحلمُ كلُّه فضلاً، وإن عَرِيَ الحلم عن أحد هٰذه الأسباب كان ذلاً ولم يكن حلمًا[1].

الحلم صفة من صفات المحسنين:

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال ـ تعالىٰ ـ عن إسماعيل ـ عليه السلام ـ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١٠٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فَهَمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً**». ثم قال: «**أعطوه سِنًّا مثل سِنِّه**». قالوا: يا رسول الله، إلا أَمْثَلَ من سنه، فقال: «**أعطوه، فإن من خيركم أحسنكم قضاء**»[2].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يوم السَّقيفة أحلم مني وأوقر، والله ما ترك كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتىٰ سكت»[3].

وعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ وقد أسمعه رجل كلامًا شديدًا، فقيل له: لو عاقبته. فقال: «إني أستحيي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي»[4].

صور من الحلم:

١ ـ عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كأني أنظر إلىٰ النبي ﷺ يحكي: «**نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح الدم عن وجهه**

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين (٣٠٣ـ٣١٠).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (٤/ ٤٨٣)، (٢٣٠٦).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (١٢/ ١٤٤)، (٦٨٣٠).

(٤) مختصر منهاج القاصدين، للمقدسي (١٨٣).

ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١].

٢ ـ وقال عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لرجل سَبَّهُ: «يا عكرمة هل للرجل حاجة فتعطيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحىٰ مما رأىٰ من حلمه عليه»[٢].

٣ ـ وعن علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً سَبَّه فرمىٰ إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذىٰ، وتخليص الرجل مما يبعده عن الله ـ عز وجل ـ، وحمله علىٰ الندم والتوبة، ورجوعه إلىٰ مدح بعد الذم، اشترىٰ جميع ذٰلك بشيء من الدنيا يسير»[٣].

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

يخاطبني السَّفيه بكل قبح ... فـأكـره أن أكـون لـه مجيبـا
يزيد سفاهة فأزيد حلمًا ... كعـود زاده الإحـراق طيبـا[٤]

من ثمرات الحلم:

١ ـ أنه من أحب صفات المحسنين إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ.

٢ ـ أنه دليل كمال العقل وسعة الصدر.

٣ ـ أنه يزيل البغض عن القلوب ويؤلف بينها علىٰ المحبة.

٤ ـ رفعة درجة الحليم في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (١٢/ ٢٨٢)، (٦٩٢٩).
(٢) الإحياء (٣/ ١٧٨).
(٣) المرجع السابق.
(٤) ديوان الشافعي (٥٢).

سابعًا : الرحمة :

الرحمة لغةً:

يقول ابن فارس: الراء والحاء والميم أصل واحد يدل علىٰ الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذٰلك: رَحِمَهُ يرحمه إذا رق له وتعطف عليه، والرُّحْمُ والمرحمة والرحمة بمعنىً[1].

ويقول الجوهري: الرحمة: الرقة والتعطف. والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا... ورجل مرحوم ومُرَحَّمٌ، شُدِّد للمبالغة، والرُّحم بالضمة: الرحمة. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨١].

والرحمة المغفرة، وقوله ـ تعالىٰ ـ في وصف القرآن: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢]. أي: فصلناه هاديًا وذا رحمة. رَحِمَهُ رُحْمًا ورُحُمًا ورَحْمَةً ورَحَمَةً (حكىٰ الأخيرة سيبويه)، ومَرْحَمَةً، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]. أي: أوصىٰ بعضهم بعضًا برحمة الضعيف والتعطف عليه، وترحمتُ عليه أي: قلت: رحمة الله عليه[2].

واصطلاحًا:

قال الجرجاني: هي إرادة إيصال الخير[3].

وقال الجاحظ: الرحمة خلق مركب من الود والجزع، والرحمة لا تكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خلة مكروهة، فالرحمة هي محبة للمرحوم مع جزع من الحال التي من أجلها رُحِمَ[4].

وقال الكفوي: الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان[5].

حقيقة الرحمة:

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: إن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلىٰ العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها. فهٰذه هي الرحمة الحقيقية. فأرحم الناس مَنْ شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك. فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه علىٰ التأدب بالعلم

---

(١) المقاييس (٢/٤٩٨).
(٢) الصحاح (٥/١٩٢٩).
(٣) التعريفات (١١٠).
(٤) تهذيب الأخلاق (٢٤).
(٥) الكليات (٢/٣٧٦).

العمل، ويشق عليه في ذٰلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتىٰ أهمل ذٰلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه. فهٰذه رحمة مقرونة بجهل، ولهٰذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء علىٰ العبد، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته، من رحمته به.

وهٰذه الرحمة التي تحصل للمهتدين تكون بحسب هداهم، فكلما كان نصيب الواحد من الهدىٰ أتم، كان حظه من الرحمة أوفر، فتجد الصحابة كانوا أرحم الأمة، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

والصِّدِّيقُ أرحم الأمة بالأمة، فقد جمع الله له بين سعة العلم وسعة الرحمة. وهٰكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته. وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلمًا، فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بوالدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه(١).

مكانة الرحمة في الإسلام وفضيلتها وشموليتها:

الإسلام دين الرحمة؛ إذ أن شرائعه الغراء كلها مبنية عليه أصولُها وفروعُها، سواء ما يجب لله ـ تعالىٰ ـ أو ما يجب لخلقه، فإن الله ـ تعالىٰ ـ لم يكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا تدبر المنصف ما شرعه ـ عز وجل ـ في المعاملات والحقوق بين الخلق وجد الرحمة هي السمة البارزة فيه.

إنها الرحمة الحقيقية الشاملة التي وسعت العدو والصديق، فدخل فيها المؤمن والكافر والبهائم.

عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «... **والَّذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنَّة حتى تراحموا**» قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: «**إنَّه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة**»(٢).

ولعظم قدر هٰذا الخُلُق وسمو مكانته اتصف ربنا ـ تعالىٰ ـ به فقال ـ جل شأنه ـ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ...﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله**

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٥).

(٢) المستدرك (٤/ ١٨٥) (٧٣١٠)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٠) رجاله رجال الصحيح.

الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[1].

وكما أن الرحمة من صفات الله - تعالىٰ - فإنه - عز وجل - وصف عباده المؤمنين بها وحضهم عليها بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ...﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي السنة النبوية، عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ترىٰ المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر جسده بالسهر والحمىٰ**»[2].

وهٰذا الوصف فيه حض علىٰ التخلق به، وقد جاء التأكيد علىٰ ذٰلك بما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم مَنْ في السماء**»[3].

وكما أكدت الشريعة وجوب التزام الرحمة، حذرت أشد التحذير من الغضاضة والغلظة والشدة. وجعلت ذٰلك من صفات الأشقياء. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت أباالقاسم ﷺ يقول: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»[4].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»[5].

وجعلت الشريعة الإسلامية شرط رحمة الله - تعالىٰ - للإنسان المؤمن، رحمته للناس. فقد روىٰ جرير بن عبدالله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**»[6].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن ابن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**مَنْ لا يَرْحَمْ**

---

(١) صحيح مسلم (٣/٢١٠٧)، (٢٧٥١).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (١٠/٤٣٨)، (٦٠١١).

(٣) سنن أبي داود (٥/٢٣١)، (٤٩٤١). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/٩٣٣) (٤١٣٢).

(٤) سنن أبي داود: (٥/٢٣٢)، (٤٩٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/٩٣٣)، (٤١٣٣).

(٥) سنن الترمذي (٤/٣٢٢) (١٩٢٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/٩٥٧) (٥٤٤٤).

(٦) صحيح البخاري، الفتح (١٣/٣٥٨)، (٧٣٧٦).

لا يُرْحَمْ»[1].

وقد رفع الله شأن المتراحمين وأجزل لهم المثوبة في مثل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد: ١٧ ـ ١٨]. وقد علمت أيها المحسن أن أصحاب اليمين هم أهل السعادة والرضوان والقرب من الرحمٰن ـ جل وعلا ـ.

ومن هٰذه النصوص القاطعة يتبين لنا مكانة خلق الرحمة وفضلها، وأن المحسن الحقيقي هو أحق الناس بها وأهلاً لها؛ إذ لا يتصور الإحسان إلىٰ الخلق من الجفاة الغلاظ الفدادين الجبابرة، الذين شقوا وشقت بهم مجتمعاتهم.

ميادين الرحمة:

الرحمة مطلب شرعي تدخل في كل تعامل بين الإنسان وغيره، وتتفاوت صورها ودرجاتها تبعًا لما يقتضيه الحال؛ فقد تكون الرحمة في جلب محبوب للغير، أو دفع مكروه عنه، وقد يكون بعض الخلق تستدعي حاله رحمة أكبر من غيره. فمن بُغِيَ عليه حقه الرحمة، ومن عجز عن جلب منفعة له حقه الرحمة، والرحمة بالصغار والضعفاء ينبغي أن تكون أكبر. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلىٰ أحدكم للناس فليخفف، فإن في الناس الضعيف والسقيم وذا الحاجة**»[2].

وتتعدىٰ الرحمة الإنسان إلىٰ الحيوان، وهٰذا من محاسن الإسلام الدين الحق الذي لا يسع البشرية دينٌ غيره، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما كلب يُطيفُ بِرَكِيَّةٍ كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها فسقته فغفر لها به**»[3]. والركية: البئر، والموق: الَّذي يلبس فوق الخف[4].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تُفَرِشُ، جاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هٰذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**». ورأىٰ قرية نمل قد حرقناها، فقال: «**من حَرَّقَ هٰذه؟**» قلنا: نحن، قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**»[5].

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (١٠/٤٢٦)، (٥٩٩٧).

(٢) صحيح مسلم (١/٣٤١)، (٤٦٧).

(٣) سنن أبي داود (٥/٤١٩)، (٥٢٦٨)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/٩٨٨)، (٤٣٨٨): صحيح.

(٤) النهاية (٢/٢٦١).

(٥) اللسان (١٠/٣٥٠).

ومما يجب التنبيه عليه هنا أن الرحمة حق لمستحقيها، أما من أسقط عن نفسه هٰذا الحق كالجناة الذين يفسدون، فلا يجوز للمؤمنين عند إقامة الحدود أن تأخذهم الرحمة بهم، فتعطل الحدود، فلا يأمن الفرد والمجتمع من غوائلهم، ولعل من الرحمة بهم إقامة الحدود عليهم؛ لتسقط عنهم المؤاخذة في الآخرة. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ﴾ [النور: ٢].

الرحمة صفة المحسنين:

قال الله ـ تعالىٰ ـ عن الخضر ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ ﴾ [الكهف: ٦٤ ـ ٦٥].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرٗا ٢٤ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قيل: يا رسول الله ادع الله علىٰ المشركين. قال: «**إني لم أبعث لعَّانًا، وإنما بعثت رحمة**»[١].

صور من رحمة المحسنين:

الأولىٰ: ما روي عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق علىٰ أُمِّه**»[٢].

والثانية: ما روي عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص علىٰ عاتقه، فصلىٰ، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها[٣].

والثالثة: ما رواه أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنًا لي قبض فأْتِنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ، وكلٌّ عنده بأجل مسمىٰ، فلتصبر ولتحتسب**». فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفع إلىٰ رسول الله ﷺ، الصبي ونفسه

---

(١) صحيح مسلم (٣/٢٠٠٦)، (٢٥٩٩).
(٢) صحيح البخاري، الفتح (٢/٣٠١)، (٧٠٧).
(٣) صحيح البخاري، الفتح (١٠/٤٢٦)، (٥٩٩٦).

تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شَنٌّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هٰذا؟ فقال: «**هٰذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[1].

والرابعة: ما جاء عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «اشتكىٰ سعد بن عبادة شكوىٰ له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبدالرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ فلما دخل عليه وجده في غاشِيَةِ أهله. فقال: قد قضىٰ؟ قالوا: لا يا رسول الله. فبكىٰ النبي ﷺ، فلما رأىٰ القوم بكاء النبي ﷺ بكوا. فقال: «**ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولٰكن يعذب بهٰذا** ـ وأشار إلىٰ لسانه ـ **أو يرحم، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه**»...»[2].

من ثمرات الرحمة:

١ ـ أنها دليل رقة القلب ولينه.

٢ ـ أنها سبب لرحمة الله ـ تعالىٰ ـ للعبد المؤمن.

٣ ـ أنها من علامات صحة المجتمع الإسلامي وقوة أُخُوَّتِهِ الإيمانية.

٤ ـ عِظَمُ أجر الرحماء عند الله ـ تعالىٰ ـ.

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٣/ ١٥١)، (١٢٨٤).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (٣/ ١٧٥)، (١٣٠٤).

ثامنًا: الاستئذان:

الاستئذان لغةً:

طلب الإذن، وهو مصدر استأذن، وتدل المادة التي أخذ منها علىٰ أمرين: الأول: إِذْنُ كل ذي إذن، والآخر: العِلْمُ والإعلام[١].

واصطلاحًا:

قال الجرجاني ـ رحمه الله ـ: الإذن: فك الحجر وإطلاق التصرف عما كان ممنوعًا شرعًا[٢].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: الاستئذان: طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن[٣].

قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٧]. ومعنىٰ تستأنسوا: أي تطلبوا أن يؤذن لكم، وهو كناية لطيفة عن الاستئذان أو هو الاستئذان نفسه[٤]. ومعنىٰ خير: أي أحسن.

قال قتادة ـ رحمه الله ـ في معنىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿حتىٰ تستأنسوا﴾: «هو الاستئذان ثلاثًا، فمن لم يؤذن له فليرجع. وأما الأولىٰ: فَلْيُسْمِعِ الحَيَّ، وأما الثانية: فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة: فإن شاءوا أذنوا، وإن شاءوا ردوا، ولا تقفن علىٰ باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولىٰ بالعذر»[٥].

مكانة الاستئذان وأحكامه وحكمه:

الاستئذان من محاسن الشريعة الإسلامية التي أمرت به وشددت عليه وأولت أحكامه عناية كبرىٰ، كما حذرت كل التحذير وتوعدت بالعقوبة أولئك النفر الغوغاء أو أصحاب الشهوات والقلوب المريضة أو المتسلطين علىٰ حقوق غيرهم بحيث يلتفت أحدهم علىٰ بيوتات الناس وعوراتهم وسلطانهم بغير استئذان وكأنه بعير نادٌّ عن أهله صائلٌ لا يرعىٰ حرمة، ولا يحترم المشاعر والحقوق. قال موسىٰ بن طلحة ـ يعني ابن عبيدالله ـ رحمه الله ـ: «دخلت مع أبي علىٰ أمي، فدخل فاتَّبعْتُهُ، فالتفت فدفع في صدري حتىٰ أقعدني علىٰ إستي ثم قال: أتدخل بغير إذن»[٦]؟! وهٰذا ليس بمستغرب

---

(١) لسان العرب (١/٥٤٥١)، وانظر: المقاييس (١/٧٦).

(٢) التعريفات (١٦).

(٣) الفتح (١١/٣).

(٤) انظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١٣٥٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/٢٨١).

(٦) الأدب المفرد، للبخاري (٣٦٥)، (١٠٦١).

فإن الأمر بالاستئذان يقتضي الوجوب، والنهيُ عن ضده يقتضي التحريم، وقد قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ . . .﴾ [النور: ٥٨]. وغيرهم أولىٰ بالاستئذان منهم، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٧].

وإنما جعل الاستئذان علىٰ البيوت وما في حكمها من أجل حفظ العورات وصيانتها أن تهدر كما أنه رعاية للود بين الناس واحترامٌ لحقوقهم وممتلكاتهم الشخصية. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

وفي حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رجلاً اطَّلع من جُحر في دارِ النبي ﷺ والنبي ﷺ يحك رأسه بالمِدْرَىٰ، فقال له رسول الله ﷺ: «**لو علمت أنك تنظر لطعنتك به في عينك، إنما جُعِلَ الاستئذان من أجل البصر**»[1].

المِدرَىٰ: عود تدخله المرأة في رأسها لتضم بعض شعرها إلى بعض، وهو يشبه المسلة[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اطَّلَعَ في بيت قوم بغير إذنهم فقد حلَّ لهم أن يفقأوا عَيْنَه**»[3].

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «من ملأ عينه من قاعةِ بيتٍ قبل أن يؤذن له فقد فسق»[4].

وقال عطاء ـ رحمه الله ـ: قلت لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أستأذن علىٰ أختي؟ فقال: نعم. فأعدت فقلت: أختاي في حجري ـ وأنا

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢١٥)، (٥٥٨٠).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٣٦٧).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ٦٧١)، (٢١٥٨).
(٤) الأدب المفرد (٩٢).

أمونُهما وأنفق عليهما ـ أستأذن عليهما؟ قال: نعم. أتحب أن تراهما عُريانتين؟ ثم قرأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ [النور: ٥٨]. قال: فلم يؤمر هٰؤلاء بالإذن إلا في هٰذه الثلاث. قال: : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن ﴾ [النور: ٥٩]. قال ابن عباس: فالإذن واجب، زاد جريج: علىٰ الناس كلهم»[١].

آداب الاستئذان:

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ . . . ﴾ [النور: ٢٧ ـ ٢٨]: «هٰذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين، وذٰلك في الاستئذان، أمرهم ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتىٰ يستأنسوا أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف، وينبغي للمستأذن علىٰ أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، وليكن الباب عن يمينه أو يساره، ولا يقول المستأذن: أنا، إذا قيل: مَنْ؟ لأن هٰذا مكروه؛ لأن هٰذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتىٰ يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحدٍ يُعَبِّرُ عن نفسه بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية»[٢].

عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتيت النبي ﷺ في دَيْنٍ علىٰ أبي ، فدفعت الباب، فقال: «مَنْ ذا»؟ فقلت: أنا. فقال: «**أنا أنا**»، كأنه كرهها»[٣].

وينبغي له ألا يطرق الباب بشدة حتىٰ لا يؤذي أصحاب البيت أو يروعهم، فإن سمعوه أذنوا وإلا انصرف.

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن المستأذن إن تحقق أن أهل البيت سمعوه لزمه الانصراف بعد الثالثة؛ لأنهم لما سمعوه، ولم يأذنوا له دلَّ ذٰلك علىٰ عدم الإذن»[٤].

صفات الإذن:

يمكن أن يكون الإذن بالقول أو بالفعل المتعارف عليه أنه إذنٌ سواء أكان عامًّا أم خاصًّا.

---

(١) المرجع السابق (٣٦٥)، (١٠٦٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨١)، (بتصرف).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (١١/ ٢٥)، (٦٢٥٠).

(٤) أضواء البيان (٦/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: استأذن رجل علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**ائذنوا له**...»[1].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذْنُكَ عليَّ أن تَرْفَعَ الحجاب وأن تسمع سوادي حتىٰ أنهاك**»[2].

قال النووي ـ رحمه الله ـ في شرحه لهٰذا الحديث: «وفيه دليل لجواز اعتماد العلامة في الإذن في الدخول...»[3].

الاستئذان من صفات عباد الله المحسنين:

عن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رجلاً من الأنصار يقال له: أبو شعيب كان له غلام لَحَّامٌ. فقال له أبو شعيب: اصنع لي طعام خمسةٍ لعلِّي أدعو النبي ﷺ خامس خمسة ـ وأبصر في وجه النبي ﷺ الجوع ـ فدعاه، فتبعهم رجل لم يُدْعَ، فقال النبي ﷺ: «**إن هٰذا قد اتَّبَعَنا، أتأذن له؟**» قال: نعم»[4].

وعن أبي موسىٰ ـ رضي الله عنه ـ قال: إن النبي ﷺ دخل حائطًا وأمرني بحفظ باب الحائط فجاء رجل يستأذن فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة**». فإذا أبوبكر، ثم جاء آخر يستأذن. فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة**». فإذا عمر. ثم جاء يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: «**ائذن له وبشره بالجنة، علىٰ بلوىٰ ستصيبه**». فإذا عثمان بن عفان»[5].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلت مع رسول الله ﷺ فوجد لبنًا في قدح فقال: «**أباهرٍّ، الْحَقْ أهلَ الصُّفَّة فادعهم إليَّ**». قال: فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا، فأذن لهم، فدخلوا»[6].

صور من استئذان المحسنين:

الأولىٰ: عن قيس بن سعد ـ يعني ابن عبادة ـ رضي الله عنهما ـ قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال: «**السلام عليكم ورحمة الله**». فردَّ سعد ردًّا خفيًّا. قال قيس: فقلت: ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟! فقال: ذره يكثر علينا من السلام، فقال رسول الله ﷺ: «**السلام عليكم ورحمة الله**». فردَّ سعد ردًّا خفيًّا. ثم قال رسول الله ﷺ: «**السلام عليكم ورحمة الله**». ثم رجع رسول الله ﷺ، واتَّبَعَهُ سعد فقال: يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (١٠/ ٤٧١)، (٦٠٥٤).
(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٦٩٨)، (٢١٦٩).
(٣) شرح صحيح مسلم (١٤/ ١٥٠).
(٤) صحيح البخاري، الفتح (٥/ ١٠٦)، (٢٤٥٦).
(٥) صحيح البخاري، الفتح (٧/ ٥٣)، (٣٦٩٥).
(٦) صحيح البخاري، الفتح (١٣/ ٤٠٤)، (٧٤٢٤).

وأرد عليك ردًّا خفيًّا لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ فأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله مِلْحَفةً مصبوغة بزعفران أو ورس، فاشتمل بها، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول: «**اللهم اجعل صلواتك ورحمتك علىٰ آل سعد بن عبادة**». قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام، فلما أراد الانصراف قرَّب له سعد حمارًا قد وطَّأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ فقال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال لي رسول الله ﷺ: «**اركبْ**». فأبيت، ثم قال: «**إما أن تركب وإما أن تنصرف**». قال: فانصرفت»[1].

والثانية: ما رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «جاء عمر إلىٰ النبي ﷺ في مشْرُبَةٍ له فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك، أيدخل عمر»[2]؟

والثالثة: وقال أبوعبيدة -رحمه الله-: «كان عبدالله -يعني ابن مسعود- رضي الله عنه- إذا دخل الدار استأنس (تكلم ورفع صوته)»[3].

من ثمرات الاستئذان:

١ - أنه يسد الذرائع؛ لأن عدمه يستلزم وقوع النظر علىٰ ما حرم الله. وذٰلك يُفْضِي إلىٰ الفتنة.

٢ - أنه سبب في إزالة الحرج للانتفاع بخصوصيات الآخرين.

٣ - أنه من مظاهر سمو المرء وحسن خليقته.

٤ - أنه يُشِيع المودةَ في المجتمع الإسلامي.

---

(١) سنن أبي داود (٥/ ٣٧٢)، (٥١٨٥)، والبزار (٢/ ٤٢٠)، كما في كشف الأستار، وقال ابن كثير: قد روي هٰذا من وجوه أخر، فهو حديث جيد قوي، والله أعلم. تفسير القرآن العظيم(٣/ ٢٧٩).

(٢) مسند أحمد (١/ ٤٩٨) (٢٧٥١)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر (٤/ ٢٦٧) (٢٧٥٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٠).

تاسعًا: الأمانة:

الأمانة لغةً:

مصدر قولهم: أَمُنَ يَأْمُنُ أَمَانَةً أي: صار أمينًا. قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: «الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق»(١).

والأمانة مأخوذة من الأَمْن وهو ضد الخوف؛ أنها لا يخاف عليها إذ توضع عند أمين، والأمين ثقة لا يخون(٢).

واصطلاحًا:

الأمانة: ضد الخيانة، وهي صيانة الإنسان كل ما ينبغي صيانته من فروض أو واجبات أو حدود أو حقوق مادية أو معنوية سواء كانت لله ـ تعالىٰ ـ أم للناس(٣).

وقيل: هي خلق ثابت في النفس يَعِفُّ به الإنسان عما ليس به حق، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس، ويؤدي به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس(٤).

وهي أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره... وقال الكفوي ـ رحمه الله ـ: «الأمانة: كل ما يؤتمن عليه من أموال وحُرُمٍ وأسرار»(٥).

شروط الأمانة:

١ ـ عفة الأمين عما ليس له به حق.

٢ ـ تأدية الأمين ما يجب عليه من حق لغيره.

٣ ـ اهتمام الأمين بحفظ ما أُسْتُؤْمِنَ عليه، وعدم التفريط أو التهاون بشأن الأمانة.

مكانة الأمانة وفضلها:

الأمانة من أعظم الأخلاق الإسلامية التي لا يكون العبد محسنًا من دونها أبدًا، وقد اعتنت الشريعة الإسلامية بها عناية فائقة أمرًا بها، ونهيًا عن ضدها، ورفعةً لشأن أصحابها وَجَعَلَتْها مقياس صلاح المجتمع وفساده وشارةً واضحةً لتحقق قيام الساعة. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ

---

(١) المقاييس (١/١٣٣)، وانظر: الصحاح (٥/٢٠٧١)، ولسان العرب (١٣/٢١، ٢٢)، والمفردات (٢٩).

(٢) انظر: موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (٢/١٥).

(٣) الأخلاق الإسلامية، للميداني (١/٦٤٦، ٦٤٧).

(٤) انظر: الأخلاق الإسلامية، للميداني (١/٦٤٧).

(٥) انظر: الكليات (١٧٦، ١٨٦).

﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا . . .﴾ [النساء: ٥٨].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: أدِّ الأمانة إلىٰ من ائتمنك ولا تخن من خانك»[(١)].

هٰذا في الأمر بها، وأما النهي عن ضدها فيقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[(٢)].

وأخبرت النصوص الشرعية عن عاقبة الخيانة الوخيمة وسوء منقلب أصحابها، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٣٨]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٧].

وقال ـ جل ذكره ـ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال: ٧١].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده علىٰ منكبي. ثم قال: «**يا أباذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدىٰ الذي عليه فيها**»[(٣)].

وعن أبي زرارة، عدي بن عميرة الكندي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من استعملناه منكم علىٰ عمل، فكتمنا مخيطًا فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**». قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك، قال: «**وما لَكَ**»؟ قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «**وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم علىٰ عمل، فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهىٰ**»[(٤)].

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ٨٠٥) (٣٥٣٥)، وحسنه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٢٢).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (١/ ٨٩)، (٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٤٥٧)، (١٨٢٥).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٤٦٥)، (١٨٣٣).

وفي رفع شأن أهلها قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

والأمين مأجور أعظم الأجر علىٰ أمانته؛ لما رواه رافع بن خديج ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العامل علىٰ الصدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتىٰ يرجع إلىٰ بيته**»[(١)].

وأما ما قررت الشريعة الإسلامية للأمانة من مقاييس صلاح المجتمع وفساده وقرب قيام الساعة من عدمه فعلاماتٌ منها: أداء الأمانة، فيدعمه أدلة صريحة منها ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبغض الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ. والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتىٰ يُخَوَّنَ الأمينُ، ويؤتَمَنَ الخائنُ، وحتىٰ يظهر الفُحْشُ والتَّفَحُّشُ، وقطعية الأرحام، وسوء الجوار..**»[(٢)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدِّث القوم جاء أعرابي فقال: متىٰ الساعة؟ فمضىٰ رسول الله ﷺ يحدِّثُ. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتىٰ إذا قضىٰ حديثه قال: «**أين أُرَاهُ السائل عن الساعة؟**» قال: ها أنا يا رسول الله. قال: «**فإذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظر الساعة**». قال: كيف إضاعتها؟قال: **إذا وُسِّدَ الأمر إلىٰ غير أهله فانتظر الساعة**»[(٣)].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي، يُغَرْبَلُ الناس فيه غربلة، ثم تبقىٰ حثالة من الناس قد مَرِجَتْ عهودهم وأماناتهم، فاختلفوا هٰكذا** ـ وشبَّك بين أصابعه ـ، قالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذٰلك؟ قال: «**تأخذون بما تعرفون، وتَدَعون ما تنكرون، وتقبلون علىٰ خاصتكم، وتَذَرون أمر عَوَامِّكم**»[(٤)].

وأما أنه مِقْيَاسُ صلاحٍ فقد روىٰ أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لي علىٰ قريش حقًّا، وإن لقريش عليكم حقًّا، ما حكموا**

---

(١) مستدرك الحاكم (١/ ٥٦٤)، (١٤٧٤)، وقال: حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٥٧) (٤١١٧).

(٢) مسند أحمد (٢/ ٣٤٦) (٤٦٧٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٠/ ٢٠) (٦٥١٤) إسناده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، الفتح (١/ ١٤١)، (٥٩).

(٤) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٠٧)، (٣٩٥٨)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨١٩)، (٣٦٤٨): حسن صحيح.

فعدلوا، وائتُمِنوا فأَدَّوْا، واستُرْحِموا فرحموا»[1].

والأمانة مرتبطة بالإيمان ثبوتًا وعدمًا في غير ما حديث، منها حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها. قال: «**ينام الرجل النومةَ فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْتِ، ثم ينام النومة فتقبض، فيبقىٰ منها أثرها مثل أثر المَجْلِ، كجمر دحرجته علىٰ رجلك فَنَفِطَ، فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**». ولقد أتىٰ عليَّ زمان ولا أبالي أيكم بايعت. لئن كان مسلمًا رده عليَّ الإسلام، وإن كان نصرانيًا رده عليَّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانًا وفلانًا»[2].

وفي الحديث سمَّىٰ رسول الله ﷺ ما ينزل علىٰ قلوب الرجال والنساء من الإيمان، وعلم الكتاب والسنة أمانة، وهٰذه الأمانة هي المذكورة في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ . . . ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف واغتنم ما يرد عليه منها، وجَدَّ في إقامتها.[3]

ميادين الأمانة:

الأمانة في الإسلام لها مفهوم واسع جدًا، فهي تدخل في كل ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة من سلوكيات في العبادات والمعاملات والآداب والحقوق العامة والخاصة. قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في تأويل قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] قال: «هي كل ما يُؤتَمَن عليه المرء من أمر ونهي، وشأن دين ودنيا، والشرع كله أمانة»[4].

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «الأمانة تَعُمُّ جميع وظائف الدين»[5].

قال البيهقي ـ رحمه الله ـ: «ويدخل في هٰذا الباب ما يقبلُ المؤمن بإيمانه من العبادات والأحكام، وما عليه في مراعاة حقوق نفسه، وحقوق زوجه وولده ووالده، وحقوق أخيه المسلم، بالعون والنصيحة ابتداءً، وأداء

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٥٢٨) (٧٥٩٦)، وقال أحمد شاكر (١٤/ ٧٢) (٧٦٤٠) إسناده صحيح.

(٢) فتح الباري، الفتح (١٣/ ٣٨) (٧٠٨٦)، وصحيح مسلم (١/ ١٢٦) (١٤٣).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ١٦٨).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٥٣).

(٥) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٥٣).

النصح إذا استشاره في أموره واستودعه شيئًا، أو نصب واليًا في مال يتيم، أو محجور عليه، وحقوق مماليكه أو مَنْ يملكه إن كان هو مملوكًا، وما تقلَّد الوالي من حقوق الرعايا، وما تقلَّد الرعايا من حقوق الوالي، وأداء الأمانة في جميع ذلك مشروع»[1].

ومنها علىٰ سبيل المثال:

١ ـ الأمانة في الولايات أيًّا كان نوعها ومنزلتها. فعن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه اللهُ رعيَّةً، يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنةَ**»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإمام ضامنٌ، والمؤذن مؤتمنٌ، اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين**»[3].

٢ ـ الأمانة في الأموال والودائع ونحوها؛ لما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَدِّ الأمانةَ إلىٰ من ائتمنكَ، ولا تَخُنْ من خانك**»[4]. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لم يرخص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة»[5].

٣ ـ الأمانة في العلاقات الإنسانية، وهي أنواع، منها:

أ ـ الأمانة في الحقوق الزوجية؛ لما روي عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع، فكان مما قال: «**اتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله،** . . .»[6].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة، الرجل يُفْضِي إلىٰ امرأته وتفضي إليه، ثم تَنْشُرُ سِرَّها**». وفي رواية: «**من أشر الناس**»[7].

ب ـ الأمانة في الاستشارة دينيةً كانت أم دنيوية، فمن أشار عليه مسلم بأمر يرىٰ الرشد في غيره فقد غَشَّه؛ لما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

---

(١) شعب الإيمان (٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).
(٢) صحيح مسلم (١/ ١٢٤)، (١٤٢).
(٣) سنن الترمذي (١/ ٤٠٢)، (٢٠٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥): حديث صحيح ثابت.
(٤) سنن أبي داود (٣/ ٨٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٢٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٦٥).
(٦) صحيح مسلم (١/ ٨٨٦)، (١٢١٨).
(٧) صحيح مسلم (٢/ ١٠٦٠)، (١٤٣٧).

قال رسول الله ﷺ: «**المستشارُ مُؤتمنٌ**»[1].

جـ ـ الأمانة في المجالس، فعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال ﷺ: «**إذا حدَّث رجلٌ رجلاً بحديث ثم التفت، فهو أمانة**»[2].

٤ ـ الأمانة في المؤثرات والمتأثرات الإنسانية، مثل السمع والبصر والفؤاد؛ لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

٥ ـ الأمانة في أداء العبادات، مثل الغسل والصلاة وغيرهما؛ فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خمسٌ من جاء بهنَّ مع إيمان دخل الجنة: من حافظ علىٰ الصلوات الخمس علىٰ وضوئهنَّ وركوعهنَّ وسجودهنَّ ومواقيتهنَّ، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وأعطىٰ الزكاة طيبةً بها نفسه، وأدىٰ الأمانة**». قالوا: يا أباالدرداء: وما أداء الأمانة؟ قال: «الغسل من الجنابة»[3].

وسائل اكتساب الأمانة:

١ ـ الدعاء، وأن يُدعَىٰ له.

٢ ـ التأمل في عاقبة الأمانة وعاقبة الخيانة.

٣ ـ التأمل في سِيَرِ الأمناء.

الأمانة من صفات المحسنين:

قال الله ـ تعالىٰ ـ عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٧].

وقال ـ تعالىٰ ـ عن هود ـ عليه السلام ـ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٥].

وقال ـ جل وعلا ـ عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان: ١٧ ـ ١٨]. وحكىٰ الله عن ابنة شعيب قولها عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

وقال ـ سبحانه ـ عن يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ

---

(١) سنن أبي داود (٥/٣٤٥)، (٥١٢٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/١١٣٦) (٦٧٠٠).

(٢) سنن أبي داود (٥/١٨٨)، (٤٨٦٨). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/١٤٦) (٤٨٦).

(٣) سنن أبي داود (١/٢٩٨)، (٤٢٩)، وقال الألباني ـ رحمه الله ـ في سنن أبي داود (١/٨٧)، (٤١٤): حسن.

﴿ٱسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٦].

وقال ـ تعالىٰ ـ عن جبريل ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

وفي حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً؟!**»(١).

وقد كانت قريش في جاهليتها تلقبه ﷺ بالصادق الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي(٢). فعن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أخبرني أبوسفيان أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم، فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهٰذه صفة نبيٍّ»(٣).

ومنهم أبوعبيدة، عامر بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ؛ فعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال لأهل نجران: «**لأبعثنَّ إليكم رجلاً أميناً حق أمين**». فاستشرف لها أصحاب النبي ﷺ فبعث أباعبيدة»(٤).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أَمِنَهُ الناس علىٰ دمائهم وأموالهم**»(٥).

صور من أداء الأمانة:

الأولىٰ: ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشترىٰ رجل من رجل عقارًا له، فوجد الرجل الذي اشترىٰ العقار في عقاره جَرَّةً فيها ذهب، فقال له الذي اشترىٰ العقار: خذ ذهبك مني؛ إنما اشتريت منك الأرض، ولم أَبْتَعْ منك الذهب. وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلىٰ رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا علىٰ أنفسهما منه وتصدَّقا**»(٦).

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٧/ ٦٧)، (٤٣٥١).
(٢) انظر: الطبقات الكبرىٰ، لابن سعد (١/ ١٤٦)، وسيرة ابن هشام (١/ ٢٨).
(٣) صحيح البخاري، الفتح (١/ ٧)، (٦).
(٤) صحيح البخاري، الفتح (١٣/ ٢٣٢)، (٧٢٥٤).
(٥) سنن الترمذي (٥/ ١٧)، (٢٦٢٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٣٧). (٦٧١٠).
(٦) صحيح البخاري (٣/ ١٢٨١)، (٣٢٨٥).

والثانية: ما رواه نافع ـ رحمه الله ؛ قال: خرج ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في بعض نواحي المدينة ومعه أصحابٌ له ووضعوا سُفرة له، فمر بهم راعي غنم قال: فسلم، فقال ابن عمر: هَلُمَّ يا راعي هلم فأصب من هٰذه السفرة، فقال له: إني صائم، فقال ابن عمر: أتصوم في مثل هٰذا اليوم الحار شديد سمومه وأنت في هٰذه الجبال؟! فقال له: إي والله، أبادر أيامي الخالية! فقال له ابن عمر ـ وهو يريد يختبر ورعه ـ: فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هٰذه فنعطيك ثمنها ونعطيك من لحمها فتفطر عليه؟ فقال: إنها ليست لي بغنم، إنها غنم سيدي، فقال له ابن عمر: فما عسىٰ سيدك فاعلاً إذا فقدها فقلت: أكلها الذئب؟ فولَّىٰ الراعي عنه وهو رافع أصبعه إلىٰ السماء وهو يقول: أين الله. قال: فلما قدم المدينة بعث إلىٰ مولاه فاشترىٰ منه الغنم والراعي، فأعتق الراعي ووهب له الغنم»[1].

والثالثة: ما رواه زياد بن الربيع اليحمدي، عن أبيه قال: رأيت محمد بن واسع يبيع حمارًا له بسُوق مرة، فقال له رجل: يا أباعبدالله: أترضاه لي؟ قال: لو رضيته لم أبعه.[2]

من ثمرات الأمانة:

١ ـ أنها من علامات الخير والصلاح للفرد والمجتمع.

٢ ـ أنها من أساسيات قيام الحياة الفاضلة للمجتمع المسلم.

٣ ـ عِظَم أجر الأمين عند الله ـ تعالىٰ.

(١) شعب الإيمان (٤/ ٣٢٩)، (٥٢٩١).

(٢) شعب الإيمان (٤/ ٣٣٠)، (٥٢٩٦).

عاشرًا: الحياء:

الحياء لغةً:

مصدر قولهم: حَيِيَ، وهو مأخوذ من مادة (ح ي ي) التي تدل علىٰ الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة.

وقال ابن منظور: الحياء: التوبة والحشمة. يقال: حَيِيَ منه حياءً، واستحيا، واستحَىٰ، حذفوا الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءين[1].

وقال ابن القيم: الحياء (الذي هو الاستحياء) مشتق من الحياة، ومن ذٰلك ـ أيضًا ـ: الحيا للمطر، لٰكنه مقصور، وعلىٰ حسب حياة القلب، يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم[2].

واصطلاحًا:

هو تغير وانكسارٌ يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به[3]. يبعث علىٰ فعل الحسن وترك القبيح[4].

وهٰذا التغير هو عبارة عن انقباض النفس.

مكانة الحياء في الدين:

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: وخلق الحياء من أفضل الأخلاق وأَجَلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمَنْ لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هٰذا الخلق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تؤدَّ أمانة، ولم تُقْضَ لأحد حاجة، ولا تَحَرَّىٰ الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنَّبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة. وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حقًّا، ولم يَصِلْ له رحمًا، ولا بَرَّ له والدًا؛ فإن الباعث علىٰ هٰذه الأفعال إما ديني، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي عُلوي، وهو حياء فاعلها من الخَلْقِ. فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. ثم قال ـ رحمه الله ـ: إن للإنسان آمرين وزاجرين، آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله آمر وزاجر من جهة الهوىٰ والطبيعة، فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره، أطاع آمر

---

(١) المفردات (١٤٠)، المقاييس (٢/ ١٢٢)، اللسان (١٤/ ٢١٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٠).

(٣) الفتح (١/ ٥٢).

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح (٢/ ٢٢٧).

الهوىٰ والشهوة ولا بد[1].

وقال إياس بن قرة ـ رحمه الله ـ: كنت عند عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ فَذُكِرَ عنده الحياء، فقالوا: الحياء من الدين. فقال عمر: «بل هو الدين كُلُّه»[2].

وعن معبد الجهني ـ رحمه الله ـ قال في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. قال: «لباس التقوىٰ: الحياء»[3].

وهٰذا الخلق العظيم هو من صفات ربنا ـ تعالىٰ ـ؛ إذ الباري ـ جل وعلا ـ متصف بكل صفة كمال ليس فيها نقص من جهة مِنْ الجهات، والحياء صفة كمال، فعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حَيِيٌّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه يدعوه أن يردهما صفرًا**»[4].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما حياء الرب ـ تعالىٰ ـ من عبده، فذاك نوع لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال»[5].

وقد جاءت النصوص الشرعية آمرةً به، وناهية عن ضده، فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**استحيوا من الله حَقَّ الحياء**». قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: «**ليس ذاك، ولٰكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، ولتذكر الموت والبِلَىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذٰلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»[6].

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال النبي ﷺ: «**الحياء والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»[7].

والعيُّ: خلاف البيان[8]، والبيان: التعمق في النطق والتفاصح وإظهار

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢٧٧).
(٢) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا (١٩).
(٣) تفسير الطبري (٨/ ١٨٥).
(٤) سنن أبي داود(٢/ ١٦٥) (١٤٨٨)، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح سنن أبي داود (١/ ٢٧٨) (٣١٢٠).
(٥) مدارج السالكين (٢/ ٢٦١).
(٦) سنن الترمذي (٤/ ٦٣٧) (٢٤٥٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع(١/ ٢٢٢) (٩٣٥).
(٧) سنن الترمذي (٤/ ٣٧٥) (٢٠٢٧). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٩٩) (١٦٥٠).
(٨) اللسان (١٥/ ١١٣).

التقدم فيه على النَّاس[1].

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: مرَّ رسول الله ﷺ علىٰ رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء. فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْهُ فإن الحياء من الإيمان**»[2].

ومعنىٰ من الإيمان: أي من شعب الإيمان، وعمل من أعماله؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»[3].

وتقرر الشريعة الإسلامية أن الحياء خير كله ولا يأتي إلا بخير، كما روىٰ عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»، وفي رواية: «**الحياء خير كله**»[4].

وذمت النصوص الشرعية البذاء، فعن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**»[5].

وللحديث تفسيران: الأول: أن يقال: إذا لم تستح من العيب وتخشَ العار مما تفعله، فافعل ما تحدثك نفسك من أغراضها، سواء كان حسنًا أو قبيحًا، فهو توبيخ وتهديد بأسلوب الأمر الذي يراد به الخبر، لا أنه إباحة فعل ما يشاء المرء.

والثاني: أن يقال: إن المعنىٰ: إذا كنت في أفعالك جاريًا عَلَى سنن الصواب فافعل منها ما شئت[6].

وكما امتدحت الشريعةُ الحياءَ، جعلت عاقبته الجنة، وكذا ذمت البذاء، وجعلت عاقبة أهله النار.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار**»[7].

أقسام الحياء:

قال ابن القيم: قُسِّمَ الحياء إلىٰ عشرة أوجه: حياءُ جناية، وحياء

---

(١) النهاية (١/ ١٧٤).

(٢) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (١٠/ ٥٢١) (٦١١٨).

(٣) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (١/ ٥١) (٩).

(٤) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (١٠/ ٥٢١) (٦١١٧)، وصحيح مسلم (١/ ٦٤) (٣٧).

(٥) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (١٠/ ٥٢١) (٦١٢٠).

(٦) انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٣/ ٦٣١).

(٧) سنن الترمذي (٤/ ٣٦٥) (٢٠٠٩). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٩٥) (١٦٣٤).

تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حِشْمَةٍ، وحياء استحقار النفس (استصغارها)، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه[1].

الحياء المذموم:

ما سبق من الأقسام العشرة هو الحياء المحمود وهو الحياء الحقيقي الذي لا يمنع المؤمن من الخير.

قال صاحب (فضل الله الصمد): «فإن قيل: إن صاحب الحياء قد يستحيي أن يواجه بالحق، فيترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد يحمله الحياء علىٰ الإخلال ببعض الحقوق وغير ذٰلك مما هو معروف في العادة، فأقول: إن ذٰلك ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخورٌ ومهانةٌ، وإنما أطلقوا عليه حياءً تشبيهًا ومجازًا[2]، وإنما يكون الحياء حقيقيًّا حيث يكون قبح المُسْتَحْيَىٰ منه حقيقيًا، فلا يدخل فيه الانقباض عما يستقبحه الناس وهو في الحقيقة حسن، ولا الانقباض عما هو في الأصل قبيح ولٰكن الانقباض عنه يؤدي إلىٰ ما هو أقبح منه، مثال ذٰلك ما يقع من بعض خَرِعاتِ النساء، يَعْرِضُ لها فاجر في خلوة يحاول استكراهها، فتنقبض نفسها عن أن تستغيث وتصرخ؛ لأنها تستقبح أن يشيع عنها أن فاجرًا تعرض لها، ولو عقلت لعلمت أن شيوع ذٰلك ليس بقبيح إذا اقترن بإبائها عن الفاحشة، والناس يثنون عليها بالعفة والحزم والثبات إذا سمعوا أنها انتهرته وصرخت بأهلها فجاءوا ودفعوه، وعلىٰ ذٰلك فالحياء في قوله ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**» هو الحياء الحقيقي.

وقد ثبت أنه ﷺ كان أشد حياءً من العذراء في خِدْرِها، وهو ـ لنا في ذٰلك قدوة ـ، لا يقوم دون غضبه شيء إذا انتُهِكَتْ حرمات الله[3].

الحياء من صفات المحسنين:

يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها»[4].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٧٢).

(٢) انظر: فضل الله الصمد (٢/ ٥٤).

(٣) فضل الله الصمد (٢/ ٦٩١، ٦٩٢).

(٤) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (١٠/ ٥٢١) (٦١١٩).

وعن حياء موسىٰ ـ عليه السلام ـ روىٰ أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسىٰ كان حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرَىٰ من جلده شيءٌ؛ استحياءً من الله**...»[1].

وقال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ وهو يخطب الناس: «يامعشر المسلمين: استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده إني لأظلُّ حين أذهب الغائط في الفضاء متقنعًا بثوبي استحياء من ربي ـ عز وجل ـ»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء من الإيمان، وأحيىٰ أمتي عثمان**»[3].

وقال الله ـ تعالىٰ ـ عن ابنة شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص: ٢٥].

صور من حياء المحسنين:

الأولىٰ: ما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلىٰ ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتىٰ يريحنا من مكاننا هٰذا، فيقول: لست هُناكُمْ ـ ويذكر ذنبه فيستحيي ـ ائتوا نوحًا**...»[4].

والثانية: ما روته أمنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من المحيض؟ قال: «**خذي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فتوضئي ثلاثًا**». ثم إن النبي ﷺ استحيا، فأعرض بوجهه، أو قال: «**توضئي بها**». فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ[5].

والفِرْصَة المُمسَّكة: هي القطعة من القطن أو الصوف بها طيب[6].

والثالثة: ما رواه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنت رجلاً مذَّاءً فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ، فأمرت المقداد بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ فسأله فقال: «**فيه الوضوء**»[7].

---

(١) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (٦/ ٤٣٦) (٣٤٠٤).

(٢) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا (٢٠).

(٣) تاريخ ابن عساكر (٣٩/ ٩٢) (٧٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٠٩) (٣١٩٨).

(٤) صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٤) (٤٢٠٦).

(٥) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (١/ ٤١٦) (٣١٥).

(٦) النهاية (٣/ ٤٣١).

(٧) صحيح البخاري ـ الفتح ـ (١/ ٢٨٣) (١٧٨).

من ثمرات الحياء

١ ـ أن الحياء من أَعظم خصال الإيمان، ورأس مكارم الأخلاق.

٢ ـ أنه يمنع العبد من المعاصي.

٣ ـ أنه دليل خير ونفس طيبة للإنسان المسلم.

الحادي عشر : العِفَّة:

العفة لغة: مصدر عفَّ يعِفُّ عِفَّةً، مأخوذ من مادة (ع ف ف) التي تدل علىٰ الكف عن القبيح[1].

وقال ابن منظور ـ رحمه الله ـ: الكف عما لا يحِلُ ويَجْمُلُ[2].

واصطلاحًا:

قال الراغب ـ رحمه الله ـ: العفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشَّهوة، والمتعفف هو المتعاطي لذٰلك بضرب من الممارسة والقهر[3].

وقال الجاحظ: هي ضبط النفس عن الشَّهوات وقصرها علىٰ الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته فقط، واجتناب السَّرف في جميع الملذَّات وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشَّهوات علىٰ الوجه المستحب المتفق علىٰ ارتضائه وفي أوقات الحاجة التي لا غنىٰ عنها، وعلىٰ القدر الذي لا يحتاج إلىٰ أكثر منه، ولا يحرس النفس والقوَّة أقل منه، وهٰذه هي غاية العظة[4].

وقال الجرجاني ـ رحمه الله ـ العفة: هي هيئة للقوَّة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هٰذه القوَّة والخمود الذي هو تفريطه. فالعفيف من يباشر الأمور علىٰ وفق الشرع والمروءة[5].

أنواع العفة:

العِفَّة نوعان:

أحدهما: العفَّة عن المحارم.

والثاني: العِفَّة عن المآثِم، فأمَّا العفَّةُ عنِ المَحارِم، فنوعان:

أحدهما: ضبط الفَرْج عن الحرام.

والثاني: كفُّ اللسان عن الأعراض، فأما ضبط الفَرجِ عنِ الحرامِ، فلأَنَّ عَدَمَهُ مَعَ وَعِيدِ الشَّرعِ وَزَاجِرِ العَقْلِ مَعرَّةٌ فاضحة، وهتكةٌ واضحةٌ.

وأما كفُّ اللِّسان عنِ الأَعراض؛ فلأَنَّ عَدَمَه مَلاذُ السُّفهاء وانتقام أهل الغوغاء، وهو مسْتهسل الكفِّ، وَإِذا لم يقْهر نفْسه عنه بِرادعٍ كَافٍّ، وزاجرٍ صادٍ، تلبَّط بمعارِهِ، وتخَبَّط بمضاره، وأما العِفَّةُ عن المآثِم فنوعان أيضًا:

---

(١) المقاييس (٤/ ٣).

(٢) اللسان (٤/ ٣٠١٥).

(٣) المفردات(٣٣٩).

(٤) تهذيب الأخلاق (٢١، ٢٢).

(٥) التعريفات (١٥١).

أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم.

والثاني: زَجر النفس عن الإسرار بخيانة.

فأما المُجاهرةُ بالظُّلم فعُتُوٌّ مُهلك وطغيان متلفٌ، ويؤول إن استمَّر إلىٰ فتنة تُحيطُ في الغالب بصاحبها فلا تنكشف إلاَّ وهو مصروعٌ، وأما الاسْتِسْرَارُ بالخيانة فضعةٌ لأنَّه بِذُلِّ الخيانة مَهِينٌ، وَلِقلَّة الثِّقَةِ به مستكينٌ، وقد قيل: من يخُنْ يَهُن، هـٰذا ولا يجعل ما يتظاهر بهِ مِن الأمانة زُورًا، ولا ما يبديه مِنَ العِفَّةِ غُرُورًا، فيُنْتَهك الزُّور وينكشف الغُرورُ، فيكون معَ هتكِه للتَّدليس أقبح، ولمعرَّةِ الرِّياء أفضَحَ[1].

مكانة العفّة وفضلها:

قد أمر الله تعالىٰ بالعفاف وحفظ الفروج إلاَّ فيما يحل وهـٰذا مقصد سام من مقاصد الشريعة الإسلامية، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، ولما كان مبدأ ذٰلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا علىٰ حفظ الفرج، فإنَّ الحوادث مبدؤها من النَّظر، فتكون نظرة ثم خطرة ثم خطوة ثم خطيئة، والخطرات واللفظات والخطوات»[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾ [النور: ٦٠].

ورتَّب تعالىٰ الفلاح علىٰ حفظ الفروج فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون: ١ـ ٧].

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين(٣٨٤، ٣٩٠).

(٢) الداء والدواء(٢٣٢).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله عزّوجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩﴾ [المعارج: ٢٩][1].

وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ في حديثه الطويل مع هرقل في وصف النبي ﷺ قال: «.. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف..»[2] وقال تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ..﴾ [النور: ٣٣].

وجاء عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: قَالَ رسول الله ﷺ «**اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا أُؤتِمُنْتُمْ، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**»[3].

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[4].

وعن عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئتِ**»[5].

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله.. [وذكر منهم]: ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله..**»[6].

وعن العفَّة في السؤال يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ..﴾ [النساء: ٦].

وروىٰ أبوسعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: «إنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ إذا نفد ما عنده، قال: «**ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يصبر يصبره الله وما أُعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر**»[2].

وقد امتدح الله تعالىٰ الفقراء، المتعففين بقوله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ

---

(١) تفسير ابن كثير (١٨/ ٢٤٩).
(٢) صحيح البخاري، الفتح(٦/ ١٠٩) (٢٩٤١).
(٣) مسند أحمد(٦/ ٤٤١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٩)، (١٠٢٩).
(٤) صحيح البخاري، الفتح (١١/ ٣٠٨) (٦٤٧٤).
(٥) مسند أحمد(١/ ١٣١) (١٦٦٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع(١/ ١٧٤) (٦٦٠).
(٦) صحيح البخاري، الفتح (٢/ ٥١٧) (١٣٧٥).

﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣].

قال محمَّد بن الحنفية ـ رضي الله عنه ـ الكمال في ثلاثة: العفَّة في الدين، والصبر علىٰ النوائب، وحسن التدبير في المعيشة»[١].

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «العفَّة والنزاهة والصيانة من شروط المروءة»[٢].

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: الكمال عزيز والكمال قليل الوجود، وأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن، فصورة البدن تسمىٰ خلْقًا.

وصورة الباطن تسمىٰ خُلُقًا، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت واستعمال الأدب، ودليل كمال صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق.

فالطبائع: العفَّة والنزاهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشره.

والأخلاق: الكرم والإيثار وستر العُيُوب، وابتداء المعروف والحلم عن الجاهل.

فمن رزق هٰذه الأشياء رقَّتهُ إلىٰ الكمال، وظهر عنه أشرف الخِلال وإن نقصت خلَّة أوجبت النقص[٣].

شروط العفّة:

لا يكون المتعفف عفيفًا إلاّ بشرائط، وهي أن لا يكون تعفُّفُه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه أو لأنَّه لا يُوافقه، أو لجُمُود شهوتِهِ، أو لاستشعارِ خوفٍ من عاقبَتِهِ، أو لأنَّه ممنوعٌ من تناوله، أو لأنَّه غيرُ عارفٍ به لقصُوره فإنَّ ذٰلك كلّه ليس بعفَّةٍ بل هو إمَّا اصطيادٌ، أو تطبُّبٌ أو مرضٌ أو خَرَمٌ أو عجزٌ أو جهلٌ، وتركُ ضَبْطِ النَّفسِ عن الشَّهوةِ أذمُّ منْ تَرْكِها عن الغضب.

فالشَّهوةُ مُغتالةٌ مُخادعةٌ، والغضب مُغَالِبٌ والمتحيِّزُ عن قِتَالِ المُخَادِعِ أردأ حالاً من المُتحيِّزِ عن قِتَالِ المُغالِب ولهٰذا قيل عبدالشَّهوة أذَلُّ مِنَ عبدالرزَّاق، وأيضًا بالشَّرَهِ قَدْ يَجْهل عيبَهُ فَهُو شَبِيهٌ بأَهلِ مَدِيْنَةٍ لَهُم سُنَّةٌ رَدِيئَةٌ يتعاطوْنَها وهم يعرفون قُبْحَهَا، وليس مَنْ تَعَاطَىٰ قَبيحًا يعْرِفُهُ كَمَنْ يَتَعَاطَاهُ وَهُوَ يَظُنُّهُ حَسَنًا. لاَ يكونُ الإنسانُ تامَّ العِفَّة حتىٰ يكون عفيفَ اليد واللسان والسَّمع والبصر فمِنْ عدَمهَا في اللِّسان السُّخْريَّة، والتَّجسُّسُ والغيبة والهمزُ

(١) أدب الدنيا والدين(٣٩٣).
(٢) المراجع السابق.
(٣) صيد الخاطر (٢٨٩).

والنَّميمة والتَّنابُزُ بالألقاب، ومن عدمها في البَصرِ: مدُّالعين إلىٰ المَحَارِمِ وَزِينَةِ الحياة الدُّنيا المُولدَة للشَّهوات الرَّديئة، ومن عدمها في السَّمع: الإصغاء إلىٰ المسموعات القبيحة، وعماد عِفَّة الجوارح كلِّها أن لا يُطلقَها صاحبُها في شيء ممَّا يختصُّ بِكُلٍّ واحدٍ منها، إلاَّ فيمَا يُسَوِّغُهُ العَقْلُ والشَّرعُ دُونَ الشَّهوةِ والهوىٰ[1].

وسائل اكتساب العفة:

العفة منها ما هو جِبلِّيٌّ، ومنها ما هو مكتسب، ومن وسائلها:

أ- وسائل إعفاف الفرج والبصر:

١- الدعاء لما روىٰ عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النَّبي ﷺ أنَّه كان يقول: «**اللَّهمَّ إني أسألك الهدىٰ، والتُّقىٰ، والعفاف، والغِنىٰ**»[2].

٢- النكاح لمن يقدر عليه: لِما روىٰ عن أبي هُريرة - رضي الله عنه - أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة حق علىٰ الله عونهم، المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**»[3].

٣- الصيام لمن لم يقدر علىٰ الزواج: لِما جاء عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قَالَ قَال لَنَا رسُولُ اللهِ ﷺ: «**يا معشر الشَّباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج فإنَّه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنَّه له وجاء**»[4].

والباءة: مؤن النكاح[5] والوجاء: ما يذهب شهوة الجِماع[6].

٤- النظر في عاقبة الفجور وهل يرضاه المرء لمحارمه، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قالَ سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل النَّاس الجنَّة؟ فقال: «**تقوىٰ الله وحسن الخلق**» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: «**الفم والفرج**»[7].

وعن أبي أُمامة - رضي الله عنه - أنَّ فَتىٰ من قريش أتىٰ النَّبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ائذن لِي في الزنىٰ. فأقبل القوم عليه وزجروه فقال:

---

(١) انظر: الذريعة (٣١٩).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٨٧) (٢٧٢١).

(٣) سنن الترمذي(٤/ ١٨٤) (١٦٥٥)، وحسنه الألباني في صحيح سن الترمذي (٢/ ١٣٠) (١٣٥٢).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٠١٨) (١٤٠٠).

(٥) انظر: النهاية (١/ ١٦٠).

(٦) انظر: النهاية (٥/ ١٥٢).

(٧) سنن ابن ماجه (٢/ ١٤١٨) (٤٢٤٦). وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٤١٧) (٣٤٢٤).

مه، مه، فقال: «**ادنه**» فدنا منه قريبًا فقال: «**أتحبه لأمك؟**» قال لا والله! جعلني الله فِدَاءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لأمهاتهم قَال: «**أفتحبه لابنتِك؟**» قَالَ: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لبناتهم، قَالَ: «**أفتحبه لأختك؟**» قالَ: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قَالَ: ولا النَّاس يحبونه لأخواتهم، قَالَ: «**أفتحبه لعمتك؟**» قَالَ: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا النَّاس يحبونه لعماتهم، قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك.

قال: «ولا النَّاس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللَّهمَّ اغفر ذنبه وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه**» فلم يكن بعد ذٰلك الفتىٰ يلتفت إلىٰ شيء»[1].

٥ـ النظر فيما ينتج عن العلاقات الجنسية غير الشرعية من أمراض وآفات عضال أعيت الطب وباتت تهدد وجود البشرية جميعًا.

٦ـ النَّظر في العقوبات الشرعية المترتبة علىٰ الزنا وما في حكمه. وسقوط عدالة الزاني وصغر مقامه بين المسلمين.

ب ـ ومن وسائل العفاف عن سؤال الناس:

١ـ اليقين التام بأنَّ الغنىٰ غنىٰ النفس، لما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الغنىٰ عن كثرة العرض، ولـٰكن الغنىٰ غنىٰ النفس**»[2].

٢ـ العلم بأنَّه لا يسد حاجة الإنسان إلاَّ الله تعالىٰ، لما جاء عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أصابته فاقَةٌ فأنزلها بالنَّاس لم تُسدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل أو غنىٰ عاجل**»[3].

٣ـ الخوف من عدم البركة فيما يأخذ ومن الوعيد الشديد في الآخرة لمن يستكثرُ من سؤال النَّاس لِما روىٰ عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قَالَ: سألتُ النبي ﷺ فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**إنَّ هـٰذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له**

---

(١) مسند أحمد (٦/ ٣٤٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٩)، رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح البخاري، الفتح (١١/ ٢٧١) (٦٤٤٦).

(٣) سنن أبي داود(٢/ ٢٩٦) (١٦٤٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٣١٠).

فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السُّفلىٰ»(١).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول أعطه أفقر إليه مني، حتىٰ أعطاني مرة مالاً، فقلتُ: أعطه أفقر إليه منِّي. فقال رسول الله ﷺ: **«خُذْهُ وما جاءك من هٰذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ، ولاَ سائلٍ فخذه، وما لا ، فلا تتبعه نفسك»**(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: **«ما يزال الرجل يسأل النَّاس، حتىٰ يأتي يوم القيامة، وليس في وجهه مزعة لحم»**(٣).

العفاف صفة المحسنين:

قال الله تعالىٰ عن العفيف يوسف عليه السلام: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ [يوسف: ٢٣].

وقال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ لأصحابه وقد خرجوا يوم عيد: «إنَّ أوَّل ما نبدأ به في يومنا عفَّة أبصارنا»(٤).

صورة من عفاف المحسنين: :

الأولىٰ: ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قال النَّبي ﷺ: **«هاجر إبراهيم عليه السلام بِسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك، أو جبارٌ، من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء، فأرسل إليه يا إبراهيم مَنْ هٰذه التي معك؟ قالَ: أختي ثم رجع إليها فقال: لاتُكذِّبي حديثي، فإنِّي أخبرتهم أنَّكِ أختي، والله إن علىٰ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك.**

فأرسل بها إليه فقام إليها. فقامت تتوضأ وتصلي فقالت: اللَّهمَّ إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلاَّ علىٰ زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر، فغط حتىٰ ركض برجله. .»(٥).

الثانية: ماجاء عن رجل من بني أسد ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قالَ: نزلت أنا وأهلي ببقيع الغَرْقد فقالت لي أهلي: اذهب إلىٰ رسول الله ﷺ فسَلْهُ لنا شيئًا

---

(١) صحيح مسلم (١/٧١٧) (١٠٣٥).
(٢) صحيح مسلم (١/٧٢٣) (١٠٤٥).
(٣) صحيح البخاري (٢/٥٣٦) (١٤٠٥).
(٤) الورع لابن أبي الدنيا (٦٣).
(٥) صحيح البخاري، الفتح (٢/٧٧٢) (٢١٠٤).

نأكله، فذهبتُ إلىٰ رسول الله ﷺ فوجدتُ عنده رجلاً يسأله ورسول الله ﷺ يقول: «**لا أجد ما أعطيك**» فولّىٰ الرجل عنه، وهو مغضب وهو يقول: لعمري إنّك لتعطي من شئت، قال رسول ﷺ: «**إنَّه ليغضب علىٰ أن لا أجد ما أعطيه، من سأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافًا**».

قَالَ الأسدي: فقلتُ: لَلَقْحَةٌ لنا خير من أوقية، والأوقية أربعون درهمًا، فرجعت ولم أسأله، فقدم علىٰ رسول الله ﷺ بعد ذٰلك شعير وزبيب فقسم لنا منه حتىٰ أغنانا الله عزّوجل[1]. واللقحة: هي الناقة ذات اللبن.

من ثمرات العفة:

١ـ نظافة المجتمع الإسلامي من المفاسد.

٢ـ دليل علىٰ كمال النفس وطهارتها.

٣ـ صيانة الأنساب، وصحة الأبدان.

٤ـ نشر للأمن وحفظ للأعراض.

٥ـ الفوز بالفلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) سنن النسائي(٥/ ٩٨) (٢٥٩٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

الثاني عشر : السماحة:

السماحة لغة: مصدر سَمَحَ، وتدل مادة (س م ح) كما قال ابن فارس - رحمه الله - علىٰ معنىٰ السَّلاسَةِ والسُّهولة يقال: سَمَحَ (بفتح السين) وتسمَّح وسَامَحَ، فعل شيئًا فسهَّل فيه، ويقال أيضًا: سَمُحَ (بضم الميم)، وأسمَحَ: إذا جاء وأعطىٰ عن كرم وسخاء، وذلك لسهولة ذٰلك عليه[1].

والسماحة اصطلاحًا:

بذل ما لا يجب تفضلاً[2]، أو الجود عن كرم وسخاء[3].

وحقيقة السماحة:

السهولة واليسر في التعامل مع الغير ببذل الفضل وعدم القهر.

فعن عُبيسٍ أبي عبيدة قَالَ: كان الحسن - رضي الله عنه - إذا اشترىٰ شيئًا وكان في ثمنه كسْرٌ جَبَرَهُ لصاحبه، قال: ومرَّ الحسن بقوم يقولون: نقص دانِق وزاد دانق، فقال: «ما هٰذا لا دين إلا بمروءة»[4].

وعن مُحمَّد بن المكندر - رحمه الله - قالَ: كان يقال إذا أراد الله بقومٍ خيرًا أمر عليهم خيارهم، وجعل أرزاقهم بأيدي سُمَحَائِهِم»[5].

قَال ابن مُقْبِلٍ - رحِمَهُ الله -:

وإنِّي لأسْتَحْيي وفي الحق مَسْمَحٌ إذَا جَاءَ بَاغِي العُرْفِ، أَن أَتَعَذَّرَا[6]

مكانة السماحة في الإسلام:

الإسلام دين السماحة مع الخلق عمومًا فقد روىٰ أبوهريرة - رضي الله عنه - عنِّ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولن يشاد الدين أحدٌ إلاَّ غلبه، فسدِّدوا، وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوَّة والروحة وشيء من الدُلجة**»[7].

والإسلام بهٰذا المفهوم المميز وسع الناس جميعًا مع حرصه علىٰ ارتقاء المرء بنفسه إلىٰ أعلىٰ مراتب الكمال، لعلمه بطبائع النفس البشرية التي قد ترتكس في حمئة الخطيئة ووحل الذنب.

ومن شدَّة سماحة الإسلام لم يقتصر علىٰ المسلمين فقط، بل تعداهم إلىٰ أصحاب الديانات الأخرىٰ حيث لم يقسرهم علىٰ الدُخول فيه كرهًا كما قال تعالىٰ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ . . . ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأمر سبحانه

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٢٩٨)، والمصباح (١/ ٣٧٦)، واللسان (٢/ ٤٨٩، ٤٩٠).

(٢) التعريفات للجرجاني (٤٩٠).

(٣) النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٩٨).

(٤) المنتقىٰ من مكارم الأخلاق (١٣٣).

(٥) المرجع السابق (١٢٥).

(٦) لسان العرب(٢/ ٤٩٠).

(٧) صحيح البخاري، الفتح (١/ ٩٣) (٣٩).

وتعالىٰ رسوله محمَّدًا وأمَّته بأن يقولوا للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٦].

بيد أنَّ هـٰذه السماحة لا تعني التفلت عن واجبات الإسلام وشرائعه، ومداهنة الكفار بالتنازل عن حقوق الإسلام والمسلمين، وإنما هي رفع الحرج عن النفس والآخرين بما فيه فسحة في الدِّين. وملاينة الخلق لقبول الحق وامتثاله كما قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعندما قرَّر الإسلام السماحة منهجًا أرسىٰ قواعدها في جميع مناشطه، وأمر أتباعه بها، وحضهم علىٰ تطبيقها؛ لأنَّ المسلم العاقل لا يملك أن يطوع الناس جميعًا لما يعتقده ويدين به، وذلك لاختلاف طبائعهم، وتنوع إرادتهم، وتبيانهم في تزكية أنفسهم، روىٰ أبوموسىٰ -رضي الله عنه- عن النَّبي ﷺ: «**يَسروا، ولا تعسروا، وبشِّروا ولا تُنفِّروا، وتطاوعا و لاتختلفا**»(١).

واسمع إلىٰ هـٰذه الأحاديث النبوية في عظم مكانة السماحة وحسن عاقبتها فعن عمير الليثي -رضي الله عنه- قَالَ: قلت يا رسول: ماالإيمان؟ قال: «**السماحة والصبر**»(٢).

وعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**دَخل رجل الجنة بسماحته قاضيًا ومتقاضيًا**»(٣).

وعن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترىٰ، وإذا اقتضىٰ**»(٤).

وعن أبي بكر -رضي الله عنه- قَالَ: قال رسول الله ﷺ: وذكر الحديث بِطُولِ، وفِيهِ: يقول الله عزَّوجل: «**انظروا في النَّار رجلاً، فيقول له: هل عملت خيرًا قط؟ فيقول: لا، غير أنِّي كنت أسامح الناس في البيع والشراء، فيقول الله عزَّوجل: «اسمحوا لعبدي كإسماحه إلىٰ عبيدي..**»(٥).

وهـٰذه السماحة في الدين الإسلامي وفي أتباعه الحقيقيين هي من أعظم الأسباب الداعمة للأخوَّة الإيمانية بين المجتمع من جهة وتعايشه مع

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٣٥٩) (١٧٣٣).

(٢) مستدرك الحاكم (٣/ ٧٢٥) (٦٦٢٨)، وصححه الألباني -رحمه الله- في صحيح الجامع (١/ ٢٤٧) (١٠٩٧).

(٣) مسند أحمد(٢/ ٤٢٥) (٦٩٤٢) وقال الهيثمي في المجمع(٤/ ٧٤)، رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) صحيح البخاري، الفتح (٤/ ٣٠٦) (٢٠٧٦).

(٥) مسند أحمد(١/ ٩) (١٦) وصحّح إسناده الشيخ أحمد شاكر (١/ ١٦١).

غيره من جهة أخرىٰ، كما هي من الأسباب الرئيسة في انتشار الإسلام في أرجاء المعمورة.

ميادين السماحة:

للسماحة ميادين عديدة مع النفس في تزكيتها الروحية، بأخذها نحو الأرفق فالأعلىٰ، شيئًا فشيئًا حتى يصل بها إلىٰ حد العزيمة، ومع النَّفس كذٰلك في مناشط الحياة بعدم تكليفها ما لا قبل لها به، والرضي بما قُسم لها مع الأخذ بالأسباب الممكنة، ومع الناس بالسلاسة والسهولة والرضىٰ منهم بالقليل والتغاضي عن هفواتهم ودفع حقوقهم كاملة من غير تسخط أو استكثار، ومع الحيوان بالرفق وعدم المشقة.

وسائل اكتساب خلق السماحة:

من الوسائل المفيدة لاكتساب السماحة الآتي:

١ـ اليقين التام بأنَّ الله تعالىٰ يحب السماحة ويثيب عليها جزيل الحسنات.

٢ـ النظر في عاقبة السماحة وما تدفعه في الدُّنيا من الشرو،وفي العاقبة من الرفعة في الجنة.

٣ـ النظر في سير السمحاء، وحسن الثناء عليهم.

السماحة من صفات المحسنين:

الناس علىٰ اختلاف مستوياتهم في الذكاء واختلاف نماذجهم الخلقية يوجد فيهم من يتمتَّعون بخلق سماحة النفس، منهم هينون لينون سمحاء، ويوجد فيهم آخرون نكدون متشدودون يتذمَّرون من كل شيء لا يوافق هواهم، ويريدون من الدنيا كلها أن تكون علىٰ وفق شهواتهم وأهوائهم الآنية المتجددة، أو علىٰ وفق ما يرون أنَّه الأفضل والأصلح والأحسن[1]. والسماحة من الإحسان.

فعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ في حجة النبي ﷺ أهلَّت بعمرة، قال: وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويتِ الشَّيء تابعها عليه، فأرسلها مع عبدالرحمن بن أبي بكر فأهلَّت بعمرة من التنعيم»[2].

وعن فرقد السبخي ـ رحمه الله ـ قَالَ: لم يكن أصحاب نبي قط فيما خلا من الدُّنيا أفضل من أصحاب محمَّد ﷺ لا أشحَ لقاءً ولا أسمح أكفًا»[3].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما خُيِّرَ**

---

(١) الأخلاق الإسلامية (٢/ ٤٥٧).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٨٨١) (١٢١٣).

(٣) المنتقىٰ من مكارم الأخلاق (١٢٥).

عمَّار بين أمرين إلاَّ اختار أرشدهما»[1].

صور من سماحة المحسنين:

الأولىٰ: عن البراء ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ لما أراد أن يعتمر أرسل إلىٰ أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فاشترطوا عليه أن لا يقيم بها إلاَّ ثلاث ليالٍ، ولا يدخلها إلاَّ بِجُلْبَان السلاح، ولا يدعو منهم أحدًا، قال: فأخذ يكتب الشرط بينهم علي بن أبي طالب، فكتب: هَـٰذا ما قاضىٰ عليه محمَّد رسول الله ﷺ فقالوا: لو علمنا أنَّك رسول الله لم نمنعك ولتابعناك، ولـٰكن اكتب هـٰذا ما قاضىٰ عليه محمَّد بن عبدالله، فقال: أنا والله محمَّد بن عبدالله، وأنا والله رسول الله، قال: وكان لايكتب، قال: فقال لعلي: امْحُ رسول الله ، فقال عليٌّ: والله لا أمحوها أبدًا، قال: فأرنيه ، قال: فأراه إياه، فمحاه النَّبي ﷺ بيده، فلما دخل ومضت الأيام أتوا عليًّا فقالوا: مُرْ صاحبك فليرتحل، فذكر ذٰلك علي ـ رضي الله عنه ـ لرسول ﷺ فقال: «نعم» فارتحل[2].

الثانية: عن عطاء بن فَرُّوخ مولىٰ القرشيين ـ رحمه الله ـ أَنَّ عثمان ـ رضي الله عنه ـ اشترىٰ من رجل أرضًا فأبطأ عليه، فلقيه فقال له: ما منعك من قبض مالك؟ قال: إنَّك غبنتني، فما ألقىٰ من النَّاس أحدًا إلاَّ وهو يلومني ، قال: أو ذٰلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثمَّ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أدخل الله ـ عزَّوجل ـ الجنَّة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا، وقاضيًا، ومقتضيًا»**[2].

والثالثة: عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: «أتىٰ الله بعبد من عباده، آتاه الله مالاً، فقال له: فماذا عملت في الدُّنيا؟ قال: «ولا يكتمون الله حديثاً» قال: يا رب! آتيتني مالك، فكنتُ أبايع الناس، وكان من خلقي الجَوَازُ، فكنت أتيسر علىٰ الموسر وأنظر المعسر، فقال الله: «أنا أحق بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي»[3].

من ثمرات السماحة:

١ـ محبة الله تعالىٰ وعظيم أجره للسُّمحاء من عباده.

٢ـ كسب ود الناس والسلامة من غوائلهم.

٣ـ الطمأنينة النفسية، والتيسير في كسب الرزق.

٤ـ التحام المجتمع المسلم وتكافله.

---

(١) المستدرك (٣/ ٤٣٨) (٥٦٦٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٨٣) (٥٦١٩).

(٢) مسند أحمد (١/ ٩٤) (٢/ ٤١٢) وقال الشيخ أحمد شاكر (١/ ٣٣٥) إسناده صحيح.

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١١٩٥) (١٥٦٠).

ثانيًا: الإحسان مع الكافر القريب أو البعيد:

التمهيد:

يجد الباحث المدقق أنَّ الكفَّار في علاقتهم بالأمة الإسلامية جماعات وأفرادًا ليسوا علىٰ درجة واحدة سواء أكانوا أقرباء أم لا فمنهم الحربي، والذمي والمستأمن.

والحربي: إما أن يكون باقيًا علىٰ حاله أو انتقل إلىٰ المصالح، أو المهادن أو المحايد والمعتزل للحرب، لذٰلك وجب التَّعريف بكلٍّ.

فالمراد بالحربي لغة: من نسب إلىٰ الحرب، وهو العدو المحارب[1].

يقال: «أنا حرب لمن حاربني أي عدو، وفلان حرب فلان: أي محاربه، وفلان حرب لي أي عدو محارب، وإن لم يكن محاربًا[2]».

واصطلاحًا:

من يحارب المسلمين أو ينتسب إلىٰ قوم محاربين للمسلمين سواء أكانت المحاربة فعلية أم كانت متوقعة[3].

والمراد بالذِّمي لغة:

هو من نسب إلىٰ الذمة وهي العهد، مأخوذة من الذمام وهو الحرمة والحق، وسمي الذمام بذٰلك لأنَّه يلزم بتضييعه المذمة[4].

واصطلاحًا: هو الكافر الذي يدخل في ذمة الدولة المسلمة بصفة مؤبدة بعد إعطاء الجزية والتزام أحكام الملة[5].

والمراد بالمستأمن لغة:

بكسر الميم اسم فاعل، ويصح بالفتح اسم مفعول والسين والتاء للصيرورة، أي من صار مؤامنًا[6].

واصطلاحًا: هو من دخل دار الإسلام بأمان طلبه[7] والأمان عند الفقهاء: «هو رفع استباحة دم الحربي ورقِّه وماله حين قتاله، أو العزم عليه مع

---

(١) الاستعانة بغير المسلمين: للطريقي (١٣١).

(٢) اللسان (١/٣٠٣).

(٣) انظر: المطلع علىٰ أبواب المقنع: للبعلي (٢٢٦)، والمدخل للفقه الإسلامي، لمحمد سلام(٦٤).

(٤) انظر: القاموس (٤/١١٧)، والمصباح (٢١٠).

(٥) انظر: المغني (١٠/٥٧٢)، والنهاية (٢/١٦٨).

(٦) انظر: حاشية ابن عابدين (٤/١٦٦).

(٧) انظر: المطلع علىٰ أبواب المقنع (٢٢١).

استقراره تحت حكم الإسلام مدَّة ما»[١].

والمراد بالمصالح لغة:

اسم فاعل مأخوذ من الصلح: والصلح هو السلم مأخوذ من أصلح الشيء بعد فساده: أي أقامه[٢].

واصطلاحًا:

هو الكافر الذي تفتح بلاده صلحًا[٣].

والمصالحة:

قد تكون علىٰ إبقاء الكفار في البلد المفتوح مع دفع خراج الأرض علىٰ أنَّ الأرض للمسلمين، وإما أن يكون علىٰ أنَّ الأرض لهم، ويدفعون الخراج[٤].

والمراد بالمهادن لغة:

اسم فاعل مأخوذ من الهدنة: وهو السكون[٥].

واصطلاحًا: واحد أهل الحرب الذين يتم عقد الصلح معهم علىٰ ترك القتال مدَّة معيَّنة[٦].

والمراد بالمحايد والمعتزل لغة:

المحايد اسم فاعل مأخوذ من حاد عن الشيء حيادًا أي: مال عنه[٧].

والمعتزل: اسم مفعول مأخوذ من الاعتزال وهو التنحي جانبًا[٨].

واصطلاحًا: المحايد والمعتزل هو المتَّفق مع الدَّولة المسلمة علىٰ البقاء بعيدًا عن الحروب ضد المسلمين لمدَّة مؤقتة[٩].

وجملة هـٰؤلاء الكفار مع اختلاف مواقفهم من الدولة الإسلامية وأفرادها فئات لكل فئة أحكام خاصة في التَّعامل معها.

الفئة الأولىٰ: المنافقون.

وهم من يكتم كفره ويعلن الإسلام، ويعمل به ظاهرًا[١٠] وهـٰؤلاء نقبل

---

(١) انظر: مواهب الجليل (٣/ ٣٦٠).

(٢) انظر: تاج العروس (٦/ ٥٤٧).

(٣) انظر: الاستعانة بغير المسلمين (١٤٤).

(٤) المرجع السابق.

(٥) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٣٥).

(٦) انظر: جواهر الإكليل: للآبي (١/ ٢٦٩)، والمغني (١٠/ ٥١٧).

(٧) انظر: تاج العروس: (٨/ ٤٧).

(٨) انظر: القاموس المحيط (٤/ ١٥).

(٩) انظر: الاستعانة بغير المسلمين (١٤٨).

(١٠) انظر: زاد المعاد(٣/ ١٦١).

ظواهرهم مع أخذ الحيطة والحذر منهم وأمرهم إلىٰ الله تعالىٰ في الآخرة..

والفئة الثانية والثالثة:

هم اليهود والنصارىٰ ويسمون أهل الكتاب وقد أباح الله تعالىٰ للمسلمين ذبائحهم وأن يتزوَّجوا من نسائهم قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وقد خصَّهم الإسلام بإباحة طعامعهم والزواج من نسائهم.

والفئة الرابعة:

هم المشركون والملحدون، سواء أكانوا من العرب أم العجم.

الفئة الخامسة:

هم المرتدون إلىٰ أحد الفئات الأربع السابقة.

وهٰذا التقسيم للكفار مهم جدًا لأمرين:

الأول: أنَّ كثيرًا من الناس يجهلون حقيقة العلاقة مع غير المسلمين وأسلوب المعاملة معهم وطريقتها.

فتجدهم يذهبون مذاهب غير شرعية.

منهم من يقف من الكفار موقفًا سلبيًا طابعه العداء والنفور فلا يفرق بين حربي وذمي ومستأمن.

فيتعامل مع الجميع معاملة قاسية شديدة انطلاقًا من فهمه لبعض النصوص كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

ومنهم من يقف من الكفار جميعًا موقفًا طابعه المحبَّة والودُّ والولاَء بحيث لا يكاد يفرق بين مسلم وغير مسلم، ولا يميز بينهما، ويرىٰ أنَّ علىٰ جميع الناس علىٰ اختلاف أديانهم أن يعيشوا متوادين متعاونين، وأن يبتعدوا عن كل أسباب الخلاف والنزاع فيما بينهم، مع محافظة كل منهم علىٰ دينه وعقيدته واضعًا نصوص الرحمة والسماحة في غير مواضعها.

والحقيقة أنَّ الإسلام في هٰذا وسط بين الأمرين[١].

مشروعية البر والإحسان إلىٰ المسالمين من الكافرين:

يَسْتَحِبُّ الإسلام البر والإحسان وبذل المعروف والنصح لجميع الناس إلاَّ من حارب الله ورسوله ﷺ وتربص بالمسلمين الدوائر، وهم من يسمون بالحربيين.

أما من عداهم فالدين لا يمانع من برهم والعطف عليهم ما داموا

---

(١) انظر: الاستعانة بغير المسلمين (٦، ٧).

مسالمين موادعين كأهل الذمة وأهل الصلح ونحوهم[1].

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق أقوال المفسرين في المراد بالذين لا ينهىٰ الله تعالىٰ عن برهم. قال: وَأَوْلَىٰ الأقوال في ذٰلك بالصواب قول من قال: عني بذٰلك: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] جميع من كان ذٰلك صفته فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنىٰ لقول من قال ذٰلك منسوخ[2].

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: ومعنىٰ الآية أنَّ الله سبحانه لا ينهىٰ عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين علىٰ ترك القتال وعلىٰ ألاَّ يظاهروا الكفار عليهم[3].

وقال المرتضي ـ رحمه الله ـ: «المحالفة والمنافعة وبذل المعروف وكظم الغيظ وحسن الخلق وإكرام الضيف، ونحو ذٰلك يستحب للجميع إلاَّ ما كان يقتضي مفسدة كالذلَّة، فلا يبذل للعدو في حال الحرب»[4].

وهٰذا إجمال وبيانه معرفة علاقة المسلمين بالكافرين وأقسامها وكيفيَّة الإحسان إليهم.

علاقة المسلمين بالكافرين وكيفية الإحسان إليهم:

تنقسم علاقة المسلمين بالكافرين إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العلاقة بهم قبل بلوغ الدَّعوة لهم إلىٰ الإسلام وأثناءها وفي حال تجاوبهم معها وتلك العلاقة ذات صبغة سلمية بلا شك.

القسم الثاني: العلاقة بهم بعد بلوغ الدَّعوة إليهم إلىٰ الإسلام وصدور العناد والعداء والزهو منهم فإنَّها ذات صبغة حربية قطعًا.

القسم الثالث: العلاقة بهم بعد بلوغ الدَّعوة إليهم إلىٰ الإسلام ووقفوا منها موقفًا مسالمًا وتركوا من يريد الدخول في الإسلام جملة واحدة وواضح أنَّها ذات صبغة سلمية[5] لقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ..﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأنَّ قتالهم ليس بواجب[6]، كما يجوز للمسلمين أن يطلبوا منهم دفع الجزية ليخضعوا للحكم الإسلامي، فإن رفضوا ذٰلك جاز للمسلمين قتالهم إن رأوا

---

(١) انظر: الاستعانة بغير المسلمين (٢١، ٢٢).
(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ٤٣).
(٣) فتح القدير (٥/ ٢١٣).
(٤) إيثار الحق علىٰ الخلق (٤٠٨).
(٥) انظر: الاستعانة بغير المسلمين (١٢٦).
(٦) هداية الحياري لابن القيم (١٤) وانظر أحكام أهل الذمة (١٧).

في ذلك مصلحة[1] غير أنَّه لا بد من الإشارة إلىٰ أنَّ أولئك الكفار المسالمين الذين لم يدخلوا في الدِّين، ولم يخضعوا للحكم الإسلامي لن يستمروا طويلاً علىٰ تلك الحال، بل لا بد أن يكون لهم موقف واضح من الدَّعوة إما إيجابًا بالدخول في الإسلام، أو معاهدة المسلمين، وإما سلبًا بإظهار العداء والحرب لهم، ولا سيَّما إذا كان للمسلمين قوَّة وعزَّة[2].

ويمكن تفصيل ذٰلك بالآتي:

أـ العلاقة مع الحربيين:

مِن المُسَلَّم به أنَّ الحربيين ليسوا علىٰ درجة واحدة في العداوة والبغضاء للمسلمين، بل منهم صريح العداء، ومنهم غير صريحه.

فأما صريحو العداء فالعلاقة معهم علاقة حرب ومعاداة ومقاطعة كاملة جزمًا.

ومن مظاهر ذٰلك:

١ـ قطع العلاقات القائمة معهم إن وجدت أيًّا كانت سواء علىٰ مستوىٰ الدَّولة الإسلامية، أم على مستوى أفرادها.

٢ـ إظهار الشدَّة والقوَّة أمامهم، وعدم الجنوح للمسالمة أو المسامحة والملاينة كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩] وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة: ١٣].

٣ـ محاربتهم بكل الوسائل الممكنة المباحة شرعًا.

٤ـ عدم السماح لأي فرد من المسلمين بمصادقتهم أو أنْ يفضي إليهم بشيءٍ من أسرار المسلمين.

ويستثنىٰ من ذٰلك الرسل «السفراء» وَمَنْ طلب الأمان منهم ومن دخل من أجل تجارة فإنَّ معاملتهم تختلف عن ذٰلك.

وكذا المعاملة الفردية بين أفراد المسلمين والحربيين فإنَّها قد تجوز في مثل البيع والشراء ومعظم أنواع العقود، ما لم يكن في ذٰلك تعزيز وإعانة لهم علىٰ المسلمين، كما تجوز معاملة الدَّولة الإسلامية مع أفرادٍ من الحربيين لمصلحة الأمة الإسلامية، كاستعمالهم في التجسس.

ومن الأدلة علىٰ ما سبق قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن

---

(١) انظر: شرح الجليل (١/ ٧١٤).

(٢) انظر: الاستعانة بغير المسلمين(١٢٩).

﴿ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ ﴾ [الممتحنة: ١] وقال تعالىٰ: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ ﴾ [الممتحنة: ٩].

وأما الحربيون غير صريحي العداء فإنَّ العلاقة بهم ليست قائمة علىٰ الحرب ولا علىٰ السلم، وإنما علاقة دعوة إلىٰ الإسلام ابتداءً ثم قد تتطور إلىٰ علا قة سلم إن سالموا أو علاقة حرب إن هم حاربوا. ولا مانع أن تقيم الدَّولة الإسلامية سِلْمًا مع هٰؤلاء، ولٰكن لو طلب المسلمون منهم أن يخضعوا للسُّلطة الإسلامية بدفع إلجزية فلم يقبلوا فإنَّه من حق المسلمين قتالهم بسبب استعلاء هٰؤلاء الكفار علىٰ الإسلام، كما أنَّه من حق المسلمين أن يقاتلوهم متىٰ صدر منهم فتنة، ويشير إلىٰ ذٰلك كله قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ [البقرة: ١٩٣] [١].

ب ـ العلاقة بالذميين والمستأمنين:

يشرع في حق كل ذمي أن يعامل معاملة حسنة لا أذىٰ فيها ولا غلظة، ودون سب وشتم، أو قهر ونهر، أو إذلال وإهانة، لأنَّ كل هٰذه الأشياء إلحاق أذىٰ بهم، والدين لا يبيح أذيتهم بحال.

فقد روىٰ الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ: أنَّ هشام بن حكيم ـ رضي الله عنه ـ مرَّ علىٰ أناسٍ من الأنباط بالشام قد أُقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدُّنيا**»[٢].

ومن الواضح أنَّ إلحاق الأذىٰ بهم يزهدهم في الإسلام ويرغبهم عنه، وتسوء نظرتهم إلىٰ الإسلام سوءًا قد يحجبهم عن الدخول فيه، مع أنَّ الإسلام لم يحقن دماءهم ويكتفي منهم بأخذ الجزية إلاَّ من أجل أن تكون لهم فسحة وقت للتأمل والنظر في هٰذا الدِّين فيدخلوا في دين الله عن رضا واقتناع.

وعليه فإنَّ الإسلام يدعو إلىٰ حسن معاملتهم والتأدب معهم والرفق بهم وأدلة ذٰلك متضافرة منها: قوله تعالىٰ: ﴿ ۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) انظر: الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي (١٣٢، ١٣٦).

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٠١٧، ٢٠١٨).

يقول الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ عند هٰذه الآية قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أي بالجميل من القول، وهو الدعاء إلىٰ الله بآياته والتنبيه علىٰ حججه، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أي الذين امتنعوا عن أداء الجزية ونصبوا دونها الحرب»[١].

وروت أمنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل رهط من اليهود علىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: السام[٢] عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلتُ: وعليكم السام واللَّعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: **مهلاً يا عائشة: إنَّ الله يحب الرفق من الأمر كله**» فقلتُ: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت وعليكم»[٣].

وذكر ابن سعد ـ رحمه الله ـ أَنَّ وفد نصارىٰ نجران لما وفدوا علىٰ النَّبي ﷺ دخلوا عليه في مسجده بعد صلاة العصر فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم**»[٤].

ويعقب ابن القيم ـ رحمه الله ـ علىٰ هٰذه الحادثة مستنبطًا فقهها، فيقول: فيها جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين وفيها تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين أيضًا إذا كان ذلك عارضًا ولا يمكنون من اعتياد ذٰلك[٥].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمىٰ فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمة ورحمًا أو قال: ذمة وصهرًا**»[٦].

والذمة: العهد، والأمان والحرمة والحق[٧].

وأما الرحم: فسببها كون هاجر أم إسماعيل عليهما السلام أبي العرب منهم.

وأمَّا الصهر: فلكون مارية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ منهم[٨].

هٰذه جملة من النصوص في معاملة أهل الذمة وهي نصوص يعرف

---

(١) تفسير الطبري (٢١، ٢، ٣).
(٢) السام: الموت. النهاية (٢/ ٤٠٤).
(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٦).
(٤) انظر: الطبقات الكبرىٰ (٣٥٧).
(٥) زاد المعاد (٦٣٨٣)، وانظر: أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٨٨).
(٦) صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٠) (٢٥٤٣).
(٧) النهاية (٢/ ١٦٨).
(٨) شرح صحيح مسلم (١٦/ ٩٧).

منها التسامح الكبير معهم وقد نصَّ الإمام القرافي ـ رحمه الله ـ علىٰ جملة من الوصايا بهم فقال: «الرفق بضعيفهم، وسد خلَّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم علىٰ سبيل التلطف لهم والرحمة، لا علىٰ سبيل الخوف والذلَّة واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة علىٰ إزالته لطفًا منَّا بهم، لا خوفًا وتعظيمًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غَيْبَتهم إذا تعرَّض أحد لأذيتهم، وَصَوْن أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا علىٰ دفع الظلم عنهم وإيصالهم لجميع حقوقهم»[1].

وأما المستأمن فإنَّه يتمتع بكثير منها إلاَّ أنَّه بصفته أجنبيًا، فإنَّه ليس كالذمي بل يمنع من بعضها، كالوظائف والحقوق السياسيَّة وبعض الحقوق الاقتصادية.

وعلىٰ سبيل الاختصار فإنَّ العلاقة بهم أي الذميين تقوم علىٰ الآتي:

١ـ العدل معهم، ومثلهم أهل العهد وعدم إهانتهم أو سبهم أو تعمد مضايقتهم، مع عدم تعظيمهم ووضعهم في مصاف المسلمين[2].

٢ـ التعاون والتعامل معهم في الأمور الدنيوية، والاستفادة من علومهم وتجاربهم واختراعاتهم وآرائهم الصائبة.

٣ـ عدم موالاتهم مطلقًا، وأخذالحذر منهم.

٤ـ جواز توليتهم بعض الوظائف الخاصة.

وأما ما ورد من النصوص الأخرىٰ التي قد يفهم من ظاهرها خلاف ما ذكر فإنَّها لا تعارض ذٰلك، ومن تلك النصوص التي يتوَّهم معارضتها قوله تعالىٰ: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

والشَّاهد هنا قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

حيث ورد في تفسيرها أقوال... منها[3]:

---

(١) الفروق(٣/ ١٥)، وانظر الخراج لأبي يوسف (١٢٤، ١٢٥)، وغرائب القرآن للنيسابوري(٣/ ١٦٦).

(٢) انظر: الخراج لأبي يوسف (١٢٤، ١٢٥)، والفروق للقرافي (٣/ ١٥)، وأحكام أهل الذمة لابن القيم (٢٣، ٣٤).

(٣) راجع أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٩١٠، ٩١١).

١ـ أنَّ الذمي يدفع الجزية وهو قائم والآخر جالسًا.
٢ـ أن يأتي بها ماشيًا لا راكبًا، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجربها إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف ثم تجريده ويمتهن.
٣ـ بمعنىٰ توجأ عنقه.

والحقيقة: أنَّ كل ذٰلك مما لا دليل عليه كما يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ ولا هو مقتضىٰ الآية، ولا نُقِلَ عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنَّهم فعلوا ذٰلك، والصواب في الآية: أنَّ الصَّغَار هو التزامهم بجريان أحكام الملة عليهم وإعطاء الجزية فإنَّ التزام ذٰلك هوا لصغار»[١].

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ «إذا أخذَ الإمام منهم الجزية أخذها بإجمال ولم يضرب منهم أحدًا ولم ينله بقول قبيح، والصغار أن يجري الحكم عليهم لا أن يضربوا ولا أن يؤذوا»[٢].

ومن الأدلة التي يتوهم منها المعارضة:

ما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تبدأوا اليهود ولا النصارىٰ بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلىٰ أضيقه**»[٣].

ففي الحديث نهي عن بدء اليهود والنصارىٰ بالسلام، وأمر بأن يضطر الواحد منهم إلىٰ أضيق الطريق عند اللقاء، فهنا مسألتان:

الأولىٰ: وهي عدم البداءة بالسلام، وهٰذه المسألة فيها خلاف علىٰ نحو أربعة أقوال:

أحدها: التحريم وثانيها: الكراهة: وثالثها الإباحة، ورابعها: أنَّه لايجوز السلام إلاَّ في حالة ضرورة أو حاجة، أو سبب حكىٰ هٰذه الأقوال الإمام النووي وغيره رحمهم الله تعالى واختار التحريم وقال: إنَّه قول أكثر العلماء[٤].

وإذا كان هٰذا هو الراجح فإنَّه ليس فيه إخلال بالوصايا السابقة، فعدم البداءة بالسلام لا يعني سبًّا ولا سخريَّة ولا نحوًا منهما، ولٰكن الذي قد يعطي نوعا من هٰذا هو عدم رد السلام، والإسلام يأمر برده علىٰ كل أحد، لٰكن صيغته تختلف بحسب الأحوال، فإذا شكَّ المسلم بصيغة السلام مِنْ

---

(١) أحكام أهل الذمة(١/ ٢٣، ٢٤).
(٢) اختلاف الفقهاء للإمام الطبري (٢٣١).
(٣) صحيح مسلم (٤/١٧٠٧) (٢١٦٧).
(٤) انظر: شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (١٤/ ١٤٤، ١٤٥)، وفتح الباري (٣٩١١).

قِبَلِ الكافر فليقل: وعليكم، فحسب، وإن علم أنَّه سلم تسليمًا صحيحًا فلا مانع أن يرد ردًّا كاملاً فيقول: وعليكم السلام[(١)].

أما المسألة الثانية: وهي اضطراره إلىٰ أضيق الطريق:

فيقول القرطبي ـ رحمه الله ـ فيما حكاه عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ حول هٰذا الحديث: «معناه لا تتنحوا لهم عن الطريق الضيق إكرامًا لهم واحترامًا، وعلىٰ هٰذا فتكون هٰذه الجملة مناسبة للجملة الأولىٰ في المعنىٰ، وليس المعنىٰ إذا لقيتموهم في طريق واسع فألجئوهم إلىٰ حرفه حتىٰ يضيق عليهم لأنَّ ذٰلك أذىٰ وقد نهينا عن أذاهم بغير سبب»[(٢)].

والحكمة من ذٰلك إظهار عزَّة الإسلام وذلَّة الكفر[(٣)].

ج العلاقة بأهل الهدنة والصلح:

الأصل في ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١].

وقد اختلف الفقهاء في حكم الهدنة، فقيل: لا تجوز إلاَّ عند الضرورة، وقيل: تجوز للمصلحة، وقيل: تجوز مطلقًا متىٰ جنح لها العدو[(٤)].

وعلىٰ قول من قال بالجواز فهل العقد لازم أم جائز يجيب علىٰ ذٰلك ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ فيقولان: إن كان العقد مؤقتًا فهو لا زم لقوله تعالىٰ: ﴿ . . فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة: ٤] إلاَّ أن يشترط الطرفان أنَّ لكلٍ منهما الفسخ متىٰ شاء أحدهما فيكون جائزًا، وإن كان مطلقًا فهو عقد جائز وليس بلازم فيجوز نبذه إليهم ثم مقاتلتهم لأنَّ النَّبيَّ ﷺ نبذ إلىٰ المشركين عهودهم المطلقة[(٥)].

وعلىٰ هٰذا ما دام التعاقد موجودًا فيتقرر ترك الحرب وألا يمس أحدٌ أحدًا بسوء، قال الكاساني ـ رحمه الله ـ : «لها حكم الأمان فيأمن الموادعون علىٰ أنفسهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم لأنَّها عقد أمان»[(٦)].

وعلىٰ الإمام أن يحميهم من المسلمين والذميين سواء في دار الإسلام

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/ ١٩٧، ٢٠٠)، وفتح الباري (١١/ ٤١، ٤٦)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/ ١١١).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٠)، وانظر: الفروق للقرافي (٣/ ١٥).

(٣) انظر: فيما سبق الاستعانة بغير المسلمين (٢٨، ٣٠. ١٣٨، ١٤١).

(٤) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ١٠٨)، المغني (١٠/ ٥١٧).

(٥) انظر: الاختيارات الفقهية (٣١٥)، وأحكام أهل الذمة (٤٧٦)، وما بعدها.

(٦) بدائع الصنائع (٧/ ١٠٩).

أم في دار الصلح[1].

ومتىٰ تم الصلح فالأبواب مفتوحة أمام الطرفين، فالمسلمون لهم أن يدخلوا دار الصلح، وأهل الصلح لهم أن يدخلوا دار الإسلام، سواء في تجارة أم غيرها[2].

ولا بأس بذٰلك ما لم ينص علىٰ خلافه، فإنَّه من مقاصد الصلح أن يتعرَّف الكفار علىٰ دين الإسلام ممثلاً بأهله.

ولذٰلك كان صلح الحديبية من أعظم الفتوح: «لأنَّ الناس أمن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار وبادؤهم بالدَّعوة وأسمعوهم القرآن وناظروهم علىٰ الإسلام جهرة آمنين وظهر من كان مختفيًا بالإسلام ودخل فيه في مدَّة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهٰذا سماه الله فتحًا مبينًا»[3].

وقد قدم أبوسفيان بن حرب المدينة وقت الصلح فدخل علىٰ ابنته أم حبيبة ـ رضي الله عنهما ـ ولم يتعرَّض له أحد بأذى.[4]

د ـ العلاقة بأهل الحياد والاعتزال:

الأصل في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٨٩ـ ٩١].

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ «ثمَّ إنَّ الله استثنىٰ من قتال هٰؤلاء ثلاث فرق:

إحداها: من يصل إلىٰ قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق فيكون له حكمهم.

والثانية: قوم حصرت صدورهم أن يقاتلوا المسلمين أو قومهم فهؤلاء أمر بتركهم أيضًا.

والثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم

---

(١) انظر: المغني (١٠/ ٥٢٢).

(٢) انظر: المبسوط (١٠/ ٨٩).

(٣) زاد المعاد(٣/ ٣٠٩).

(٤) المرجع السابق.

الذين قال الله عنهم: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ [النساء: ٩١] [١] علىٰ أنَّه قد ذهب جماعة من المفسرين إلىٰ القول بنسخ الآيتين الأُوليين[٢].

ورویٰ أصحاب السير والمغازي أنَّ النَّبيَّ ﷺ غزا غزوة «الأبواء»[٣] ووادَعَ مخسي بن عمرو الضمري وكان سيد بني ضمرة في زمانه علىٰ ألاَّ يغزو بني ضمرة، ولا يغزوه ولا أن يُكَثِّروا عليه جمعًا، ولا يعينوا عليه عدوًا، وكتب بينه وبينهم كتابًا[٤].

ولا يخلو الحياد من حالتين:

الأولىٰ: أن يكون قد حصل عن اتفاق بين المسلمين وبين دولة أو أفراد كَفَرَة.

والثانية: أن يكون مجرَّد موقف تتخذه دولة أو أفراد كَفَرَة.

فأما أصحاب الحالة الأولىٰ: فيجب الوفاء بالشروط، وتبقىٰ الدولة أو أفرادها معزولة عن حرب المسلمين، ولا يجوز للمسلمين أن يقحموها أو أفراداها في الحرب ويكون حكم هٰؤلاء حكم أهل الصلح، والعلاقة بهم كالعلاقة بأهل الصلح، بدليل ما فعله النبي ﷺ مع بني ضمرة في غزوة الأبواء: على أنَّه لا يجوز الحياد الدائم بل المؤقت ومن بعده يتميَّز المحايد إما حربي أو ذمي أو مستأمن.

وأما أصحاب الحالة الثانية: فإنَّهم دولة أو أفراد من جملة الحربيين، باعتبار أنَّه ليس بينهم وبين المسلمين عهد ولا ذمة، فيكون لهم حكم الحربيين غير المحاربين ومثل هٰؤلاء لا يجب قتالهم بمجرَّد كفرهم، ولٰكنَّه مباح ويجوز للمسلمين أن يقيموا علاقات سلام معهم ما رأوا في ذٰلك مصلحة راجحة لهم[٥].

الإحسان إلىٰ الكافر القريب:

إنَّ الإسلام ليسمو في سماحته وإنسانيته، إذ يوصي بصلة الرحم ولو كانت الأرحام من غير المسلمين، ففي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ جِهارًا غير سرٍّ يقول: «إنَّ آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولٰكن لهم رحم أَبُلُّها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/ ١٢٠) وما بعدها بتصرف.
(٢) انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي (٢٨٥).
(٣) الأبواء: جبل بين مكة والمدينة وعنده بلد ينسب إليه، النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٠).
(٤) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٢/ ٣٥٢)، وزاد المعاد (٣/ ١٦٤).
(٥) انظر: الاستعانة بغير المسلمين (١٤٩، ١٥٥).

ببلالها»(١).

أي أصلها بالمعروف.

ولما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، وقال: «**يا بني عبدشمس، يا بني عبد كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أنَّ لكم رحمًا سأبُلُّها بِبلالِهَا**»(٢).

ولهٰذا لم يجد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حرجًا من أن يُهدىٰ حُلَّةً بعث بها إليه الرسول ﷺ إلىٰ أخ له من أمه مشرك(٣)

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] قال: اتفقت الملة أنَّ صلة ذوي الأرحام واجبة وأنَّ قطيعتها محرمة، ولتأكيدها دخل الفضل في صلة الرحم الكافرة»(٤)، غير أنَّه لا بد من الإشارة إلىٰ أنَّ ذا الرحم إذا كان محاربًا معاندًا محادًا لله ورسوله والمؤمنين فإنَّه لا يلزم بره ولا صلته بل لو قتله المسلم القريب فلا بأس(٥).

وأهم الذين يتعيَّن برهم والإحسان إليهم من غير المسلمين هم الوالدان، ثم الأقربون علىٰ حسب درجات قربهم، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّها قالت لرسول الله ﷺ: «قدمت أمي عليَّ راغبة وهي مشركة، أفأصلها؟ قال نعم صلي أمك»(٦).

وقولها راغبة: أي راغبة صلتي، أو ترغب أن تسألني شيئًا(٧).

ميادين بر الوالدين الكافرين:

يشمل البر بهما كل معروف مقدور عليه ومنه إطعامهما إذا جاعا، وكسوتهما إذا عريا، وخدمتهما إذا احتاجا أو إحداهما إلىٰ الخدمة، وإجابة

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٣٣) (٥٦٤٤).
(٢) صحيح مسلم (١/ ١٩٢) (٢٠٤).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٦٣٨) (٢٠٦٨).
(٤) أحكام القرآن (١/ ٣٠٧).
(٥) انظر: كتاب السير الكبير للشيباني (١/ ١٠٦، ١٠٧).
(٦) صحيح مسلم (٢/ ٦٩٦) (١٠٠٣).
(٧) انظر: فتح الباري (٥/ ٢٣٤).

دعوتهما، وامتثال أمرهما ما لم يكن في معصية الله تعالىٰ، والتكلم معهما باللين، وأن لا يدعوهما باسمهما، وأن يمشي خلفهما، وأن يدعوهما إلىٰ الإسلام برفق ويدعو لهما بالهداية والصلاح، ويتجب إليهما بالهدية، كل ذٰلك وغيره جائز مماهو مباح شرعًا مع انتفاء الموالاة والمودة القلبية، لقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، كما يحرم الاستغفار لهما في حياتهما وبعد موتهما وغيرهما من الأقارب الكافرين من باب أولىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤] كما لا تجب طاعتهما في معصية الله تعالىٰ لقوله جلَّ وعلا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

الإحسان إلىٰ الوالدين الكافرين غير الحربيين من صفات المحسنين:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكىٰ وأبكىٰ من حوله، فقال: «**استأذنتُ ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور، فإنَّها تذكر الموت**»[1].

صورة من بر الوالدين غير المسلمين:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كنت أدعو أمي إلىٰ الإسلام وهي مشركة فدعوتها يومًا، فأسمعتني في رسول الله ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلتُ: يا رسول الله إني كنتُ أدعو أمي إلىٰ الإسلام فتأبىٰ عليَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهمَّ اهد أم أبي هريرة**» فخرجتُ مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئتُ فصرتُ إلىٰ الباب، فإذا هو مُجافٌ، فسَمِعتْ أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أباهريرة، وسمعتُ خَضْخَضَة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلتْ عن خمارها، ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

قال فرجعتُ إلىٰ رسول الله فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال: قلتُ يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدىٰ أمَّ أبي هريرة فحمدالله وأثنىٰ عليه

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٦٧١) (٩٧٦).

وقال: خيرًا، قال: قلتُ يا رسول الله، أدع الله أن يُحَبِّبني أنا وأمي إلىٰ عبادة المؤمنين ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَـٰذا يعني أبا هريرة، وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين»** فما خُلِقَ مؤمن يسمع بي ولا يراني إلاَّ أحبَّني»[1]

من ثمرات الإحسان إلى الوالدين غير المسلمين:

١ـ امتثال أمر الله تعالى ببرهما.

٢ـ عِظم أجر البار بهما.

٣ـ رد معروفهما وجميلهما السابق عليه.

٤ـ سبب قوىٰ في سرعة إسلامهما.

هـٰذا أنموذج من إحسان المسلم إلىٰ قريبه الكافر والكلام ينسحب علىٰ بقية الأقارب المسلمين فبمثله يحسن إلىٰ القريب الكافر من غير الموالاة القلبية وما فيه مفسدة دينية

الإحسان إلىٰ الكافر البعيد:

بما أنَّه من المقرر شرعًا استحباب الإحسان إلىٰ الناس عمومًا برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم غير المحارب، فإنَّ المحسن الواعي لا يقصر بره وإحسانه علىٰ المسلمين فقط، بل يتعداهم إلىٰ غير المسلمين، ما دام أنَّ الله تعالىٰ أباح له ذٰلك بقوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٦٠] وكل ذٰلك من سماحة الإسلام التي تمتد وتتسع، حتىٰ تشمل الناس جميعًا، علىٰ اختلاف دياناتهم ونحلهم.

وقد تقدم في الأسس العامة في علاقة المسلمين بغيرهم، ومشروعية البر والإحسان إلىٰ المسالمين من الكافرين، وعلاقة المسلمين بالكافرين وكيفية الإحسان إليهم إضافة إلىٰ ما كتب في مبحث الإحسان إلىٰ غير الأقارب من المسلمين ما يمكن أن يقال هنا[2].

إلاَّ أنَّه يتعيَّن هنا التأكيد علىٰ أهمية بر الجار الكافر بما هو فرض لازم، وذٰلك بعدم أذيته، أو الإضرار به جملة، ويحسن إليه بما يقدر، ودعوته إلىٰ الإسلام برفق ولين، وينبهه إلىٰ ما ينفعه، وإن كان محسنًا إليك، فاقبل إحسانه، وكافئه عليه بما تقدر، أو الدعاء له بالهداية والصلاح، وإن كان مؤذيًا لزم الصبر عليه، حتىٰ يجعل الله له فرجًا.

قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لغلامه، وقد ذبح شاة: أهديت

---

(١) صحيح مسلم (٢/١٩٣٨) (٢٤٩١).

(٢) راجع الفهرس العام.

لجارنا اليهودي؟ أهديت لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتىٰ ظننتُ أنَّه سيورثه**»[1].

والتأكيد الثاني: أنَّ كلمة البر بالكافرين المسالمين ومن في حكمهم جامعة لكل وجوه الإحسان شرعًا وعقلاً، إلاَّ ما عارض مصلحة إسلاميةً للفرد أو الجماعة، مع انتفاء الميل القلبي إليهم بالحب والمودة والموالاة والإكبار.

(١) الأدب المفرد للبخاري (٤٤) (١٠٥)، وأصل الحديث في صحيح مسلم (٣/ ٢٠٢٥) (٢٦٢٤)، عن ابن عمر وعائشة وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ.

المطلب الثاني
الإحسان إلىٰ غير الإنسان

أـ الإحسان إلىٰ الملائكة الكرام عليهم السلام :

وقد تقدم الحديث عن الملائكة عليهم السلام مفصلاً في ركن الإيمان بهم، وبقي هنا أن نشير إلىٰ الإحسان إليهم، إذ الإحسان إليهم ملمح يغفل عنه كثير من المؤمنين، وذٰلك لأمور أهمها:

١ـ استتارهم عنَّا، حيث إنَّهم غيب لم يطلع علىٰ حقيقتهم إلاَّ النزر اليسير من البشر كالأنبياء والرسل وقليل من صالحي بني آدم اطلع على بعضهم في غير صورته التي خلقه الله عليها، قال الله تعالىٰ عن نزول جبريل عليه السلام علىٰ محمَّد ﷺ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال تعالىٰ عن نزوله علىٰ مريم عليها السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم: ١٦، ١٧].

وهٰذا الاستتار جعل المؤمن أحيانًا يسرح ويروح في هٰذه الحياة وكأنَّه يعيش بمفرده فلا يرعى حقوقهم وحرمتهم ولا يعمل بالإحسان إلىٰ هٰذه المخلوقات الطاهرة المكرمة.

٢ـ الجهل بمنزلتهم السامية عند ربنا تبارك وتعالىٰ، حيث قال عنهم جلَّ ذكره: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. وقد قرَّبهم الله تعالىٰ إليه وجعل لكل مقامًا يقف عنده، قال تعالىٰ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ . . ﴾ [النساء: ١٧٢] وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

٣ـ عدم استشعار آثارهم الحميدة تجاهنا معاشر أهل الإسلام محبَّة، ونصحًا، ونُصرةً، واستغفارًا وحفظًا وغير ذٰلك فهم يلازمون الإنسان في حياته كلها، وجميع صحبتهم للإنسان لإسعادِهِ وهدايته يلهمونه الحق والخير، ويحثونه عليهما، كما أخبر عزَّوجل أنَّه سخرهم للدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر: ٧ـ ٩] وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا

﴿ كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنفطار: ١٠ـ ١٢]

وهم يثبتون العبد على العمل الصالح ويتولونه وخاصة في الجهاد في سبيل الله تعالىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلىٰ آخر أمره، لهم وله شأن آخر، فإنَّهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلىٰ طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته وعرضها علىٰ خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يَعِدُونَهُ بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، ويحذرونه منه، فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته ومعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير. ويبشرونه بكرامة الله تعالىٰ في منامه، وعند موته، ويوم بعثه، وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياهُ وآخرته، منهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر»(١).

ضروب الإحسان إلىٰ الملائكة الكرام:

إذا تقرر ما سبق فإنَّه من اللازم علىٰ المحسنين الإحسان إلىٰ الملائكة عليهم السلام بشتىٰ ضروب الإحسان المقدور عليها مما له قابلية عند هٰذه المخلوقات الكريمة ومنها:

١ـ تعظيم قدرهم: وموجب ذٰلك تعظيم مَنْ أعلىٰ الله تعالىٰ مقامه وَرَفَعَ قدره، والقيام بحقوق الأخوة الإيمانية لأنا وإيَّاهم وإن اختلف أصل خلقتنا معهم فإنَّا نشترك وهم في الإيمان بالله تعالىٰ وعبادته وهم في الجملة أتقىٰ لله تعالىٰ وأشد عبادة له منَّا، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/ ١٢٥، ١٢٦).

ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٥- ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**أطَّتِ السماء وحق لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلاَّ وملكٌ واضعٌ جبهته ساجدًا لله..**»[١]. والأطيط: صوت الاقتاب على الدواب.

ومن تعظيم قدرهم شدَّة الحياء منهم، وألاَّ يجدوا منَّا ريحًا خبيثة وألاَّ يسمعوا منَّا كلامًا يكرهون، ونحفظ عوارتنا إلاَّ ما اضطررنا إلىٰ إبدائه منها، وألاَّ يَطُولَ الوقت علينا ونحن جنب، ونمنع بيوتنا من الصور والتماثيل والكلاب، والأجراس وجلود النمور، لما روىٰ جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربنَّ مسجدنا فإنَّ الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه بنوآدم**»[٢].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سمعت أباطلحة - رضي الله عنه - يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة تماثيل**»[٣].

وعن علي - رضي الله عنه - عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ولا كلب ولا جنب**»[٤].

وعن أم حبيبة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال: «**لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس**»[٥].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**لا تصحب الملائكة رفقة فيها جلد نمرٍ**»[٦].

٢- شدَّة محبتهم:

وأما محبتهم فإنَّها من الفيصل بين الموحدين والكافرين حيث قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٥٥٦) (٢٣١٢). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٦٨) (١٨٨٢).

(٢) صحيح مسلم (١٠/ ٣٩٤) (٥٦٤).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١١٧٩) (٣٠٥٣).

(٤) سنن النسائي (١/ ١٤١) (٢٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٩٥) (١٩٦٣).

(٥) مسند أحمد (٧/ ٥٧٨) (٢٦٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٢٦)، (٧٣٤٢).

(٦) سنن أبي داود (٤/ ٣٧٢) (٤١٣٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٢٦) (٧٣٤٥).

﴿وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٧].

ومن لوازم محبتهم الثناء الجميل عليهم، والدعاء بحسن الجزاء لهم، وكثرة السلام عليهم عند ذكرهم.

٣ـ شدَّة الحياء منهم عليهم الصلاة والسلام:

وذٰلك من دقائق ما يتفرَّد به المحسنون، فهم يستحيون من الملائكة الكرام أعظم من استحيائهم من صالح قومهم أن يراهم غافلين عن ذكر الله تعالىٰ أو مقصرين في كمال عبادته فضلاً أن يراهم يتخبطون في قاذورات المعاصي ووحل الذنب.

ب ـ الإحسان إلىٰ الحيوان:

اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن يعيش الإنسان والحيوان علىٰ هٰذه الأرض، ويشتركا في بعض المنافع، إلاَّ أنَّ الحيوانات جملة اتَّخذت من الإنسان ثلاثة مواقف حدد كل موقف منها طريقة تعامل الإنسان معه، ونقصد بالحيوان، كل ما فيه حياة سواء أكان بريًا أم بحريًا طائرًا أم لا مما استأنسه الإنسان أم لا. وهذه المواقف هي:

الموقف الأول: موقف الإنسان من الحيوانات النافعة له سواء أكانت مما يؤكل أم لا. كالإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وهٰذه محل إحسان الإنسان، وتحرم أذيتها أو قتلها لغير سبب مباح.

فعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**عُذِّبَتِ امرأة في هرَّة سجنتها حتىٰ ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[1].

وهٰذا يقال في كل من عذب حيوانًا حتىٰ قتله بغير حق.

ميادين الإحسان إلىٰ الحيوانات النافعة:

ميادين الإحسان إلىٰ الحيوان كثيرة وتتلخَّص في بذل الندىٰ لها ودفع الأذىٰ عنها وأهم هذه الميادين:

١ـ الحرص علىٰ كفايته من الطعام والشراب إن كان مما نملك وألاَّ نكلفها من العمل إلاَّ ما تطيق.

فعن عبدالله بن جعفر ـ رضي الله عنه ؛ قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما أستتر به رسول الله ﷺ لحاجته، هدفًا أو حائط نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل فلما رأىٰ النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفْرَاهُ فسكت، فقال: «من رب هٰذا الجمل، لمن هٰذا الجمل»؟ فجاء فتىٰ من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: «**أفلا تتقي الله في هٰذه البهيمة التي ملَّكك الله إيَّاها، فإنَّهُ شكىٰ إليَّ أنَّك تجيعه وتُدئبه**»[2]. وذِفْراه: أصل أذني البعير. وتدئبه: يعني تتعبه.

وعن سهل بن الحنظلية ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «**اتَّقوا الله في هٰذه البهائم المعجمة، فاركبوها**

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٧٦٠) (٢٢٤٢).

(٢) سنن أبي داود(٣/ ٥٠) (٢٥٤٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢/ ٤٨٤)، (٢٢٢٢).

صالحة، وكُلُوها صالحة»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سافرتم في الخِصْب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَةِ فأسرعوا عليها السير. .**»(٢).

وهٰذا التوجيه النبوي الكريم في إطعام البهائم وسقيها عامٌّ في كل حيوان مملوك فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: دخل النبي ﷺ على أمّ معبد حائطًا فقال: «**ياأم معبد من غرس هٰذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟**» فقالت: بل مسلم، قال: «**فلا يغرس المسلم غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابّة ولا طير إلاَّ كان له صدقة إلىٰ يوم القيامة**»(٣).

٢ـ الرفق بالحيوان النافع أو المسالم:

لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يمشي بطريق، اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثرىٰ من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هٰذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّهُ، ثم أمسكه بفيه، فسقىٰ الكلب، فشكر الله له فغفر له**»، قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «**نعم في كل ذات كبد رطبة أجر**»(٤).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**أنَّ امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حار يُطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها فغفر لها**»(٥).

البغي: الزانية(٦).

والموق: شبيه بالخف(٧).

وعن كبشة بنت كعب بن مالك ـ رضي الله عنها ـ أنَّ أبا قتادة ـ رضي الله عنه ـ دخل عليها ثم ذكرت كلمة معناها فسكبت له وضوءًا فجاءت هرَّةٌ فشَرِبت منه فأصغىٰ لها الإناء حتىٰ شربت، قالت كبشة: فرآني أنظر إليه

---

(١) سنن أبي داود(٣/ ٤٩) (٢٥٤٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢/ ٤٨٤) (٢٢٢١).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٥٢٥) (١٩٢٦).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١١٨٩) (١٥٥٢).

(٤) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٣٨) (٥٦٦٣).

(٥) صحيح مسلم (٢/ ١٧٦١) (٢٢٤٥).

(٦) انظر: النهاية (١٤/ ٧٧).

(٧) انظر: النهاية (١٠/ ٣٥٠).

فقال: أتعجبين يا ابنة أخي، فقلت: نعم، قال: إنَّ رسول اللهﷺ قال: «**إنَّها ليست بنجس، إنما هي من الطوَّافين عليكم والطوَّافات**»[1]

وعن ربيعة بن أبي عبدالله الهُدير ـ رحمه الله ـ «: أنَّه رأىٰ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يُقرِّد بعيرًا له في طين بالسُّقيا وهو محرم»[2].

أي يزيل عنه القراد، والقراد من الحشرات التي تعض الإبل[3].

وعن أبي وهب الجشمي ـ رضي الله عنه ـ وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ارتبطوا الخيل، وامسحوا بنواصيها وأعجازها**» أو قال: «**أكفالها**». **وقلِّدوها، ولا تقلِّدوها الأوتار**»[4].

ومن الرفق بالحيوان النافع تطبيبه والحيلولة بينة وبين ما يمرضه.

٣ـ كف الأذىٰ عنه بجميع صوره وأشكاله ومنه:

أـ عدم قتله لغير حاجة.

لما روىٰ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**»[5].

وعن هشام بن زيد بن أنس قال: دخلت مع جدي أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ دار الحَكَمِ بن أيوب، فإذا قوم قد نصبوا دجاجة يرمونها، قال: فقال أنس: نهىٰ رسول الله ﷺ: «**أن تُصَبَّرَ البهائم**»[6].

وتصبير البهائم: أن تحبس وهي حيَّة لتقتل بالرمي ونحوه[7].

ب ـ عدم ضربها في وجهها مطلقًا وفي سائر جسدها لغير ضرورة، لِما روى عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ، مُرَّ عليه بحمار قد وُسِمَ في وجهه فقال: «أما بلغكم أنِّي لعنتُ من وسم البهيمة في وجهها، أو ضربها في وجهها»[8].

والوسم في الوجه: وضع العلامة بالكيِّ[9].

---

(١) سنن النسائي (١/٥٥) (٦٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/١٥) (٦٦).

(٢) موطأ مالك (١/٣٥٧) (٩٢).

(٣) انظر: لسان العرب (٣/٣٤٨).

(٤) سنن أبي داود(١/٥٣) (٢٥٥٣) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢/٤٨٦) (٢٢٢٦).

(٥) صحيح مسلم (٢/١٥٤٩) (١٩٥٧).

(٦) صحيح مسلم (٣/١٥٤٩) (٥٧).

(٧) انظر: النهاية (٣/٨).

(٨) سنن أبي داود (٣/٥٧) (٢٥٦٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢/٤٨٧) (٢٢٣٥).

(٩) انظر: النهاية (٥/١٨٦).

ج ـ عدم ترويعها في نفسها أو بأولادها.

لما روىٰ عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرةً معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هـٰذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها**».

ورأىٰ قرية نمْلٍ قد حرقناها فقال: «من حرَّق هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنَّه لا ينبغي أن يُعذب بالنار إلاَّ رب النار»[١].

د ـ عدم سبها:

لما روي عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الديك فإنَّه يوقظ للصلاة**»[٢].

هـ ـ ومن عدم أذِيَّتها مداومة حلبها عند حاجتها إلىٰ ذٰلك والترفق فيه.

الموقف الثاني: موقف الإنسان من الحيوانات النافعة أو المسالمة الخارجة عن طبيعتها إلىٰ الضرر أو العدوان، فهـٰذه يباح قتلها.

لما روىٰ عن رافع بن خديج ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ بعيرا ندَّ وليس في القوم إلاَّ خيل يسيرة، فرماه رجل بسهم فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لهـٰذه البهائم أوابد كأوابد الوحش، فما أغلبكم منها فاصنعوا به هـٰكذا**»[٣].

ومعنىٰ ندَّ: شرد وذهب على وجهه[٤]، وأوابد: نافرة متوحشة[٥].

الموقف الثالث: موقف الإنسان من الحيوانات الضارَّة المؤذية، كالغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا والوزغ.

فهـٰذه يستحب قتلها في الحل والحرم.

لما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم، الحيَّة والغراب الأبقع والفأرة، والكلب العقور والحديا**»[٦].

والعلة في ذٰلك خروجها عن طبيعة المسالمة إلىٰ الإيذاء وهـٰذا يقال

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ١٢٥) (٢٦٧٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢/ ٥٠٨) (٢٣٢٩).

(٢) سنن أبي داود (٥/ ٣٣١) (٥١٠١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٢٢) (٧٣١٤).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٨٨٦) (٢٣٧٢).

(٤) النهاية (٥/ ٣٥).

(٥) انظر: النهاية (١/ ١٣).

(٦) صحيح مسلم (١/ ٨٥٦) (١١٩٨).

في كل حيوان مؤذ حتىٰ أصبح الإيذاء طبيعته.

الموقف الرابع: موقف الإنسان من الحيوانات الضارَّة والمعادية مما يتلف حياته، أو حياة ما فيه روح، كالحيَّات والعقارب وذوات السموم والمفترسة للإنسان أو الحيوانات النافعة.

فهٰذه يجب قتلها لمن ظفر بها وقدر علىٰ قتلها.

لما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ: «**اقتلوا الحيَّات، وذا الطفتين، والأبتر، فإنَّهما يستسقطان الحَبَل، ويلتمسان البصر، قال: فكان ابن عمر يقتل كل حيَّة وجدها، فأبصره أبولبابة بن عبدالمنذر أو زيد بن الخطاب وهو يطارد حيَّة، فقال: إنَّه قد نهىٰ عن ذوات البيوت**»[1]..

وذوالطفتين: هو ثعبان علىٰ ظهره خطان أبيضان[2].

والأبتر: هو ثعبان ذو ذنب قصير أو مقطوع[3].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتلوا الأسودين في الصلاة، الحيَّة والعقرب**»[4].

الموقف الخامس: موقف الإنسان من الحيوانات الضارَّة المسالمة، مما قد تكون طبيعته عدوانية أحيانًا كالحيوانات المفترسة، فهٰذه يباح قتلها.

الموقف السادس: موقف الإنسان من الحيوانات غير النافعة وليست بضارة كالقرود وما في طبائعها فهٰذه لا يجوز قتلها ما لم تؤذ، وكل حيوان يجب قتله، أو يستحب، أو يباح، فإنَّه يحرم تعذيبه، أو قتله حرقًا بالنار.

لما روي عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا اقتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته**»[5].

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: الإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب، إزهاق نفسه علىٰ أسرع الوجوه وأسهلها وأوحاها من غير زيادة في التَّعذيب.

وهٰذا يدل علىٰ وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه، وقد حكىٰ ابن حزم الإجماع علىٰ وجوب الإحسان في الذبيحة، وأسهل وجوه قتل الآدمي ضربه بالسيف علىٰ عنقه»[6].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٧٥٢) (٢٢٣٣).
(٢) انظر: النهاية (٣/ ١٣٠).
(٣) انظر: اللسان (٤/ ٣٨).
(٤) سنن أبي داود (١/ ٥٦٦) (٩٢١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٥٥) (١١٤٧).
(٥) صحيح مسلم (٢/ ١٥٥٨) (١٩٥٥).
(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٢).

الفصل الثاني
وسائل الإحسان

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: **العلم بالتكليفات الشريعة ودرجاتها**

المبحث الثاني: **استشعار إحسان الله تعالى إلى العبد ومراقبته له والتوبة إليه**

المبحث الثالث: **المنافسة والمجاهدة والصبر والدعاء**

المبحث الرابع: **الكيفية التي يُعرف بها مَنْ وصل إلى مرتبة الإحسان**

تمهيد

عندما يطلب الله تعالىٰ من عباده الإحسان، ويحببه إلى قلوبهم فقد جعله تحت وسعهم، وطاقتهم، إذ من المحال قطعًا أن يطالبهم بما لا طاقة لهم به، حيث قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهٰذا علىٰ العموم، وأما علىٰ الخصوص، فإنَّ من الناس من لاطاقة له بالتكليف بالكلية، كالمجنون، ومن في حكمه، ومنه من لا طاقة له بالتكليف في وقت دون وقت، كالصغير حتىٰ يكبر، والنائم حتىٰ يستيقظ.

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون المغلوب علىٰ عقله حتى يفيق، وعن النائم حتىٰ يستيقظ وعن الصبي حتىٰ يحتلم**»[1].

ومنهم من لا طاقة له ببعض التكليف دون بعضه، كالأعرج والأعمىٰ في الجهاد قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] وهٰؤلاء معذرون وعليه فما دام أنَّ الإحسان مطلب شرعي مقدور للإنسان عمومًا فهو غاية لا بد لها من وسائل موصلة إليه، مقدورة للإنسان وهٰذه الوسائل لابد أن تكون مشروعة، لأنَّ الوسائل في الإسلام لها حكم الغايات، والإحسان غاية سامية شرعًا، ولا بد أن تكون الوسائل كذٰلك، فلا يصح أن يتصدق المسلم من المال الحرام، فإنَّه وإن كانت الصدقة إحسانًا إلاَّ أنَّ الله طيبٌ لا يقبل إلاَّ طيبًا.

والوسيلة: هي ما يتقرَّب به إلىٰ الغير[2].

أي العمل الذي يُقرِّب الإنسان من الإحسان.

وهٰذه الوسائل متعددة نجملها في أربعة مباحث:

---

(١) سنن أبي داود (٤/ ٥٥٩) (٤٤٠١)، وصححه الألباني كما في الإرواء (٢/ ٤، ٢٩٧).

(٢) لسان العرب (١١/ ٧٢٥) «وسل».

المبحث الأول
العلم بالتكليفات الشرعية ودرجاتها

فيه تمهيد ومطلبان:

المطلب الأول: **حقيقة العلم وأقسامه وشروطه وغير ذلك**

المطلب الثاني: **التكليفات الشرعية ودرجاتها**

تمهيد

إنَّ العلم هو أول درجة في طريق الوصول إلىٰ مرتبة الإحسان؛ لأنَّه هو الوسيلة الأولىٰ التي يعرف بها حسن العمل من قبحه، وحكم الشارع فيه، إذ أنَّه من المحال قطعًا وجزمًا أن يستقل العقل بكل ما حسنه الشرع وإن عرف بعضه؛ لأنَّ الأعمال الحسنة منها ما هو حسن في كل وقت من كل أحد، مثل: حسن الظن بالله تعالىٰ، ومنها ما هو حسن في وقت دون وقت، مثل: الحلم فإنَّه حسن إلاَّ ساعة لقاء العدو، فإنَّه جبن مستقبح من كل أحد.

ومن الأعمال ما هو قبيح في وقت حسن في وقت آخر مثل: الغضب فإنَّه قبيح إذا كان الغضب لانتصار الذات، أما إذا كان الغضب لله تعالىٰ عندما تنتهك حرماته فإنَّه حسن.

وهٰذه الأعمال الحسنة تختلف أحكامها، من حيث الوجوب والندب من وقت إلىٰ وقت، ومن شخص إلىٰ شخص، فالإحسان إلىٰ الوالدين واجب، والإحسان إلىٰ الضيف فوق ثلاثة أيام مندوب، من هنا كان لا بد من العلم بالتكليفات الشرعية وبكل درجاتها حتىٰ نصل إلىٰ منزلة الإحسان المنشودة.

المطلب الأول
حقيقة العلم، وأقسامه، وشروطه، وغير ذلك

أولاً: حقيقة العلم: العلم لغة: «مصدر قولهم: عَلِم يعلمُ عِلمًا وهو مأخوذ من مادة (ع ل م) التي تدل علىٰ أثرٍ بالشيء يتميز به عن غيره»[1].

قال ابن منظور: العلم نقيض الجهل، وعلمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته[2].

واصطلاحًا:

قال الجرجاني ـ رحمه الله ـ : العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع[3].

ثانيًا: أقسام العلم:

أـ من حيث الفرض والمباح:

تنقسم العلوم إلىٰ قسمين:

القسم الأول المفروض: وهو علم معاملة العبد لربه ويدخل هٰذا العلم في الاعتقاد والأفعال.

وهٰذا العلم المفروض ينقسم إلىٰ قسمين:

١ـ فرض عين: وهو ما يتعيَّن وجوبه علىٰ الشخص من توحيد الله تعالىٰ ومعرفة أوامره وحدوده في العبادات والمعاملات التي يحتاج إليها.

٢ـ فرض كفاية: وهو كل علم لا يستغنىٰ عنه في قوام الدنيا، كالطب، والحساب، وأصول الصناعات فلو خلت البلد عمن يقوم بهٰذه العلوم والصناعات أثم أهل البلد جميعًا، وإذا قام بها واحد فقط وكفاهم سقط الإثم عن الباقين.

القسم الثاني المباح: وهو ما يكون تعلمه مباحًا كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها.

ب ـ من حيث المدح والذم:

من العلوم ما يكون محمودًا، مثل: علوم الشريعة وهي أصول وفروع ومقدمات ومتممات[4].

وهو الذي ذكره الله تعالىٰ في كتابه في مقام المدح وهو العلم النافع قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا﴾ [الزمر: ٩] وقوله تعالىٰ:

---

(١) مقاييس اللغة (٤/١٠٩).

(٢) لسان العرب(٥/ ٣٠٨٣، ٣٠٨٤).

(٣) التعريفات للجرجاني (١٩١).

(٤) انظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، بتصرف واختصار (١٥/٧).

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: ١١٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

وغير ذٰلك من الآيات، وقد يكون العلم في نفسه نافعًا لـٰكن صاحبه لم ينتفع به، كما قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣][1].

ومنها ما يكون مذمومًا، كعلم السحر والطلمسات، والتلبيات[2] وهو الذي ذكره الله تعالىٰ في مقام الذم وهو العلم الذي لا ينفع قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]

شروط العلم النافع ثلاثة وهي:

١ـ أن يدور هـٰذا العلم في فلك الكتاب والسنة، وتمييز الصحيح من السقيم منها، وفهم معانيهما.

٢ـ الاعتماد في فهم معانيهما علىٰ فهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتابعيهم بإحسان لها.

٣ـ أن يترتَّب علىٰ هـٰذا العلم عمل: كمعرفة الله تعالىٰ وما يستحقه ومعرفة ما يحبه ويرضاه، وما يكره ويسخطه.

أقسام العلوم من حيث العلم بها:

العلوم من حيث العلم بها ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يشترك عموم المسلمين في العلم به، وهو الحلال المحض مثل: أكل الطيبات من الزروع والثمار، والحرام المحض: مثل أكل الميتة والدم ونكاح المحارم.

القسم الثاني: ما لا يعمله إلاَّ العلماء، وهو المتشابه النسبي الذي يشتبه في

---

(١) انظر: فضل علم السلف على علم الخلف بتصرف واختصار (١٢٥، ١٢٦).

(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، بتصرف (١٧٠).

حله وحرمته لغير العلماء الراسخين في العلم مثل: بيع العينة والتورق، وأكل لحم الخيل وغيرها.

القسم الثالث: ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالىٰ، وهو المتشابه المطلق مثل: كيفية أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وحقيقة الصراط والميزان، والحروف المقطعة من أوائل السور.

فالأول: دليله قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] بدأ بالعلم قبل القول والعمل وقوله ﷺ كما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ : «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**»[(١)]. **وقوله ﷺ كما في حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ : «الحلال بين والحرام بين..»**[(٢)].

والثاني: دليله قوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣] وقوله ﷺ كما في حديث النعمان البشر ـ رضي الله عنه ـ: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس**»[(٣)].

والثالث: دليله قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران: ٧].

طرق تحصيل العلم:

هناك طريقان لتحصيل العلم لا غير، الأولىٰ خيرٌ وآمن من الثانية وهي: أن يأخذه من العلماء الراسخين في العلم المشهود لهم بالعدالة.

الثانية: أن يأخذه من بطون الكتب وهو عرضة للخطأ والزلل.

رابعًا: شروط تحصيل العلم:

أجملها الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في بيتين وهي ستة شروط قال:

أخي لن تنال العلم إلاَّ بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وصحبة أستاذ وطول زمان[(٤)]

خامسًا: فضل العلم:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: العلم هادٍ وهو تركة الأنبياء وتراثهم،

---

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٨١) (٢٢٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٤٤) (١٨٣).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٨) (٥٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ديوان الشافعي (٥٣).

وأهلـه عصبتهـم وورَّاثُهـم، وهـو حيـاة القلـوب، ونـور البصـائـر، وشفـاء الصدور، ورياض العقول، ولذَّة الأرواح، وأنس المستوحش، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدىٰ والضلال، به يعـرف الله ويعبـد، ويـذكـر ويـوحـد، ويحمـد ويمجـد، وبـه اهتـدىٰ إليـه السالكون، ومن طريقة وصل إليه الواصلون، ومنه دخل عليه القاصدون، وبه تعرف الشرائع والأحكام، ويتميَّز الحلال والحرام، وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفته ومتابعته يوصل إليه من قريب، وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشُّبهة، والغِنىٰ الذي لا فقر علىٰ من ظفر بكنزه، والكَنَفُ الذي لا ضيعة علىٰ من أوىٰ إلىٰ حرزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلىٰ الشراب والطعام[1].

سادسًا: أشرف العلوم:

إنَّ أشرف العلوم علوم الشريعة لأنَّ شرف العلم بشرف متعلقه وما يبحث فيه.

قال الشاعر:

كل العلوم سوىٰ القرآن مشغلة إلاَّ الحديث وإلاَّ الفقه في الدين[2]

سابعًا: عناية القرآن الكريم بالعلم.

أ- أنَّ العلم المطلق لله وحده عزَّوجل قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ [البقرة: ٢٩]

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق: ٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤].

وفي هـٰذه الآيات الثلاث فوائد:

الأولىٰ: أنَّ الله تعالىٰ وسع كل شيء علمًا وأحاط به من كل جهة.

الثانية: أنَّ الله تعالىٰ أعلم بدقائق العلوم جميعًا.

الثالثة: أنَّ الله أعلم ببواطن العلوم جميعًا، فلا شيء من العلوم يخفىٰ عليه سبحانه وتعالىٰ.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) ديوان الشافعي (٥٣).

وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة: ٩٤]، وما شابهها من الآيات، فإنَّه ليس المقصود منها هنا أنَّ الله تعالى علم بها بعد أن لم يكن عالمًا تعالىٰ الله عن ذٰلك علوًا كبيرًا، وإنما إسناد العلم هنا لله تعالىٰ المقصود به إظهاره للخلائق.

قال الطبري: كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به والمنتهون إلىٰ حدوده وأمره ونهيه من الذي يخاف الله فيتقىٰ ما نهاه عنه ويجتنبه خوف عقابه بالغيب في الدنيا بحيث لا يراه(1).

ب ـ الأمر بالعلم وبيان فضله:

قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١].

ج ـ أنَّ العلم من صفات الأنبياء عليهم السلام، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران: ٦١]

وقال تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

د ـ العلم من صفات المؤمنين:

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

هـ ـ اختصاص بعض الخلق بأنواع من العلوم:

قال تعالىٰ: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا

---

(1) جامع البيان (٥/ ٢٦).

عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٥، ٦٦].

ز ـ تعليم الله تعالىٰ وتعليم رسوله ﷺ للناس: قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ح ـ مسؤلية العالم:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

ط ـ انكشاف عطاء العلم في الآخرة:

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٤، ٢٥]، وهٰكذا يتحدث القرآن عن العلم في حوالي (٣٧٩) آية وفي ذٰلك بيان شافٍ لما يوليه القرآن من أهمية بالغة للعلم والعلماء.

تاسعًا: عناية السنة النبوية بالعلم:

أ ـ أمر الله تعالىٰ لنبيه ﷺ أن يعلم أمته.

عن عياض بن حماد المُجاشعي ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبته: «**ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هٰذا .. الحديث**»[1].

ب ـ بيان أنَّ العلم منه نافع ومنه ضار:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال كان دعاء النبي ﷺ: «**اللّٰهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع**»[2].

ج ـ الإخلاص في العلم:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلَّم علمًا مما يبتغي به وجه الله ـ عزَّوجل ـ، لا يتعلَّمه إلاَّ ليصيب به عرضًا من**

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢١٩٧) (٢٨٦٥).

(٢) سنن النسائي(٨/ ٢٨٤)، (٥٥٣٧)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ١١١٣) (٥٠٥٣).

الدنيا لم يجد عرف الجنة[1] يوم القيامة»[2].

د ـ تحريم كتمان العلم الضروري:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[3].**

هـ فضل العلم:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدُّنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلاَّ ذكر الله وما والاه، و عالمًا أو متعلمًا»[4].**

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّه قدم عليه رجل من المدينة وهو بدمشق فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنَّك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال: أما جئتَ لحاجة؟ قال: لا قال: ما قدمت لتجارة؟ قال: لا قال: ما جئت إلاَّ في طلب هـٰذا الحديث؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك به الله طريقًا من طرق الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض، حتىٰ الحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضل العالم علىٰ العابد، كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب.**

إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بخط وافر»[5].

و ـ مسؤلية العلماء:

عن أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتىٰ يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعلمه فيم فعل، وماله من أين اكتسبه؟ وفيمَ أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟»[6].**

---

(١) عرف الجنة: يعني ريحها الطيبة. النهاية (٣/ ٢١٧).

(٢) سنن أبي داود(٣/ ٧١) (٣٦٦٤)، والترمذي (٢٦٥٥) وقال: حسن غريب، وأحمد (٢/ ٣٣٨) (٨٢٣٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (١٦/ ١٩٣)، وصححه الألباني في اقتضاء العلم العلم للخطيب البغدادي(١٠٢).

(٣) سنن الترمذي(٥/ ٢٩) (٢٦٤٩)، وقال حديث حسن، والحاكم (٢/ ٣٤٤، ٣٥٣)، وقال صحيح، وصححه الألباني في المشكاة (٧٧١).

(٤) سنن الترمذي(٤/ ٥٦١) (٢٣٢٢)، وقال حسن غريب وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٤١) (٣٤١٤).

(٥) سنن أبي داود (٤/ ٥٧) (٣٦٤١) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٢/ ٦٩٤) (٣٠٩٦).

(٦) سنن الترمذي (٤/ ٦١٢) (٢٤١٧). وقال: حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٢١) (٧٣٠٠).

ز ـ فضل حفظ العلم ونشره:

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**نضر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فربَّ حامل إلىٰ من هو أفقه منه...**»[1].

ح ـ التحذير من علماء السوء:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينزعه من العباد، ولـٰكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخذ الناس رؤوسًا جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[2].

ط ـ ثمرة العلم:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلاَّ من ثلاثة: إلاَّ من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[3].

وبعد هـٰذا العرض السريع عن العلم ألفت نظر القاريء الكريم أنَّه ليس المراد منه التعريف بكل عمل حسن أو قبيح، لتعذر ذٰلك، وإنَّما المراد العلم بأنَّ هناك ميزانًا للأعمال يبين حسنها من قبيحها، وهو العلم الشرعي، وأنَّه ضرورة ملحة حتىٰ لا نحسن ما ليس بالحسن ونقبح ماليس بالقبيح، كما أنَّه يتعيَّن علينا معرفة أحكام هـٰذه الأعمال الحسنة، حتىٰ لا نخلط بين ما طلبه الشارع من الإحسان علىٰ جهة الوجوب، وما طلبه علىٰ جهة الندب.

---

(١) سنن الترمذي(٥/ ٣٤) (٢٦٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٦٦).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٥٠) (١٠٠).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٢٥٥) (١٦٣١).

العلم صفة المحسنين:

قد لا يكون المحسن من الراسخين في العلم إلاَّ أنَّ لديه من العلم ما يمكنه من عبادة ربه علىٰ الوجهة الصحيحة، وطائفة أخرىٰ من المحسنين علماء وأولهم الأنبياء والمرسلون ـ عليهم السلام ـ كما قال الله تعالىٰ عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص، الآية: ١٤].

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: **«خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»**(١) أي أحسنكم.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا. . .»**(٢).

وفي الحديث الآتي مثل رائع فيه دلالة واضحة على أنَّ العلم صفة المحسنين عن أبي موسىٰ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ، قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرىٰ إنَّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنب كلأ، فذٰلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله بِهِ فَعَلِمَ وَعلَّم، ومثل من لم يرفع بذٰلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به. . .»**(٣).

تحقيق مرتبة الإحسان في العلم:

يمكن للمؤمن أن يحقق مرتبة الإحسان في العلم وذٰلك بأن يستشعر حالة كونه طالبًا للعلم النافع ومعلمًا له كأنَّه ينظر إلىٰ ربه تعالىٰ يتعبده به لا يبتغي به غيره علىٰ وجه الإتقان والإخلاص والأمانة التامة، ومثلها في التعليم مع الرفق والرحمة والنصيحة للمتعلمين. **صور من الإحسان في العلم:**

عن معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكْلَ أمِّياهْ! ما شأنكم؟ تنظرون إليَّ فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلىٰ رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٩/ ٧٤) (٥٠٢٧).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٩٥٨) (٢٥٢٦).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (١/ ١٧٥) (٧٩).

منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني ولا شتمني، قال: «**إنَّ هـٰذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنَّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**» أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام، وإنَّ منَّا رجالاً يأتون الكهان، قال: «**فلا تأتهم**» قال: ومنَّا رجال يتطيرون، قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يَصُدَّنَّهُمْ**» قال ابن الصباح: فلا يَصُدَّنَّكُمْ قال: قلتُ: ومنا رجال يخطون، قال: كان نبيٌّ من الأنبياء يخط فمن وافق خطَّه فذاك» قال: وكانت لي جارية ترعىٰ غنمًا لي قبل أُحُدٍ والجَوَّانيَّةِ، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف، كما يأسفون، لـٰكني صَكَكْتُهَا صكة فأَتَيْتُ رسُولَ اللهﷺ فعظَّم ذٰلك عليَّ، قلتُ يا رسول الله أفلا أُعْتقُها؟ قال: «**ائتني بها**» فأتيته بها فقال: لها: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، قال: «من أنا» قالت: أنتَ رسول الله قال: «**أعْتِقْهَا فإنَّها مُؤمنة**»[1].

ثمرات العلم:

١ـ أنَّ تعلمه وتعليمه عبادة عظيمة.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **من جاء مسجدي هـٰذا، لم يأته إلاَّ لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذٰلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلىٰ متاع غيره**»[2].

٢ـ أنَّه يورث لصاحبه الخشية من الله تعالىٰ.

٣ـ أنَّه طريق يوصل إلىٰ الجنة لمن أخذه بحقه.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٨١) (٥٣٧).

(٢) سنن ابن ماجه: (١/ ٨٢) (٢٢٧)، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٢٧٨) (٦٠٦٩) وقال: صحيح.

المطلب الثاني
التكليفات الشرعية ودرجاتها

التكليفات جمع تكليف: والتكليف هو إلزام الكلفة علىٰ المخاطب[1] والكلفة المشقة، ويعبر عنه الأصوليون بالحكم الشرعي: وهو الخطاب المتعلق بأفعال الملكفين طلبًا أو تخييرًا. .

والمقصود بالطلب طلب الفعل أو الترك:

وينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: طلب الفعل علىٰ جهة الجزم أو اللزوم فهٰذا هو الواجب، فإن صرفه صارف فيه إشعار بعدم العقاب علىٰ الترك فهو المندوب.

القسم الثاني: طلب الترك علىٰ جهة الجزم أو اللزوم فهٰذا هو الحرام ويسمىٰ المحذور والممنوع.

فإن صرفه صارف فيه إشعار بعدم العقاب علىٰ الفعل فهو المكروه.

والمقصود بالتخيير:

هٰذه خمسة أحكام هي المقصودة بدرجات التكليف التي يجري الحديث عنها علىٰ التفصيل.

فالأول الواجب:

تعريفه في اللغة: هو سقوط الشيء لازمًا محله كسقوط الشخص ميتًا فإنَّه يسقط لازمًا محله لانقطاع حركته بالموت، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦] أي سقطت فيه لازمة محلها.

ويطلق الوجوب علىٰ اللزوم.

وفي الاصطلاح: ما أمر الله أو رسوله به أمرًا جازمًا أو قل. هو ما توعد بالعقاب علىٰ تركه، لٰكن الوعيد بالعقاب علىٰ تركه لا ينافي المغفرة كما بينه تعالىٰ بقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

مثل: الإحسان إلىٰ الوالدين، وصلة الأرحام فإنَّهما واجبان.

ومن العلماء من يجعل الفرض والواجب شيئًا واحدًا، وهو قول الإمام الشافعي وأحمد.

ومن فرق بينهما جعل الفرض آكد من الواجب.

فالفرض ما ثبت بدليل قطعي كالصلاة، والواجب ما ثبت بدليل ظني كالعمرة عند من يوجبها، وقيل: الفرض ما لا يسامح بتركه عمدًا ولا سهوًا

---

(١) التعريفات للجرجاني (٦٥).

كأركان الصلاة، والواجب ما يسامح فيه إن وقع من غير عمد كالصلاة بالنجاسة عند من يقول بالمسامحة في ذلك.

والصواب أنَّ من صلَّىٰ بنجاسة لا يعلمها فإنَّه لا إثم عليه وتلزمه الإعادة إن علم ذلك.

أقسام الواجب:

للواجب ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من حيث اليقين والإبهام المحصور وهو نوعان:

الأول: الواجب المعين، وهو ما لا يقوم غيره مكانه، كالصلاة والصوم.

أي لا تقوم الصلاة مقام الصيام ولا الصيام مقام الصلاة.

الثاني: الواجب المبهم: وهو الواجب لا بعينه مشروطًا بالحصر، كالكفارة التي علىٰ التخيير، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

وهنا الواجب واحد منها لا بعينه، فأي واحد فعله الحانث أجزأه إلاَّ الصيام فلا يعدل إليه إلاَّ إذا لم يجد.

القسم الثاني: الواجب من حيث وقته.

وهو نوعان:

النوع الأول: الواجب المضيق: وهو ما وقته بحيث لا يسع أكثر من فعله، كصيام رمضان فإنَّه واجب في وقت لا يمكن أن يسع غيره.

النوع الثاني: الواجب الموسع: وهو ما يسع وقته أكثر من فعله كالصلوات الخمس.

فإنَّ وقت الصلاة موسع له أول وأوسط وآخر، فأي وقت أدىٰ الفرض فيه أجزأه، مع أنَّ الأفضل أداؤه في أول الوقت.

القسم الثالث: الواجب من حيث فاعله، وهو نوعان.

النوع الأول: ما يكون فعله فرض عين علىٰ كل واحد، وهو ما ينظر الشارع فيه إلىٰ نفس الفاعل.

مثل: الصلاة والصيام.

النوع الثاني: ما يكون فعله فرض كفاية.

وهو الذي إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين إن كفوا وهو ما ينظر الشارع فيه إلىٰ نفس الفعل.

مثال: دفن الميت، وإنقاذ الغريق.

المندوب:

تعريفه: الندب في اللغة: الدعاء إلى الفعل.

وفي الاصطلاح: هو ما في فعله الثواب وليس في تركه عقاب، أو ما أمر به غير جازم.

وقد يعبر عنه بأنه مرغب فيه، ومستحب، ونفل، وتطوع، وإحسان، وسنة، ومثاله قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فقوله تعالىٰ: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أمر، والأمر للوجوب، إلاَّ أنَّ هـٰذا الأمر خرج عن الوجوب إلىٰ الندب لقوله تعالىٰ في آخر الآية: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

المباح:

وهو المعبر عنه في تعريف الحكم بالتخيير.

التعريف: **لغة**: هو ما ليس دونه مانع يمنعه.

واصطلاحًا: هو ما أذن الله تعالىٰ في فعله وتركه، غير مقترن بذم فاعله أو تاركه.

أو هو ما يُخيرُ فيه الشارع بين أن يفعل أو ألا يفعل.

ويسمىٰ الحلال، والجائز والمطلق.

أقسام الإباحة:

الإباحة عند الأصوليين قسمان:

الأولىٰ: إباحة شرعية.

وهي ما عرفت من قبل الشرع.

المثال: إباحة الجماع في ليالي رمضان قال الله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

الثانية: إباحة عقلية.

وهي ما تسمىٰ في الاصطلاح: (البراءة الأصلية)، ومعناها: استصحاب العدم الأصلي حتىٰ يرد دليل ناقل عنه.

ومعنىٰ ذٰلك أنَّ ما لم يرد فيه دليل شرعي فإنَّ حكمه الإباحة.

المثال: إباحة الربا في أول الإسلام.

فلما نزلت آية تحريم الربا خافوا من أكل الأموال الحاصلة بأيديهم قبل تحريم الربا، فأنزل الله في ذٰلك: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى﴾ [البقرة: ٢٧٥] فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ يدل علىٰ أنَّ ما تعاملوا به من الربا علىٰ حكم البراءة الأصلية، قبل نزول التحريم، لا مؤاخذة عليهم به، والمباح ليس من أحكام التكليف، إذ لا تكليف فيه وإنما

يذكر من أجل إتمام القسمة.

الرابع الحرام:

وهو ضد الواجب.

التعريف لغة: الحرام هو الممنوع، وهو صفة مشبهة باسم الفاعل، لأنَّه الوصف من حرم الشيء فهو حرام.

واصطلاحًا: ما في تركه الثواب وفي فعله العقاب، أو ما نهىٰ الله أو رسوله عنه نهيًا جازمًا، ويسمىٰ المحرم، والمعصية، والذنب والمزجور عنه، والمتوعد عليه، والقبيح.

المثال: قوله تعالىٰ عن الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وجه التمثيل: أنَّ الله نهىٰ عن التأفف منهما أو نهرهما والنَّهي للتَّحريم.

الخامس: المكروه: وضده المندوب.

التعريف لغة: اسم مفعول من كرهه إذا أبغضه ولم يحبه، فكل بغيض إلىٰ النفوس فهو مكروه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

واصطلاحًا: هو ما تركه خير من فعله، أو قل هو ما نهىٰ الله أو رسوله عنه نهيًا غير جازم، ويستفاد غير الجزم من القرائن التي تحف بالنَّهي.

المثال: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] فالنَّهي عنا للتحريم إلاَّ أنَّه صرفه صارف يستفاد من قوله تعالىٰ آخر الآية: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة: ١٠١].[(١)]

ومن المبحث يتبيَّن لنا أنَّه ما من طريق إلى الوصول إلىٰ درجة الإحسان إلاَّ بعد معرفة بيان الشريعة عن حسن الفعل أو قبحه، ثم إفصاحها عن درجة ذٰلك الحسن، وهل هو من باب الوجوب أم الندب، أفرض عين أم فرض كفاية، واسع الوقت أم مضيق، فإن لم يحصل العلم بذٰلك فقد يخلط العابد بين ما هو حسن وما هو قبيح، وما طلب علىٰ الفور وما طلب علىٰ التراخي، وما هو فرض عين علىٰ كل واحد، وما هو فرض كفاية والنتيجة العناء والتعب مع عدم البلوغ إلىٰ مرتبة الإحسان.

---

(١) راجع إرشاد الفحول للشوكاني (٦،٧) ومذكرة في أصول الفقه للشنقيطي (١١/٢٧) وأصول الفقه لمحمد الخضري بك (٢٠/ ٥٥) باختصار وتصرف شديد.

المبحث الثاني
استشعار إحسان الله تعالىٰ إلى العبد، ومراقبته له، والتوبة إليه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: استشعار إحسان الله تعالى إلى العبد

المطلب الثاني: استشعار مراقبة الله تعالى لعبيده

المطلب الثالث: التوبة إلى الله تعالى

المطلب الأول

استشعار إحسان الله تعالىٰ إلىٰ العبد

التعريف مفردًا:

استشعار: الاستشعار مأخوذ من مادة (شَعَرَ) الشين والعين والراء، أصلان. . . يدل أحدهما علىٰ نباتٍ، والآخر علىٰ علمٍ وعَلَم.

والثاني: هو المناسب من قولهم شَعَرتُ بالشيء، إذا علمته وفطنت له[1].

إحسان: الإحسان: مصدر أحسن يحسن إحسانًا، الحاء والسين والنون، أصل واحد، فالحُسن ضد القبح، وأحسن أفعل تفضيل من الحسن، وأحسن إحسانًا، أتي بالفعل الحسن علىٰ وجه الإتقان والإحكام وصنع به الجميل، ومنه أحسن إلىٰ فلان وأحسن به أنعم عليه وأكرمه وصنع به الجميل، قال الله تعالىٰ في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: قد أحسن إليَّ[2].

الله أعرف المعارف علم علىٰ الذات المقدسة سبحانه وتعالىٰ وهو المألوه محبة ورغبة وإجلالاً.

العبد: هو الإنسان حرًّا كان أو رقيقًا[3].

ثانيًا: التعريف مركبًا: مما سبق نستطيع أن نعرفه بأنَّه تفطن الإنسان وعلمه بكرم الله وإنعامه عليه وما صنع به من الجميل.

أوَّلاً: الإحسان الظاهر:

أ- استشعار إحسان الله علىٰ خلقه بالإيجاد:

١- أن يتصور الإنسان اختيار الله تعالى له دون غيره من المعدومات.

٢- أن يتصور الإنسان اختيار الله تعالى له أن يكون من بني آدم دون غيرهم من المخلوقات.

٣- أن يتصور الإنسان اختيار الله تعالى له الزمان والمكان، والوالدة والوالد، والنوع إن كان ذكرًا أم أنثىٰ، والصورة، والطول والوزن، والقوَّة والقدارت الأخرىٰ.

٤- أن يتصور الإنسان أطوار خلقه، وماذا كان يجري له فيها، وكيف يمكن أن يكون تفكيره ساعتها وحجم عناية الله به.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٥٢٨).

(٢) فضلاً: راجع تعريف الإحسان في اللغة عن طريق الفهرس العام.

(٣) القاموس للفيروز أبادي (٣٧٨).

٥ـ أن ينظر إلىٰ من دونه في تمام الخلقة ليعرف قدر إحسان الله إليه.

٦ـ أن يتصور إحسان الله إليه بتمام خلقه.

ب ـ استشعار الإحسان الإلـٰهي علىٰ العبد بعطف الأبوين عليه صغيرًا:

١ـ أن يتصور العبد كيف بعث الله تعالىٰ الشَّهوة في الأبوين للجِماع ليحصل الحمل.

٢ـ أن يتصور العبد كيف اختاره الله تعالىٰ من بين ملايين الحيوانات المنوية ليكون هو الفائز بالحياة.

٣ـ أن يتصور العبد كيف هيَّأ الله تعالى له رحم الأم ليكون له قرارًا، ملائمًا لمدَّة إقامته سواء من ناحية الحجم أم غير ذٰلك.

٤ـ أن يتصور العبد كيف أمكنه الله تعالىٰ من البقاء في رحم الأم، إلىٰ حين الولادة ولم يمت سقطًا.

٥ـ أن يتصور العبد كيف أمدَّ الله تعالى أمه بالحياة حتىٰ يَتِمَّ حمله ووضعه.

٦ـ أن يتصور العبد كيف أمده الله بالغذاء وأغناه عن الإخراج وهو في رحم أمه.

٧ـ أن يتصور العبد كيف أنجاه الله ساعة الولادة من الهلاك برغم ما مرَّ به من المخاطر.

٨ـ أن يتصور العبد كيف لو حُرم حنان الأبوين، إذن لألقياه في إحدىٰ الطرقات ولأصبح وجبة سائغة لبعض الحيوانات.

٩ـ أن يتصور العبد كيف لو كلَّ أحد الأبوين عن خدمته، إذن لمات جوعًا، أو عطشًا، أو بردًا، أو حرًا، أو غير ذٰلك.

١٠ـ أن يتصور العبد كيف لو كان الأبوان علىٰ غير الإسلام، إذن لكانا سببًا في شقاوته في الدنيا والآخرة.

١١ـأن يتصور العبد كم فتح الله تعالى له من أبواب الخير، وعظيم الدرجات بسبب بر والديه.

ج ـ إحسان الله علىٰ العبد بما سخر له من أسباب الحياة: كملاءَمة تضاريس الأرض والغلاف الجوي والمناخ وحركة الكواكب والموارد المائية، والنباتية والحيوانية له.

قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ٦٧]

وسخر الله للعبد الموارد الحيوانية والنباتية قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى

ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ٥ـ ١١]

وقال: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ١٣]

واستشعار إحسان الله علىٰ العبد بتسخير ما في السماوات والأرض له:

١ـ أن يتصور العبد حاله، لو كانت الأرض مخلوقًا غير ملائم لطبعه كيف يمكن له العيش فيها: كأن تكون من الصلابة بحيث لا يمكن المشي علىٰ ظهرها، أو الوعورة بحيث لا يمكن السير في أطرافها، أو التشقق بحيث لا يمكن أن تمسك الماء في جوفها أو الاستواء بحيث لا يمكن إحاطتها بالبحار والأنهار، أو الضيق بحيث لا يمكن أن تستوعب مَنْ علىٰ ظهرها.

٢ـ أن يتصور العبد حاله لو كان الغلاف الجوي الملامس للأرض غير ملائم لطبعه بحيث يتركب من غازات قاتلة أو كثافة لا يمكن تحملها أو كانت أوزان هـٰذه الغازات ثقيلة بحيث يعجز الإنسان عن السير تحتها أو كانت خفيفة بحيث لا تحيط به بقوىً كافَّةٍ، أو كان هـٰذا الغلاف مشبعًا بالعناصير الصلبة كالغبار والدخان وغيرهما بكمية يصعب أو ينعدم العيش معها.

٣ـ أن يتصور العبد حاله لو كانت الأرض قطعةً ثلجية أو تبلغ درجة حرارتها فوق طاقته، أو كانت حركه الرياح أضعاف أضعاف ما هي عليه أو كان منسوب الأمطار أكثر، أو أقل بكثير مما هي عليه، إذن لتجمَّد بالبرودة، أو احترق بالحرارة، أو ألقته الريح في مكان سحيق، أو هلك من العطش، أو غمره الماء.

٤ـ أن يتصور كيف لو جعل الله عليه الليل أو النَّهار سرمدًا إلىٰ يوم القيامة، أو لم تكن هناك نجوم إذن يختل نظام حياته.

٥ـ أن يتصور العبد حاله لو جفت الموارد المائية أو انعدمت الموارد الحيوانية والنباتية، بالطبع لا يستطيع العيش علىٰ وجه الأرض بضعة أيام.

د ـ إحسان الله تعالى على الإنسان بالصحة:

لقد ركب الله تعالى في جسد الإنسان القدرة على مقاومة الآفات والأمراض، وأمده بالحواس اللَّازمة للتعامل مع الحياة. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]. وإنْ اعترىٰ الإنسان شيءٌ من الخلل عافاه كما قال تعالىٰ: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ [الشعراء]، فكأنَّ الصحة هي الأصل، والمرض هو الطارىء، وإذا حصل ذلك المرض فإنَّ المحسن الحق وهو الله تعالىٰ ينعم على عبده بالشفاء.

واستشعار هـٰذا الإنسان الرباني أن يتصور الإنسان حاله لو انعدم عنده الجهاز المناعي أو أصيب بالضعف الشديد، أو فقد الحواس الخمس أو إحداها، إذا لأصبح عرضة لأول مرض يقتله أو يطرحه علىٰ الفراش حتىٰ الموت، ولما استطاع القيام بتكاليف الحياة والقيام بالطاعات، وأما فقد الحواس فإنَّه يجعله بمعزل تمامًا عن الحياة.

إنَّ نعمة البصر وحدها لا يساويها شيء، فكيف إذا انضم إليها غيرها، إنَّها المنافذ التي يعبر الإنسان من خلالها إلى الحياة بمفهومها الشامل.

هـ إحسان الله تعالى علىٰ العبد بفعل الطاعات، وكسب الحسنات في هـٰذه الدنيا:

لقد أمكن الله الإنسان من فعل الطاعات، التي بها زكاة نفسه وجسده وإرضاء ربه، ورتَّب علىٰ ذٰلك منح الحسنات وضاعفها له، حتىٰ يتمكن من بلوغ أقصىٰ الدرجات، وهـٰذه النعمة هي أعظم النعم وأجلها، ومن أجلها خلق الإنسان، وأنزل القرآن، وأرسل الرسل والأنبياء، ونصب الميزان، وقام سوق الجنة والنيران.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

واستشعار هـٰذاالإحسان كما يأتي:

١ـ أن يتصور العبد كم تشقىٰ الروح بفقد الطاعة، حتىٰ إنَّ من الناس من يصل به الحال إلىٰ قتل نفسه، كما هو مشاهد الآن في الأمم الكافرة.

٢ـ أن يتصور العبد كم تشقىٰ الإنسانية بفقد الطاعات، من ضياع الأمن، والاعتداء علىٰ الأنفس والمحارم، والممتلكات وغير ذٰلك.

٣ـ أن يتصور العبد كم أفرزت المعصية من دمار شامل، وهلاك قاتل للحرث والنسل، كما هو مشاهد بما توصل إليه الإنسان من تقنيات لم يسخرها في طاعة الله فكانت سببًا في هلاكه.

٤ـ أن يتصور العبد لو لم يضاعف الله الحسنات وضاعف السيئات، أو جعلهما سواء، إذن لهلك الإنسان أو لما فاز بأعلىٰ الجنان.

قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

والأعجب من ذٰلك تبديل السيئات إلىٰ حسنات، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن

تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

ثانيًا: الإحسان الباطن:

إنَّ ما لم يدركه الإنسان وما يخفىٰ عليه من إحسان الله أعظم مما أدركه ولم يستطع عده وبما أنَّ حصر إحسان الله الباطن علىٰ العبد أشد استحالة من سابقه لذا نكتفي بإيراد بعض الأمثلة عليه:

أ ـ إحسان الله علىٰ العبد بالعقل:

إنَّ العقل من أعظم إحسان الله علىٰ العبد، فإذا أحسن العبد استعماله وصرفه في طاعة ربه كان الطريق إلىٰ مرتبة الإحسان، وإن أساء استعماله وصرفه في طاعة شيطانه وهواه وشهواته، كان نقمة وسائقًا إلىٰ النار لذا وجب على الإنسان استشعار إحسان الله علىٰ العبد بالعقل:

١ـ أن يعتبر العبد بمن فقد نعمة العقل بالكلية كيف أصبح كلاً علىٰ أهله وذويه ومجتمعه لا يُؤمَنُ له جانب حتىٰ لكأنَّه سبع ضار، ثم يتخيل لو أنَّ الله سلبه العقل فأصبح مثله كيف تكون حاله وما هو مآله.

٢ـ أن يعتبر بمن فقد كمال العقل فأصبح معتوهًا لا يحسن حتىٰ إزالة الأذىٰ عن نفسه ثم ليتخيَّل لو سلب نعمة العقل كيف تكون حاله.

٣ـ أن يعتبر بمن فقد كمال العقل فأصبح أحمق يضر نفسه من حيث يحسب أنَّه ينفعها ثم ليتخيَّل لو سلب كمال العقل كيف تكون حاله.

٤ـ أن يعتبر بمن ضلَّت عقولهم وفسدت باتباع الهوىٰ والشَّهوات كيف دنسوا أنفسهم وعصوا ربهم واستحقوا العقوبة في الدُّنيا والآخرة.

واستعشار هٰذا الإحسان كما يأتي:

١ـ أن يتصور العبد حال أولـٰئك الكفرة وما آل أمرهم إليه من الشقاء الروحي والأمراض النفسية الفتاكة ثم يستشعر ما هو فيه من راحة وسكون نفسي.

٢ـ أن يتصور العبد حال أولـٰئك الأذكياء من المسلمين الذين لم ينعم الله عليهم بهٰذه النعمة كيف حاروا وكانت عاقبتهم التضرع إلىٰ الله أن يمنحهم هٰذه النِّعمة، ثم يتخيَّل حاله مع قلَّة حيلته لو ابتلاه الله بالشك والاضطراب وأوكله الله إلىٰ عقله كيف يكون حاله ومآله.

استشعار إحسان الله تعالى على الإنسان بما يدفعه عنه من الآفات والشرور:

١ـ أن يتصوَّر العبد حاله إذا أصيب بآفة أو شر فكيف لو خليَّ بينه وبين ما يحيط به من الآفات والشرور.

٢ـ أن يتصور العبد أحوال المنكوبين وما يتجرعونه من مرارة الكرب، ثم يتصور إحسان الله إليه بالسلامة.

٣ـ أن يتذكر أنَّ كل يوم له مفاجآته وآفاته وأنَّ النَّجاة من ذٰلك لن تكون إلا

بعون الله وإحسانه.

استشعار إحسان الله علىٰ عبده بما ستر عليه من الأعمال السيئة:

١ـ أن يتصور العبد ذنوبه الخافية علىٰ المخلوقين، وقبحها، ومنْ كان يسترها عنه لو اطَّلع عليها.

٢ـ أن يتصور حال المفضوحين في الدنيا كيف أظهر الله تعالى عوارهم، وأسقط ذكرهم، وسلَّط عليهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون من الستر.

٣ـ أن يتذكر ما يبذله أهل القبائح من الجهد والمال حتىٰ يستروا، وكيف أنَّ الله ستره بلا ثمن وكان حقه العقوبة.

٤ـ أن يعلم العبد أنَّ الله تعالىٰ ستر ذنوبه علىٰ علم منه سبحانه وتعالىٰ.

٥ـ أن يتصور العبد يوم الفضائح يوم الحساب بين يدي الله تعالى علىٰ رؤوس الأشهاد من النبيين والملائكة والصالحين وسائر الناس، وذٰلك عند ما يقال هٰذا فلان ابن فلان فعل كذا وكذا.

استشعار إحسان الله علىٰ العبد المحسن بما أعدَّ له في الجنة من النعيم:

١ـ أن يتصور العبد كم من نعمة في الدنيا رآها في يد غيره ولم يستطيع تحصيلها، ثم ليتخيَّل أنَّ الله تعالى أعدَّ له في الجنة إن كان من أهلها أعظم من ذٰلك.

٢ـ أن يتخيَّل العبد إن كان من أهل الإيمان أنَّ له حورًا حسانًا، ومملكة عامرة بكل أنواع اللذائذ والنعيم كلها تنتظر مجيئه الآن.

٣ـ أن يتخيل العبد إن كان من أهل الإيمان، لذَّة النظر إلىٰ وجه الرحمن، الذي كان يعبده في الدنيا ولم يره قال الله تعالىٰ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فالحسنىٰ: الجنة، والزيادة النظر إلىٰ وجه الرحيم المنان، وهذا أعظم النعيم لذوي الإحسان.

٤ـ أن يتخيَّل العبد أهل النار وما هم فيه من النكال والبوار وما يتجرعون من الكروب والغصص كأنَّه يسمع شهيقهم والزفير وهم يتنادون بالويل والثبور، ويجأرون ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإن ظالمون ثم يتصور إذا كان من أهل الإيمان كيف سروره بإحسان الله إليه بالنجاة من النيران.

والخلاصة: أنَّ من استشعر إحسان الله إليه لزمه الإحسان في عبادته جزاء ما أحسن الله إليه وجب عليه شكره. وقد سبق الحديث عن الشكر.[1]

(١) راجع الفهرس العام.

المطلب الثاني
استشعار مراقبة الله تعالى لعبيده

إذا علم العبد علم اليقين أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ مطلع علىٰ حركته وسكونه، وما يختلج في نفسه، من السر وأخفىٰ لا يعزب عنه شيء من ذٰلك، في زمان أو مكان، وأنَّه سبحانه وتعالىٰ أحصىٰ كل ذٰلك علىٰ عبده يلقاه أمامه منشورًا، يوم التناد، علىٰ رؤوس الأشهاد، كان ذٰلك اليقين وسيلة فعالة، يلم بها العبد شعثه، ويتوب إلىٰ بارئه، توبة نصوحًا، تدنيه من المنافسة في فعل الخيرات وترك المنكرات، وها هنا يبرز دور المجاهدة للنفس، مع الاستعانة علىٰ تمردها وتقلبها وغفلتها بالصبر والدعاء حتىٰ تتأهَّل لبلوغ مرتبة الإحسان.

تعريف المراقبة:

المراقبة لغة: مصدر قولهم: راقب مراقبةً وهو مأخوذ من مادة رَقَبَ التي تدل علىٰ «انتصابٍ» لمراعاة شيء وفي أسماء الله تعالىٰ: «الرقيب» وهو الحافظ الذي لا يغيبُ عنه شيء، فعيلٌ بمعنىٰ فاعل(١).

المراقبة اصطلاحًا:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالىٰ علىٰ ظاهره وباطنه(٢).

وقربه منه، وقدرته علىٰ إحصاء عمله، ومحاسبته له.

بيان حقيقة المراقبة:

حقيقة المراقبة: هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره، يقال إنه يراقب فلانًا ويراعي جانبه، ويعني بهٰذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أما الحالة: فهي مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إيَّاه، وانصرافه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هٰذه الحالة، فهي العلم بأنَّ الله مطَّلع علىٰ الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب علىٰ أعمال العباد، قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وأنَّ سر القلب في حقه مكشوف كما أنَّ ظاهر البشرة للخلق

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ولسان العرب(١/ ٤٢٤، ٤٢٦).

(٢) مدارج السالكين(٢/ ٦٨).

مكشوف بل أشد من ذٰلك.

فهٰذه المعرفة إذا صارت يقينًا، أعني أنَّها خلت من الشك ثم استولت بعد ذٰلك علىٰ القلب قهرته، فرُبَّ علمٍ لا شك فيه لا يَغْلِبُ علىٰ القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت علىٰ القلب استجرت القلب إلىٰ مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهٰذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلىٰ الصديقين وأصحاب اليمين(١).

درجات المراقبة:

للمراقبة ثلاث درجات وهي علىٰ النحو الآتي:

الدرجة الأولىٰ: مراقبة العبدلله تعالىٰ باستشعار معاني أسمائه وصفاته بأنَّه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء والدائم الذي يفني كل شيء، ولا يفنى، والحفيظ علىٰ كل شيء، العليم بكل شيء، السميع لكل شيء، البصير بكل شيء، القوي القاهر فوق عباده، الغني المالك خزائن كل شيء، وأنَّ ما دونه فقراء ضعفاء موتىٰ لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضررًا، فإذا حصلت هٰذه الدرجة أثمرت مخافة الله ومحبته ورجاء ما عنده وتلمس محابه في كل شيء.

الدرجة الثانية: مراقبة العبدلله تعالىٰ برفض المعارضة لأخباره عن ذاته وأسمائه وصفاته وسائر شرعه وأمره وأفعاله وقضائه وقدره، فإذا حصلت هٰذه الدرجة أثمرت معرفة الله ومعرفة شرعه.

الدرجة الثالثة: مراقبة العبدلله تعالىٰ حال العبادة له علىٰ الدوام بحضور القلب وشدة اليقظة والعظيمة له وعدم الالتفات إلىٰ غيره، وخشيته باستشعار معيته، والقرب منه، وحبه والسرور بطاعته والتلذذ بها، والاستزادة منها(٢). وهٰذا معنىٰ قول النبي ﷺ: «**فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»(٣). وتأويل قوله تعالىٰ:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٢] وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٤٩٨).

(٢) راجع مدارج السالكين (٦٩٢، ٧٠٠) بتصرف شديد واختصار.

(٣) صحيح البخاري (١/٢٧) (٥٠).

وعلىٰ هـٰذا فمن استدام العلم واليقين بأنَّ الله سبحانه، رقيب عليه، ناظر إليه سامع لقوله، وهو مطلِّع علىٰ عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طرفة عين فقد حاز مرتبة المراقبة التي تؤهله لمنزلة الإحسان لأنَّ من راقب الله أحسن عمله.

قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «عليك بالمراقبة ممن لا تخفىٰ عليه خافية، وعليك بالرجاء فيمن يملك الوفاء»(١).

صور من المراقبة:

١ـ حديث ثلاثة النفر الذين آووا إلىٰ الغار وقد سبق في الحديث عن الإخلاص(٢).

٢ـ ما رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(٣).

٣ـ قال عبدالله بن دينار ـ رحمه الله ـ خرجت مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ مكة فعرسنا(٤) في بعض الطرق فانحدر عليه راعٍ من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هـٰذه الغنم؟ فقال: إني مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب؟ قال: فأين الله؟! قال: فبكىٰ عمر ـ رضي الله عنه ـ ثم غدا إلىٰ المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أَعْتَقَتْكَ في الدنيا هـٰذه الكلمة وأرجو أن تُعْتِقَكَ في الآخرة(٥).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩٧).
(٢) فضلاً: انظر الفهرس العام للموضوعات.
(٣) صحيح مسلم (٢/ ٧١٥) (١٠٣١).
(٤) التَّعْريس: نزول المسافر آخر الليل نَزْلَةٌ للنوم والاستراحة، النهاية (٣/ ٢٠٦).
(٥) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٤/ ٣٩٦).

المطلب الثالث

التوبة إلى الله تعالى

عندما تتراكم على العبد أثقال المعصية وأوزار الذنب، ويحيط بقلبه جند الشيطان، من كل مكان يسكن الظلام سويداء قلبه، ويتسلل إلىٰ شغاف أركانه، فلا يبصر النور ولا يسمع الدعاء، عندها يتردىٰ من شواهق الإيمان إلىٰ قعر الرذيلة، علىٰ أم رأسه، فيخوض في وحلها ويتغذى من رجسها، فتستمرىء نفسه المريضة ذٰلك، وتألفه، وتأبىٰ أن تتركه، فيصبح أبعد شيء عن مرتبة الإحسان، فلا تخطر بباله إلاَّ لمامًا، وإن خطرت! شرد ذهنه وبدده في صحراء أو هامة، وأحلامه لما آلت إليه قواه من الخور، والضعف والاستكانة، فهيهات هيهات له العودة إلىٰ الرفعة والسمو وهو سادر في غيه، مقيم علىٰ باطله، لم يأخذ بسبب قوي يرده إلى سواء الصراط، ويهديه سبيل المحسنين، ولست أرىٰ ذٰلك السبب الذي يمد به إلىٰ الله غير التوبة الصادقة النصوح، فإنَّها وإن كانت دواء ناجعًا وبلسمًا شافيًا وقوَّة كبرىٰ تعصف بجند الشيطان، وتشرد بهم من خلفهم، وتقتلع جذور الظلام من القلب، فيعود أبيض أجرد كأنَّما تعاقبت عليه المزن بوابلٍ صباح مساء تغسل درنه، وتطيب أردانه وهٰذه التوبة النصوح، ليست وعرة المسلك بعيدة المنال، بل هي أقرب إلىٰ مبتغيها من شراك نعله أو عنق راحلته، قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢].

فيا باغي الإحسان أقبل من ها هنا الطريق.

التوبة لغة:

التَّوبة، بفتح التاء وسكون الواو، مأخوذةٌ من «تَوَبَ» التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل علىٰ الرجوع، يقال: تاب وأناب إذا رجع عن ذنبه[(١)].

والتَّوبُ: ترك الذنب علىٰ أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار[(٢)].

التوبة في الاصطلاح:

قال الراغب: التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم علىٰ ما فرط منه، والعزيمة علىٰ ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(١/ ٣٥٧).

(٢) المفردات للراغب (٧٢).

الأعمال بالإعادة[1].

حقيقة التوبة:

شعور وجداني تستجيب له الجوارح بالفعل أو الترك.

مثل: التوبة والتائب:

إنما مثل التوبة والتائب، كمثل استفاقة نائم مذكور، فار من وحش كاسر باطش بيده، ونابه كاد يصيب منه مقتلاً، أو نار مضرمة بلغت ثيابه إثر صحةٍ ناصح له، فرأىٰ أمنًا وقوّة ورحمة تناديه، فآوىٰ إليها، فأمنته ونصرته ورحمته، فما هي إلاّ برهات من الزمن حتىٰ سكن قلبه، واندمل جرحه، وعاد علىٰ ذاته، يزجرها ويهذبها، بما أراد صاحب الأمن والقوّة والرحمة.

التوبة النصوح:

قال الجرجاني: التوبة النصوح: هي توثيق العزم علىٰ ألاّ يعود بمثله، وقيل: هي ألا يبقي «التائب» علىٰ عمله أثرًا من المعصية سرًا وجهرًا، وهٰذه هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً[2].

وقال التهانوي: التوبة النصوح هي من أعمال القلب تعني تنزيه القلب عن الذنوب، وعلاقتها أن يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال ولا ترد في خاطره أصلاً[3].

الفرق بين التوبة والإنابة والأوبة:

يقال لمن خاف العقاب هو صاحب توبة، ولمن يتوب بمطمع الثواب هو صاحب إنابة، ولمن يتوب لمحض مراعاة أمر الله فهو صاحب أوبة، وقيل: التوبة صفةُ عامّةِ المؤمنين قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

والإنابة صفة الأولياء والمقربين قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٣] والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين. قال تعالىٰ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[4] [ص: ٣٠].

حكم التوبة:

قال النووي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «التوبة واجبة من كل ذنب»[5] علىٰ الفور علىٰ كل عين. قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) التعريفات للجرجاني (٧٤).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون (١/ ٢٣١).

(٤) راجع لسان العرب، مادة أوب، وتوب.

(٥) رياض الصالحين (١١).

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

ولا يجوز تأخيرها لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

شروط التوبة:

المعاصي التي تجب منها التوبة نوعان:

النوع الأول: معصية بين العبد وبين الله تعالىٰ، لاتتعلَّق بحقوق الآدميين، وهٰذا النوع قسمان:

الأول: أن يكون الذنب بترك واجب يمكن استدراكه فلا بد فيه من القضاء إن لم يكن الذنب مكفرًا.

الثاني: أن يكون الذنب يوجب الكفر فلا بد من الإتيان بالشهادتين وإثبات ما أنكره أو إنكار ما كان يقصد مما يوجب الكفر.

النوع الثاني: معصية بين العبد وبين الله تعالى، لٰكنها تتعلَّق بحقوق الآدميين، وهٰذا النوع قسمان:

الأول: أن ينجبر الحق بمثله من الأموال، والجراحات، وقيم المتلفات والسرقات والعقوبات وغيرها، فلا بد من رد كل مظلمة لأهلها، ورد كل مستحق من مال ونحوه، إن كان موجودًا أورد مثله إن كان معدومًا أو مستهلكًا. فإن اقتصر علىٰ التوبة ولم يرد المظالم قبلت توبته ويطالب بها يوم القيامة، إلاَّ أن يكون مُعْسِرًا.

الثاني: أن لا ينجبر الحق بمثله بل جزاؤه من غير جنسه كالقذف والزنا فلا بد من استحلال صاحبها إلاَّ أن يكون وارء ذٰلك مفسدة كبرىٰ فيستغفر الله ويندم ويدعو لصاحب الحق، ويكثر الثناء عليه(١).

وهٰذان النوعان يشتركان في بعض الشروط وينفرد الثاني عن الأوَّل بشرط زائد، وهي علىٰ النحو الآتي:

١ـ أن تكون هٰذه التوبة خالصةً لوجه الله تعالىٰ، لأنَّها عبادة ولا بد لها من نية لقوله كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوىٰ...**»(٢) عند ذٰلك يصح أن يقال إنَّ الباعث

---

(١) انظر: التوبة إلىٰ الله، للدكتور صالح السدلان (٣٢، ٣٤)، بتصرف.

(٢) صحيح البخاري (١/٣) (١).

للتوبة حب الله وتعظيمه ورجاؤه، والطمع في ثوابه، والخوف من عقابه، لا تزلفًا إلىٰ مخلوق، ولا قصدًا في عرض من أعراض الدنيا الزائلة.

٢ـ الإعتقاد الجازم أنَّ قابل التوبة وغافر الذنب هو الله لا غيره خلافًا لأهل الملل الأخرىٰ وبعض الطوائف المنتسبة للإسلام الذين يطلبون التوبة من القساوسة أو مشائخ الطرق.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾ [التوبة: ١٠٤].

٣ـ الإقلاع عن المعصية فورًا وعدم الإصرار على الذنب.

قال الراغب: الإصرار: التعقُّد في الذنب والتشدد فيه والامتناع عن الإقلاع عنه[١] لأنَّ التوبة مع الإصرار توبة الكذابين قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فإن كانت المعصية بترك واجب أداه علىٰ الحال، وإن كانت بفعل ذنب تركه علىٰ الفور، وإن كانت مما يمكن قضاؤه مما للخلق أداه إليهم أو استحلهم منه، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

وهنا كل من عصىٰ الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

٤ـ الندم علىٰ ما فات من الذنوب في الماضي، ندمًا يوجب الانكسار بين يدي الله تعالى.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الندم توبة**»[٢] يخرج بهـٰذا الشرط من يتحدث بما اقترف من الذنوب والمعاصي السابقة يفخر بذٰلك ويتباهىٰ به، لأنَّ ذٰلك من المجاهرة المنهي عنا.

كما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل أمتي مُعافىٰ إلاَّ المجاهرين، وإنَّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت**

---

(١) مفردات الراغب (٢٨٦).

(٢) سنن ابن ماجه (٢/١٤٢٠) (٤٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢/٤١٨) (٣٤٢٩).

البارحة كذا وكذا، بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[1].

٥- العزم الأكيد علىٰ عدم العودة إلىٰ الذنب مرةً ثانية، أبدًا، والمسارعة في فعل المأمور حالاً، كما جاء عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: سئل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن التوبة النصوح، قال: «التوبة النصوح أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبدًا»[2]، فإذا وصل العبد إلىٰ هٰذه الدرجة من العزم الجازم والتصميم الأكيد ثم وَاقَعَ الذنبَ مرّة ثانية، وهو نادم آسف علىٰ ما فرط منه فجاهد نفسه علىٰ التخلص منه لا يضر ذٰلك توبته الأولىٰ ويجب عليه إحداث توبة ثانية روىٰ أبوهريرة - رضي الله عنه -: عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه عزَّوجل قال: «**أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللَّهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ، أذنب عبدي ذنبًا فعلم أنَّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أنَّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أنَّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»**[3].

قال النووي - رحمه الله - لو تكرر الذنب مائة مرَّة أو ألف مرَّة أو أكثر وتاب في كل مرَّة قبلت توبته وسقطت ذنوبه ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحَّت توبته، وقوله عزَّوجل للذي تكرر ذنبه: «اعمل ما شئت فقد غفرت لك» معناه ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك[4].

وفي هٰذا نوع من التربية الربانية فريد يمنح العبد الفرصة الكافية لمجاهدة الباطل.

٦- أن تصدر التوبة من العبد في زمن قبولها وزمن قبول التوبة علىٰ النحو الآتي:

أ- أن تكون قبل حضور الموت.

ب - أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال ودابة الأرض.

قال الله تعالىٰ ناعيًا علىٰ فرعون تأخير توبته إلىٰ حين فوات قبولها:

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٥٤) (٥٧٢١).

(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ١٠٧).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ٢١١٢) (٢٧٥٨).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٧٥).

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] قال رسول الله ﷺ كما روى أبوهريرة - رضي الله عنه -: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض**»[١].

وعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ**»[٢].

والغرْغَرَةُ: تردُّد الروح في الحلق[٣].

والمراد: ألاَّ يؤخر العبد التوبة إلىٰ آخر لحظات حياته عندما تبلغ الروح الحلق، وفيه وجوب المبادرة بالتوبة.

وأما ما يدل علىٰ عدم قبول التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها فهو ما رواه أبوهريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»[٤].

وهٰذه الشروط الستة السابقة هي في كل معصية بين العبد وربه. فإن كانت بين العبد وربه مما يتعلّق بحقوق المخلوقين فلها شرط سابع وهو:

٧- البراءة من صاحبه، فإن كان مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حدَّ قذف مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها، هٰذا إذا لم يترتب علىٰ ذٰلك مفسدة أعظم[٥] فإن ترتب عليه مفسدة أكثر له الدعاء والاستغفار وذكره بالخير دائمًا وشاهد ذٰلك حديث أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ: «**.. فإنَّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هٰذا في شهركم هٰذا في بلدكم هٰذا، ليبلغ الشاهد الغائب...**»[٦].

وما جاء عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم (١/١٣٨) (١٥٨).

(٢) سنن الترمذي (٥/٥٤٧) (٣٥٣٧) وقال: هٰذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/١٤٢٠) (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/٢٩١) (٦١٢٥)، والحاكم (٤/٢٥٧) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذَّهبي، وقال أحمد شاكر في المسند(٩/١٧) (٦١٦٠) إسناده صحيح.

(٣) لسان العرب (٥/٢١) غرر.

(٤) صحيح مسلم (٣/٢٠٧٦) (٢٧٠٣) كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار.

(٥) انظر: رياض الصالحين (١١، ١٢) بتصرف، وانظر مدارج السالكين (١/٣٠٥).

(٦) صحيح البخاري (٣٧١) (٦٧).

«من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيءٍ فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»(١).

بهٰذا يتَّضح أنَّ التوبة شيء واحد لا يمكن أن يتجزَّأ، فمن أتىٰ بالشروط صحَّت توبته ومن أغفل بعضها لا يُعْتَدُّ بتوبته حتىٰ يحققها جميعًا، وأنه يجب علىٰ العبد أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحَّت توبته من ذٰلك الذنب(٢).

إمكانية التوبة من جميع الذنوب:

إنَّ بين العبد وبين الذنب حرب وهٰذه الحرب سجال مرَّة يصرع الذنبُ العبد ومرَّة يصرع العبدُ الذنبَ وهٰذا في حق كل أحد إلاَّ مَنْ عصم الله، مصداق ذٰلك حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»**(٣).

وحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كتب علىٰ ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذٰلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجلُ زناها الخُطا، والقلب يهوي ويتمنىٰ، يصدق ذٰلك الفرج ويكذِّبهُ»**(٤).

إلاَّ أنَّ هٰذا لا يعني الاستسلام للقضاء والقدر بل مدافعته بالمجاهدة وهي من باب القضاء والقدر أيضًا فإنَّ الله خلقنا، وخلق أفعالنا، وأفعالنا من كسبنا نحاسب عليها، والقدر سابق في علم الله لا سائق للعبد إلىٰ المعصية، فإنَّ الله لا يأمر بالسوء والفحشاء، وقد جعل للإنسان فطرة قابلة للخير وحبب له الإيمان وزيَّنه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٦٩].

وقال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] وقطع الحجة عليه بإرسال الرسل كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. إذا تبيَّن هٰذا فإنَّ الله جلَّ وعلا فتح باب التوبة علىٰ مصراعيه من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها حتىٰ من الكفر قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفا ل: ٣٨] أي: يعودا

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٨٦٥) (٢٣١٧).
(٢) انظر: رياض الصالحين، للنووي (١١، ١٢) بتصرف.
(٣) سنن الترمذي (٤/ ٥٦٩) (٢٤٩٩).
(٤) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٤٧) (٢٦٥٧).

إلىٰ الله بالتوحيد ويصرفوا الطاعة والعبادة له يغفر لهم أعمالهم الكفرية السابقة لأنَّ الإسلام يجب ما قبله.

فإذا كان هٰذا الحال مع الشرك وإمكانية التوبة منه فإنَّ التوبة من الذنوب ما دون الشرك ممكنة من باب أولىٰ والتوبة تجب ما قبلها.

فعن أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالىٰ أنَّه قال: **«يا عبادي! إني حرَّمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا، يا عبادي! كلكم ضال إلاَّ من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي! كلكم جائع إلاَّ من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عار إلاَّ من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي! إنَّكم تخطئون بالليل والنَّهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذٰلك في ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذٰلك من ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذٰلك مما عندي إلاَّ كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي! إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيَّاها فمن وجد خيرًا فليحمدالله، ومن وجد غير ذٰلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه»**[١].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم»**[٢].

فإذا كان الذنب ملازمًا فإنَّ الواجب عليه التوبة منه.

أولويات التوبة:

إنَّ أولىٰ ما يجب فيه التوبة ترك المأمور ثم يليه بعد ذٰلك التوبة من فعل المحذور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «من تاب توبة عامة كانت هٰذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب، إلاَّ أن يعارض هٰذا العام معارض يوجب التخصيص مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه، لقوَّة حبه إيَّاه، أو لاعتقاده أنَّه حسن ليس بقبيح، فما

---

(١) صحيح مسلم (٣/١٩٩٤، ١٩٩٥) (٢٥٧٧).

(٢) صحيح مسلم (٣/٢١٠٦) (٢٧٤٩).

كان من ذنب لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو استحضره بعينه لكان ممَّا يتوب منه، فإن التَّوبة العامة شاملة له، وأمَّا التوبة المطلقة: وهي أن يتوب توبة مجملة، فإنَّها لا تستلزم التوبة من كل ذنب فهٰذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق، لٰكن هٰذه تصلح أن تكون سببًا لغفران المعيَّن، كما تصلح سببًا لغفران الجميع بخلاف التوبة العامة فإنَّها مقتضية للغفران العام.

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلاَّ بعض المعاصي المتَّصفات بالفاحشة، أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررًا عليه مما فعله من بعض الفواحش، فإنَّ ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد مؤمنًا حقًا أعظم نفعًا من نفع ترك الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله، فإنَّ هٰذا أعظم الحسنات الفعلية، والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامَّة مع حاجتهم إلىٰ ذٰلك؛ فإنَّ التوبة واجبة علىٰ كل عبد في كل حال، لأنَّه دائمًا يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعْتَدَىٰ فيه من فعل محظور فعليه أن يتوب دائمًا[1].

وقال في موطن آخر: وليست التوبة من فعل السيئات فقط، كما يظن كثير من الجهَّال، الذين لا يتصورون التوبة إلاَّ عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها، أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها[2].

شمول التوبة لكل مراتب الدين الإسلام والإيمان والإحسان:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمىٰ التوبة وبهٰذا استحقَّ التائب أن يكون حبيب الله، فإنَّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله مَنْ فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، فإذا التوبة هي الرجوع عما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلىٰ ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، ويدخل في مدلولها الإسلام، والإيمان، والإحسان[3].

منزلة التوبة:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ أكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علمًاوعملاً وحالاً، ولم يجعل الله تعالىٰ محبته

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ (١٠/٣٢٨، ٣٣٠)، بتصرف.
(٢) التوبة (٤٢).
(٣) مدارج السالكين (١/٣٠٦، ٣٠٧).

للتوابين إلاَّ وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالىٰ يفرح بتوبة عبده ذٰلك الفرح العظيم[1].

صوارف العبد عن التوبة:

يصرف العبد عن التوبة أمران لا ثالث لهما:

الأول: تعلق القلب بالشَّهوات حتىٰ يؤول أمره إلىٰ حياة البهائم يطارد كل شهوة في مظآنها لا يضره ما أنفق عليها من الجهد والوقت والمال، وغيره، وهٰذه الشهوات كثيرة متنوعة وأهمها:

١ـ شهوة جمع المال من الحلال والإفراط في تحصيله أو استغلاله بحيث يتعدَّى إلى الحرام ولربما تناسى حرمته إذا علا الران علىٰ قلبه والعياذ بالله.

٢ـ شهوة الفرج فلا يزال يستكثر من ذٰلك إن قدر عليه حلالاً وإلاَّ تعدىٰ إلىٰ الحرام ولربما استخبث الحلال الطيب.

٣ـ شهوة الجاه وحب الشرف: ومعنىٰ ذٰلك أنَّه لا يألوا جهدًا أن يتبوأ مكانًا مرموقًا بين الناس حتىٰ ولو أدىٰ ذٰلك إلىٰ ترك المأمور وإرتكاب المحذور فالغاية عند هٰذا الصنف من الناس تبرر الوسيلة.

وكل هٰذه الثلاث صوارف قوية عن التوبة الصادقة النصوح.

الثانية: تعلق القلب بالشُّبهات:

والشبهات: هي ما تشتبه حرمته بحله عند من لا علم لديه وهٰذه الثانية أخطر من الأولىٰ إذ مآل الأولى إلىٰ الحياة الحيوانية من البطش والظلم وغيرهما، ومأل الثانية إلىٰ منازعة الله تعالىٰ في الألوهية كما حصل لأهل الزندقة والإلحاد.

وقد اشتدد غضب النبي ﷺ علىٰ مرتكب الشبهات أكثر من مرتكب الشَّهوات.

فعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه وهم يخوضون في القدر فكأنَّما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال: «بهٰذا أمرتم أو لهٰذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض بهٰذا هلكت الأمم قبلكم»[2].

وحذَّر النبي ﷺ من أهل الشبهات لعظم خطرهم إذ أنَّ الشبهات لها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سنن ابن ماجه (١/ ٣٣) (٨٥). قال البوصيري (١/ ٥٨) (٢٩) هٰذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال الألباني، حسن صحيح كما في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢١) (٦٩).

بريق يخطف من في قلبه هوىً.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: تلا رسول الله ﷺ هـٰذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيت الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولـٰئك الذين سمىٰ الله، ما حذروهم**».

من هـٰذه الشبهات:

١ـ الاعتماد علىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ.

وهـٰذا باب اغتربه كثير من الخلق ولا ريب أنَّ الله واسع الرحمة والمغفرة كتبها لمن آمن به، واتَّقاه وعمل بما أُمر به واجتنب ما نهاه الله تعالى عنه قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٢ـ القنوط من رحمة الله تعالىٰ.

إنَّ القنوط من رحمة الله تعالىٰ جرم كبير، وصارف قوي عن التوبة وهو من أعظم الشبه في طريق التائبين، وإن كان أهله أقل منَ أهل الإرجاء الذين تركوا العمل، واتَّكلوا علىٰ رحمة الله تعالىٰ، لذا نجد القانطين أفرطوا في الخوف من الله حتىٰ بلغ بهم إلىٰ هـٰذه الشبهة التي مفادها كيف يغفر الله لي، وقد أذنبتُ ذنبًا عظيمًا، هنا يناديهم الله بوصف العبودية له اضطرارًا أو اختيارًا ألا يدب اليأس إلى قلوبهم المنكسرة مبينًا لهم أنَّه قابل التوبة من الذنوب جميعًا ، فكأنَّ فيه إجابة سائل وإنَّ كبر ذنبي؟ والجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣] صغيرها وكبيرها قليلها وكثيرها من كل عبد تاب إلىٰ الله قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٣٥] وقد تألَّىٰ رجل علىٰ الله أن لا يغفر لفلان فغفر له وأحبط عمل المتألي.

عن جندب أنَّ رسول الله ﷺ حدث: «أنَّ رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان وإنَّ الله تعالىٰ قال: من ذا الذي يتألىٰ عليَّ أن لا أغفر لفلان فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك..»[١].

وهـٰذا الرجل من بني إسرائيل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا فدلَّ على أهل أعلم الأرض راهب فقنطه من التوبة فقتله أتم به المائة ثم سأل

---

(١) صحيح مسلم (٣/٢٠٢٣) (٢٦٢١).

عن أعلم أهل الأرض فسأله فقال: نعم ومن يحول بينك وبين التوبة، وهٰذا الحديث بتمامه لأخذ العبرة والعظة منه.

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم، رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ علىٰ راهب فأتاه فقال: إنَّه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة فقال: لا، فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ علىٰ رجل عالم فقال: إنَّه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا فإنَّ بها أناسًا يعبدون الله، فاعبدالله معهم ولا ترجع إلىٰ أرضك، فإنَّها أرض سوء فانطلق حتىٰ إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة، جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلىٰ الله، وقالت ملائكة العذاب: إنَّه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيَّتهما كان أدنىٰ فهو له فقاسوه فوجدوه أدنىٰ إلىٰ الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة قال قتادة فقال الحسن: ذكر لنا أنَّه لما أتاه الموت نأىٰ بصدره**»[1].

والصواب أن لا يغلب جانب الرحمة علىٰ جانب الخوف ولا جانب الخوف علىٰ جانب الرحمة بل يصيران متساويين كجناح الطائر.

٣ـ الاغترار بكثرة النعم:

من الناس من أسبغ الله عليه النعم كجناح وهو مقيم علىٰ معاصية فظنَّ أنَّ ذٰلك حبًا فيه ودليلاً علىٰ حسن طريقته. وما علم أنَّه مستدرج بالنعم وأنَّها زيادة في وباله كالذي يجمع الحطب ليحرق به المغترين إلاَّ أن يشاء الله قال الله تعالىٰ: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾**﴾ [الأعراف].

قال ابن القيم - رحمه الله -: وربما اتَّكل بعض المغترين علىٰ ما يرىٰ من نعم الله عليه في الدنيا وأنَّه لا يغير ما به، ويظن أنَّ ذٰلك من محبة الله له، وأنَّه يعطيه في الآخرة أفضل من ذٰلك وهٰذا من الغرور.

ثم قال: قال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمهُ وأنت مقيم علىٰ معاصيه فاحذره، فإنَّما هو استدارج منه يستدرجك به، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف، الآية:

---

(١) صحيح مسلم (٣/٢١١٨) (٢٧٦٦).

٣٥]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤] وقد ردَّ سبحانه علىٰ من يظن هـٰذا الظن بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفجر: ١٥ـ ١٧] ثم قال: قال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لايعلم، ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعمل، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم(١).

٤ـ استصغار الذنب:

إذا استهان العبد بالمعصية دلَّ ذٰلك علىٰ جهله وفجوره وعدم معرفته بالله والخوف منه فإنَّه ينبغي للعبد ألاَّ ينظر إلىٰ صغر معصية، ولـٰكن ينظر إلىٰ من عصاه فالمؤمن وجِلٌ خائف من ذنبه والمنافق لا يحسب لذٰلك حسابًا.

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنَّ المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر ليرىٰ ذنوبه كذباب مرَّ علىٰ أنفه قال له: هـٰكذا»(٢).

٥ـ طول الأمل والتسويف، وهـٰؤلاء قوم إن حدثتهم أنفسهم أو غيرها بالتوبة أخروها رجاء طول العمر وعللوها بالتسويف مرَّة بعد مرَّة وهم علىٰ خطر عظيم إن وافتهم المنية وهم مقيمون علىٰ المعصية.

الوسائل المعينة علىٰ التوبة:

أولاً الدعاء:

وهو من أنفع الأسباب المعيَّنة علىٰ التوبة، وينبغي للداعي أن يستجمع قلبه وأن يلح في دعائه وأن لا يستعجل بل يكرر ذٰلك ويداوم عليه، وهو دأبُ الأنبياء والصالحين، قال الله تعالىٰ حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقد كان يُعد للنبي ﷺ في المجلس الواحد مائة مرَّة يدعو الله أن يتوب عليه.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنْ كنَّا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرَّة قبل أن يقوم: «رب اغفر لي وتُب عليَّ إنَّك

(١) انظر: الجواب الكافي (٣٧، ٣٨)، بتصرف واختصار.

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٢٤) (٥٩٤٩).

أنت التوَّاب الرَّحيم»[١]. وهكذا النبي ﷺ يحث المؤمنين على الدعاء بالتوبة كما ورد عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «**من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، اللهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، فتحت له أبواب السماء الثماني، يدخل من أيها شاء**»[٢].

وإذا كان هذا حال الأنبياء وهم التائبون لله حقًا فَمَنْ دونهم من أهل الذنوب والمعاصي أولى بالدعاء والإكثار منه قبل التوبة وبعدها.

ثانيًا: ترك كل ما لهُ صِلة بالمعصية وهو أنواع:

١ـ أن يترك رفقة السوء الذين اعتاد مباشرة المعصية معهم.

٢ـ أن يترك المكان الذي اعتاد فيه المعصية.

٣ـ أن يصرف الخواطر النفسية التي تحدثه بالمعصية.

وفي حديث الرجل من بني إسرائيل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا دليل النوعين السابقين.

وأما الثالث: فلا يحصل للعبد إلاَّ بالاعتصام بالله تعالى من الشيطان ومن وساوسه.

ثالثًا: الإشتغال بالعلم ومدارسة العلماء والإكثار من مجالسة الصالحين، لأنَّ كل من عصى الله فهو جاهل به، وشفاء الجهل السؤال، والمسئوولون هم العلماء، والصالحون عون على استقامة القلب والجوارح. ألم تر أنَّ القاتل في الحديث المشار إليه سابقًا أوَّل ما استفاق سأل العلماء، فوجد عند الثاني الدواء وأنَّه هجر بلده التي بها قوم أشقياء، والخروج إلى قرية أهل الهدى.

رابعًا: مجاهدة النفس مرَّة بعده مرَّة، حتى تلين وتستكين لأمر الله، وتقوى على ترك المعاصي، وفعل الطاعات، وقد تقدم حديث العبد الذي كلَّما أذنب سأل الله التوبة فيتوب عليه ثم يعود في الذنب فيسأل الله التوبة ثم يتوب عليه، وهكذا مرارًا.

وفيه دليل على المجاهدة.

خامسًا: النظر في الحدود والتعزيرات المترتبة على المعاصي في الدنيا، وكيف أنَّ الله أمر بها، وألزم الحكَّام بتطبقهما دونما هوادة أولين، هذا

---

(١) سنن أبي داود (٢/١٧٨) (١٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٢٨٣) (١٣٤٢).

(٢) سنن الترمذي (١/٧٧) (٥٥)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (١/٧٩).

هٰذا والناس في المهلة فكيف بالعقاب علىٰ المعاصي والذنوب في دار الجزاء والحساب.

سادسًا: أن يتأمَّل الإنسان حسن عاقبة التوبة في الدنيا، وأنَّها سبب السلامة والسعادة في الدنيا والآخرة وأنَّ فيها رضاء الله عن التائب والفوز بالنعيم الدائم في الجنَّة.

مراتب التائبين:

للتائبين أربع مراتب وهي علىٰ النحو الآتي:

المرتبة الأولىٰ: هم التائبون الذين استقاموا علىٰ التوبة إلىٰ آخر حياتهم، ولم تحدثهم أنفسهم بالعودة إلىٰ الذنب، أو مقارفة الإثم، وهٰؤلاء هم أصحاب النفوس المطمئنة الذين اتَّصفوا بأعلىٰ رتب التوبة، لأنَّهم سلكوا الطريق المستقيم، فلزموا طاعة الله، والإتيان بما به أمر، واجتناب ما عنه نهىٰ وزجر، وتخلوا عن كل معصية وخُلق لا يرضىٰ عنه رب العزَّة والجلال، وهٰذه أعلىٰ رتب التائبين.

المرتبة الثانية: هم التائبون الذين سلكوا طريق الاستقامة ولازموا التوبة طيلة حياتهم، إلاَّ أنَّهم لا ينفكون عن ذنوب تعتريهم، أو سيئات تزينها لهم أنفسهم، لا عن قصد وعمد، بل كلَّما أقدموا علىٰ الذنوب لاموا أنفسهم، وجددوا عزمهم وندموا علىٰ الشر، لِمَ فعلوه! وندموا علىٰ الخير، لِمَ تَركوه أو لَمْ يستكثروا منه! وهٰذه رتبة عالية، وإن كانت دون الأولىٰ، وهي أغلب أحوال التائبين.

المرتبة الثالثة: وهم التائبون الذين يستمرون علىٰ التوبة مدَّة من الزمن ثم ينزعون إلىٰ المعاصي وتغلبهم الشهوات، فيخلطون عملاً صالحًا وآخر سيئًا، ومع ذٰلك تؤنبهم أنفسهم علىٰ ما فرطوا، ويندمون علىٰ ما فعلوا، ويجدُّون في قهر أنفسهم، لٰكنَّما يغريهم التسويف في التوبة وطول الأمل، وهٰؤلاء علىٰ جانب عظيم من الخطورة لاحتمال أن يوافيهم الأجل فيموتوا قبل أن يتوبوا فيندموا ساعةَ لا ينفع الندم.

المرتبة الرابعة: وهم التائبون الذين استقاموا علىٰ التوبة مدَّة ثم مالت أنفسهم الأمارة بالسوء إلىٰ الطبيعة البدنية، وأغوتهم بالشَّهوات الحسية، فواقعوا الذنب دون أن يحدِّثوا أنفسهم بالتوبة، وهٰؤلاء يخشىٰ عليهم سوء الخاتمة، إن هم تبعوا هوىٰ أنفسهم وانقادوا لها غافلين عن المصير المحتوم[1].

---

(١) انظر: التوبة إلىٰ الله للدكتور صالح السدلان (٧٠، ٧١).

عناية القرآن الكريم بالتوبة وأمثلة علىٰ ذٰلك:

لقد أولىٰ القرآن الكريم موضوع التوبة أهمية كبرىٰ حيث ورد ذكرها في سبعة وأربعين موضعًا منه، وفي ذٰلك دلالة بينة على منزلة التوبة من الدين. ومن الأمثلة على ذلك:

١ـ أنَّ قبول التوبة من صفات الرحمن سبحانه وتعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

٢ـ التوبة من صفة الأنبياء وصالحي المؤمنين قال تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة: ١١٢].

٣ـ التوبة من الكفر أو النفاق لا تكون إلاَّ بالإيمان الصادق: قال تعالىٰ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء: ١٨].

٤ـ جزاء التوبة حب الله تعالىٰ ومغفرته والفلاح وتبديل السيئات إلىٰ حسنات والفوز بالجنات، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم: ٨].

٥ـ أنَّ التوبة من مظاهر رحمته تعالىٰ لعباده، قال الله تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء: ٢٦].

٦ـ دعوة الأنبياء السابقين عليهم السلام لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟

مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود: ٥٢].

عناية السنة النبوية بالتوبة:

إنَّ من أسماء الرسول ﷺ نبي التوبة، كما في حديث أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يسمىٰ نفسه أسماء فقال: «**أنا محمَّد وأحمد، والمقفىٰ، والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة**»[١]. ومعنىٰ ذلك أنَّه جاء بالتوبة. فلا عجب إذن إذا كان قد أولىٰ النبي ﷺ موضوع التوبة اهتمامًا خاصًا ومن ذٰلك علىٰ سبيل التمثيل لا الحصر:

١ـ حرص النبي ﷺ علىٰ توبة الناس:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قالت قريش للنبي ﷺ: «**ادع ربك يصبح لنا الصفا ذهبة فإن أصبحت ذهبة اتبعناك، وعرفنا أنَّ ما قلت كما قلت فسأل ربه عزَّوجل، فأتاه جبريل فقال: إن شئت أصبحت لهم الصفا ذهبة، فمن كفر منهم بعد ذٰلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحنا لهم أبواب التوبة، قال: يا رب لا بل افتح لهم أبواب التوبة**»[٢].

٢ـ فرح الله تعالىٰ بتوبة عبده:

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتىٰ اشتدَّ عليه الحرُّ والعطش، أو ما شاء الله، قال: أَرْجِعُ إلىٰ مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده**»[٣].

٣ـ فضل التوبة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أخطأتم حتىٰ تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم لتاب عليكم**»[٤].

---

(١) صحيح مسلم (٢/١٨٢٨)(٢٣٥٥).

(٢) مسند أحمد (١/٥٦٨) (٣٢١٣)، وصحح أحمد شاكر، إسناده (٥/٧٨) (٣٢٢٣)، والحاكم (٤/٢٤٠) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذَّهبي وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٩٦) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) صحيح البخاري (٥/٢٣٢٤) (٥٩٤٩).

(٤) سنن ابن ماجه (٢/١٤١٩) (٤٢٤٨)، وقال البوصيري في الزوائد: هٰذا إسناد حسن، وشيخ ابن ماجه مختلف فيه وباقي رجاله ثقات، وقال العراقي في تخريج الإحياء =

٤ـ خطر من مات علىٰ غير التوبة:

عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ حدث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»**(١).

٥ـ المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في التوبة.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّة»**(٢).

التوبة صفة المحسنين من الأنبياء والمرسلين وغيرهم:

ومن أولـٰئك المحسنين الموصوفين بالتوبة نبي الله موسىٰ ـ عليه السلام ـ قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص، الآية: ١٦] وهـٰذا نبينا محمَّد ﷺ يكثر التوبة وهو إمام المحسنين كما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»**(٣).

وقد أمر الله عباد المتقين بالاستغفار لتتحقق فيهم مرتبة الإحسان فقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٣، ١٣٤].

تحقيق مرتبة الإحسان في صفة التوبة:

كل من رجع إلىٰ الله تعالىٰ مقلعًا عن الذنوب صغيرها وكبيرها نادمًا علىٰ ترك المأمور وارتكاب المحظور عازمًا علىٰ عدم العود مرة ثانية ورد الحقوق إلىٰ أهلها خوف العقاب، وطمعًا في الثواب، ومراعاة لأمر رب الأرباب حتى لم تعد تلك الذنوب تخطر علىٰ قلبه ولا ترد بباله أصلاً ثم استقبل عملاً صالحًا وكان حال توبته قولاً وعملاً وكأنَّه شاهد ربه والرب فرحٌ بتوبة عبده والعبد مغمور بالحياء، يطلبه الغفران، والعفو والسداد فإنَّه المحسن في توبته إلىٰ ربه.

= (١٣/٤) إسناده حسن وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٩٠) وقال: رواه ابن ماجه بإسناد جيد.

(١) صحيح مسلم (٦٤٤١) (٩٣٤).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٣٢٤) (٥٩٤٨).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (١١/ ١٠١) (٦٣٠٧).

المبحث الثالث
المنافسة، والمجاهدة، والصبر، والدعاء

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: **المنافسة**

المطلب الثاني: **المجاهدة**

المطلب الثالث: **الصبر**

المطلب الرابع: **الدعاء**

المطلب الأول
المنافسة

إنَّ للحق رجالاً أوفياء أقوياء بررة، جعلهم الله ذخرًا للمسلمين، وعدَّة للدين استرخصوا كل غال ونفيسٍ في الذب عنه، والذود عن حياضه، لأنَّهم عرفوا أنَّه غاية وجودهم، وسبب سعادتهم، فأخذوه جملة واحدة، لم تشغلهم طاعة عن طاعة ولا جهاد عن جهاد يراوحون بين أقدامهم إلاَّ أنَّ النَّاهين منهم أبصروا شرفات عالية، وقممًا سامقة، هي أعلىٰ مراتب الدين، فاعتركوا من أجلها يتغالبون، وانفلتوا سراعًا يتسابقون، وهي تتلألأ لهم كأحسن كوكب دري غابر في الأفق، وناداهم الشرع وفي ذٰلك فليتنافس المتنافسون، إنَّها معركة الشرفاء، أهل الهمم العليَّةِ، والعزائم القويَّة، والنفوس الأبيَّةِ، إنَّهم الرجال الصُبَّر، لله درهم كأني بهم في المضمار يتسابقون، والعجيب أنَّهم إخوة متحابون، كلما حال بينهم حائل استبقوا السلام كأنهم الساعة يتقابلون، حتىٰ إذا فاز السابقون طفقوا جميعًا له مهنئون. فما هي المنافسة وما مفرداتها؟

التعريف:

تعريف المنافسة لغة:

أصل التنافس التغالب في الشيء النفيس، وأصله من النفس لعزتها، قال الواحدي: نفست الشيء أنفسه نفاسة ، والتنافس تفاعل منه كأنَّ كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به، وقال البغوي: أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه، ويقال نفست عليه، بالشيء أنفس نفاسة إذا بخلت به عليه[1].

وقال الجوهري: ونافَسْتُ في الشيء مُنَافَسَةً ونِفاسًا، إذا رغبت فيه علىٰ وجه المباراة في الكرم وتنافسوا فيه، أي رغبوا[2].

وقال ابن فارس: التنافس أن يبرز كل واحد من المبارزين قوَّة نفْسه[3].

قال الراغب: والمنافسة مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم من غير ادخال ضرر علىٰ غيره[4].

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٣٠/ ٧٦).

(٢) الصحاح (٣/ ٩٨٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة (١٠٤١).

(٤) المفردات (٥٢٣).

وقال ابن منظور: «تنافسْنَا ذٰلك الأمر وتنافسنا فيه: تحاسدنا وتسابقنا... و المنافسة: الرغبة في الشيء والانفراد به»[1].

اصطلاحًا:

إظهار قوَّة النفس، ومجاهدتها، ورغبتها في المشاركة في الفضائل أو المغالبة للاستئثار بها، من غير إدخال ضرر علىٰ الغير.

أقسام الفضائل:

الفضائل بالنسبة لعامليها تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: موسع بحيث يسع أكثر من عامل في زمن واحد أو مكان واحد.

ومثاله: فضيلة الدعاء.

فهـٰذِه الفضيلة لو اجتمع لها مَنْ بأقطار الأرض جميعًا من الإنس والجن في زمن واحد، أو مكان واحد لوسعتهم.

دلَّ علىٰ ذٰلك حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبي ﷺ فيماروىٰ عن ربه تبارك وتعالىٰ أنَّه قال: «... **يا عبادي لوأنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، مانقص ذٰلك مما عندي إلاَّ كما ينقص المِخْيط**[2] **إذا أُدخل البحر**..»[3]..

والمنافسة في هـٰذه الفضيلة تكون بإظهار قوَّة النفس ومجاهدتها، ورغبتها في المشاركة.

القسم الثاني: مضيق بحيث لا يتَّسع لأكثر من عامل في زمن واحد أو مكان واحد.

ومثاله: فضيلة الأذان، أو الصلاة في الصف الأول، فإنَّ الأذان لا يمكن أن يؤديه أكثر من واحد لصلاة واحدة في مكان واحد، وكذا الصلاة في الصف الأول إذا لم يكن إلاَّ فرجة لا تتسع لأكثر من واحد.

دلَّ علىٰ ذٰلك حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلاَّ أن يستهموا عليه لاستهموا**[4]**، ولو يعلمون ما في التهجير لا ستبقوا ولو يعلمون مافي العتمة**[5] **والصبح، لأتوهما ولو حَبْوًا**»[6].

---

(١) اللسان (٦/ ٢٣٨).

(٢) المِخيطُ، بالكسر الإبرة، النهاية (٢/ ٩٢).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٩٩٥)، (٢٥٧٧).

(٤) الاستهام: الاقتراع، انظر: النهاية (٢/ ٤٢٩).

(٥) العتمة: المراد بها هنا صلاة العشاء، انظر: النهاية (٣٦/ ١٨٠).

(٦) صحيح البخاري (١/ ٢٢) (٥٩٠).

ووجه المنافسة هنا: إظهار قوّة النفس، ومجاهدتها ورغبتها في المغالبة للاستئثار بهٰذه الفضيلة، من غير إدخال ضرر علىٰ الغير.

والمنافسة وإن كانت وسيلة لغايات حميدة إلاَّ أنَّها عمل يؤجر عليه الإنسان وإن لم تحصل له تلك الغايات أو بعضها لأنَّ فيها نوعًا من صدق النية.

الفرق بين المنافسة وبعض المصطلحات المشابهة لها:

١ـ المسارعة في الخيرات، وهي المبادرة إلىٰ الطاعات والسبق إليها والاستعجال في أدائها وعدم الإبطاء فيها أو تأخيرها[١].

والفرق بينهما، أنَّ المُنافسة فيها أكثر من طرف كأنَّ كل واحد يريد أن يشارك في فضيلة أو يغلب عليها.

وأما المسارعة فليس فيها إلاَّ طرف واحد يريد أن يبادر إلىٰ الفضيلة ويستعجل في أدائها، إلاَّ أنَّ هناك وجه اتفاق وهو أنَّ كلاً من المصطلحين فيه السبق والمبادرة والاستعجال.

٢ـ المجاهدة:

محاربة النفس الأمَّارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع[٢].

والفرق بينهما: أنَّ المنافسة مغالبة أهل الحق علىٰ المشاركة في الفضائل أو الاستئثار بها من غير إلحاق ضرر بالغير، أما المجاهدة فهي مغالبة أهل الباطل لدفع ضررهم عمَّا هو مطلوب شرعًا، سواء كان أهل الباطل العدو الظاهر أم العدو الباطن وهو الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، إلاَّ أنَّ هناك وجه اتفاق وهو أنَّ كلاً من المصطلحين فيه معنىٰ المغالبة. ٣ـ الحسد: وهو قسمان.

أحدهما: الحسد المذموم، وهو تمني زوال نعمة من مستحق لها وربما كان مع ذٰلك سَعْيٌ في إزالتها[٣]. وهذا الحسد صفة المنافق، وقد أمرنا أن نستعيذ بالله من شر الحاسد، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥].

الثاني: حسد الغبطة: وهو تمني الإنسان أن يكون له مثل الذي لغيره من غير إرادة إذهاب ما لغيره، أما الحسد المذموم فهو إرادة زوال نعمة

---

(١) نضرة النعيم (٧/ ٣٣٨٨).

(٢) التعريفات للجرجاني (٢٠٤).

(٣) المفردات، للراغب (١١٦).

الغير[1].

والفرق بين المنافسة والحسد: أنَّ المنافسة ليس فيها إلحاق ضرر بالغير، والحسد المذموم: مصروف إلىٰ الضرر، لأنَّ غايته أن يعدم الأفاضل فضلهم، سواء عاد الفضل له أم لا، فالمنافسة إذا فضيلة لأنَّها داعية إلىٰ اكتساب الفضائل والاقتداء بأخيار الأفاضل.

وأما حسد الغبطة، فإنَّه يتَّفق مع المنافسة في رغبة المشاركة في الفضائل، ويفترقان في الاستئثار بالفضيلة فمن خصائص المنافسة الشريفة ألا يلحق الغير ضرر فإن لحقه ضرر عاد إلىٰ الحسد المذموم، وقد غلط أقوام من المسلمين فظنوا أنَّ المنافسة في الطاعات هي عين الحسد المذموم فتركوا مشاركة أهل الفضائل أو مسابقتهم إلىٰ ما لا يسع إلاَّ واحدًا منهم[2].

مشروعية المنافسة:

المنافسة في الطاعات والقربات مشروعة بالكتاب والسنة كما قال تعالىٰ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: ٢٦].

قال البغوي: أي فليرغب الراغبون بالمبادرة إلىٰ طاعة الله عزَّوجل.

وقال مجاهد: فليعمل العاملون نظيره قوله تعالىٰ: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾ [الصافات: ٦١] وقال مقاتل ابن سليمان: فليتنازع المتنازعون، وقال عطاء فليستبق المستبقون[3].

وأما من السنة:

فدليله حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ السابق في الاستهام علىٰ النداء والصف الأول.

والثاني: حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلَّطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**»[4].

والمقصود بالحسد هنا حسد الغبطة.

صفات المنافس:

للمنافس صفات عدة أهمها:

١ـ الإخلاص: وهو أن يقصد بعمله هـٰذا وجه الله تعالىٰ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ

---

(١) انظر: الكليات للكفوي (٢٤٢).
(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (٢٦١)، بتصرف شديد.
(٣) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٣٤٠).
(٤) صحيح مسلم (١/ ٥٥٩) (٨١٦).

دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥] فمن لم يخلص فلا أجر له فلا يتعب.

٢ـ العلم بشرعية المتنافس فيه لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمَّد: ١٩] وبوَّب البخاري ـ رحمه الله ـ علىٰ هٰذه الآية فقال: باب: العلم قبل القول والعمل.

بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم[١].

٣ـ رجاحة العقل.

لأنَّ خفيف العقل إن نافس طاشت نفسه، وأصابه الكبر والعجب برأيه وقدرته، ينظر لغيره بعين التحقير والازدراء فكان كمن توضأ ثم تلطخ بالنجاسة.

٤ـ شرف النفس:

فإنَّ به يكون قبول المنافسة في الإحسان ، لأنَّ النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة، لأنَّهاعليه غير مطبوعة، وله غير ملائمة، فتصير منه أنفر، ولضده الملائم آثر، وقد قيل: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه! وإذا شرفت النفس كانت للمحاسن طالبة، وفي الفضائل راغبة، فإذا مازجها صارت طبعًا ملائمًا[٢].

٥ـ علو الهمة: وهو استصغار ما دون مرتبة الإحسان من معالي الأمور[٣].

لأنَّه باعث التقدم وداع إلىٰ المغالبة، أنفة من خمول الضَّعة، واستنكارًا لمهانة النقص[٢].

فعن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع النبي ﷺ يقول: «**إنَّ الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سَفْسَافَها**»[٤].

والسَفَاسِفُ: جمع سِفْسَاف، وهو الرديء من كل شيء، والأمر الحقير[٥].

قال بعض الحكماء: الهمة راية الجدِّ، وقال بعض البلغاء علو الهمَم، ما بذر النِّعم[٦].

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٧).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (٣٠٧).

(٣) انظر: وسائل الإصلاح للخضر حسين (٥٧).

(٤) مستدرك الحاكم(١/ ١١١) (١٥١)، وقال: هٰذا حديث صحيح الإسناد، وقال المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٥١)، قال الحافظ العراقي إسناده صحيح.

(٥) الصحاح للجوهري (٤/ ١٣٧٥).

(٦) أدب الدنيا والدين للماوردي (٣٠٧).

ومما جُبل عليه الحُرُّ الكريم، أن لايقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له، أملاً فيما هو أسنىٰ منه وأرفع منزلة، ولذٰلك قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ لدُكين الراجز، إنَّ لي نفسًا تواقة، فإذا بلغك أني صرت إلىٰ أشرف من منزلتي هٰذه، فبعينٍ ما أُرينَّك قال له ذٰلك وهو عامل المدينة لسليمان بن عبدالملك فلما صارت إليه الخلافة قدِم عليه دُكَيْنٌ، فقال له: أنا كما أعلمتك أنَّ لي نفسًا توَّاقة، وأنَّ نفسي تاقت إلىٰ أشرف منازل الدنيا، فلما بلغتها وجدتها تتوق لأشرف منازل الآخرة[1]

وقد لحظ المتنبي ذٰلك فقال:

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مُرادها الأجسام[2]

ولله در القائل:

همتي كبرىٰ ونفسي حرَّة   تتسامىٰ فوق كل الهمم

يارعاني الله حقًا إنَّني   لم أعش وغدًا دسيس الأجَمِ

فأما من مُنِي بعدم علوالهمَّة، وسُلب شرف النفس، فقد صار عرضة لأمر أعوزته آلته، وأفسدته جهالته، فصار كأخرس يريد الخُطبة، فلا يزيده الاجتهاد إلاَّ عجزًا، والطلب إلاَّ عوزًا، وصاحبها بمثابة الفارس الشجاع علىٰ الفرس السقيم، يريد التقدم ويأبىٰ الفرس.

وأما شرف النفس إذا تجرَّد عن علو الهمة، فإنَّ صاحبها يكون من الإحسان عاريًا، وفي القَدْر ساقطًا، وهو كالقوَّة في الجَلْدِ الكَسِلِ، والجبان الفشل، تضيع قوَّته بكسله، وجلدُه بفشله، أو كالفرس الكميت عند الفارس الجبان يريد الفرسُ التقدمَ ويأبىٰ الفارسُ[3].

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من العجز والكسل.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل فكنتُ أسمعه كثيرًا يقول: «اللَّهمَّ إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال»[4].

ولٰكنَّ شرَّف النفس مع صغر الهمة أولىٰ ، من علو الهمَّة مع دناءة النفس، لأنَّ من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديًا إلىٰ طلب ما لا يستحقه، ومتخطيًا إلىٰ التماس ما لا يستوجبه، وَمَنْ شَرُفَتْ نفسه مع صغر همته، فهو تارك لما يستحق، ومقصِّر عما يجب له، وفضل ما بين الأمرين

---

(١) وسائل الإصلاح للخضرحسين (٨٥، ٩٥) باختصار.

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (٣٠٧).

(٣) أدب الدنيا والدِّين (٣٠٧) بتصرف شديد.

(٤) صحيح البخاري (٣/١٠٥٩) (٢٧٣٦)، كتاب الجهاد، باب من غزا بصبي للخدمة.

ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب[1].

٦ـ الصبر:

والمراد بها هنا تصبير النفس علىٰ ما تقتضيه المنافسة إذ أنَّ معالي الأمور وعرةُ المسالك، محفوفة بالمكاره، والإحسان أرفع مقام تطمح إليه الهمم، وأشرف غاية يتسابق إليها المشمرون، فلا يخلص إليه الطالب دون أن يقاسي الشدائد، ويتحمَّل المتاعب[2]، من التكلف والمجاهدة حتىٰ تنال معالي الأمور، لأنَّ من لم يتصبَّر انقطع في وسط الطريق وعاد خائبًا خاليًا من الفضائل قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وسيأتي الحديث مفصلاً عن الصبر قريبًا إن شاء الله.

صفة المنافس فيه:

وهي واحدة: أن يكون الأمر المتنافس عليه من معالي الأمور، فأما من بارى الناس في المكروه أو المحرم فإنَّ ذٰلك دليل علىٰ خسة نفسه وسقوط همته، وما مثل من بَارَى لبطنه وفرجه إلاَّ كمثل الخنزير من الحيوانات يمر علىٰ الطيبات فلا يلوي عليها ثم يذهب إلىٰ الجيف يتقممها.

وسائل المنافسة الموصلة لها:

١ـ القدوة الحسنة.

٢ـ النظر في عواقب المنافسة من نباهة الذكر والسؤدد، والكمال والتلذذ بالنعيم.

٣ـ قراءة التأريخ والنظر في سير أعاظم الرجال من الأنبياء والصحابة ومشاهير التابعين ومن سار علىٰ سننهم[3].

آداب المنافسة:

آداب المنافسة عديدة أهمها:

١ـ حسن المعاشرة.

٢ـ الحلم والعفو.

٣ـ التواضع ولين الجانب.

ثمرات المنافسة:

١ـ تحقيق الرجولة وكمال البطولة.

---

(١) انظر: نضرة النعيم (٧/ ٢٩٨٤)، بتصرف.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: نضرة النعيم (٧/ ٢٩٨٦) بتصرف.

٢ـ الوصول إلىٰ محبة الله ومحبة أهل الصلاح.
٣ـ الفوز بأعلىٰ مراتب الدين.
٤ـ حماية جانب الدين.
٥ـ السعادة في الدنيا والآخرة[1].

---

(١) انظر: المرجع السابق (٧/ ٣٠٠٩) بتصرف.

المطلب الثاني
المجاهدة

إنَّ العاقل ليرىٰ المحسنين وما هم فيه من رفعة الإحسان، وما حازوه، من قصب السبق، وشرف العبادة والقرب من الله تعالىٰ، فيتألم لحاله أشد الألم، متمنيًا أن يكون معهم مستويًا في الصف، القدم بالقدم، والمنكب بالمنكب، والساق بالساق، فلا يسعه السكون والراحة، وفيه عين تطرف، فينفتل يُضَمِّر خيله، ويُبْرِي نبله، ثم يلبس لأمته، ينادىٰ نفسه المطمئنة ياخيل الله اركبي، هـٰذا مكان المجاهدة، فيُبلىٰ بلاء من تيقن أنَّ الفلاح مع كوكبة الإحسان الطاهرة، إلاَّ أنَّ وعورة الطريق، وطول الزمن، وما يعرض له فيهما من الصور الخاطفة للبصر، وتخويف الشيطان له وما ناله من رماح النفس الأمَّارة بالسوء، فتَّ من عضده، وفلَّ قوّته، وأخره عن الركب، فما يلبث أن يستجيب لداعي الراحة والسكون، ويولي الدبر، ويرضىٰ من الغنيمة بالإياب، وهي الهلكة، فإن وفَّقه الله وفاء للمجاهدة مرَّة ثانية وانحاز إلىٰ فئة المؤمنين المجاهدين وعاود الكرَّة مرَّة بعد مرَّة، فما هي إلاَّ ساعة وإذ ببيارق النصر تلوح بالظفر، وسرعان ما تنهزم فلول نفسه الأمَّارة بالسوء، والشيطان وَتَسْتقبلُه نفسه المطمئنة بالبشر والسرور، تضمد جراحه، وتريحه ساعة، ثم تأخذ بيده حتى يقف علىٰ سده الإحسان مع المحسنين.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمَّد: ٧] قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

تعريف مجاهدة النفس:

أولاً: التعريف مفردًا:

المجاهدة لغة: مصدر جاهد يجاهد جهادًا ومجاهدةً، وهو مأخوذ من مادة (ج هـ د) التي تدل علىٰ «المشقة»[(١)].

قال ابن منظور: الجَهْدُ والجُهْدُ: الطاقة والمشقة وبذل الوسع، مصدرٌ مِنْ جَهِدَ، والمُجاهدة مصدر جَاهَدَ[(٢)].

المجاهدة اصطلاحًا: الجهاد يقصد به في الشريعة الإسلامية ثلاثة أمور:

الأول: جهاد النفس: قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «أوَّل ما تنكرونَ من

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ١٣٣، ١٣٥)، والصحاح للجوهري (٢/ ٤٦٠).
(٢) لسان العرب (١/ ٤٨٦).

جهادكم أنفسكم»[1].

الثاني: جهاد الشيطان: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

الثالث: جهاد الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [التوبة: ٤١].

والأول والثاني: هو المقصود هنا، فالنفس بطبيعتها تميل إلىٰ الدعة والراحة والسكون وحب الشهوات قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف: ٥٣] والشيطان وقف للإنسان بكل مرصد اتخذ النفس الأمارة بالسوء مركبًا وسلاحًا يقاتل به، فبها يَغْلِبُ وبفقدها ينهزم فجهادها جهاد له، ولها، فكل باطل دخل علىٰ العبد فإنَّه من بابها وبأسبابها، وقبل التعريف بمجاهدة النفس تعريفًا مركبًا لا بد من تعريف النفس مفردة.

تعريف النفس لغة: تأتي النفس في اللغة علىٰ عدَّة معانٍ.

منها: الروح، والجسد والعين، وواحد الأنفاس، والسعة، والدم، والأخ، والغيث، والعظمة، والكبر، والعزة، والهمة، وعين الشيء وكنهه وجوهره، والأنفة، إلىٰ غير ذٰلك[2].

النفس اصطلاحًا:

هي شيء لطيف حامل لقوّة الحياة والحس والحركة الإرادية[3]. وأما حقيقة الروح، وكيفيتها فلا يعلمها إلاَّ الله تعالىٰ، كما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

أنواع الأنفس:

١ـ النفس الأمارة: وهي التي تميل إلىٰ الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشّهوات الحسية، وتجذب القلب إلىٰ الجهة السفلية، فهي مأوىٰ الشر، ومنبع الأخلاق الذميمة وهي النفس التي يجب مجاهدتها، قال تعالىٰ حكاية علىٰ لسان امرأة العزيز: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف: ٥٣].

٢ـ النفس اللوامة: وهي التي تنوَّرت بنور القلب قدر ما تنبهت به عن سِنَةِ الغفلة، وكلَّما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها أخذت تلوم نفسها قال

---

(١) جامع العلوم والحكم (١٧١).

(٢) انظر: الصحاح (٣/ ٩٨٤)، ومقاييس اللغة (٥/ ٤٦٠)، ولسان العرب (٦/ ٢٣٢، ٢٣٧).

(٣) التعريفات للجرجاني (٢٤٢) بتصرف.

تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة: ٢].

٣ـ النفس المطمئنة: وهي التي تمَّ تنوُّرُهَا بنور القلب حتىٰ انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة[١] قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

ثانيًا: التعريف مركبًا «مجاهدة النفس».

هي محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع[٢].

قال المناوي ـ رحمه الله ـ: وقيل: «المجاهدة» هي حمل النفس علىٰ المشاق البدنية ومخالفة الهوىٰ، وقيل: هي بذل المستطاع في أمر المطاع «أي المولىٰ عزَّوجل»[٣].

منزلة مجاهدة النفس

قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وعن فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المجاهد من جاهد نفسه**»[٤] ويخطيء كثير من الناس عندما يظن أنَّ جهاد الأعداء أعظم منزلة من جهاد النفس، وسبب خطئه ما رُتب علىٰ جهاد الأعداء من الأجر وما يلحق بعدمه، من الخراب في الديار والمال والأنفس وهٰذا صحيح. إلاَّ أنَّ هٰذه مزية لا تقتضي الأفضلية إذ أنَّ جهاد الأعداء مترتب علىٰ جهاد النفس فكيف يجاهد العدو الظاهر من لم يجاهد العدو الباطن.

قال إبراهيم بن علقمة: لقوم جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب[٥].

قال عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وقد سأله رجل عن الجهاد فقال له: «ابدأ نفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها»[٦].

---

(١) التعريفات للجرجاني (٢٤٣)، بإجاز وتصرف يسير.

(٢) التعريفات للجرجاني (٢٠٤).

(٣) التوقيف (٢٩٧).

(٤) سنن الترمذي (٤/ ١٦٥) (١٦٢١)، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٣٢) (١٣٢٢).

(٥) تهذيب الكمال للمزي(٢/ ١٤٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٣٢٥).

(٦) المرجع السابق.

قال الشاعر:

يامن يجاهد غازيًا أعداء ديـ ـن الله يـرجـو أن يعـان وينصـرا
هلا غشيت النفس غزوا إنَّها أعـدىٰ عـدوك كـي تفـوز وتظفـر
مهما عنيت جهادها وعنادها فلقـد تعـاطيـت الجهـاد الأكبـر[1]

وهـٰذا لا يعني ترك جهاد الأعداء أو الزهد فيه وإنما المقصود أنَّ جهاد النفس سابق علىٰ جهاد الأعداء ومقدم عليه.

مواطن مجاهدة النفس:

تقع المجاهدة للنفس بمنعها عن المعاصي، والشبهات، وعدم الإكثار من الشهوات لئلا تعتاد الإكثار فتألفه فيجرَّه إلىٰ الشُّبهات فلا يأمن أن يقع في الحرام، وبإلزامها بالطاعات فالمجاهدة تقع بحسب هـٰذين النوعين، فإن كانت مرتكبة للمحذورات تجاهد بتركها، وإن كانت تاركة للمأمورات تجاهد بفعلها.

مراتب مجاهدة النفس:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: جهاد النفس على أربع مراتب:

الأولىٰ: مجاهدتها علىٰ تعلم الهدىٰ ودين الحق،

الثانية: مجاهدتها علىٰ العمل به بعد علمه.

الثالثة: مجاهدتها علىٰ الدعوة إلىٰ الحق.

الرابعة: مجاهدتها علىٰ الصبر علىٰ مشاق الدعوة إلىٰ الله وأذى الخلق، ويتحمل ذٰلك كله لله.

فإذا استكمل «المسلم» هـٰذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإنَّ السلف مجمعون علىٰ أنَّ العالم لا يستحق أن يسمىٰ ربانيًا حتىٰ يعرف الحق ويعمل به، ويعلِّمه، فمن علم وعمل وعلَّم فذاك يدعىٰ عظيمًا في ملكوت السماوات[2].

أساليب الشيطان في إغواء الإنسان:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

عن سبرة بن أبي فاكه ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقِهِ، قعد في طريق الإسلام فقال: تُسْلِمُ وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه وأسلم، وقعد له بطريق الهجرة، فقال: تُهاجر وتذر أرضك وسماءَك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الغرس في

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٢/ ٤٠٢).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٠ ـ ١١) بتصرف.

الطِّوَلِ[1] فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد؟ فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتُقْتل، فتُنكحُ المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد، قال رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذٰلك كان حقا علىٰ الله أن يدخله الجنَّة، وإن غرق كان حقًّا علىٰ الله أن يدخله الجنَّة، أو وقصته دابته كان حقًّا علىٰ الله أن يدخله الجنة**»[2].

أـ الأساليب الشيطانية الخاصة بإغواء العوام:

أولاً: إلقاء الشبه والشك الموصلة للكفر والشرك.

ثانيًا: تحسين المحرَّمات وفتح باب الشهوات.

ثالثًا: يرتع به في المشتبِهات في الحل والحرمة.

رابعًا: الإغراق في المباحات.

ومعنىٰ هٰذا أنَّه قبحه الله، يبدأ الإنسان بالأولىٰ، فإن أجاب دخلت غيرها تبعًا، فإن لم يستجب الإنسان واستعصم، حسن له المحرَّمات وفتح له باب الشَّهوات شيئًا فشيئًا، حتىٰ يسهل عليه نقله إلىٰ المرتبة الأولىٰ، فإن أبىٰ واستعصم رتع به في المشتبهات في الحل والحرمة، فإن أجاب سهل عليه نقله إلىٰ المرتبة الثانية، فإن استعصم أغرقه في بحر المباحات التي بدورها تأكل الوقت وتذهب بالجهد الذي كان الأولىٰ استغلاله في فعل الطاعات فإن أجابه سهل عليه نقله للمرتبة الثالثة، وهٰكذا يتدرج به في غير يأس مثابرًا ليلا نهار حتىٰ يظفر منه بمرتبة أعلىٰ في الإغواء. فإن لم ينجح ورأىٰ أنَّ الإنسان مستعصم بدينه خرج بأساليب أخر أكثر مكرًا ودهاءً.

ب الأساليب الشيطانية الخاصة بإغواء العُبَّاد:

١ـ إن كان العبد نشطًا في الطاعة كسله إن استطاع كسله.

٢ـ فإن لم يستطع أدخل عليه العجب ورؤية العمل.

٣ـ فإن لم يستطع فتح عليه باب التشدد والتقطع والغلو في الدين.

فإن لم يستطع أيقن أنَّ هٰذا العبد من المخلصين لرب العالمين، مع عدم اليأس من المحاولة مرَّة ثانية.

أساليب النفس البشرية في الإغواء:

١ـ محاولة التمرد من النجاح وعلىٰ المأمورات بتركها.

٢ـ محاولة التمرد علىٰ المنهيات بفعلها.

٣ـ محاولة الإكثار من الشَّهوات.

---

(١) الطِّول: الحبل، النهاية (٣/ ١٤٥).

(٢) سنن النسائي (٦/ ٢١، ٢٢) (٣١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٩) (١٦٥٢).

٤ـ محاولة الانهماك في المباحات.

والفرق بين أساليب الشيطان وأساليب النفس الأمارة بالسوء في الإغواء:

أولاً: موطن الاتفاق:

١ـ أنَّ النفس لها ميل إلىٰ الشَّهوات والإكثار من المباحات، والشيطان معين لها علىٰ ذٰلك.

٢ـ أنَّ النفس تغفل عن ما يراد بها والشيطان يصرفها عن اليقظة والانتباه ويسكرها بالشهوات.

ثانيًا: موطن الاختلاف:

١ـ أنَّ الشيطان يستقل بالشبهات ويجتهد في إلقائها.

٢ـ أنَّ النفس ليست هي الباعث للشبهات وإنما مستجيبة لها في حال جهلها.

كيفية مجاهدة النفس:

قال عمر بن بجيدٍ ـ رحمه الله ـ من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه[1]

قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]

ولا شكَّ أنَّ كلاً من النفس المطمئنة واللوامة، لا يصدر عنهما إلاَّ الأخلاق الحميدة.

فعن النفس الأولىٰ يكون اليقين والطمأنينة والخشوع والإخبات ونحو ذٰلك من الصفات الحميدة، وأما النفس اللوامة فإنَّها مبعث التوبة والاستغفار والإنابة ونحوها، ولا يبقىٰ سوىٰ النفس الأمارة بالسوء، وهي منبع الشرور وأساس الأخلاق الذميمة، من الحسد، والكبر، والغضب، والعدوان، ونحو ذلك.

وهٰذه النفس قوية جدًا متىٰ لم يقهرها الإنسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه وانقاد لها فكان بالبهائم أشبه منه بالإنسان ومتىٰ كان كذٰلك اتَّصف بالفجور وغلب عليه اللَّهو واللعب وارتكب الفواحش[2] أو اتَّصف بصفات السباع من الغضب والطيش والحقد والانتقام والبطش، وغيرها أو انقاد لها واتَّصف بصفات الشيطان مثل الحسد والحيلة والخبث والمكر، ونحو ذٰلك. أو انقاد لها حتىٰ أصبح ينازع الله تعالىٰ في صفاته مثل: الكبر، والعظمة وغيرهما.

وتمام المجاهدة أن يكون متيقظا لنفسه في جميع أحواله، فإنَّه متىٰ

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/٣٣٨).

(٢) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ (١٥ ـ ٢٠) بتصرف واختصار.

غفل عن ذٰلك استهواه شيطانه ونفسه إلىٰ الوقوع في المنهيات[1].

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ قد اتَّفق العلماء علىٰ أن لا طريق إلىٰ سعادة الآخر إلاَّ بنهي النفس عن الهوىٰ ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهٰذا واجب، وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلاَّ بطريق الشرع، وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله، والأصل فيه أن يترك كل واحدٍ ما به فرحة من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال، أو الجاه، أو بالقبول في الوعظ، أو بالعز في القضاء والولاية، أو بكثرة الاتباع في التدريس والإفادة، فينبغي أن يترك أولاً ما به فرحه، فإنَّه إن منع عن شيء من ذٰلك وقيل له: ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع، فكَرِهَ ذٰلك وتألَّم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأنَّ بها، وذلك مُهْلِكٌ في حقه، ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس، ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه، حتىٰ لا يشتغل إلاَّ بذكر الله تعالىٰ والفكر فيه، وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس، حتىٰ يقمع مادته مهما ظهر، فإنَّ لكل وسوسة سببًا، ولا تزول إلاَّ بقطع ذٰلك السبب، والعلاقة، وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلاَّ بالموت.[2]

هنا ينبغي أن يعلم المجاهد لنفسه أنَّه متىٰ أخذ بأسباب المجاهدة وشرع في فعلها وباشر أوائل الطاعات وبادر بترك أوائل المنكرات، أخذ الله بيده وأعانه ونصره إلاَّ أنَّه يجب عليه أن يتفطن لأمر مهم جدًا وهو مسايسة النفس شيئًا فشيئًا، إذا لم يستطع فطامها بالكليَّة عما هي متعلقة به، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمَّد: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ويمكن أن نلخص طرق المجاهدة علىٰ النحو الآتي:

أولاً: يجب عليه الاعتزال عن المنكر وأهله ومكانه والتفكير فيه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠].

ثانيًا: الإقبال علىٰ فعل الطاعات مع ملازمة الذكر بتدبر قال الله تعالى في الحديث القدسي: كما روى أنس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال: « **إذا تقرَّب العبد إليَّ شبرًا، تقرَّبت إليه ذراعًا، وإذا تقرَّب منِّي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني مشيًا أتيته هرولة**»[3]

---

(١) فتح الباري (١١/٣٣٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٦٥، ٦٦).

(٣) صحيح البخاري (٦/٢٧٤١) (٧٠٩٨).

ثالثًا: تصبر النفس علىٰ جلوسها مع الصالحين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨] قال أبوبكر الصديق: ـ رضي الله عنه ـ في وصية لعمر حين استخلفه: «إنَّ أول ما أحذرك: نفسك التي بين جنبيك»[١]

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات[٢].

وقال أيضًا: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة علىٰ أربعة أوجه:

القوت من الطعام، والغمض في المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذىٰ من جميع الأنام، فيتولد من قلَّة الطعام موت الشَّهوات، ومن قلَّة المنام صفو الإرادات، ومن قلَّة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذىٰ البلوغ إلىٰ الغايات، وليس علىٰ العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء، والصبر علىٰ الأذىٰ، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جرَّدت سيوف قلَّة الطعام من غمد التهجد وقلَّة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلَّة الكلام حتىٰ تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام، وتصفيتها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها، فتصير عند ذٰلك نظيفة ونوريَّة خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطاعات كالفرس في الميدان وكالملك المتنزه في البستان[٣].

ثمرات مجاهدة النفس:

قال الراغب ـ رحمه الله ـ: طهارة النفس تتحقق بإصلاح الفكر بالتعلم حتىٰ يميز بين الحق والباطل، في الاعتقاد، وبين الصدق والكذب في المقال، وبين الجميل والقبيح في الفعال، وإصلاح الشهوة بالعفة حتىٰ تسلس بالجود، والمواساة المحمودة بقدر الطاقة، وإصلاح الحمية: بإسْلاَسِهَا حتى يحصل التحكم، وهو كف النفس عن قضاء وطر الخوف وعن الحرص المذمومين، وبإصلاح هٰذه القوىٰ الثلاث، يحصل للنفس

---

(١) جامع العلوم والحكم (١٧٢).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٧١).
(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٦٦).

العدل والإحسان[1].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

صور من المجاهدة للنفس:

عن الرسول ﷺ عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ صلَّىٰ حتىٰ انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلَّفُ هٰذا؟ وقد غفرَ الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر، فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[2].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وخرجت معه، حتىٰ إذا دخل حائطًا فسمعته يقول: وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ بخٍ، والله يا ابن الخطاب لتتقين الله، أو ليعذبنَّك»[3].

وفي السنن لسعيد بن منصور بسنده إلىٰ سعيد ابن أبي هلال: أنَّه بلغه أنَّ ابن رواحة تذكَّر شعرًا له قال: فلما التقوا أخذ الراية زيد ابن حارثة. فقاتل حتىٰ قتل، ثم أخذها جعفر، فقاتل حتىٰ قتل، ثم أخذها ابن رواحة فحاد حيدة فقال:

أقسمت يا نفسُ لتنزلنَّه ... كارهةً أو لتطاوعنَّهْ

مالي أراك تكرهين الجنَّه ... ثم نزل فقاتل حتىٰ قتل[4]

وقال سفيان الثوري: ـ رحمه الله ـ «ما عالجتُ شيئًا أشد عليَّ من نفسي، مرَّةً لي ومرَّةً عليَّ»[5] ولٰكن يا ترىٰ هل يحصل الظفر دون الصبر.

الحق أنَّ النصر مع الصبر.

قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ فقوله ﷺ: «**إنَّ النصر مع الصبر**». يشمل النصر في الجهادين جهاد العدو الظاهر، وجهاد العدو الباطن، فمن صبر فيهما نصر وظفر بعدوه، ومن لم يصبر فيهما وجزع قُهِر وصار أسيرًا لعدو وقتيلاً له»[6]، إذن غذاء المجاهد وشرابه، ونفَسَهُ الذي يعيش به هو الصبر.

---

(١) الذريعة (٣٨، ٤٨).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ٢١٧١) (٢٨١٩).

(٣) الموطأ (٢/ ٩٩٢)، وإسناده صحيح.

(٤) فتح الباري (٧/ ٥٨٤).

(٥) إحياء علوم الدين (٣/ ٧١).

(٦) جامع العلوم والحكم (١٧٢).

المطلب الثالث
الصبر

إنَّ للصبر مرارةً كالصِّبر عند تناوله، سواء بسواء، لا يطيقها إلاَّ الصابرون، لٰكنه محمود العاقبة،حليف العافية، يطرد الشبهات والشهوات عن القلب، كما يطرد الصَّبِرُ السُمُومَ عن الجسم، فهو مفتاح الفرج، وعنوان النصر، ومن صبر ساعة، استراح إلىٰ قيام الساعة، ومن يتصبر يصبره الله، أما من استجمع معه المصابرة والمرابطة، فقد أوتي قوَّة تفل الحديد، يستقيم معها القلب، وتنقاد له الجوارح، فإن صبر علىٰ كل طاعة وإن شقت، وعن كل معصية وإن دقت وعلىٰ أقدار الله المؤلمة وإن جلَّت، صَبْرَ مَنْ كأنَّه واقف بين يدي الله تعالىٰ ينظر إليه، فقد أحسن الصبر، وتأهَّل لمرتبة الإحسان.

تعريف الصبر:

الصبر لغة: مصدر صَبَرَ يَصْبُرُ وهو مأخوذ من مادة (ص ب ر) التي تدل بحسب وضع اللغة علىٰ معان ثلاثة:

الأول: الحبس، والثاني: أعالي الشيء، والثالث: جنس من الحجارة.

وقد اشتق الصبر المراد هنا من المعنىٰ الأول، وهوالحبس ، يقال صبرت نفسي علىٰ ذٰلك الأمر أي حبستها.

وقيل أصل الكلمة من الشدَّة والقوَّة ، ومنه الصَّبِر للدواء المعروف بشدة مرارته وكراهيته[(١)].

وقيل: مأخوذ من الجمع والضم، فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع.

والتَّصَبُّرُ: تكلف الصَّبر[(٢)].

الصبر اصطلاحًا:

قال الراغب: حبس النفس علىٰ ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه[(٣)].

وقيل: هو خُلُق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا

---

(١) لسان العرب (٤/٤٣٨).

(٢) الصحاح للجوهري (٢/٧٠٦، ٧٠٧)، ولسان العرب (٤/٤٣٨)، والمقاييس (٥٨٤)، «صبر».

(٣) المفردات (٢٨١).

يحسن ولا يجمل، وهو قوَّة من قوىٰ النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

وقيل: هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوىٰ، وحبس الجواح عن التشويش[1].

حقيقة الصبر:

تسخير قوَّة الإقدام والإحجام وتوجيهها إلىٰ النافع.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والنفس فيها قوتان قوَّة الإقدام وقوَّة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوَّة الإقدام مصروفة إلىٰ ما ينفعه، وقوَّة الإحجام إمساكًا عما يضره، ومن الناس من تكون قوَّة صبره علىٰ فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوىٰ من صبره عما يضره فيصبر علىٰ مشقة الطاعة، ولا صبر له عن داعي هواه إلىٰ ارتكاب ما نهىٰ الله عنه، ومنهم من تكون قوَّة صبره عن المخالفات أقوىٰ من صبره علىٰ مشقة الطاعات، ومنهم من لا صبر له علىٰ هـٰذا ولا علىٰ ذاك، وأفضل الناس أصبرهم علىٰ النوعين فكثير من الناس من يصبر علىٰ مكابدة قيام الليل في الحر والبرد وعلىٰ مشقة الصيام ولا يصبر عن نظرة محرَّمة، وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلىٰ الصور ولا صبر له علىٰ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين، بل هو أضعف شيء عن هـٰذا وأعجزه، وأكثرهم لا صبر له علىٰ واحد من الأمرين، وأقلهم أصبرهم في الموضعين[2].

من معاني الصبر:

قال الفيروز أبادي: وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمِي صبرًا، وإن كان في محاربة سمىٰ شجاعة، وإن كان في إمساك الكلام سُمِي كتمانًا، وإن كان عن شهوة الفرج سُمِيَ عفة، وإن كان عن شهوة الطعام سُمِيَ شرف نفس، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمِيَ حِلْمًا[3].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ والاسم الجامع لذٰلك كله «الصَّبْرُ» وهـٰذا يدل علىٰ ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر[4].

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (٢١٢)، ومدارج السالكين (١/ ١٦٢، ١٦٣)، وعدة الصابرين (٩).

(٢) عدة الصابرين (١٠).

(٣) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٨٣)، والمفردات للراغب (٢٨١) وعدة الصابرين (١١) والتعريفات للجرجاني (١٣١).

(٤) مدارج السالكين (٣/ ١٦٥)، وعدة الصابرين(١١).

مراتب الصبر:

قال الفيروز أبادي: مراتب الصبر خمسة: صابر، وَمُصْطَبِرٌ، ومُتَصَبِّرٌ، وَصَبُورٌ، وَصبَّارٌ، فالصَّابِرُ أَعَمُّهَا، وَالمُصْطَبِرُ: المُكْتَسِب للصبر، المُبْتَلَىٰ به.

والمُتَصَبِّرُ: متكلف الصبر حامل نَفْسِهِ عَلَيه، والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره، والصبار، الشديد الصبر فهٰذا في القَدرِ والكم، والذي قبله في الوصف والكيف[1].

وجعله ابن القيم ثلاث مراتب:

الأولىٰ: صبر بالله، وهو الاستعانة به، ورؤيته أنَّه هو المُصبِّر، وأنَّ صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

الثانية: الصبر لله: وهو أن يكون الباعث له علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه لا لإظهار قوّة النفس، والاستحماد إلىٰ الخلق، وغير ذٰلك من الأعراض.

الثالثة: الصبر مع الله: وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية.

صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها يتوجه أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلّت مضاربها.

فهٰذا معنىٰ كونه صابرًا مع الله، أي قد جعل نفسه واقفًا علىٰ أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين[2].

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «وجدنا خير عيشنا الصبر»[3].

أقسام الصبر

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام:

١ـ صبر علىٰ الأوامر والطاعات حتىٰ يؤديها.

٢ـ وصبر عن المناهي والمخالفات حتىٰ لايقع فيها.

٣ـ وصبر علىٰ الأقدار والأقضية حتىٰ لا يسخطها.

أحكام الصبر

١ـ الصبر الواجب ثلاثة أنواع:

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٧٨)، وانظر: عدة الصابرين لابن القيم (٨، ١٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٦٤).

(٣) الدرر المنثور(١/ ١٦٣).

أحدها: الصبر عن المحرَّمات.

والثاني: الصبر علىٰ أداء الواجبات.

والثالث: الصبر علىٰ المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

٢ـ الصبر المندوب:

وهو الصبر عن المكروهات، والصبر علىٰ المستحبات والصبر علىٰ مقابلة الجاني بمثل فعله.

٣ـ الصبر المحظور: وهو أنواع:

الأول: الصبر عن الطعام والشراب حتىٰ يموت.

الثاني: الصبر علىٰ [أكل] الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت.

قال طاووس وبعده الإمام أحمد: «من اضطر إلىٰ أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار»

الثالث: صبر الإنسان علىٰ ما يقصد هلاكه من سبع، أو حيَّات أو حريق، أو ماء، أو كافر يريد قتله.

الرابع: الصبر علىٰ من قصده أو حرمه بالفاحشة.

٤ـ الصبر المكروه: وله أمثلة منها:

الأول: أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتىٰ يتضرر بذٰلك بدنه.

الثاني: صبره عن جماع زوجته، إذا احتاجت إلىٰ ذٰلك ولم يتضرر به.

الثالث: صبره علىٰ المكروه.

الرابع: صبره عن فعل المستحب.

٥ـ الصبر المباح:

وهو الصبر علىٰ فعل مستوي الطرفين فيما خُير بين فعله وتركه والصبر عليه.

وبالجملة: فالصبر علىٰ الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام، والصبر علىٰ المستحب مستحب وعنه مكروه ، والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح[1].

تفاوت درجات الصبر:

الصبر نوعان اختياري واضطراري.

والاختياري أكمل من الاضطراري، فإنَّ الاضطراري يشترك فيه الناس

---

(١) انظر عدة الصابرين (١٤ـ ١٥).

ويتأتىٰ ممن لا يتأتىٰ منه الصبر الإختياري، فإن قيل أي أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر علىٰ المأمور، أم الصبر علىٰ المحظور، أم الصبر علىٰ المقدور؟

قيل: الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهي، أفضل من الصبر علىٰ مجرد المقدور، فإنَّ هٰذا الصبر يأتى به البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بد لكل واحد من الصبر علىٰ القدر اختيارًا أو اضطرارًا وأما الصبر علىٰ الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتباعًا أصبرهم في ذٰلك، وكل صبر في محله وموضعه، أفضل، وعلىٰ الطاعة في محلها أفضل[1].

وعموم الصبر علىٰ المأمورات أفضل من عموم الصبر عن المحذورات.

الفرق بين الصبر، والمصابرة والمرابطة:

قد عرفت معنىٰ الصبر: أما المصابرة فهي مفاعلة من الصبر، ويكثر استعمال هٰذه الصيغة، كما قال الصرفيون في أحد أمرين، المشاركة في الأمر كما في نحو: قاتل فلانٌ فلانًا، أي أنَّهما اشتركا معًا في القتال، الآخر: الموالاة والمتابعة في الأمر كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف: ٢١] أي والىٰ في القسم وعلىٰ ذٰلك فإنَّ المصابرة قد تعني:

١ـ المشاركة في الصبر، كأن يصبر الإنسان عن المعاصي، ويصبر الشيطان علىٰ الإغواء، وحينئذٍ تكون الغلبة لأكثرهما صبرًا.

٢ـ موالاة الصبر ومتابعته، سواء كان صبرًا عن المعاصي أو صبرًا علىٰ الطاعات، وكما أمرنا المولىٰ عزّوجل بالصبر فقد أمرنا أيضًا بالمصابرة في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾[2] [آل عمران: ٢٠٠].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في معنىٰ المصابرة: إنَّه انتقال من الأدنىٰ إلى الأعلىٰ، و«الصبر» دون المصابرة و«المصابرة» دون «المرابطة» و«المرابطة» مفاعلة من الربط والشد، وسمىٰ المرابط مرابطًا، لأنَّ المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثم قيل لكل منتظر ربط نفسه لطاعة ينتظرها مرابط...

فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة، وكما أنَّ الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو، فكذٰلك

---

(١) انظر: عدة الصابرين (١٥ـ ١٦).

(٢) نضرة النعيم (٦/ ٢٤٤٣، ٢٤٤٤).

الرباط أيضًا لزوم ثغر القلب، لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يخذِّله أو يشعثه[1].

وقال في موضع آخر: أمرهم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنَّها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، وهي إذن حال المؤمن في الصبر مع خصمه، أما المرابطة فهي الثبات واللزوم والإقامة علىٰ الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوىٰ، فأخبر سبحانه أنَّ ملاك ذلك كله: التقوىٰ، وأنَّ الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩][2].

ومن الصبر: الصبر علىٰ الأقدار المؤلمة أو «الابتلاء»

الأسباب التي تعين علىٰ الصبر:

لما كان الصبر مأمورًا به جعل الله سبحانه له أسبابًا، تعين عليه وتوصل إليه، وكذٰلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلاَّ أعان عليه ونصب له أسبابًا تمده وتعين عليه، كما أنَّه ما قدر داء إلاَّ وقدَّر له دواء وضمن الشفاء باستعماله، فالصبر وإن كان شاقًا كريهًا علىٰ النفوس فتحصيله ممكن، وله صورتان:

الأولىٰ: صورة نظرية وتتركب من مفردين جزء علمي وجزء عملي، ومنهما تتركب جميع الأدوية للقلب والبدن.

الجزء العلمي: هو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللَّذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص.

الجزء العملي: العزيمة الصادقة والهمة العالية، والنخوة والمروءة، فإذا ضما إلىٰ بعض حصل بمجموعها الصبر، وهانت عليه مشاقه وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة.

الثانية: الصورة التطبيقية: وتتمثل في تقوية باعث الدين وإضعاف باعث الهوىٰ والنفس.

أولاً: تقوية باعث الدين:

ويكون بأمور منها:

١ـ إجلال الله تبارك وتعالىٰ: أن يعصي وهو يسمع ويرىٰ.

٢ـ استشعار محبة الله تعالىٰ، فيترك معصيته محبة له.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٦).

(٢) التفسير القيم (٢١٧، ٢١٨).

٣ـ استشعار النعمة والإحسان منه سبحانه وتعالىٰ، فإنَّ الكريم لا يقابل الإحسان بالإساءة.
٤ـ استشعار غضب الله وانتقامه.
٥ـ تذكر ما يفوته بسبب المعصية من خير الدنيا والآخرة.
٦ـ استشعار حلاوة النصر والظفر علىٰ الشهوة والشيطان.
٧ـ أن يتذكر ما أعده الله للعبد عوضًا عن المحارم.
٨ـ استشعار معية الله للصابرين قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]
٩ـ أن يخاف معاجلة الأجل.
١٠ـ أن يخاف عاقبة الذنوب، وأعظمها الغفلة عنه.
١١ـ أن يُعوِّدَ باعث الدين ودواعيه، مصارعة داعي الهوىٰ والشيطان، ومقاومته علىٰ التدرج قليلاً قليلاً.
١٢ـ رفع الخواطر وحديث النفس الباطلة، حتىٰ لا تتمكن من القوة، فتصير أماني، ثم تقوى فتصير همومًا، ثم تقوىٰ فتصير إردات، ثم تقوىٰ فتصير عزمًا.
١٣ـ قطع العلائق التي تدعوه إلىٰ موافقة الهوىٰ، وصرفها إلىٰ ما ينفع.
١٤ـ إشغال الفكر بعجائب مخلوقات الله التي ندب عباده إلىٰ التفكير فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة.
١٥ـ التفكر في سرعة زوال الدنيا، فيؤثر العزيز الباقي علىٰ الخسيس الفاني.
١٦ـ تعرضه لأوقات الإجابة، ويجتهد بالدعاء فيها علىٰ الدوام.
١٧ـ أن يعلم العبد أنَّ له جاذبين علوىٰ وسفلي فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلىٰ أعلىٰ، والنفوس السفلية إلىٰ أسفل.
١٨ـ أن يفرغ القلب من إرادة السوء وخواطره، ويودع فيها بذور الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، ويتعرض لرحمة الله ومعونته.
١٩ـ أن يعلم العبد أنَّ الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لاذل معه وأمن لا خوف فيه، وامتحنه بالدنيا دار الفناء والذل والخوف.
٢٠ـ أن يضيف العبد إلىٰ ما سبق بذل الجهد، واستفراغ الوسع والطاقة في الخروج عن العوائد، بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وألا يغتر بما يظهر الشيطان في مظان الشر من بعض الخير، فإنَّه إنما يصطاده به إذا قرب منه ألقاه في الشبكة.

ثانيًا: إضعاف باعث الهوىٰ والنفس: فإن كل متصارعين أراد أحدهما أن يغلب الآخر طريقه تقوية نفسه وإضعاف خصمه.
وذلك بأمور منها:

١ـ حسم مادة تقوية الشهوة بتقليلها وهي: الأغذية إما بنوعها أو بكمها وكثرتها، فإن لم تنحسم، فليبادر إلىٰ الصوم المعتدل، فإنَّه يضعف مجارىٰ الشَّهوة ويكسر حدتها.

٢ـ أن يجتنب محرك الطلب سواء أكان النظر أم السمع أم غير ذٰلك.

٣ـ تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام، وهٰذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس.

٤ـ التفكر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هٰذا الوطر.

٥ـ الفكرة في مقابح صورة الذنب الذي يشاركه فيه أراذل الناس، فيعز على نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب(١).

إمكانية الصبر:

إنَّ الصبر خلق إنساني كغيره من الأخلاق، مثل الحلم والصدق وهٰكذا، ومنه ما هو جِبِلّي فطر الإنسان عليه، ومنه ما هو مكتسب يأتي بالممارسة والرياضة النفسية لكل أحد، وهٰذه الحقيقة مقرَّرة في السنة النبوية كما يرويٰ ذٰلك أبوسعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**من يتصبر يصبره الله**»(٢) والمقصود أنَّ من جاهد نفسه لاكتساب هٰذا الخلق الحميد وأخلص قصده لله، فإنَّ الله تعالىٰ يصبره أي يمنحه الصبر، ومثله الحلم فإنَّه يأتي بالممارسة والرياضة النفسية كما رويٰ عن النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: «**الحلم بالتحلم**»(٣)، ومثل الصدق كما في حديث ابن مسعود في قوله ﷺ: «**وما يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عندالله صديقًا**»(٤). وفي قوله «يتحرىٰ» دلالة علىٰ المجاهدة والممارسة الجادة في اكتسابه، فإذا تقرر هٰذا عُلِمَ أنَّ الله لم يأمر عباده إلاَّ بما هو ممكن لهم وأنَّ حجة من قال إنَّ الصبر فطري وليس مُكْتسبًا داحضة من وجوه:

الأول: مصادمة الأدلة الشرعية كما سبق.

الثاني: أنَّ معنىٰ هٰذا أنَّ الله يأمر عباده بما لا يقدرون عليه، وهٰذا باطل لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وغيرها من

---

(١) انظر: عدة الصابرين، لابن القيم (٣٩، ٤٥) بتصرف.

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٥٣٤) (١٤٠٠).

(٣) الحلية (٥/ ١٧٤)، وذكره الألباني في الصحيحة (١/ ٦٧٠)، (٣٤٢).

(٤) صحيح البخاري (الفتح) (١٠/ ٥٠٧) (٦٠٩٤).

الأدلة.

الثالث: أنَّ الحس يشهد علىٰ إمكانية الصبر، فمن كان بالأمس جزوعًاأصبح اليوم صبورًا عندما راقب نفسه وجاهدها، وحاسبها وذكرها بوعود الله تعالىٰ للصابرين، من ذٰلك حادثةُ الخنساء مع أخيها صخر ورثاؤها له وجزعها عليه في الجاهلية، ثم صبرها علىٰ فقد بنيها الأربعة في معركة واحدة في الإسلام.

الرابع: أنَّ العقل يحكم بإمكانية اكتساب الإنسان للأخلاق ومنها الصبر وبقياس الأولىٰ علىٰ الحيوان، مثال ذٰلك، تعليم الكلب الصبر عن أكل الفريسة بعد صيدها، ورعي الغنم والوفاء لأهلها، وهٰكذا الحال مع غيره من الحيوانات التي علمها الإنسان فإذا كان هٰذا التعليم أكسب الكلب فالإنسان من باب أولىٰ(١).

عناية القرآن الكريم بالصبر:

ذكر الله عزَّوجل الصبر في مائة وثلاث آيات من كتابه العزيز وهٰذا دليل علىٰ أهمية الصبر ومنزلته في الدين، وقد ذكر في سياقات عديدة منها:

١ـ الأمر به: قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

٢ـ النَّهي عن ضده قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاق: ٣٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٣ـ تعليق الفلاح به قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٤ـ الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين علىٰ غيره قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

٥ـ تعليق الإمامة في الدين به وباليقين قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

٦ـ أنَّ الصبر سمة النبين والصالحين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٧ـ الظفر بمعية الله تعالىٰ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٨ـ أنَّه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم

---

(١) انظر: عدة الصابرين (٥٣، ٥٦) بتصرف.

﴿مُصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

٩ ـ أنَّ الصبر عدة وعون قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥].

١٠ ـ أنَّه سبحانه علق النصر بالصبر وجعله جُنَّةً من كيد العدو قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

١١ ـ تسليم الملائكة علىٰ الصابرين في الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]

١٢ ـ أنَّ الله تعالىٰ أباح لهم أن يعاقبوا بمثل بما عوقبوا إلاَّ أنَّ الصبر خير لهم قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

١٣ ـ أنَّ الله سبحانه رتَّب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١].

١٤ ـ أنَّ الصبر علىٰ المصائب من عزم الأمور: قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

١٥ ـ أنَّ الصابرين بأنفسهم علىٰ طاعة الله والتكاليف المنوطة بهم والتقوىٰ ومجاهدة النفس ونهيها عن الهوىٰ وتزكيتها ومحاسبتها ومراقبتها عند الابتلاءات جزاؤهم أن يوفي لهم أجورهم بغير حساب.

لقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ٩، ١٠]

١٦ محبة الله للصابرين.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

١٧ ـ أنَّ خصال الخير لا يلقاها إلاَّ الصابرون، قال تعالىٰ: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠]

١٨ ـ أنَّه لا ينتفع بآيات الله ويتَّعظ بها إلاَّ الصبار الشكور، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥]

١٩ـ ثناء الله علىٰ عبده أيوب عليه السلام بأحسن الثناء علىٰ صبره قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]

٢٠ـ أنَّه بالتقوىٰ والصبر تنال درجة الإحسان قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿... إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

٢١ـ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ حكم بالخسران حكمًا عامًا علىٰ كل من لم يؤمن، ولم يكن من أهل الحق والصبر، وهٰذا يدل علىٰ أنَّه لا رابح سواهم فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

٢٢ـ أنَّ أهل الميمنة هم أهل الصبر والمرحمة، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: ١٧، ١٨].

٢٣ـ أنَّه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها، فقرنه بالصلاة فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥] وقرنه بالأعمال الصالحة عمومًا فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]. وقرنه بالتقوىٰ فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] وقرنه بالشكر فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥]. وجعله قرين الحق فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣] إلىٰ غير ذٰلك(١).

٢٤ـ أنَّ الصبر الجميل في قوله تعالىٰ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] المراد به الذي لا جزع فيه ولا شكوىٰ(٢).

عناية السنة النبوية بالصبر:

لقد تمثلت عناية السنة النبوية بالصبر أعظم تَمَثُّلٍ في شخص النبي ﷺ وكيف صبر علىٰ تزكية نفسه الشريفة الظاهرة حتىٰ قبل أن ينزل عليه الوحي، ثم صبر عن الدنيا وزينتها حتىٰ لقي الله تعالىٰ، وصبره ﷺ علىٰ بلاغ الدعوة والأذىٰ في سبيلها وكل هٰذا واضح بين لمن طالع سيرته ﷺ وهناك عناية أخرىٰ بالصبر ربَّىٰ أصحابه عليها ومن ذٰلك:

١ ـ أنَّ من شرف الصبر أنَّ الله تسمىٰ بالصبور.

عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: عدة الصابرين (٥٣ـ ٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٩).

«**ليس أحدٌ أو ليس شيء أصبر علىٰ أذًىٰ من الله إنَّهم ليدعون له ولدًا وإنَّه ليعافيهم ويرزقهم**»[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وفي أسمائه الصبور وهو من أمثلة المبالغة أبلغ من الصبار والصبار، وصبره تعالىٰ يفارق صبر المخلوقين ولا يماثله من وجوه متعددة، منها أنَّه عن قدرة تامة[2].

٢ـ الأمر بالصبر وأنَّ موطنه عند الصدمة الأولىٰ:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «**اتَّقي الله واصبري**» قالت: إليك عني فإنَّك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوَّابين فقالت: لم أعرفك فقال: «**إنَّما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**»[3].

٣ـ أنَّ الصبر صفة الأشداء:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة**» قالوا: فمن الشديد يا رسول الله قال: «**الذي يملك نفسه عند الغضب**»[4].

٤ـ إمكانية الصبر للإنسان:

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتىٰ إذا نفذ ما عنده قال: «**وما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يُعفه الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يَصْبِرْ يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر**»[5].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال لعطاء: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلىٰ، قال: هٰذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ قالت: إني أُصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: «**إن شئتِ صبرتِ ولك الجنَّة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**» قالت: أصبر قالت فإنِّي أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها»[6].

٥ـ الصبر مفتاح النصر:

عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال: كنت رديف النبي

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٦٢) (٥٧٤٨).

(٢) عدة الصابرين (٢٠).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٤٣١٢) (١٢٢٣).

(٤) صحيح مسلم(٣/ ٢٠١٤) (٢٦٠٨).

(٥) صحيح مسلم (١/ ٧٢٩) (١٠٥٣).

(٦) صحيح مسلم (٣/ ١٩٩٤) (٢٥٧٦).

ﷺ فقال: يا غلام أو يا غُليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهنَّ؟ فقلت: بلىٰ فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أنَّ الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أنَّ في الصبر علىٰ ما تكره خيرًا كثيرًا، وأنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسرًا»[(١)].

وهٰذا يشمل النصر في الجهادين: جهاد العدو الظاهر، وجهاد العدو الباطن.

٦ـ أنَّ الصبر ضياء العبد في سيره إلىٰ الله.

عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان والحمدلله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(٢)].

٧ـ ضرورة الابتلاء:

عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قلتُ يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الرجل علىٰ حسن دينه فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتلي علىٰ قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض، وماعليه خطيئة»**[(٣)].

٨ـ جزاء الصابرين:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: **«ما يصيب المسلم من نصب[(٤)] ولا وصب[(٥)] ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذىٰ**

---

(١) مسند أحمد (١/ ٥٠٥) (٢٨٠٠) قال أحمد شاكر، هٰذا حديث رواه أحمد عن شيخه عبدالله بن يزيد المقري بثلاثة أسانيد. أحدها صحيح (٤/ ٢٨٦) (٢٨٠٤) وأخرجه الترمذي (٤/ ٦٦٧) (٢٥١٦)، وقال حسن صحيح، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٠) وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي أخرجها الترمذي كذا قال ابن منده وغيره.

(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) (٢٢٣).

(٣) سنن الترمذي (٤/ ٦٠١) (٢٣٩٨)، وقال حديث حسن، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٨٦) (١٩٥٧) حسن صحيح.

(٤) النَصَبُ: التعب. النهاية (٥/ ٦٢)

(٥) الوصَبُ: دوام الوجع ولزومه، ويطلق على التعب والفتور في البدن، النهاية (٥/ ١٩٠).

ولا غمٍّ حتىٰ الشَّوكة يشاكها إلاَّ كفَّر الله بها من خطاياه[1].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «**لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتَحْتسِبهُ إلاَّ دخلت الجنة فقالت امرأة منهن، أو اثنتين؟ يا رسول الله! قال: «أو اثنتين»**[2].

---

(١) صحيح البخاري (٥/٢١٣٧) (٥٣١٨).

(٢) صحيح مسلم (٣/٢٠٢٨) (٢٦٣٢).

المطلب الرابع
الدعاء

تعريف الدعاء:

الدعاء لغة: مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل علىٰ إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هٰذا الأصل الدعاء في معنىٰ الرَّغبة إلىٰ الله عزَّوجل، واحد الأدعية، والفعل من ذٰلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء[1].

الدعاء اصطلاحًا:

قال الخطابي ـ رحمه الله ـ: «معنىٰ الدعاء: استدعاء العبد ربه عزَّوجل العناية، واستمداده إيَّاه المعونة»[2].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه[3].

حقيقة الدعاء:

قال الخطابي: وحقيقة إظهار الإفتقار إليه، والتبرؤ من الحول، والقوَّة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلَّة البشرية، وفيه معنىٰ الثناء علىٰ الله عزَّوجل، وإضافة الجود والكرم إليه[4].

وقال الطيبي ـ رحمه الله ـ: هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلىٰ الله والاستكانة له[5].

أقسام الدعاء:

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن الكريم يتناول معنيين:

الأول: دعاء العبادة: وهو الذي يتضمن الثناء علىٰ الله بما هو أهله ويكون مصحوبًا بالخوف والرجاء، وهو شامل لجميع القربات الظاهرة والباطنة، لأنَّ المتبعد لله طالب وداع بلسان الحال ولسان المقال ربه قبول تلك العبادة، والإثابة عليها[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢٨٠)، ولسان العرب (١٤/ ٢٥٨)، والصحاح للجوهري (٦/ ٢٣٣٧).
(٢) شأن الدعاء ص(٤).
(٣) بدائع الفوائد(٣/ ٢).
(٤) شأن الدعاء ص(٤).
(٥) فتح الباري (١١/ ٩٥).
(٦) نضرة النعيم (٥/ ١٩٠٢)، والقواعد الحسان للسعدي (١٥٥).

الثاني: دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف مايضره، ودفعه وكل من يملك الضُّرَّ والنَّفع فإنَّه هو المعبود (بحق)[1].

والدعاء في القرآن يراد به هٰذا تارةً، وهٰذا تارةً، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان، فالعبد يدعو للنفع أو دفع الضر، دعاء المسألة، ويدعو خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فكل دعاءِ عبادةٍ مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاءِ مسألةٍ متضمن لدعاء العبادة، وقد ورد المعنيان جميعًا في قوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

حكم الدعاء:

يجب علىٰ المسلم أن يدعو الله تعالىٰ ويستحب له الإكثار منه قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[2]، ولا يجوز صرف شيء من دعاء العبادة لغير الله قطعًا ومن صرف شيئًا منه لغير الله تعالىٰ فقد أشرك شركًا أكبر مخرجًا من الملَّة، وكذٰلك دعاء المسألة فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله، أما إذا دعا مخلوقًا حيًا حاضرًا فيما يندرج تحت قدرة المخلوقين فإنَّه ليس من هٰذه المسألة.

وينبغي للداعي دعاء المسألة أن يسأل الله تعالىٰ في كل مطلوب باسمٍ يناسب ذٰلك المطلوب ويقتضيه.

الأمثلة:

١ـ من سأل الله الرحمة والمغفرة دعاه باسم الغفور الرحيم.

٢ـ ومن سأل الله الرزق، سأله باسم الرزاق وهٰكذا.

كما ينبغي للداعي دعاء العبادة، أن يتعبد لله تعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ، وطريق ذٰلك أن يفهم معنىٰ ذٰلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه حتىٰ يمتلىء قلبه منه.

الأمثلة:

١ـ الأسماء الدالة علىٰ الرحمة، والفضل، والإحسان تملأ القلب طمعًا في فضل الله، ورجاء رَوْحِه ورحمته.

---

(١) الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/ ١٠).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٤٥٦) (٣٣٧٣)، والحاكم (١٩١١)، وصححه، ووافقه الذَّهبي وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥١٢).

٢ـ والأسماء الدالة علىٰ الود، والحب، والكمال تملأ القلب محبة، ووُدًّا وتألُّهًا، وإنابة إلىٰ الله تعالىٰ.

٣ـ والأسماء الدالة علىٰ سعة علمه، ولطيف خُبره توجب مراقبة الله، والحياء منه، وهٰكذا. . .وهٰذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل الأوصاف ولا يزال العبد يجاهد نفسه عليها حتىٰ تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهٰذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية[١] وهي مرتبة الإحسان في عبادة الدعاء.

شروط الدعاء:

حتىٰ يستجاب الدعاء لا بد من توافر الشروط وانتفاء الموانع:

١ـ اليقين بأنَّ الله وحده هو القادر علىٰ إجابة الدعاء، فهو سبحانه جالب النفع وكاشف الضُّرَّ قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والمعنىٰ: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خيرٌ أم عبادة مَنْ تفرد بإجابة المكروب، إذا دعاه ليكشف عنه الضُّرَّ والجور[٢].

٢ـ الإخلاص في الدعاء:

فلا يُسأل غيرُ اللهِ، أو يُدعىٰ معه غيره، لأنَّ من سأل غير الله أو دعا معه غيره فقد أشرك بالله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «. . **وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. .**»[٣].

٣ـ ألا يتوسل إلاَّ بالله تعالىٰ فلا يتوسل بتوسل غير مشروع، سواء أكان توسلاً شركيًا أم بدعيًا.

مثال الأول: التوسل بالأموات، أو الأحجار، أو الأشجار، أو الجن، أو الملائكة، وهٰذا كله شرك في توحيد الألوهية.

ومثال الثاني: التوسل بذات النبي ﷺ، أو بجاهه[٤] أو بحق فلان من

---

(١) الدعاء: للحَمد (١٥) بتصرف.

(٢) انظر: فتح القدير (٤/١٤٦، ١٤٧) بتصرف.

(٣) سنن الترمذي (٥/٦٦٧) (٢٥١٦)، وقال: هٰذا حديث صحيح قال ابن عبدالبر في جامع العلوم الحكم (١/٤٦٠، ٤٦١) ، وقد روي هٰذا الحديث من طرق كثيرة، وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي، كذا قال ابن منده وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٤) وللمزيد انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ص (١٦٠، ١٧٠).

الأحياء[1].

٤ـ أن يتوسل إليه سبحانه وتعالىٰ بأحد أنواع التوسل المشروع.

مثال ذٰلك:

أـ التوسل باسم أو صفة من صفاته سبحانه وتعالىٰ قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: اللَّهم إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمد، لا إلـٰه إلاَّ أنت المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «**لقد دعاء الله باسمه العظيم الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطىٰ**»[2].

وعن بريدة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلـٰه إلاَّ أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطىٰ وإذا دعي به أجاب»[3].

ب ـ التوسل بالأعمال الصالحة:

مثال ذٰلك: قول الداعي اللَّهمَّ إني أسألك بإيماني بك، ومحبَّتي لك، واتِّباعي لرسولك ثم يذكر حاجته، دلَّ علىٰ ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٦].

ومن السنة:

حديث الثلاثة النفر الذين آوَوْا إلىٰ الغار فانطبقت عليهم الصخرة فسدت الباب فتوسل كل واحد بأصلح عمله عندالله وأرجاه.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر، فأووا إلىٰ غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنَّه والله يا هـٰؤلاء لا ينجيكم إلاَّ الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنَّه قد صدق فيه، فقال واحد منهم: اللَّهم إن كنت تعلم أنَّه كان لي أجير عمل لي علىٰ فَرَقٍ من أرُزٍ فذهب وتركه، وإني عمدت إلىٰ ذٰلك الفَرَقِ فزَرَعْتُهُ، فصار من أمره أني اشتريت منه بقرًا وأنَّه أتاني يطلب**

---

(١) المرجع نفسه ص(٨٣).

(٢) سنن أبي داود (٢/١٦٧) (١٤٩٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/٢٧٩) (١٣٢٦).

(٣) سنن أبي داود (٢/١٦٦) (١٤٩٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(١/٢٧٩)، (١٣٢٤).

أجره، فقلت: اعمد إلىٰ تلك البقر فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فَرقٌ من أرزٍ، فقلت له: عمد إلىٰ تلك البقر، فإنَّها من ذٰلك الفَرَقِ، فساقها، فإن كُنْتَ تعلم أني فعلت ذٰلك من خشيتك ففرج عنَّا، فانساحت عنهم الصخرة، فقال الآخر: اللَّهمَّ إن كُنت تعلم: كان لي أبوانِ شيخان كبيران، فكنت آتيهماكل ليلةٍ بلبن غنمٍ لي، فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلي عيالي يتضاغون من الجّوع، فكنت لا أسقيهم حتىٰ يشرب أبواي فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنَّا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتىٰ طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنِّي فعلت ذٰلك من خشيتك ففرج عنَّا، فانساحت عنهم الصَّخرة حتىٰ نظروا إلىٰ السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنَّه كان لي ابنة عمٍ، من أحب الناس إليَّ، وأنِّي راودتها عن نفسها فأبت إلاَّ أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتىٰ قَدرْتُ، فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتَّقِ الله ولاتفض الخاتم إلاَّ بحقِّه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلت ذٰلك من خشيتك ففرِّج عنَّا، ففرَّج الله عنهم فخرجوا»[١].

ج ـ التوسل إلىٰ الله بدعاء رجل صالح حي حاضر قادر:

الأمثلة:

١ـ توسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ وذٰلك في حياته دون مماته.

ما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أصابت الناس سَنَةٌ علىٰ عهد النبي ﷺ فبيناالنبي ﷺ يخطب الجمعة، قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا فرفع يديه، وما نرىٰ في السماء قَزَعةً، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتىٰ ثار السَّحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل من منبره حتىٰ رأيتُ المطر يتحادر علىٰ لحيته ﷺ فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد وبعد الغد، والذي يليه، حتىٰ الجمعة الأخرىٰ، وقام ذلك الأعرابي، أو قال غيره، فقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه، فقال: «اللَّهمَّ حوَالَيْنَا وَلاَ علينا» فما يشير بيده إلىٰ ناحية من السحاب إلاَّ انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوْبَة[٢]، وسال الوادي قناةُ شهرًا، ولم يجيء أحدٌ من ناحية إلاَّ حدث بالجود»[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٨) (٣٢٧٨) كتاب الأنبياء، باب: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ [الكهف: ٩].

(٢) الجوْبةِ: الحُفرة المستديرة الواسعة. النهاية (١/ ٣١٠).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٣١٥) (٨٩١).

٢ـ توسل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بدعاء العباس ـ رضي الله عنه ـ وذلك بعد وفاة الرسول ﷺ وفيه لو كان التوسل بالأموات جائزًا لتوسل الصحابة بالنبي ﷺ بعد موته ولعدم الجواز عدلوا إلىٰ التوسل بدعاء عمه الحي الحاضر القادر علىٰ الدعاء(١).

كما روى ذلك أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ عمر بن الخطاب: كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبدالمطلب فقال: «اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»(٢).

٣ـ توسل الصحابة بدعاء التابعين:

عن سليم بن عامر الخبائري أنَّ السماء قحطت فخرج معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية علىٰ المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجُرَشي؟ قال: فناداه الناس فأقبل يتخطىٰ فأمره معاوية فصعد المنبر فقعد عند رجليه؟ فقال معاوية: اللهم إنَّا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا: «اللهمَّ إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلىٰ الله، فرفع يزيد يديه ورفع الناس أيديهم فما كان أوشك أن ثارت سحابة في المغرب وهبت لها ريح فسقينا حتىٰ كاد الناس لا يصلون إلىٰ منازلهم(٣).

٤ـ أن يسأل العبد الله تعالىٰ وهو مُظْهِر الذل له والافتقار إليه سواء بلسان المقال أم الحال.

مثال ذلك بلسان المقال: أن يقول الداعي: اللهمَّ أنت المحسن، وأنا المسيء، أسألك الإحسان في الأمر كله، وهكذا.

وأما بلسان الحال وهي درجة أرفع من الدعاء بلسان المقال: فقد قال الله تعالىٰ عن موسىٰ عليه وعلىٰ نبينا وسائر الأنبياء السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القصص: ٢٤].

والشاهد: أنَّه لم ينص على الطلب وإنما أظهر حاجته وفقره إلىٰ الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ عن أيوب ـ عليه السلام ـ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣].

---

(١) انظر: قاعدة في التوسل والوسيلة (٨٢).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٦٠) (٣٥٠٧).

(٣) المعرفة والتأريخ للبسوي(٢/ ٣٨١) والطبقات لابن سعد(٧/ ٤٤٤) وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الإصابة (٣/ ٦٧٣) (٩٣٩٣) في ترجمة يزيد بن الأسود أخرجه أي حديثه مع معاوية ـ رضي الله عنه ـ أبوزرعة الدمشقي ويعقوب بن سفيان في تأريخهما بسند صحيح عن سليم بن عامر.

والشاهد أنَّه لم ينص علىٰ طلب العافية وإنما شكا حاله إلىٰ الله تعالىٰ وعرَّض برحمته سبحانه وتعالىٰ وقوله تعالىٰ عن يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والشاهد: أنَّه لم ينص علىٰ طلب النجاة وإنما أظهر ذله وافتقاره وتوبته عليه السلام، إذ لا يتصور أن يدعو العبدالله تعالىٰ وهو متكبر مظهر حالة الاستغناء عنه سبحانه وتعالىٰ.

٥ـ حضور القلب:

والمقصود أن يستجمع الداعي قلبه مستشعرًا عظمة الله تعالىٰ وهو يناجيه ويدعوه، وما مثل من يدعو الله وقلبه غافل، وذهنه شارد إلاَّ كمثل رجل يسأل آخر، وهو مُلْتَهٍ بغيره، وهٰذا قِلَّة أدب مع الخلق الفقراء المحاويج فكيف مع الخالق الغني القادر سبحانه وتعالىٰ.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ**»[1].

٦ـ حسن الظن بالله تعالىٰ:

والمقصود أنَّ الداعي يدعو الله تعالىٰ وهو موقن بالإجابة وفي الحديث السابق: «**أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[2].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي**» (فيه ترغيب من الله لعباده بتحسين ظنونهم، وأنَّه يعاملهم علىٰ حسبها، فمن ظنَّ به خيرًا أفاض عليه جزيل خيراته، وأسبل عليه جميل تفضلاته، ونشر عليه محاسن كراماته، وسوابغ عطياته، ومن لم يكن في ظنه هٰكذا لم يكن الله تعالىٰ معه هٰكذا.

وهذا هو معنىٰ كونه سبحانه وتعالىٰ عند ظن عبده، فعلىٰ العبد أن يكون حسن الظن بربه في جميع حالاته، ويستعين علىٰ تحصيل ذٰلك باستحضار ما ورد من الأدلة علىٰ سعة رحمة الله سبحانه وتعالىٰ)[3]، فإذا وصل الداعي إلىٰ حالة يتيقن بها أنَّ ما يسأل الله حصوله أو دفعه أصبح أقرب

---

(١) سنن الترمذي (٥/٥١٧) (٣٤٧٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/١٠٨) (٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ (٦/ ٢٦٩٤) (٦٩٧٠).

(٣) تحفة الذاكرين (١٢).

إليه مما بين يديه فكأنَّ المأمول مستقر عنده وإن لم يحسه وكأنه حال دعائه واقف بين يدي الله ينظر إليه بعيني بصيرته لا بصره فقد أحسن الدعاء وأحسن الظن بالله تعالىٰ.

قال يحيىٰ بن معاذ ـ رحمه الله ـ: «من جمع اللهُ عليه قلبه في الدعاء لم يردَّه»[1].

٧ـ أن لا يدعو بإثم أو قطيعة رحم: لأنَّ الدعاء بالإثم أو قطيعة الرحم إفساد والله تعالىٰ لا يصلح عمل المفسدين.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل**» قيل يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «**يقول: قد دعوت، وقد دعوت ، فلم أر يستجيب لي ، فيستحسر عند ذٰلك ويدع الدعاء**»[2].

٨ـ ألا يستعجل الإجابة.

لأنَّ الله تعالىٰ يحب العبد اللحوح في الدعاء، ولا ريب أنَّ الله يستجيب الدعاء إذا توافرت الشروط وانتفت الموانع قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وليس المقصود حصول المطلوب إذ أنَّ الله تعالىٰ ربما أبدل السائل بما هو خير له في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معًا أو ادخر له من الأجر أعظم من ذلك أو يدفع عنه من المكروه أعظم من ذٰلك، أو يحصل له مراده بعد أن يرزق الإكثار من الدعاء وانتظار الفرج، فيرفعه الله به درجة إذ أنَّ الدعاء من أفضل القربات وهو العبادة كما سيأتي في فضل الدعاء.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: معنى يستحسر: ينقطع، وفي الحديث أدب من آداب الدعاء، وهو أن يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة، لما في ذٰلك من الانقياد، والاستسلام وإظهار الافتقار[3].

قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «منعه عطاء، وذٰلك أنَّه لم يمنع عن بخل ولاعدم، وإنمانظر في خير العبد فمنعه اختبارًا وحسن نظر»[4].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومن الآفات التي تمنع أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد، ويستبطيء الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذرًا، أو غرس غرسًا فجعل يتعاهده، ويسقيه، فلما استبطأ كماله

---

(١) الفوائد لابن القيم (٧٣).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٩٦) (٢٧٣٥).
(٣) فتح الباري (١١/ ١٤١).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢١٥).

وإدراكه تركه وأهمله[1].

٩ـ إطابة المطعم والمشرب، والملبس، لأنَّ الله طيب لا يقبل إلاَّ طيبًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧]، كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّها الناس إنَّ الله طيب لايقبل إلاَّ طيباً، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلىٰ السماء يا رب! يارب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنىٰ يستجاب له»[2].

١٠ـ أن لا يعتدي في الدعاء:

قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله، ولا يُجيب سائله»[3].

مثال: من يدعو أن يخلد في الدنيا، أو يكون في الجنة في درجة فوق الأنبياء عليهم السلام، أو أن يرد عليه ميتاً. . وهٰكذا.

١١ـ الجزم في الدعاء بعدم الاستثناء:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقولن أحدكم اللهمَّ اغفر لي إن شئت، اللهمَّ ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنَّ الله لا مُسْتَكْرِه له**»[4].

آداب الدعاء:

إذا توافرت الشروط في الدعاء وانتفت الموانع وتمم الداعي بالآداب الحسنة التي يرجى بها القبول كانت الإجابه أسرع.

ومن آداب الدعاء:

١ـ الوضوء قبل الدعاء:

عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ وفيه فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر.

---

(١) الجواب الكافي ص (٨).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٧٠٣) (١٠١٥).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٣).
(٤) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٦٣) (٢٦٧٩).

قال: قل له: يستغفر لي، فدعا رسول الله ﷺ بماء، فتوضأ منه، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللَّهمَّ اغفر لعبيد، أبي عامر..»(١).

٢ـ استقبال القبلة:

روىٰ عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «استقبل النبي ﷺ الكعبة فدعا علىٰ نفر من قريش»(٢).

٣ـ رفع الأيدي في الدعاء:

عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله حييٌّ كريم، يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما خائبتين**»(٣).

٤ـ أن يبدأ الدعاء بالثناء علىٰ الله ثم الصلاة علىٰ النبي ﷺ مصداق ذٰلك.

ما رواه فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا رسول الله ﷺ قاعدًا إذ دخل رجل، فصلَّىٰ فقال: اللَّهم اغفر لي، وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: «**عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمدالله بما هو أهله، وصلِّ عليَّ ثم، ادعه**» قال: ثم صلىٰ رجلٌ آخر بعد ذٰلك فحمدالله وصلَّىٰ علىٰ النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**أيُّها المصلِّي ادع تُجَبْ**»(٤).

٥ـ الإقرار بالذنب والاعتراف بالخطيئة:

ومنه دعاء يونس عليه السلام، وسيد الإستغفار، قال الله تعالىٰ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللَّهم أنت ربِّي لا إلـٰه إلاَّ أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبُوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، قال ومن قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يُمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو مُومِنٌ بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة**»(٥).

٦ـ أن يتخير جوامع الدعاء ومحاسن الكلام، ولا يتكلَّف السجع.

قال الخطابي ـ رحمه الله ـ: (وليتخير لدعائه، والثناء علىٰ ربه أحسن

---

(١) صحيح مسلم (٢/١٩٤٣) (٢٤٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٤/١٤٥٧) (٣٧٤٣).

(٣) سنن الترمذي (٥/٥٥٦) (٣٥٥٦)، وقال: هـٰذا حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٧٠).

(٤) سنن الترمذي (٥/٥١٦) (٣٤٧٦)، وقال هـٰذا حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٨٨).

(٥) صحيح البخاري (٥/٢٣٢٣) (٥٩٤٧).

الألفاظ، وأنبلها، وأجملها للمعاني، لأنَّه مناجاة العبد سيد السادات، الذي ليس له مثل ولا نظير)[1]، وقال: (ويكره في الدعاء السجع، وتكلف صفة الكلام له)[2]. وفي وصية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلاَّ ذلك يعني: لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتناب[3].

٧ـ التضرع[4] والرغبة والرهبة والخشوع.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾ [الأنعام: ٤٣].

٨ـ الدعاء ثلاثًا:

كما جاء في حديث طويل لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبي ﷺ وفيه: «... فلمَّا قضىٰ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاثًا، وإذا سأل، سأل ثلاثًا، ثم قال: «اللَّهمَّ عليك بقريش» ثلاث مرات..»[5].

٩ـ خفض الصوت، والإسرار بالدعاء.

قال تعالىٰ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

عن أبي موسىٰ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبَّرنا، فقال النبي ﷺ: «**أيُّها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنَّكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، ولـٰكن تدعون سميعًا بصيرًا..**»[6]، فإن رفع صوت قليلاً فلا بأس إذا كان متيقنًا معية الله وقربه منه، دلَّ علىٰ ذلك رفع النبي ﷺ صوته بالدعاء لعبيد بن أبي عامر كما سبق في حديث أبي موسىٰ الأشعري قريبًا في الوضوء قبل الدعاء، **ولإخفاء الدعاء فوائد منها:**

أنَّه أعظم إيمانًا، وأبلغ في الأدب مع الله، والإخلاص له، وأدعىٰ لدوام الطلب والسؤال، وجمع القلب، والتضرع والخشوع، وآمن من شر

---

(١) شأن الدعاء (١٥).
(٢) شأن الدعاء (١٧).
(٣) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٣٤) (٥٩٧٨).
(٤) التضرع: التذلل والمبالغة في السؤال والرغبة، النهاية (٣/ ٨٥).
(٥) صحيح مسلم (٤١٨٢) (١٧٩٤).
(٦) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٤٦) (٦٠٢١).

الحاسدين[1].

١٠ـ البكاء حال الدعاء:

إن استطاع الداعي أن يقدم بين يدي دعائه شيئًا من الدموع تكون عربونًا لصدق الطلب وإظهارًا للفقر والمسكنة كان ذٰلك أرجىٰ للإجابة، ولـٰكن رفع الصوت بالبكاء لم يكن معهودًا عن سلف هـٰذه الأمة.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا قول الله عزَّوجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقال عيسىٰ بن مريم عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللَّهمَّ أمتي أمتي» وبكىٰ فقال الله عزَّوجل: يا جبريل اذهب إلىٰ محمَّد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال: وهو أعلم فقال: الله يا جبريل اذهب إلىٰ محمَّد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»[2].

١١ـ تحرىٰ أوقات الإجابة: وهي كثيرة جدًا.

موانع استجابة الدعاء:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: إنَّ الدعاء من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولـٰكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه، بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله علىٰ الله وجمعيته عليه، وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلب، واستيلاء الغفلة والشَّهوة واللهو وغلبتها عليه، وله [أي للدعاء] مع البلاء ثلاث مقامات.

أحدها: أن يكون أقوىٰ من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوىٰ عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولـٰكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.[3]

ثمرات الدعاء:

للدعاء ثمرات جليلة، في الدنيا والآخرة ومنها:

١ـ أنَّ فيه تحقيق معنى العبادة:

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٣/٦، ١٠) والفتاوىٰ لشيخ الإسلام (١٥/١٥، ٢٠).

(٢) صحيح مسلم (١/١٩١) (٢٠٢).

(٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/٢٢٩).

إذ أنَّ الداعي يحصل له من التذلل والخضوع، والإخبات والإنابة، والانكسار بين يدي الله، والتوكل ولذة المناجاة، ما يتمنىٰ معه دوام تلك الحالة ولو لم يحصل مقصوده من الدعاء.

قال بعض العباد: إنَّه لتكون لي حاجة إلىٰ الله، فأسأله إيَّاها، فيفتح عليَّ من مناجاته، ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه ما أحب معه أن يؤخر عني قضاءها وتدوم لي تلك الحال(١).

وهٰذا ما قرَّره النبي ﷺ كما جاء عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»(٢).

٢ـ فيه امتثال لأمر الله تعالىٰ والسلامة من الكبر، حيث قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

٣ـ أنَّ فيه دليلاً علىٰ الكياسة وعلو الهمة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ موقوفًا عليه قال: «أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام»(٣).

٤ـ الدعاء سبب لدفع البلاء قبل نزوله:

عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزيد في العمر إلاَّ البر، ولا يرد القدر إلاَّ الدعاء، وإنَّ الرجل ليحرم الرزق بخطيئه يعملها**»(٤).

٥ـ أنَّ الدعاء صفة عباد الله المتَّقين، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

١٠ـ أنَّ الدعاء نوع من الذكر والذكر يخفىٰ(٥).

الأوقات، والأماكن، والأحوال التي يستجاب فيها الدعاء منها: (٦)

ليلة القدر، ووقت السحر، ودبر الصلوات المكتوبات، وعند النداء

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٢١١) (٢٩٦٩)، وقال هٰذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧).

(٣) صحيح ابن حبان «الإحسان» (١٠/ ٣٥٠) (٤٤٩٨)، قال الحافظ في الفتح (٩/ ٥٦٥) (٥٤٤١)، هٰذا موقوف صحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) سنن ابن ماجه (١/ ٣٥) (٩٠) وقال البوصيري سألتُ شيخنا أبا الفضل العراقي عن هٰذا الحديث فقال: حسن، الزوائد (١/ ٦٠) (٣٤).

(٥) انظر: الفتاوىٰ (١٥/١٧، ٢٠) بتصرف واختصار.

(٦) انظر: تحفة الذاكرين للشوكاني (٥٥، ٦٣)، والدعاء للحمد (٥٣، ٦٨).

للصلاة، وبين الأذان والإقامة، وساعة خطبة وصلاة الجمعة، وعند الزحف، وعند نزول الغيث، وعند شرب زمزم، وفي السجود، ويوم عرفة، وعقب الوضوء، وعند قراءة الفاتحة، وعند الرفع في الركوع وعند التأمين، وقبل التسليم من الصلاة، وفي شهر رمضان، وعند صياح الديك، وعندالكرب، وعند المصيبة، والدعاء للأخ المسلم بظهر الغيب، والدعاء للميت، ودعوة المظلوم، والوالد لولده، والمسافر حتىٰ يعود، ودعاء المعتمر، وعند التَّعارِّ من الليل، وغير ذلك ولولا خشية الإطالة لذكرت الأدلة للجميع.

وبالجملة فقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنَّ من «جمع مع الدعاء حضور القلب، وجمعيته بكليته علىٰ المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة: وهو الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان، والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة علىٰ المنبر حتىٰ تقضىٰ الصلاة من ذٰلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان علىٰ طهارة، ورفع يديه إلىٰ الله، وبدأ بحمدالله والثناء عليه، ثم ثنىٰ بالصلاة علىٰ محمَّد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل علىٰ الله، وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإنَّ هـٰذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا ولا سيَّما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنَّها مظنة الإجابة، أو أنَّها متضمنة للاسم الأعظم[1].

االدعاء من صفات المحسنين:

قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾

تحقيق مرتبة الإحسان في الدعاء:

يمكن للمرء المسلم أن يحقق ذلك بأن يثني على الله بما هو أهله خوفا منه ورجاء فيما عنده، ويسأله ما ينفعه أو يدفع ضره من غير اعتداء مخلصا لله تعالى بقلب حاضر وهو على وجه الافتقار والتذلل والمسكنة وهو على حالة كأنه ينظر إلى مولاه جل وعلا ويشاهده بقلبه

---

(١) الجواب الكافي (٩).

المبحث الرابع
الكيفية التي يعرف بها من وصل إلىٰ مرتبة الإحسان

يمكن معرفة الوصول إلى مرتبة الإحسان التي هي أعلىٰ وأشرف مراتب الدين بأمرين: الأوَّل بدقة المحاسبة للنفس، والثاني: بشهادة العدول من أهل الإسلام العالمين بأحكام الشريعة الإسلامية وآدابها وتفصيل ذلك علىٰ النحو الآتي:

أولاً: دقة المحاسبة للنفس الإنسانية

والمحاسبة لغة: مصدر حاسب يحاسب، وهو مأخوذ من مادة (ح س ب) التي تدل علىٰ العدِّ[١].

واصطلاحًا: قال الماوردي ـ رحمه الله ـ: محاسبة النفس: أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهىٰ عن مثله في المستقبل[٢].

أهميّة المحاسبة:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ قد دلَّ علىٰ وجوب محاسبة النفس قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] يقول تعالىٰ: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه؟»[٣].

وعن ميمون بن مهران ـ رحمه الله ـ قال: «لا يكون الرجل تقيًا حتىٰ يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه»[٤].

أنواع المحاسبة للنفس:

المحاسبة للنفس نوعان:

النوع الأول: محاسبة النفس قبل العمل، ومعنىٰ ذٰلك إيقافها قبل العمل للنظر في شرعيته ومقصده منه.

والنوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل علىٰ طاعة قصر فيها، أو خير تركه، أو مباح عمله لم يصلح نيته فيه[٥].

---

(١) المقاييس (٢/٥٩)، واللسان (١/٣١٣، ٣١٤).

(٢) أدب الدنيا والدين (٣٤٢).

(٣) إغاثة اللهفان (١/١٠١).

(٤) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا (٢٥).

(٥) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٣٩٤، ٣٩٥).

شروط صحة المحاسبة:

يُشترط لصحة محاسبة النفس شروطٌ قبليَّة وبعدية:

الشروط القبلية: وأهمها:

١ـ أن يحاسب نفسه علىٰ دقائق أعمالها القلبية والبدنية والمالية بدقة تامة.

لما روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إنْ كنَّا لنعدها علىٰ عهد النبي ﷺ الموبقات»[(١)].

٢ـ أن يعرض المحاسب نَفْسُهُ أعمالَه وأقوالَه واعتقاداتِه علىٰ الكتاب العزيز وصحيح السنة النبوية، وهٰذا يقتضي أن يكون عالمًا بأحكام ما يحاسب نفسَهُ عليه، فإن تعذر عليه ذٰلك سأل أهل العلم والصلاح.

٣ـ أن يكون عالمًا بمقاييس أنواع الإحسان فمقياس الإحسان في الواجبات الظاهرة والباطنية، الإتقان في الإتيان بها علىٰ وجه كمال واجباتها، فهٰذا القدر من الإحسان فيها واجب.

وأما الإحسان فيها بإكمال مستحباتها فليس بواجب، بل هو مستحب.

والإحسان في ترك المحرَّمات، الانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فهٰذا القدر من الإحسان فيها واجب.

وأما الإحسان في المكروهات، فيكون بالانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، وهٰذا القدر من الإحسان فيها مستحب.

وأما الإحسان في الأمور المتشابهة علىٰ العبد في الحل أو الحرمة، فيكون بتركها ظاهرًا وباطنًا وهٰذا القدر من الإحسان واجب، فإن كان من المشتبه عليه أمِن الحلال أمْ مِن المكروه فإنَّ الإحسان فيه بتركه ظاهرًا وباطنًا وهٰذا القدر من الإحسان فيه مستحب.

وكل ما سبق فإنَّه يعد من الإحسان الذي هو بمعنىٰ الإتقان.

وأما الإحسان الذي هو بمعنىٰ الإنعام علىٰ الغير أو علىٰ النفس، فالواجب فيه القيام بما أوجب الله من حقوق ذٰلك كله، وأما القدر الزائد علىٰ الواجب في ذٰلك كله فإنَّه إحسان مستحب[(٢)].

وذٰلك بأن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقلَّ مما له.

وأما الإحسان الذي هو بمعنىٰ مشاهدة الحق تبارك وتعالىٰ: فإنَّه يكون بأداء العبادة علىٰ وجه من الإتقان والإخلاص وهو علىٰ حال وكأنَّه

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٨١) (٦١٢٧).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٣٨١، ٣٨٢).

ينظر إلىٰ الله بعيني قلبه بحيث لا يدع شيئًا مما يقدر عليه من كمال العبادة إلاَّ أتىٰ به.

فإذا جمع العبد بين الإحسان في الاتيان بالواجبات والمستحبات، والإحسان في ترك المحرَّمات والمكروهات، وَتَرَكَ كثيرًا من المباحات خشية الوقوع في المحرَّمات أو المكروهات مع القيام بما أوجب الله عليه من حقوق نفسه والخلق وزاد علىٰ ذٰلك وهو علىٰ حال من الإتقان والإخلاص وكأنَّه ينظر إلىٰ الله تعالىٰ بقلبه فإنَّه قد استجمع خصال الإحسان قاطبة، وهو محسن حقًا، وإلاَّ فإنَّه محسن بحسب ما أحسن فيه.

٤ـ أن يكون صادقًا في كل إجاباته التي تصدر منه حتىٰ لا يجعل من نفسه إنْسانًا آخر.

ب ـ الشروط البعدية لمحاسبة النفس:

إذا وجد العبد المسلم من نفسه أنَّه ارتقىٰ إلىٰ مرتبة الإحسان، فإنَّ هناك شروطًا دقيقة يجب عليه مراعاتها حتىٰ لا يحبط عمله ويرتكس في السفل:

١ـ أن يتَّهم نفسه أبدًا بالتقصر، حتىٰ لا يجره ذلك للكسل والخمول.

٢ـ أن يحذر أشد الحذر من الإعجاب بعمله، بل الواجب عليه إسناد الفضل والتوفيق إلىٰ الله تعالىٰ والإكثار من حمده وشكره والدعاء بالثبات علىٰ الإحسان.

٣ـ أن يتوقىٰ أعظم التوقي من كل ما من شأنه تزكية نفسه من بعيد أو من قريب تصريحًا أو تلميحًا.

الثاني من طرائق معرفة الوصول إلى مرتبة الإحسان: الشهادة للمحسن.

شهادة العدول من أهل الإسلام، ولا سيَّما العالمين بأحكام الشريعة الإسلامية وآدابها حقًّا، وذٰلك أنَّهم شهداء الله في أرضه، فمن أثنوا عليه خيرًا فهو كذٰلك ظاهرًا، ومن أثنوا عليه شرًا، فهو كذٰلك ظاهرًا.

لما روي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: مرُّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا فقال النبي ﷺ: «**وجبت**» ثم مروا بأخرىٰ فأثنوا عليها شرًا فقال: «**وجبت**» فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ما وجبت؟ قال: «**هـٰذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنَّة وهـٰذا أثنيتم عليه شرًا، فوجب له النار، أنتم شهداء في الأرض**»(١).

وعن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل لرسول الله ﷺ كيف لي

(١) صحيح البخاري (١/ ٤٦٠) (١٣٠١).

أن أعلـم إذا أحسنـت وإذا أسـأت؟ قـال النبـي ﷺ: «**إذا سمعـت جيـرانـك يقولون: أنْ قد أحسنت، فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت، فقد أسأت**»[1].

وهٰذا يدخل في باب الإحسان بمعنىٰ الإتقان والإنعام.

---

(١) سنن ابن ماجه (١٤١٢/٢) (٤٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٤١٢/٢)، (٣٤٠٢).

الفصل الثالث
صور الإحسان

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: **صور الإحسان عن الأنبياء والرسل عليهم السلام**

المبحث الثاني: **صور الإحسان عن الصحابة رضي الله عنهم**

المبحث الثالث: **صور الإحسان الأخرى**

المبحث الأول
صور الإحسان عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

أكمل صور الإحسان الغراء، ما صدر عن أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، إذ هم أعلم الخلق بالله تعالىٰ وما يجب له، وأشد الناس خشية وتعظيمًا له، وأرحم الخلق بالخلق، ومن صور إحسانهم يستطيع العبد المسلم أن يسير في طرق الإحسان ومساريه علىٰ بصيرة حتىٰ يستوي فوق سُدة الإحسان الشماء، وليس مهمتنا هنا سرد قصص الأنبياء والرسل عليهم السلام جميعًا، وإنْ كانت ولا شكَّ من الشرف بمكان رفيع، وإنَّما تتحدد المهمة هنا في عرض صور من إحسان بعضهم عليهم السلام.

ومن الأنبياء والرسل الذين حفلت النصوص الشرعية بذكر صور إحسانهم:

أولاً: نوح عليه الصلاة والسلام:

أ ـ نسبه: هو نوح بن لامك بن متو شلخ بن خنوخ، وخنوخ هـٰذا هو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قِنن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ [1].

مولده:

كان مولده بعد وفاة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعشرة قرون[2].

ج ـ مكانته بين الأنبياء والرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

نوح ـ عليه السلام ـ أحد أنبياء الله تعالىٰ ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهو من أولىٰ العزم من رسل الله تعالىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وهو من المصطفين كما قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]، مكث في دعوة قومه إلىٰ التوحيد وعبادة الله وحده تسعمائة وخمسين عامًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

ج ـ صورة من إحسان نوح عليه الصلاة والسلام:

لاريب أنَّ نبي الله نوحًا عليه الصلاة والسلام من أكمل المحسنين إحسانًا الذي ضربوا في كل قسم منه بسهم وافر، غير أنَّ الصورة الأوضح

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، (١/ ١٠٠ـ ١٠١).
(٢) المرجع السابق.

لإحسانه ـ عليه السلام ـ تتركز في القرآن الكريم علىٰ إحسانه في دعوة قومه إلىٰ الله تعالى.

ولم ترد قصة دعوته لقومه كاملة في سورة واحدة في القرآن الكريم، بل، ورد مقاطع منها متفرقة حسب الحاجة وموضوع السورة في ثمان وعشرين سورة، تكررت آياتها في ثلاثة وأربعين موضعًا من كتاب الله تعالىٰ.

ومفادها أنَّ الله تعالىٰ بعثه إلىٰ قومه، الذين زيَّن لهم الشيطان عبادة الأصنام؛ لينذرهم عذاب الله ومقته إذا ما استمروا في طغيانهم وضلالهم فكذبوه، وآذوه أشد الإيذاء، وهٰكذا ما برحوا عاكفين علىٰ شركهم وهو يدعوهم إلىٰ عبادة الله حده دون سواه، فلم ييأس نوح ـ عليه السلام ـ من صلاحهم فأخذ ينوع لهم أساليب دعوته بالحسنىٰ، فيتحين لهم الأوقات المناسبة ليلاً ونهارًا، ويتحرىٰ لهم الهيئات الملائمة سرًا وجهرًا، جماعات وفرادىٰ، وينوع لهم الخطاب، فيرغبهم تارةً في الثواب، وأخرىٰ ينذرهم العذاب، وثالثة يبرهن لهم علىٰ صدق دعوته، وأحقية الله تعالىٰ في التوحيد، مستدلاً بالأدلة الحسية والعقلية، فأبان لهم سفاهة ما يعبدون من دون الله وأنَّها لا تغني عنهم شيئًا، وأنَّه يحيي ويميت، وأنَّ ماهم فيه من النَّعيم، وما يمكن أن يزدادوا من الخير، إنَّما هو من عندالله تعالىٰ، وأنَّ مَنْ هٰذا شأنه هو الإلٰه الحق المستحق لعبادة الخلق، وأوضح لهم صراحة أنَّ دعوته إيَّاهم إلىٰ التوحيد لا لعوض مادي أو معنوي يطلبه منهم، وإنما يبتغي أجره علىٰ الله تعالىٰ.

لٰكنهم وبرغم روعة هٰذه الأساليب الفذة، التي اتخذها نوح عليه السلام وما أحاط به دعوته من شدَّة المصابرة، وطول الاستمرار مئات السنين، وبرغم الحرص الشديد علىٰ هدايتهم عموا وصموا، وأعرضوا واستكبروا، واستقبلوه بالسفاهة والتواصي ألا يدعوا أصنامهم التي سموها بأسماء رجال صالحين من سابقي قومهم، بل لم يكتفوا بذٰلك وإنما أخذوا يمكرون بنوح عليه السلام قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ١ـ ٢٤].

وفي سورة هود عليه السلام تكتمل أكثر فصول القصة بروعة القرآن البيانية كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٢٥ـ ٤٨].

هٰكذا انتهت عنجهية قوم نوح عليه السلام وهٰكذا كانت عاقبتهم وهٰكذا كانت عاقبة نوح عليه السلام وعاقبة قومه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: ٧٥ـ ٨٢][1].

مرشحات الإحسان لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

إنَّ مرشحات الإحسان وسبب الجزاء الحسن لنوح ـ عليه السلام ـ هي:

١ـ إيمانه القوي بالله تعالىٰ.

٢ـ حسن دعوته لقومه وصبره علىٰ أذاهم.

٣ـ عظم شكره لربه تعالىٰ علىٰ القليل والكثير. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير (١/ ١٠٠ ومابعدها).

ثانيًا: إبراهيم ـ عليه السلام:

أـ نسبه:

هو إبراهيم بن آزر بن ناحور بن شاروخ بن راغو بن فالخ بن عابر ابن شامخ بن أرفخشد بن سام بن نوح وكنيته أبوالضِّيفان(١).

ب ـ نشأته وصفاته ووفاته:

ولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ببابل، وهي أرض الكلدانيين زمن النمرود بن كنعان بن كوش(٢).

وقد نشأ في بلدة يعبد أهلها الأصنام من دون الله تعالىٰ، ولٰكن الله آتاه رشده فحفظه من الصغر كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، ولم يكن علىٰ وجه الأرض مؤمن سواه وامرأته سارة وابن أخيه لوط ـ عليه السلام ـ(٣).

وأما صفاته ـ عليه السلام ـ: فقد كان أشبه الناس به نبينا محمَّد ﷺ وصفاته معلومة ومظآنها مشهورة(٤).

وقيل إنَّه عاش مائتي سنة وقُبر في المربعة التي بناها سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ ببلدة حبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم(٥).

ج ـ مكانته بين الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ:

وردت الإشارة إلىٰ اسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ في خمس وعشرين سورة من القرآن الكريم وهو أحد الرسل الخمسة أولي العزم، وخليل الرحمن كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء: ١٢٥]، والخلَّة خالص المحبة.

وقد جعله الله إمامًا يقتدىٰ به وسماه أمة بمفرده كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠].

ووصفه الله بالرحمة والحلم كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهو أبوالأنبياء منه تفرعت شجرتهم كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ ﴾ [الحديد: ٢٦]، وامتدحه الله

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١/ ١٣٩)، وقصص الأنبياء لابن كثير (١/ ١٦٧).

(٢) البداية والنهاية(١/ ١٤٠، ١٧٣).

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير (١/ ١٦٩).

(٤) البداية والنهاية (١/ ١٧٣).

(٥) البداية والنهاية: (١/ ٧٤ـ ١٧٥).

تعالىٰ وأثنىٰ عليه بأنَّه وفيَّ وقام بجميع ما أمره به فقال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

د ـ صور من إحسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ

يأتي إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أعلىٰ مراتب المحسنين وصور إحسانه كثيرة جدًا ومنها:

١ـ صبره علىٰ الابتلاء في طريق الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

لقد بعث الله تعالىٰ إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قومٍ يعبدون الأصنام من دون الله تعالىٰ ويعتقدون في الكواكب أنَّها تنفع وتضر من دون العزيز العليم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧].

ومن هنا بدأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ مجاهدة قومه بالحجج الباهرة والأدلة الدافعة والمناظرات الظافرة يدحض بها بطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام والاعتقاد في الكواكب، فاتَّخذ أولاً أسلوب الحوار والمناقشة كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ـ ٨٢].

ويقول تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا

﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠]،

ولم تكن لهم إجابة إلاَّ أنَّهم وجدوا آباءهم لها عابدين كما أخبر الله تعالىٰ بقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ [الشعراء: ٧٤]، وبقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء: ٥٣].

وأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ يبين لهم خطر الشرك بالله تعالىٰ وعاقبة المشركين كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥]. عند ذٰلك لم يجد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بدًا من الإغلاظ عليهم وإحكام خطة تجتث مصادر الشرك من قلوبهم بعد أن علم أنَّهم مقلدون وأنَّ شبهة النفع والضر من دون الله بحاجة إلىٰ برهان محسوس يستأصلها من قلوبهم ويكون دليلاً واضحًا على أنَّها لا تدفع عن أنفسها الضر فكيف بغيرها، وَمَنْ هٰذا حاله لا يصلح أن يكون إلـٰهًا يعبد ومضىٰ الخليل ـ عليه السلام ـ يتحين الفرصة المؤاتية للقيام بعمل جريء يجتمع عليه قومه يكون درسًا في التوحيد عمليًا مهما كانت النتائج، ووجد الفرصة الفريدة حينما دعاه القوم إلىٰ الخروج معهم إلىٰ خارج البلد لحضور عيدهم، عندها تظاهر بالسقم واعتذر عن الخروج فعذروه كما حكىٰ الله عنه بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ [الصافات: ٨٨-٩٢]. وغاب عنهم ما وعد به من تحطيم أصنامهم حينما قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: ٥٧].

فلما خلا المكان لإبراهيم عليه السلام حمل فأسه واتَّجه صوب الأصنام وأخذ يحاورها حوار المستهزيء بها، فقال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

عند ذٰلك استشاط عليها غضبًا ومال عليها مسرعًا يضربها بساعد قوىٰ وفأس متين فلم يبق لها قامة إلاَّ كبيرهم اقتضت الخطة بقاءه ليكون موضع الحوار مع قومه كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣﴾ [الصافات: ٩١- ٩٣]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وبهذا انتهىٰ الفصل الأول من المهمَّة وعاد إبراهيم عليه السلام وعاد القوم من عيدهم، وآثاره باقية علىٰ وجوههم وكان من تعلقهم بأصنامهم أنَّهم لم يبادروا شيئًا دونها، غير أنَّ المفاجأة العظيمة تنتظرهم إنَّها أصنامهم المحطمة، عندها ثارت ثائرة الكفر والحمية علىٰ معبوداتهم فنادوا في غضب شديد: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ [الأنبياء]فتذكر بعضهم

ماأوعد به إبراهيم بقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. فقالوا كما حكىٰ الله عنهم: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وهنا وجد القوم ضالتهم وصاحوا قائلين: ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦١]، وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ ينتظر هٰذا الموقف الذي يجتمع فيه الناس لدعوتهم إلىٰ الله وبطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام وإقامة الحجة عليهم.

وبدأت المحاكمة قالوا: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٢] قال: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وهنا أحرز إبراهيم عليه السلام أول بوادر النصر إذ الإجابة معلومة لكنهم كابروا ولاموا أنفسهم أنَّهم لم يبقوا حرسًا شديدًا يمنع آلهتهم من العدوان عليها، كما حكىٰ الله عنهم بقوله تعالىٰ: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٤]. لكن إبراهيم ينتظر الإجابة فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

هنا اغتنم إبراهيم ـ عليه السلام ـ الفرصة وجعلها خاتمة الحوار وأعلن نتيجة خسارتهم فقال علىٰ رأس الملأ كلمة الحق الخالدة: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

وهٰكذا أيّدالله رسوله بالحجة الباهرة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

لٰكن أهل السلطنة الظلمة إذا خسروا قوة الدليل عمدوا إلىٰ قوّة الحديد والنار فتنادوا قائلين: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. فانفلت كل شقي يجمع الحطب، حتىٰ جمعوا ما يوقد نارًا عظيمة، وأضرمت النار واشتد لهيبها، وارتفعت ألسنتها واكتمل أوارها، وأخذت تقذف بالشر عندئذ ساقوا نبي الله وخليله إليها، فلما لم يقدروا القرب منها قدح الشيطان في أذهانهم أن ارموه بالمنجنيق، وهي آلة يرمي بها من بعد ولما ارتفع في السماء ورآه كل أحدٍ وهو يهوي إلىٰ النار أيقنوا لا محالة هلكته وتحوله فحمًا رمادًا عندها نادىٰ إبراهيم الركن الشديد ومن بيده تحويل الحال من سوء إلىٰ أحسن حال فقال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ

ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣][(١)]، كما جاء في صحيح البخاري.

وما هي إلاَّ غمضة بصر أو أقل وإذا بالرَّوْح والفرج قال الله الودود كلمته الرحيمة: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فبطل مفعول النار وانقلبت كالأم الرؤوم تحتضن جنينها، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «لولا أنَّ الله عزَّوجل قال: ﴿وسلامًا﴾ لآذىٰ إبراهيم بردها[(٢)].

فسبحان الله: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٠][(٣)].

٢ـ صبره علىٰ أقدار الله المؤلمة:

ما مرَّ على إبراهيم عليه السَّلام من قومه ابتلاء عظيم ولكن الأعظم أن يبتلىٰ الرجل فيمن يحب، إنَّ إبراهيم عليه السلام بلغ سن الكهولة ولم يرزقه الله الولد، فلما رأته زوجته سارة التي لا يولد لها قد شاخ أشفقت عليه ووهبته جاريتها هاجر عساه يرزق منها الولد فقبل وأنعم الله عليه بإسماعيل ـ عليه السلام ـ حليمًا كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]، لـٰكنه سرعان ما دبت الغيرة في قلب سارة عليها السلام وهم جميعًا في أرض الشام عندها تصرف إبراهيم تصرف الحكيم ففرق بين الزوجتين وأخذ هاجر وابنها الوليد إلىٰ مكة في وادٍ لا أنيس به ولا زرع يظلهم ولا ضرع يغذيهم ولا ماء يرويهم فلما انتهىٰ إليه وضعها به حيث أمره الله وقفل راجعًا.

ولك أن تتخيل كم هو ابتلاء أن يترك الرجل زوجته وفلذة كبده ووحيده بأرض قفر هـٰكذا لكن حكمة الله اقتضت ذٰلك، والإجابة حاصلة، واليقين بمن أنجاه من النيران أنَّه سوف ينجيهم من الهلكة إلىٰ حين الأجل.

وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتردد عليهم بين الحين والآخر، وبلغ الابن مع أبيه السَّعي وتعلق بأبيه ورأىٰ إبراهيم في المنام أنَّه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام حق يا إلـٰهي كم هو ابتلاء وأي صعوبة علىٰ النفس البشرية أن تستجيب لذٰلك، وأن تباشر الذبح بيدها لكن أمر الله أعظم والتسليم لحكمه ألزم والشروع في تنفيذ أوامره لا يقبل التأخير أو التردد، فأقبل إبراهيم الأب الحاني على ابنه يعرض عليه الأمر الرباني الذي لا مناص منه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢].

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٨/ ٢٢٩).

(٢) تفسير ابن كثير(٥/ ٣٤٦).

(٣) راجع: قصص الأنبياء، لابن كثير (١/ ١٦٧ومابعدها).

هنا انتهىٰ الحوار وجاء التنفيذ وأخذ إبراهيم يسوق ابنه إلىٰ مرقده الأخير ليذبحه كما تذبح الشاة، فأضجعه علىٰ جبينه وسلما أمرهما إلىٰ الله تعالىٰ واستل إبراهيم السكين ولم يبق إلاَّ الذبح وتفجر الدماء وإبراهيم ـ عليه السلام ـ قد أخذ السكين بقوة، وألقىٰ الصبي علىٰ قفاه كي لا يرىٰ وجهه فتزداد لوعته.

وفي هٰذه اللحظة الحاسمة والنسمة الأخيرة لإسماعيل والسكين مقبلة عليه بالموت المحقق عندها تجلت عناية الله ورحمته بعباده المحسنين مناديًا عبده الطائع كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٣ـ ١٠٦]، وفدى الله إسماعيل ـ عليه السلام ـ من فوق السماوات بذبح عظيم إنه كبشٌ وجده إبراهيم قد أعده له بأمر الله تعالىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٧]، وهٰكذا يكون الصبر علىٰ الابتلاء وعلىٰ الأقدار المؤلمة من مرشحات الإحسان العظيمة كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٨ـ ١١٠][1].

٣ـ إحسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ بإكرامه الضيفان.

إنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قدوة عظيمة في صبره وجهاده وهو قدوة كذٰلك بما ضربه من أروع المثل في إكرامه ضيفه حتىٰ أنَّه كان يكنىٰ بأبي الضيفان لكثرة غشيانهم بيته وعظم إكرامه لهم، وقد نوه الله بذكر كرمه في كتابه العزيز حيث قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ـ ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩].

ووجه الدلالة علىٰ كرمه الآتي:

أولاً: أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يوكل بأضيافه أحدًا يخدمهم، وإن كان ذٰلك مقبولاً إلاَّ أنَّه من غاية كرمه وحبه وتفانيه لأضيافه يخدمهم بنفسه مع سمو مكانته ورفعة درجته عندالله تعالىٰ وعند المؤمنين، فسمى الله ضيوفه مكرمين[2].

ثانيًا: أنَّ إبراهيم رد السلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل عليهم السلام زيادة في الإكرام، قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ حيا الخليل بأحسن مما

---

(١) راجع: قصص الأنبياء، لابن كثير (١/ ١٦٩ومابعدها).

(٢) انظر تفسير القرطبي (١٧/ ٣١).

حُيي به[1].

ثالثًا: أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد أن رحب بضيفانه وحياهم أحسن تحية مال مسرعًا إلىٰ أهله يباشر قرىٰ أضيافه، وهنا انطلق إلىٰ منزله كالمستخفي من ضيفه، لئلا يظهروا علىٰ ما يريدون أن يتخذ لهم من الطعام[2].

وفي هـٰذا المشهد من روعة الكرم ما يعرفه الكرماء ومن نزل ضيفًا علىٰ الكريم، قال الله تعالىٰ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: ٢٦].

رابعًا: أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ اختار أسرع الوسائل لطهى الطعام وهو الشواء، ثم إنَّ الشواء من ألذ الطعام، لا سيما لمن كان بعيد عهد به، وفي نظره أنَّ هـٰؤلاء ليسوا من أهل البلد.

خامسًا: أنَّ من شدَّة كرم إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنَّه اتَّخذ نعمًا احتسابًا للضيفان، واختار أحسنها سنًا وأكثرها شحمًا ولحمًا طيبًا، وهو العجل، والعجل ولد البقرة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩].

سادسًا: أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان يرغب أضيافه ويحثهم علىٰ الأكل، وفي ذٰلك مؤانسة الضيف ورفع كلفة عدم الأكل عنه.

هـٰذا ولعلَّ في الآيات ألطافًا تدل علىٰ كرم إبراهيم أعظم من هـٰذا، ولا شكَّ أنَّ بذل الندىٰ، وإكرام الضيف من مرشحات الإحسان، لذٰلك ذكر الله صفات المحسنين، وعقب بإكرام إبراهيم أضيافه، وفي ذٰلك إشارة واضحة إلى أنَّ الكرم صفة لازمة من صفات المحسنين، ولعلَّ ذكر قصة إكرام إبراهيم أضيافه أعظم من ذكر الكرم مصفوفًا مع صفات المحسنين في الآيات مجردًا، إذ القصة أوقع في النفس وليس ذكرها مجرد سرد فقط بل لأخذ القدوة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ٢٨].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير(١٢/ ١١٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٣١).

ثالثًا: يوسف ـ عليه السلام ـ.

أ ـ نسبه

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ.

ب ـ مولده:

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالىٰ ـ إنَّ أم يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن يولد لها.

واسمها ـ راجيل ـ فدعت الله تعالىٰ، وسألته أن يهب لها غلامًا من يعقوب، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها، فحملت من نبي الله يعقوب ـ عليه السلام ـ فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمته يوسف. . . وهم مقيمون بأرض حران[1].

ج ـ نشأته ـ عليه السلام ـ

نشأ يوسف ـ عليه السلام ـ في حجر والده المحب له وقد كان يرعاه أشد الرعاية ويؤثره علىٰ إخوته لما رأىٰ من علامات النبوة عليه، إلاَّ أنَّ ذٰلك الحب والإيثار كان سببًا في معاناة يوسف ـ عليه السلام ـ مع إخوته حيث كادوا له وأزمعوا التخلص منه وهو صبي صغير لا يملك أن يدفع عن نفسه تلك المؤامرة الخطيرة: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف: ٨ ـ ١٠].

د ـ مكانة يوسف بين الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ:

يوسف عليه السلام كريم وابن كرام لما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل يا رسول الله مَنْ أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**» فقالوا: ليس عن هٰذا نسألك قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**» قالوا نعم قال: «**فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا**»[2].

هـ: صور من إحسان يوسف ـ عليه السلام ـ

الصورة الأولىٰ: عظم عفوه وصفحه وغفرانه.

إنَّ العفو والصفح والمغفرة للمسيئين إذا قدر عليهم المرء من أعظم خصال الإحسان، ويوسف ـ عليه السلام ـ ضرب مثالاً رائعًا لمن جاء بعده في هٰذا الخلق الكريم إذ أنَّ إخوانه، كانوا عشرة لما رأو ميل أبيهم إلىٰ

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٩٥).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٨٤٦) (٢٣٧٨).

يوسف ـ عليه السلام ـ غاظهم ذلك، وأجج الشيطان نار الحقد والعداوة في قلوبهم، وبدأوا يفكرون في وسيلة يتخلصون بها من يوسف، ليخلو لهم وجه أبيهم، وانتهوا إلىٰ حيلة هي أن يتظاهرون أمام أبيهم بمحبة أخيهم، والشوق إلىٰ رفقته في رحلة برية يرتع فيها ويلعب: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يوسف: ١١ـ ١٤]. وأذن الأب مع تخوفه علىٰ يوسف ـ عليه السلام ـ حتىٰ إذا ابتعدوا به انهالوا عليه ضربًا واحدًا تلو الآخر، وكلما ضربه واحد استغاث بالآخر، ولكن هيهات لا رحمة(١) ولما قارب الهلكة نادىٰ أعقلهم: ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٢]

فامتثلوا الرأي وعلقوه بحبل ثم ألقوه في قعر البئر، ثم ولوا مدبرين معتقدين أنَّ البئر أمست مقبرة له، إلاَّ أنَّ رحمة الله ولطفه الخفي أحاط بيوسف، فأرسل إليه جماعة من الناس مسافرين، وفي تلك البقعة احتاجوا إلىٰ الماء، فأبصروا البئر وعليها الدلاء، فأدلوا في البئر وظنوا ثقل الدلاء طالعًا أنَّه الماء، ولم يفجأهم إلاَّ الغلام متعلقًا به، فلما رأوه استبشروا به أيما استبشار، إذ هو سلعة مرغوبة، وأمَّا إخوته فعادوا إلىٰ أبيهم وكان ما أرادوا، عندها جاءوا بقميص يوسف ـ عليه السلام ـ ملطخًا بالدم زاعمين أنَّ الذئب علىٰ حين غفلته منهم أكله، وأنَّ هـٰذا ما كان كما حكىٰ الله عنهم بقوله: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٦، ١٨].

لقد وقع يوسف ـ عليه السلام ـ في ظلم جديد فبدل أن يحسن إليه هـٰؤلاء الرفقة ويعيدونه إلىٰ والده لتقر عينه به وهـٰذا واجب أهل المروءات إلاَّ أنَّهم ويالسوء الصنيع أضمروا في أنفسهم أن يكون رقيقًا يباع ويشتري، ولما لم يكن بحسبانهم مكانة هـٰذا الصبي باعوه بثمن بخس ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٩، ٢٠]، وكان السوق الذي يباع فيه يوسف عليه السلام مصر، وسخر الله تعالىٰ عزيز مصر وهو أحد وزراء الملك أن يشتريه

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٣٣٢).

وذهب به إلىٰ زوجته وطلب إكرام مثواه رجاء منفعته أو اتخاذه ولدًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

وفي بيت عزيز مصر دارت أحداث دامية، هي أشد ابتلاء علىٰ يوسف من الجب، وسيأتي الحديث عنها في عفة يوسف ـ عليه السلام ـ ومن هٰذا البيت الذي تديره امرأة شهوانية إلىٰ السجن ويمكث العبد الصالح فيه سنين من دون ذنب اقترفه إلاَّ أنَّه استعصم من الفاحشة، وشاءت إرادة الله أن يرىٰ الملك رؤيا أرقته وجمع لها رجال دولته، ولم يجد تأويلاً لها شفي غليله، وهنا تذكر أحدُ السجناء مع يوسف ـ عليه السلام ـ بعد خروجه براعة يوسف في تأويل الرُّؤَىٰ فأرشد الملك إلىٰ علم يوسف ـ عليه السلام ـ وقدرته الدقيقة في تأويل رؤياه وسرعان ما طلب الملك يوسف ـ عليه السلام ـ ، إنَّ يوسف ـ عليه السلام ـ عالم بتأويل الرؤى، كما قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

وقد جرب قدرته الصادقة علىٰ ذٰلك فقد فسر لكل واحد رؤيا وكانت كما فسَّر فالسجين الأول: الذي قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، قال له يوسف ـ عليه السلام ـ: «ستكون من حاشية الملك، وتقدم إليه ما يشرب من خمر».

وللسجين الثاني: الذي قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ [يوسف: ٣٦]. قال له يوسف ـ عليه السلام ـ سيحكم عليك بالموت، ثم تصلب، وتترك في العراء حتىٰ تأكل الطير من لحم رأسك، ولذا كان نداء الناجي: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: ٤٦].

وفسَّر الصديق هٰذه الرؤيا أحسن تفسير: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٧، ٤٩].

وهنا لم يكتف يوسف ـ عليه السلام ـ بتأويل الرؤيا، بل حرص علىٰ دفع الخطر والمهلكة المرتقبة للناس، فوضع الحلول المناسبة الناجحة فأمرهم أن يقسموا الحصاد قسمين:

الأول: يدخر في سنبله حتىٰ لا يأكله السوس، أو الآفات، وفي ذٰلك من براعة حفظ الأغذية ما لم يكن يعرف من قبل.

والثاني: يؤكل باقتصاد مخافة الجفاف والمجاعة، حتىٰ تنتهي سبع السنوات الشداد وتأتي الثامنة وقد أغاث الله فيها الناس وهنا أثار هٰذا التأويل العجيب

نفس الملك، وطلبه على الفور ومنحه عفوًا من السجن، لكن الصديق الذي سجن ظلمًا وعدواً أراد إظهار براءته على رؤوس الأشهاد من تهمة امرأة العزيز له، وجيء بامرأة العزيز والنسوة معها ودارالسؤال والجواب وأعلنَّ: ما علمنا عليه من سوء، : ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥١].

وكان جزاء هذا الإتقان والعفة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤]، ولقد كان الملك حكيمًا عندما قرب يوسف ـ عليه السلام ـ فإنَّه الرجل القادر بإذن الله لإدارة دفة الاقتصاد في البلد، وإخراج الناس من مجاعة محدقة.

ولما لم يكن الملك عالمًا بجميع قدرات يوسف ـ عليه السلام ـ أبدى صفاته: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

ولله تعالى في ذلك حكمة تتسق معها قصة يوسف ـ عليه السلام ـ مع إخوته.

ولما باشر يوسف ـ عليه السلام ـ الوزارة بمصر، ومضت سبع السنين المخصية، ثم تلتها سبع السنين المجدبة كما فسر رؤيا الملك. عم القحط بلاد مصر بأكملها، ووصل إلى بلاد الشام، وهي التي فيها يعقوب ـ عليه السلام ـ، وأولاده قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦].

كان الناس يردون على يوسف ـ عليه السلام ـ من كل الأقاليم المجاورة يطلبون القوت.

وممن جاء إخوته ـ عليه السلام ـ من أرض الشام إلى مصر طلبًا للطعام فدخلوا عليه فعرفهم ولم يعرفوه فرحب بهم أيما ترحيب، وكان خير المنزلين لهم ضيافة وحسن لقاء، وأكرمهم بوفاء الكيل، وقبل أن تحمل الإبل كان شرط يوسف ـ عليه السلام ـ.

أنَّه لن يعطيهم ما جهَّزهم به إلاَّ إذا رجعوا وأتوا بأخ لهم من أبيهم، وإلاَّ فلا كيل ولا وزن ولا إقامة لهم هنا، ولا ترحيب، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ

بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف: ٥٨- ٦٦].

فلما جاءوا بأخيهم قرَّبه يوسف ـ عليه السلام ـ إليه وأعلمه بأنَّه أخوه وعليه ألاَّ يخبر بذٰلك، وأخذ يوسف ـ عليه السلام ـ في تنفيذ خطة محكمة لإبقاء أخيه عنده، فجذبهم بالطعام وأمر بالصواع أن توضع في رحل أخيه الصغير، وتحركت القافلة نحو الشام وَهُمْ بأحسن حال وأخوهم برفقتهم، ولما قطعوا مسيرةً وإذ بِصَوتٍ يناديهم نفقد صواع الملك، ولمن جاء به البراءة وحمل بعير من الطعام.

ولما كانوا علىٰ يقين أنَّهم لم يسرقوا الصواع أقسموا علىٰ براءتهم من السرقة، وهنا انتهزها المنادي فرصة، قال فما حكم من فعل ذٰلك قالوا حكمه في شريعتهم أن يُسترقَّ وهنا تمكن يوسف من إبقاء أخيه بحوزته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٦٩- ٧٦].

وأخذ الإخوة يلحون على العزيز في العفو عن أخيهم أو أخذ أحدهم مكانه وأخذوا ينادونه بصفة الإحسان علَّه يخلصهم من هٰذه المحنة قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: ٣٦].

وأبىٰ يوسف ـ عليه السلام ـ أن يأخذ أحدهم مكانه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٧٩]. ولزيادة نكبتهم لم يكتفوا بما فعلوا بيوسف من قبل، بل كالوا له تهمة أخرىٰ: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف: ٧٧].

وانتهىٰ الموقف بإبقاء يوسف لأخيه، وضاق الأمر علىٰ الإخوة بعد أن أخفقت محاولاتهم في إنقاذه وعقدوا اجتماعًا لمواجهة هٰذه المشكلة وكان أرشدهم ألزم نفسه البقاء بمصر حتىٰ يأذن له أبوه أو يحكم الله حكمه وهو خير الحاكمين، وأمرهم بالرجوع إلىٰ أبيهم وإخباره وقائع الحادثة كما هي:

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف: ٨١ـ ٨٢]. وزادت المصيبة على الأب الحاني بفقد ابنه الآخر قال: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف].

ومع مرارة المواقف للأب المكلوم لم يستطع الإخوة الصمت نحو اشتياق يعقوب ليوسف عليهما السلام وقد ظنوا أنَّ الأب أخذ ينساه لبعد الزمن فلم يتمالكوا حيث قالوا: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يوسف: ٨٥]، لكن الأب يعلم من الله ما لا يعلمون فلم تزل رؤيا يوسف ماثلة أمام بصره وما يجده في قلبه من إمكانية اللقاء متجددة فأمر بنيه: ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧]. وعقد الإخوة العزم علىٰ البحث، واتخذوا من طلب الإحسان من يوسف بالكيل مرة أخرىٰ ذريعة إلىٰ الوصول إليه، وكانت المفاجأة الكبرىٰ حين أفصح يوسف ـ عليه السلام ـ عن نفسه: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٨٨ـ ٩٠].

وما كان من الإخوة إلاَّ أن سلموا للحق: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف: ٩١]. وعند هـٰذا المشهد المثير والقدرة علىٰ الانتقام تحركت مشاعر الإحسان عند يوسف ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف: ٩٢].

فيا سبحان الله كَظْمٌ للغيظ، وصفح جميل، وعفو كريم، ثم يدعو الله لهم بالمغفرة، وعدم المؤاخذة، ويرفع مشاعر الطمع في رحمة الله في قلوبهم بأنَّه أرحم الراحمين، وهـٰكذا يمتد إحسان يوسف ـ عليه السلام ـ ليجمع أسرة يعقوب جميعًا وَيُنْزِلَ أبويه مقامًا كريمًا فأرسلهم علىٰ التو إلىٰ يعقوب ـ عليه السلام ـ وجعل لهم أمارة صدق ودواء لعيني يعقوب التي ذهب البكاء علىٰ يوسف بضوئها تلك الأمارة والدواء قميصه الذي نزعه من علىٰ جنبه: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف: ٩٣]. هنا لم يستطع الإخوة الصبر علىٰ هـٰذا الشوق

والمحبة ليوسف: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: ٩٥].

وبدأ مشهد مثير آخر مع يعقوب ـ عليه السلام ـ وبقية أبنائه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾ [يوسف: ٩٧].

وتحركت قافلة آل يعقوب إلىٰ مصر إلىٰ يوسف وأخيه ليجتمع الشمل ويفرح الجميع بفضل الله ورحمته. ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: ٩٩ـ ١٠٠]

وتوج يوسف إحسانه بهٰذا الاعتراف لله تعالىٰ بالفضل والدعاء الحسن: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

إنها صور رائعة من إحسان هٰذا النبي الكريم عليه السلام، حَرِيَّةٌ بأن تكون نبراسًا لكل من أراد السمو والرفعة إلىٰ مرتبة الإحسان الكريمة[1].

---

(١) انظر قصته كاملة في: البداية والنهاية (١/ ١٩٥ومابعدها).

رابعًا: موسىٰ عليه السلام.

أ ـ نسبه:

هو موسىٰ بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

مولده:

ولد موسىٰ عليه السلام في أرض مصر في عهد فرعون ويقال إنَّ فرعون اسمه: «الوليد بن مصعب»[1]، وفرعون يطلق علىٰ كل مَنْ ملك مصر من العمالقة[2]، وفرعون هـٰذا لم يحكم مصر أسوأ منه[3].

ج ـ صفاته الخلقية:

جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**رأيت ليلة أُسري بي موسى، رجلاً آدم طوالا، جعدًا، كأنه رجال شنوءة...**»[4].

د ـ مكانته بين الأنبياء والرسل عليهم السلام:

موسىٰ ـ عليه السلام ـ أحد أنبياء الله تعالىٰ ورسله عليهم السلام، وهو من أولي العزم الخمسة المذكورين في قوله تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣]

وقد اختص الله تعالىٰ موسىٰ ـ عليه السلام ـ من دون الرسل والأنبياء بأنْ كلمه من دون ترجمان أو واسطة حيث قال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وموسى محسن أيما إحسان كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ [القصص: ١٤].

هـ ـ صور من إحسان موسىٰ ـ عليه السلام ـ

الصورة الأولىٰ: ثقة موسىٰ بالله تعالىٰ ونصرته للمؤمنين.

عندما علا فرعون وتجبر في الأرض بغير الحق، وصادر الحريَّة الشخصية للناس، وأذلَّ بني إسرائيل ووصل به الحال إلىٰ ادِّعاء الربوبية والألوهية، شاءت إرادة الله تعالىٰ أن يرسل رسولاً يدفع الباطل عن الخلق ويرد بإذن ربه الحق إلىٰ نصابه، ويجرد الناس من العبودية لفرعون، وكانت

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٨٧).

(٢) روح المعاني: (٧/ ١٧).

(٣) البداية والنهاية (١/ ٢٥٧).

(٤) صحيح البخاري (٣/ ١١٨٢) (٣٠٦٧).

خيرة الله تعالىٰ واصطفاؤه لهٰذه المهمة الكبرىٰ أن انتدب لها موسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٤ـ ٦].

وقد حكى تعالىٰ عن هٰذا الطاغية الجبار دعواه الربوبية والألوهية حيث قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨].

ولم يكتف المجرم الأفاك بهٰذا بل أخذ يسخر من موسىٰ ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وطالت مدة المواجهة بين موسىٰ ـ عليه السلام ـ وفرعون، وتعددت فصولها، ومنها أنَّ موسىٰ ـ عليه السلام ـ اتَّخذ أسلوب اللين والدعوة بالتي هي أحسن، وأراه من الأيات والمعجزات الباهرة ما جاء ذكره في القرآن، ومن ذٰلك قول الله تعالىٰ: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، لٰكن ذٰلك لم يجد وخشي موسىٰ علىٰ نفسه من بطش فرعون: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه: ٤٥].

وهٰذا الذي حصل، فقد توعد فرعون، وأرعد وأزبد، أن يأتي أحد رعيته بما لا يرضاه: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦ـ ٢٩].

واتَّخذ فرعون احتياطاته لدفع هٰذه الدعوة فاستعان برجالات دولته ورعيته لمواجهة موسىٰ وَمَنْ معه من العصبة المؤمنة: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وهٰكذا أصرَّ فرعون وقومه علىٰ الكفر ورفض الدعوة فأنزل الله عليهم العذاب لعلهم يؤمنون ولكنهم أبوا كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣].

ومع هٰذا العذاب شعر فرعون وقوعه باشتداد الوطأة عليهم فاتجهوا إلىٰ موسىٰ ـ عليه السلام ـ كاذبين أنَّه إذا دعا ربه وكشف عنهم العذاب فسيؤمنون، ويرسلون معه بني إسرائيل قال تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥].

فلما نكثوا ما عاهدوا عليه موسىٰ دعا عليهم فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ

﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٨ـ ٨٩].

عند ذٰلك لما أيقن موسىٰ ـ عليه السلام ـ بهلاك القوم الظالمين عزم علىٰ الخروج من مصر بمن معه من بني إسرائيل، حتىٰ لا يصيبهم ما يصيب القوم الظالمين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه: ٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣].

وأخذ موسىٰ ـ عليه السلام ـ بني إسرائيل وتحرك بهم في جنح الظلام، ولـٰكنه لم يكن بخافٍ عن جواسيس فرعون الذين أبلغوه تحرك بني إسرائيل، فنادىٰ فرعون في أركان دولته وجمع جنده والكبراء من رعيته، وشاءت إرادة الله تعالىٰ أن يكون مسير موسىٰ ـ عليه السلام ـ صوب البحر وهـٰذا ما أطمع فرعون في إدراكهم إذ أنَّه لا مفر من المواجهة بعد أن يردهم البحر إليه، وموسىٰ ـ عليه السلام ـ يتولىٰ قيادة هـٰذا الرهط المؤمن الفار بدينه وعقيدته من الطغيان والاضطهاد، وسارت الجموع، وانتهىٰ الليل بعد طول مسير، وبزغت الشمس ورأى كل فريق صاحبه، ولم يفاجيء بني إسرائيل إلاَّ البحر أمامهم، فأنّى لهم عبوره بغير وسيلة وهم يقربون منه، وجند الباطل يقتربون منهم، واشتد الكرب، وقربت ساعة الصفر، فصاحوا في موسىٰ ـ عليه السلام ـ هـٰذا فرعون وجنده إنَّه يقترب إنا لمدركون: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦٠ـ ٦١]، غير أنَّ الواثق بربه الموقن بنصره العالم أنَّ الله معه يسمع ويرىٰ، وأنَّه تعالىٰ الركن الشديد، والقوة التي لا تقهر، وأنَّ بطشه شديد، نادىٰ في بني إسرائيل وقد بلغت القلوب منهم الحناجر ويظنون بالله الظنونا: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢] وعلىٰ ؛التو وبدون تأخير يأتي الفرجُ والرَّوْحُ من الله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

وانفلق البحر ووقفت المياه كالجبال العظيمة، وسارت الجموع المؤمنة وكأنما يسيرون علىٰ اليبس، وعاد الأمن إلىٰ قلوبهم، إنَّ مَنْ أنجاهم من فرعون قادر علىٰ إنجائهم من الغرق: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

غير أنَّ فرعون لم توقفه هـٰذه الآية العظيمة، ويثوب إلىٰ رشده ويترك موسىٰ والثلة المؤمنة في شأنها، بل تناسى ذٰلك كله وأخذته كبرياؤه وصلفه إلىٰ ولوج البحر، غير عابيء بما قد يحصل، شأنه شأن الطغاة الذين يفسرون هـٰذه المعجزات العظيمة بأنَّها من حتميات الطبيعة، أو من قبيل الصدفة وأنه

لا دخل للقدرة الإلـٰهية في ذٰلك، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ ﴾ [يونس: ٩٠]، وكانت النتيجة: ﴿ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦ ﴾ [الشعراء: ٦٤-٦٦].

ووقف قوم موسىٰ علىٰ الشاطيء الآخر، يشاهدون هـٰذه الخارقة الإلـٰهية، وكان يومًا عظيمًا تعظمه الأمم المسلمة إلىٰ يومنا هـٰذا قال الله تعالىٰ: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ۝١٣٦ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨ ﴾ [الشعراء: ٦٧، ٦٨].

وأما فرعون فشاءت القدرة الإلـٰهية أن يكون له مواقف هي شدة في النكاية وعبرة لكل جبار عنيد. قال تعالىٰ: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ﴾ [يونس: ١٠].

ولكن هيهات أن يُقْبَلَ منه ذٰلك وقد أصبح لا حول له ولا قوة وهو في الغرغرة قال تعالىٰ: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢ ﴾ [يونس: ٩١، ٩٢].

الصورة الثانية: إحسان موسىٰ عليه السلام في الوفاء بالعهود.

والقصة أنَّ موسىٰ ـ عليه السلام ـ لما خرج من مصر الخروج الأول إلىٰ أرض مدْيَن، بعد أن استغاثه الذي من شيعته علىٰ الذي هو من عدوه للمرة الثانية، وكان قد ظنَّ الإسرائيلي عندما أقبل موسىٰ عليه السلام لنصرته أنَّه يريد ضربه والانتقام منه دون الفرعوني فصاح في موسىٰ عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ۝١٩ ﴾ [يونس: ١٩]. فطار بها الفرعوني وأخبر أنَّ موسىٰ هو قاتل الفرعوني الأول. عندها بعث فرعون جنده لقتل موسىٰ، لكن الله تعالىٰ أرسل لموسىٰ من أعلمه الطلب له ونصحه بالخروج كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١ ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

واختار موسىٰ ـ عليه السلام ـ أرض مدين مهاجرًا له يفر بنفسه إليه من فرعون وجنوده: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ ﴾ [القصص: ٢٢].

وكانت رحلة شاقة بما تعنيه كلمة شاقة، إذ لا زاد ولا راحلة ولا يدري موسىٰ ـ عليه السلام ـ نهاية هٰذه الرحلة الزمانية والمكانية.

وفي الطريق أبصر ـ موسىٰ عليه السلام ـ بئرًا والناس يزدحمون عليها كلهم يريد الماء قبل الآخر، ووجد امرأتين منحازتين عن الناس لم يتركوا لهما مجالاً للسقي، وهنا تحركت شهامة موسىٰ ـ عليه السلام ـ ورحمته لنجدتهن قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص: ٢٣]. وعلىٰ الفور قام موسىٰ ـ عليه السلام ـ بعمل الإغاثة، ونافس الرجال ونزع لهما الماء، فلما قفلن راجعات تنحىٰ موسىٰ ـ عليه السلام ـ إلىٰ الظل ودعا ربه بلسان الحال والمقال، وشكا إليه الحاجة: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص: ٢٤]. وفي هٰذه اللحظة التي يترقب موسىٰ فيها العناية الربانية، والمدد الإلٰهي، والرزق من لدن رب الأرباب ومسبب الأسباب، وإذ بإحدىٰ المرأتين اللتين سقا لهما مقبلة إليه، في حشمة ووقار، شان العفيفات من المؤمنات تدعوه بصوت حبسه الحياء إنَّ له موعدًا مع أبيها يجزيه أجر عمله الكريم لهن: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص: ٢٥]، والآية تطوىٰ الأحداث والحوارات التي دارت بين موسىٰ ـ عليه السلام ـ وأبي البنتين، ومن الحوارات التي يمكن أن تدار أنَّ شعيبًا استخبر موسىٰ ـ عليه السلام ـ عن ذاته وسبب مجيئه، وأنَّ موسىٰ عرفه بنفسه وقصة خروجه، وأنَّ شعيبًا بشَّره بالأمن والنجاة من فرعون، وجنده، وكانت إحدىٰ البنتين قد أعجبها ما رأت من قوَّة موسىٰ ـ عليه السلام ـ وشدته عندما سقىٰ لهما، وأعجبها أكثر من ذٰلك أمانته حيث حفظ بصره من النظر إليها في مجيئها إليه وعودتها معه إلىٰ أبيها، وأمام هٰذه التزكية والشهادة الصادقة لموسىٰ عليه السلام، رأىٰ شعيب أنَّ من الصَّالح له ولأهل بيته أن يزوج هٰذا الرجل الكريم بشمائله الطاهرة إحدىٰ ابنتيه: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص: ٢٦، ٢٧]، وهنا انتقالٌ سريعٌ من وعثاء السفر، وعناء الطريق، وترقب موسىٰ ـ عليه السلام ـ لأعين فرعون، إلىٰ مفاوضة جادَّة من أجل النكاح وإبرام شروطه، إنَّه لا شيء يفسر به إلاَّ أنَّ الله استجاب لموسىٰ دعوته لما تولىٰ إلىٰ الظل، فسبحان من يجيب الداعي إذا دعاه وأركان هٰذا الزواج الآتي: موسىٰ

عليه السلام العبد الصالح النبي الكريم زوج وتلك المرأة الوقورة الطاهرة، صادقة الحدس التي تربت في بيت استقامة وصيانة زوجة، والأب الفاضل الحريص علىٰ زواج ابنته من زوج رآه خيرة الأزواج، والمهر عقد إيجارة علىٰ رعي الغنم ثماني سنين فإن زاد عليها موسىٰ اثنتين فذٰلك إحسان منه وما علىٰ علىٰ المحسنين من سبيل: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٢٨﴾ [القصص: ٢٨]. إنَّ لله تعالىٰ حكمة عظيمة في بُعْدِ موسىٰ عن وطنه وانفراده برعي الغنم هٰذه المدة لتكون درسًا عظيمًا لموسىٰ في القدرة مستقبلاً علىٰ رعاية مصالح بني إسرائيل والصبر علىٰ مشاق الدعوة، وهٰكذا قضىٰ موسىٰ عليه السلام الأجل ووفىٰ بالعهد الذي أبرمه مع أبي البنت وانتهت ثماني السنوات وموسىٰ يقوم بالمهمة خير قيام وزاد السنتين اللتين هما إحسان منه وقفل راجعًا إلى أهله بعد طول غيبة: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: ٢٩].

وجاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قضىٰ [موسىٰ] أكثرهما وأطيبهما إنَّ رسول الله إذا قال فعل»[١].

وجاء في ذٰلك أخبار مرسلة[٢][٣].

---

(١) البداية والنهاية: (١/ ٢٤٥).

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) راجع سيرته عليه السلام في تاريخ الطبري (١/ ٣٨٧ومابعدها).

خامسًا: عيسىٰ بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

أ ـ نسبه:

هو عيسىٰ بن مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر ينتهي نسبه ـ عليه السلام ـ إلىٰ داود عليه السلام[1].

مولده:

ولد عيسىٰ ـ عليه السلام ـ لغير أب معجزة كبرىٰ وقدرة إلٰهية عظيمة وأمه عليها السلام مريم كانت فُضْلَىٰ العابدات في زمانها طاهرة عفيفة فشاءت إرادة الله أن يهب لها ولدًا وأن يجعلها وابنها آية وفتنة للعالمين: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥ـ ٤٦] أرسل الله جبريل ينفخ في طرف كمها فتحمل بإذن الله تعالىٰ بعيسىٰ ـ عليه السلام ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٢]. وهٰكذا أمر الله إذا أراد شيئًا: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

صفاته الخلقية:

كان عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ربعة ليس بالطويل ولا القصير، جميل البشرة إلىٰ الحمرة له لِمَّةٌ بين منكبيه عريض الصدر. واللمة: شعر الرأس إذا قارب المنكبين.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**رأيتُ ليلة أُسري بي . . . ورأيتُ عيسىٰ رجلاً مربوعًا مربوع الخلق، إلىٰ الحمرة والبياض . .** »[2].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ «**رأيتُ عيسىٰ، وموسىٰ، وإبراهيم، فأما عيسىٰ فأحمر جَعْدٌ، عريضُ الصدرِ . . .** »[3].

مكانته عليه السلام بين الأنبياء والرسل:

عيسىٰ ـ عليه السلام ـ عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وأحد أولي العزم الخمسة من الرسل كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٥٦).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١١٨٢) (٣٠٦٧).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٢٦٩) (٣٢٥٥).

د ـ صورة من إحسان عيسىٰ ـ عليه السلام ـ في أدبه مع ربه تبارك وتعالىٰ . .

كان مجتمع عيسىٰ عليه السلام الذي بعث فيه مجتمعًا يهوديًا منحرفًا غيَّروا وبدلوا وحرَّفوا في شريعة موسىٰ عليه السلام وكان علىٰ عيسى عليه السلام أن يسعىٰ جاهدًا في ردهم إلىٰ الصواب، وحيال عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ودعوته المباركة انقسم اليهود إلىٰ ثلاث فرق.

الفرقة الأولىٰ: المؤمنة التي آمنت به وصدقته واتَّبعت أمره، وقالوا فيه قول الحق، أنَّه بشر خلقه الله كما خلق آدم من قبل من غير أب ولا أم، وكما خلق حواء من غير أم وأنَّ الله اصطفاه بالرسالة وأيَّده بالمعجزات وهم قلة استأصلت اليهود شأفتهم بعد عيسىٰ ـ عليه السلام ـ.

الفرقة الثانية: فريق كفروا بعيسىٰ وناصبوه العداء ووشوا به، ووصفوا ما جاء به من المعجزات أنَّ ذٰلك لا يعدوا أنْ يكون سحرًا لا حقيقة له.

والفريق الثالث: فتن به عليه السلام، ولم تستطع عقولهم التصديق بأنَّه عبدالله ورسوله، فجعلوه ابنًا لله تعالىٰ وإلـٰهًا يعبد معه، وقد أخبر الله تعالىٰ عن تبرئة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ يوم القيامة ممَّا قالوا بما فيه توبيخهم وتقريعهم حيث قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٩].

وفي هـٰذه الآيات من إحسان عيسىٰ ـ عليه السلام ـ في أدبه مع ربه ما يعجز عنه القلم، ومن ذٰلك:

١ـ أنَّ عيسىٰ ـ عليه السلام ـ لم يبادر إلى نفي هـٰذه السيئة العظيمة أولاً بل نزه الله عن ذٰلك وقدسه أن يكون معه إلـٰه ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾.

٢ـ أنَّ عيسىٰ ـ عليه السلام ـ نفىٰ عن نفسه القول علىٰ الله بلا علم: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

٣ـ أنَّه عليه السلام أثبت علم الله بما تكنه النفوس فضلاً عن ما تفصح به الألسن: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة: ١١٦].

٤ـ أنَّه عليه السلام نفىٰ علمه بما في نفسه تعالىٰ: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

٥ـ أنه عليه السلام أثبت سعة علم الله بالمغيبات: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

٦ـ أنه عليه السلام أثبت طاعته لله تعالىٰ وعدم الافتراء عليه: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧].

٧ـ أنه عليه السلام لخص دعوته في عبارة وجيزة وهي أمر النصارىٰ بعبادة الله وحده دون سواه وعلل ذٰلك بأنه تعالىٰ ربه وربهم الذي خلقهم ورباهم بنعمه! : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

٨ـ إقراره ـ عليه السلام ـ بأنه كان معهم مشاهدًا لهم ورقيبًا يمنعهم من أن يقولوا مثل هٰذه المقالة الشنعاء: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

٩ـ أنه عليه السلام اعتذر لنفسه عن عدم قدرته علىٰ إنكار ذٰلك بعد أنْ رفعه الله إليه؛ لأنَّها سارت حائلاً بينه وبين ذٰلك: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

١١ـ أنه فوَّض أمرهم إلىٰ الله ومجازاتهم بأعمالهم إليه وأنَّ ذٰلك جار علىٰ عدله وحكمته تعالىٰ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

وفي ذٰلك أسوة حسنة للمحسنين بأن يتأدبوا مع ربهم أعظم الأدب حتىٰ ينظموا في سلك المحسنين من الأنبياء والرسل عليهم السلام.

سادسًا: محمَّد ﷺ:

أ- نسبه:

هو محمَّد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن حكيم بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كِنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نِزار بن معد بن عدنان وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[1].

ويسمىٰ محمَّد، وأحمد، والمتوكل ، والماحي، والحاشر، والعاقب والمقفِّي. . .[2].

ب ـ مولده ـ عليه السلام ـ

ولد محمَّد ﷺ عام الفيل، قيل يوم الإثنين لثنتي عشرة ليلةٍ خلت من رمضان، وقيل في ليلة الاثنين من ربيع الأول[3].

ج ـ صفاته الخِلْقية:

عن البراء ـ رضي الله عنه ـ يقول: كان رسول الله ﷺ رَجُلاً مربوعًا، بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجُمَّةِ إلىٰ شحمَةِ أذنيه، عليه حُلَّة حمراء، ما رأيتُ شيئًا قطُّ أحسن منه ﷺ[4].

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ: ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق، ولا بالجعد القططِ ولا بالسَّبط، بعثه الله علىٰ رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله علىٰ رأس ستِّين سنة، وليس في رأسه ولِحيته عشرون شعرة بيضاء[5].

وعن جابر بن سمُرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، أشكل العين، منهوس العقبين، قال قُلتُ لسِمَاكٍ: ما ضليع الفم؟ قال عظيم الفم قال قلتُ: ما أشكل العين؟ قال: طويل شقِّ العين قال: قلتُ ما منهوس العقبين؟ قال: قليلُ لحم العقبِ[6].

صورمن إحسانه ﷺ:

إنَّ صور إحسان محمَّد ﷺ كثيرة جدًا وقلَّما أذكر عنوانًا في هٰذا البحث إلاَّ أوردت فيه صورًا من إحسانه ﷺ سواء من الصور القولية أو

---

(١) تأريخ الإسلام [السيرة النبوية] للذهبي (١٧).
(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٨٦، ٨٧).
(٣) المرجع نفسه (٢٢ـ ٢٧).
(٤) انظر: صحيح مسلم (٢/ ١٨١٨) (٢٣٣٧).
(٥) صحيح مسلم (٢/ ١٨٢٤) (٢٣٤٧).
(٦) صحيح مسلم (٢/ ١٨٢٠) (٢٣٣٩).

العملية أو الاعتقادية وحتىٰ لا نقع في الإعادة والتكرار سأكتفي بإيراد بعض الصور من سيرته الحسنة ﷺ.

الصورة الأولىٰ: تعظيم حرمات الله تعالىٰ.

عن أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما توفي ابن رسول الله ﷺ إبراهيم، بكىٰ رسول الله ﷺ فقال المُعَزِّي: «إما أبوبكر وإما عمر» أنت أحق من عظم الله حقه، قال رسول الله ﷺ: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنَّه وعدٌ صادق وموعود جامع، وأنَّ الآخر تابع للأول لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل مما وجدنا وإنا بك لمحزونون**»[1].

عن المسوار بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ في حديث صلح الحديبية وفيه قال: فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلاَّ أعطيتهم إياها**»[2] أي خطة لا تجر إلىٰ القتال تعظيمًا للبلد الحرام.

الصورة الثانية: إحسانه ﷺ في حبه للطاعة.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبيﷺ أنه قال في شأن الركعتين عند طلوع الفجر: «**لهما أحب إليَّ من الدنيا جميعًا**»[3].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأُحب أن يُعرض عملي وأنا صائم**»[4].

الصورة الثالثة: إحسانه ﷺ في الوضوء.

عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ، وهي خالته، قال: فاضطجعتُ علىٰ عرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهلهُ في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتىٰ انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ثم استيقظ رسول الله ﷺ فجلس فمسح النَّوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر آياتٍ من خواتيم سُورة آل عمران، ثم قام إلىٰ شنٍّ معلقة فتوضَّأ منها فأحسن وُضُوءه، ثم قام يُصلِّي قال عبدالله بن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ فقمتُ فصنعتُ مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلىٰ جنبه، فوضع رسول الله ﷺ يده اليُمنىٰ علىٰ رأسي وأخذ

---

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٥٠٦) (١٥٨٩) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٢٦٥) (١٥٨٩) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٢٦٥) (١٢٩٢).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٩٧٤) (٢٥٨١).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٥٠٢) (٧٢٥).

(٤) سنن الترمذي (٣/ ١١٣) (٧٤٧) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ ٢٢٧) (٥٩٦).

بأُذني اليمنىٰ يفتِلها بيده، فصلَّىٰ ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتبين، ثم ركعتين، ثم أوتر ثم اضطجع حتَّىٰ جاءه المؤذن فقام فصلَّىٰ ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلَّىٰ الصُّبح[1].

الصورة الرابعة: إحسانه ﷺ في الصلاة.

وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن أنَّه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان فقالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيدُ في رمضان ولا في غيره علىٰ إحدىٰ عشرة ركعة يصلِّي أربعًا فلا تسل عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلِّي أربعًا فلا تسل عن حُسْنِهِنَّ وطُولهنَّ، ثمَّ يصلي ثلاثًا. قالت عائشة: فقلتُ يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال: «**يا عائشة إنَّ عيني تنامان ولا ينام قلبي**»[2].

الصورة الخامسة: إحسانه ﷺ في قراءة القرآن.

عن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقرأ والتِّين والزَّيتون في العشاء، وما سمعتُ أحدًا أحسن صوتًا منه أو قِراءةً[3].

الصورة السادسة: شدَّة خشيته ﷺ لربه تعالىٰ:

وعن عمر بن أبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ وذكر الحديث بطوله قال: قال ﷺ: «**أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**»[4].

الصورة السابعة: حرصه الشديد ﷺ وإكباره لذكر الله تعالىٰ.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول سبحان الله، والحمدلله، ولا إلـٰه إلاَّ الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»[5].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة «**رب اغفر لي وتب عليَّ، إنَّكَ أنت التواب الرحيم**»[6].

الصورة الثامنة: إحسانه ﷺ في قيام الليل.

عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قام حتىٰ انتفخت قدماه، فقيل له: أَتُكلف هـٰذا، وقد غفرالله لك ما تقدم من ذنبك

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٤٠١) (١١٤٠).
(٢) صحيح البخاري (١/ ٣٨٥) (١٠٩٦).
(٣) صحيح البخاري (١/ ٢٦٦) (٧٣٥).
(٤) صحيح مسلم(١/ ٧٧٩) (١١٠٨).
(٥) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٧٢) (٢٦٩٥).
(٦) سنن أبي داود(٢/ ١٧٨) (١٥١٦). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٢٨٣) (١٣٤٢).

وما تأخَّر، فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1].

الصورة التاسعة: حسن الظن بالله تعالىٰ والثقة به.

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنَّه غزا مع رسول الله ﷺ غزوة قِبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة، في وادٍ كثيرِ العِضاهِ فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناسُ يستظلون بالشجر، فنزل تحتَ شجرةٍ وعلَّق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابيٌّ فقال: «**إنَّ هـٰذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلْتًا، فقال: من يمنعك منِّي؟ فقلتُ: «الله» (ثلاثًا)، ولم يعاقبه وجلس**»[2].

الصورة العاشرة: شدَّة رحمته ﷺ.

عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إنَّ ابنًا لي قبض، فأْتِنَا، فأرسل يقرى السلام ويقول: «**إنَّ لله ما أخذ وله ما أعطىٰ، وكلٌّ عنده بأجل مسمىٰ، فلتصبر ولتحتسب**». فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفع إلىٰ رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنَّه قال: كأنها شنٌّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هـٰذا؟ فقال: «هـٰذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله مِنْ عباده الرحماء»[3].

الصورة الحادية عشر: حسن معاملته ﷺ.

عن جابر بن عبدالله قال: فقدت جملي ليلةً فمررتُ علىٰ رسول الله ﷺ وهو يشدُّ لعائشة قال فقال لي مالكَ ياجابرُ، قال: قلتُ فقدتُ جملي أو ذهب جملي في ليلة ظلماء قال: فقال لي هـٰذا جملُك اذهب فخذه، قال فذهبتُ نحوًا ممَّا قال لي فلم أجده، قال: فرجعتُ إليه فقلتُ يا نبيَّ الله ما وجدته قال فقال لي هـٰذا جمَلُك اذهب فخذه، قال: فذهبتُ نحوًا مما قال لي فلم أجده، قال: فرجعتُ إليه فقلتُ بأبي وأمي يا نبيَّ الله لا والله ما وجدته قال: فقال لي علىٰ رِسلكَ حتَّىٰ إذا فرغ أخذ بيدِي فانطلق بي حتَّىٰ أتينا الجَملَ، فدفعه إليَّ قال هـٰذا جملك قال: وقد سار النَّاس قال فبينما أنا أسير علىٰ جملي في عقبتِي قال: وكان جملاً فيه قِطافٌ قال: قلتُ يا لهفَ أُمِّي أن يكون لي إلاَّ جملٌ قطوفٌ قال: وكان رسول الله ﷺ بعدي يسيرُ قال: فسمع ما قلتُ قال: فلحق بي فقال: **ما قُلتَ يا جَابر قبل**قال فنسيتُ ما قلتُ

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢١٧١) (٢٨١٩).

(٢) صحيح البخاري، الفتح (٦/ ٩٦) (٢٩١٠).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٤٣١) (١٢٢٤).

قال: قلتُ ما قلتُ شيئًا يانبيَّ الله قال: فذكرتُ ما قلتُ قال: قلتُ يا نبيَّ الله يا لهفَاهُ أن يكون لي إلاَّ جملٌ قطوفٌ قال: فضرب النَّبي ﷺ عجزُ الجَمَل بسوطٍ أو بسوطي قال: فانطلق أوضع أو أسرع جملٍ ركبتُه قط وهو ينازعني خطامَهُ قال فقال لي رسول الله ﷺأنتَ بَائِعي جملك هٰذا قال: قلتُ نعم قال: بكم قال: قلتُ بِأُوقيةٍ قال: قال لي بَخ بخ، كم في أوقية من ناضح وناضح، قال: قلتُ يا نبيَّ الله ما بالمدينة ناضحٌ أُحب أنَّه لنا مكانه قال: فقال النبي ﷺ قد أخذتُهُ بأُوقيةٍ، قال: فنزلت عن الرحلِ إلىٰ الأرض، قال: ما شأنك؟، قال: قلتُ جملك قال: قال لي اركب جملك قال: قلتُ ما هو بِجملي، ولكنَّه جملك، كنَّا نراجعه مرَّتين في الأمر إذا أمرنا به، فإذا أمرنا الثَّالثة لم نراجعه، قال: فركبتُ الجمل، حتَّىٰ أتيتُ عمَّتي بالمدينة، قال: وقلت لها: ألم تري أنِّي بعتُ ناضحنَا رسول الله ﷺ بأوقيةٍ، قال: فما رأيتها أعجبها ذٰلك قال: وكان ناضحًا فارهًا، قال ثمَّ أخذت شيئًا من خبطٍ أو جرتُهُ إيَّاه ثم أخذتُ بخطامه فقدتُه إلىٰ رسول الله ﷺ، فوجدت رسول الله ﷺ مقاومًا رجلاً يكلمه، قال: قلتُ: دونك يا نبيَّ الله جملك، قال: فأخذ بخطامه ثمَّ نادىٰ بلالاً فقال زِنْ لجابرٍ أوقيةً وأوفه، فانطلقتُ مع بلالٍ فوزن لي أوقيةً وأوفىٰ من الوزن، قال: فرجعتُ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو قائمٌ يحدِّثُ ذٰلك الرجل، قال: قلتُ له قد وزن لي أوقيَّةً وأوفاني قال: فبينما هو كذٰلك إذ ذهبتُ إلىٰ بيتي ولا أشعر، قال: فنادىٰ أين جابرٌ قالوا ذهب إلىٰ أهله، قال: أدركْ ائتِني به، قال: فأتاني رسوله يسعىٰ، قال: يا جابرُ يدعوك رسول الله ﷺ قال: فأتيته فقال: فخذ جملك، قلتُ: ما هو جملي وإنما هو جملك يا رسول الله، قال: خذ جملك، قلتُ: ما هو جملي إنَّما هو جملك يا رسول الله، قال: خذ جملك، قال فأخذته، قال: فقال لعَمْري ما نفعناك لِنُنْزلك عنه قال: فجئتُ إلىٰ عمَّتي بالنَّاضحِ معي وبالأوقية قال: فقلتُ لها ما ترينَ رسول الله ﷺ أعطاني أوقيةً وردَّ عليَّ جملي[1].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً أتىٰ النَّبيَّ ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: **«دعُوهُ فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالاً، ثم قال: أعطوه سنًّا مثل سنِّه قالوا: يا رسول الله إلاَّ أمثل من سنِّه فقال: أعطوه فإنَّ من خيركم أحسنكم قضاء»**[2]

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث النَّبي ﷺ خيلاً قبل نجدٍ

---

(١) مسند أحمد(٤/٣٢٩) (١٤٤٥٠). قال الهيثمي في المجمع (٩/١٥) هو في الصحيح باختصار، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير نيح العنزي وثَّقه ابن حبان.

(٢) صحيح البخاري (٢/٨٠٩) (٢١٨٣).

فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بساريةٍ من سوارى المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «**ما عندك يا ثمامة**» فقال: عندي خيرٌ يا محمَّد، إن تقتُلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعِم علىٰ شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ماشئت، فتُرِك حتَّىٰ كان الغد، ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة» قال: ما قلتُ لك إن تُنعم تُنعِم علىٰ شاكرٍ فتركه حتىٰ كان بعد الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة» فقال: عندي ما قلتُ لك فقال: «أطلقوا ثمامة فانطلق إلىٰ نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله، يا محمَّد والله ما كان علىٰ الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوُجوه إليَّ، والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينُك أحبَّ الدِّين إليَّ، والله ما كان من بلدٍ أبغضُ إليَّ من بلدك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ، وإنَّ خيلك أخذَتني وأنا أريدُ العُمرَة، فماذا ترىٰ؟ فبشَّرهُ رسول الله ﷺ، وأمرهُ أن يعتمِرَ، فلمَّا قدِم مكَّة قال له قائلٌ: صبَوْتَ، قال لا ولـٰكن أسلمتُ معَ محَمَّدٍ رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّةُ حنطةٍ حتَّىٰ يأذَنَ فيها النَّبيُّ ﷺ»[1].

عن أبي أمامة بن سهل ـ رضي الله عنه ـ قال: مرضتْ امرأةٌ من أهل العوَالي و كان النَّبيُّ ﷺ أحسنَ شيءٍ عيادةً للمريض فقال: «**إذا ماتتْ فآذِنُوني**» فماتتْ ليلاً فدفنوها، ولم يُعلموا النَّبي ﷺ، فلمَّا أصبح سأل عنها، فقالوا: كرهْنَا أن نُوقظَك يا رسول الله، فأتىٰ قبرها فصلَّىٰ عليها وكبَّر أربعًا[2].

الصورة الثانية عشر: سعة كرمه وجوده ﷺ.

عن جبير بن مُطعم ـ رضي الله عنه ـ أنَّه بينما هو يسيرُ مع رسول الله ﷺ ومعه النَّاسُ مقْفَلَهُ من حُنَينٍ، فعَلِقَهُ النَّاسُ يسألونَهُ، حتَّىٰ اضْطرُّوهُ إلىٰ سَمُرَةٍ، فَخَطِفَتْ ردَاءَهُ، فوقف النَّبي ﷺ فقال: «أعطونِي ردَائِي، لو كانَ لي عدَدُ هـٰذِهِ العِضَاهِ نعمًا لقسمتُهُ بَيْنَكُم، ثمَّ لا تَجِدُونِي بخيلاً، ولاَ كذُوبًا ولاَ جبَانًا»[3].

عن أمِّ خالدٍ بنت خالدٍ ـ رضي الله عنها ـ قالتْ: «قدمتُ من أرضِ الحبشة، وأنا جُويريةٌ فكساني رسول الله ﷺ خميصةً لها أعلامٌ، فجعلَ

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٥٨٩) (٤١١٤).

(٢) سنن النسائي (٤/ ٧٢) (١٩٨١) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢/ ٤٢٧) (١٨٧١).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٠٣٨) (٢٦٦٦).

رسول الله ﷺ يَمْسَح الأعلام بيده، ويقول سناهُ» قال: الحميدي يعني حسنٌ حسنٌ[1].

عن المسوار بن مخرمة ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدمت علىٰ النّبي ﷺ أقبيةٌ، فقال لي أبي مخرمَةُ: انطلق بنا إليه عسىٰ أن يعطينا منها شيئًا، فقام أبي علىٰ الباب، فتكلّم فعرف النّبي ﷺ صوتَهُ، فخرجَ النّبيُّ ﷺ ومعهُ قَبَاءٌ وهو يريهِ مَحَاسِنَهُ وهو يقول: «خبأتُ هـٰذا لك خبأتُ هـٰذا لك»[2].

الصورة الثالثة عشر: عظم تواضعه ﷺ.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما رأيتُ رجلاً الْتَقَمَ أذن رسول الله ﷺ فَيُنَحِّي رأسه، حتىٰ يكون الرَّجل هو الذي يُنَحِّي رأسه، وما رأيتُ رجلاً أخذ بيده فترك يده، حتىٰ يكون الرجل هو الذي يدع يده»[3].

الصورة الرَّابعة عشرة: سعة حلمه ﷺ.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت: قلت يا رسول الله هل أتىٰ عليك يومٌ كان أشد من يومِ أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذْ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبدكلال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلاَّ بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابه قد أظلتني فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إنَّ الله ـ عزَّوجل ـ قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمَّد إنَّ الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**»، **فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدالله وحده لا يشرك به شيئًا»**[4].

الصورة الخامسة عشرة: تمام عدله ﷺ.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ قريشًا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجتريء عليه إلاَّ أسامة حِبَّ رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «**أتشفع في حدٍّ من حدود الله، ثم قام فاختطب، فقال: أيها الناس إنَّما أهلك الذين قبلكم**

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٤٠٧) (٣٦٦١).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٩٤٠) (٢٥١٤).

(٣) سنن أبي داود(٥/ ١٤٦) (٤٧٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩١٠) (٤٠٠٩).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٤٢٠) (١٧٩٥).

أنَّهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايمُ الله لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سرقت لقطعت يدها...»[(١)].

الصورة السادسة عشرة: حسن عشرته ﷺ.

عن عائشة قالت: جلس إحدىٰ عشرة امرأةً فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا وفيه: قالت الحادية عشرة: زوجي أبوزرع وما أبوزرع أُناسَ من حُليٍّ أذنيَّ وملأ من شحم عضدي وبجَّحَني فبَجِحتْ إليَّ نفْسِي وجدني في أهل غُنيْمَةٍ بِشقٍّ فجعلني في أهل صهيلٍ وأطيطٍ ودائسٍ ومُنقٍّ فعندَهُ أقول فلا أُقبَّحُ وأرقُدُ فأتصبَّحُ وأشربُ فأتقَنَّح أُمُّ أبي زرع فما أُمُّ أبي زرع عُكُومُها رداحٌ وبيتُهَا فساحٌ ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع مَضجعُه كمسلِّ شطبةٍ ويُشبِعُهُ ذِراعُ الجَفْرَةِ بنتُ أبي زرع فمَا بنتُ أبي زرع طوع أبيها وطوعُ أمِّها وملءُ كسائها وغيظ جارتها جاريَةُ أبي زرع فما جاريةُ أبي زرع لا تبُثُّ حديثَنَا تبثيثاً ولا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تنقيثاً ولا تملأُ بيتَنَا تعشيشًا قالت: خرج أبوزرع والأوطابُ تمخَضُ فلقِي امرأةً معها ولدانِ لها كالفَهدينِ يلعبانِ من تحتِ خضرها برمَّانتين فطلَّقَنِي ونكحها فنكحتُ بعده رجلاً سريًّا ركب شريًّا وأخذ خطيًّا وأراح عليَّ نعمًا ثريًّا وأعطاني من كلِّ رائحةٍ زوجًا وقال: كُلي أمَّ زرع وميرى أهلك قالت فلو جمعتُ كل شيءٍ أعطانيه ما بلغ أصغر آنيةِ أبي زرع قالت: عائشة قال رسول الله ﷺ كنتُ لك كأبي زرع لأمِّ زرعٍ قال أبوعبدالله قال سعيدُ بنُ سلمَةَ عن هشامٍ ولا تُعشِّشُ بيتَنا تعْشِيشًا قال أبوعبدالله وقال بعضهم فأتقمَّحُ بالميمِ وهٰذاَ أصحُّ[(٢)].

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍ، ولا لِمَ صنعت وألا صنعت»[(٣)].

الصورة السابعة عشر: وفرة سماحته ﷺ.

عن البراء ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبي ﷺ لمَّا أراد أن يعتمر أرسل إلىٰ أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فاشترطوا عليه أن لا يقيم بها إلاَّ ثلاث ليالٍ، ولا يدخلها إلاَّ بجُلبَّانِ السلاح، ولا يدعو منهم أحدًا، قال: فأخذ يكتب الشرط بينهم علي بن أبي طالب، فكتب: هٰذا ما قاضىٰ عليه محمَّد رسول الله ، فقالوا: لو علمنا أنَّك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك، ولكن اكتب هٰذا ما قاضىٰ عليه محمَّد بن عبدالله فقال: أنا والله محمَّد بن عبدالله، وأنا والله رسول الله ﷺ قال: وكان لا يكتب، قال: فقال لعلي: امحُ رسول

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٣١٥) (١٦٨٨).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٩٨٨) (٤٨٩٣).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٤٥) (٥٦٩١).

الله فقال عليٌّ، والله لا أمحوه أبدًا، قال: فأرنيه قال: فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيده، فلما دخل ومضت الأيام أتوا عليًّا، فقالوا مُر صاحبك فليرتحل، فذكر ذٰلك علي ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ فقال: «نعم» فارتحل»[1].

الصورة الثامنة عشرة: رفقه ﷺ بالمتعلمين.

عن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني النَّاس بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إليَّ، فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصمِّتوني لكنِّي سكت، فلمَّا صلَّىٰ رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا، منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «**إنَّ هٰذه الصلاة لا يصلُح فيها شيءٌ من كلام النَّاسِ إنَّما هو التسبيح والتَّكبير وقراءةُ القرآن**» أو كما قال رسول الله ﷺ، قلتُ: يا رسول الله إنِّي حديث عهدٍ بجاهليَّةٍ، وقد جاء الله بالإسلام وإنَّ منَّا رجالاً يأتون الكهَّان، قال: فلا تأتهم قال: ومنَّا رجالٌ يتطيَّرون قال ذاك شيءٌ يجدونه في صدورهم فلا يصدنَّهم قال ابن الصبَّاح: فلا يصدنَّكم، قال: قلتُ ومنَّا رجالٌ يخطُّونَ قال: كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ فمن وافق خطه فذاك، قال: وكانت لي جاريةٌ ترعىٰ غنمًا لي قِبلَ أحدٍ والجوَّانيَّةِ فاطَّلعتُ ذات يومٍ فإذا الذِّيبُ قد ذهبَ بشاة من غنمها، وأنا رجلٌ من بني آدم آسفُ كما يأسفون لكنِّي صككتُها صكَّةً، فأتيتُ رسول الله ﷺ فعظم ذٰلك عليَّ قلتُ: يا رسول الله أفلا أعتقها، قال: ائتِني بها، فأتيتُهُ، فقال لها: أينَ الله؟ قالتْ: في السَّماءِ، قال من أنا؟ قالتْ: أنتَ رسول الله، قال: أعتقها، فإنَّها مؤمنة»[2].

الصورة التاسعة عشرة: إحسانه ﷺ إلىٰ نفسه باللباس والمركب الحسن.

عن أبي زمَيل حدثني عبدالله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية أتيتُ عليًّا ـ رضي الله عنه ـ فقال ائتِ هٰؤلاءِ القوم فلبستُ أحسن ما يكون من حُللِ اليمن قال أبوزُميل وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيرًا، قال ابن عباس: فأتيتهم فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عبَّاس، ما هٰذه الحُلَّةُ، قال ما تعيبون عليَّ لقد رأيتُ علىٰ رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُللِ[3].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيتُ النَّبي ﷺ يخطُبُ علىٰ

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١١٦٢) (٣٠١٣).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٨١) (٥٣٧).

(٣) سنن أبي داود (٤/ ٣١٧) (٤٠٣٧). وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٧٦٢) (٣٤٠٦).

ناقةٍ حسناء وحبشي آخذ بخطامها»[1].

الصورة العشرون: إحسانه ﷺ إلىٰ الحيوان.

عن عبدالله بن جعفرٍ - رضي الله عنهما - قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يومٍ فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أُحدِّثُ به أحدًا من النَّاسِ، وكان أحبُّ ما استترَ به رسولُ الله ﷺ لحاجته هدفًا، أو حائط نخل، قال: فدخل حائطًا لرجلٍ منَ الأنصار فإذا جملٌ، فلمَّا رأىٰ النَّبيﷺ حنَّ وذرفَتْ عيناهُ، فأتاه النَّبيُّ ﷺ فمسح ذِفرَاهُ، فقال: «**من ربُّ هٰذا الجمل، لمن هٰذا الجملُ؟ فجاء فتًى من الأنصارِ فقال لي: يا رسول الله، فقال: أفلا تتَّقي الله في هٰذه البهيمةِ الَّتي ملَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا، فإنَّهُ شكا إليَّ أنَّك تُجيعُهُ وتُدْئِبُهُ**»[2].

---

(١) سنن ابن ماجه (١/٤٠٨) (١٢٨٥). وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١/٢١٦) (١٠٦٣).

(٢) سنن أبي داود(٣/ ٥٠) (٢٥٤٩). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٨٤) (٢٢٢٢).

المبحث الثاني

صور الإحسان عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

المقصود بالصحابة هم أولئك الأخيار الذي صحبوا النبي ﷺ أو رآوه مؤمنين به وبما جاء به وماتوا علىٰ ذٰلك[١].

وهم قوم بررة، أصفياء أوفياء، اختارهم الله تعالىٰ علىٰ علم من دون العالمين، تأهلوا لحمل الرسالة، ونشرها والذود عن حياضها، فالنَّاظر في سيرهم ـ رضي الله عنهم ـ يدرك بعد تأمل ونظر أنَّهم جملة تميَّزوا عن غيرهم من القرون باليقين والعلم والجهاد والزهد في الدنيا.

والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كثير لا يمكن الإحاطة هنا بجميع إحسانهم العقائدي والعملي والقولي.

وحسبنا إيراد نماذج لإحسان أئمتهم الخلفاء الراشدين، أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ـ رضي الله عنهم ـ .

أولاً: خليفة رسول الله ﷺ أبوبكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ

أـ نسبه:

هو خليفة رسول الله ﷺ اسمه عبدالله ، ويقال عتيق بن أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة بن كعب بن لؤي القُرشي التَّيمي رضي الله عنه[٢].

ب ـ صفاته الخلقية:

كان ـ رضي الله عنه ـ أبيض أصفر لطيفًا نحيفًا خفيف العارضين، جعدًا معروق الوجه، غائر العينين، ناتىء الجبهة، يخضب شيبه بالحناء والكتم، مُسْتَرِق الوركين، لا يثبتُ إزاره علىٰ وركيه[٣].

ج ـ فضله ـ رضي الله عنه ـ

إنَّه ـ رضي الله عنه ـ أفضل هـٰذه الأمة بعد رسولنا محمَّد ﷺ ويكفي في علو مكانته وعظم قدره.

ما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لو كنتُ متَّخذًا من أمتي خليلاً، لا تَّخذتُ أبابكرٍ، ولـٰكن أخي وصاحبي**»[٤].

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٣/ ١٣٣٥).
(٢) تأريخ الإسلام للذهبي: عهد الخلفاء الراشدين (١٠٥).
(٣) المصدر السابق (١٠٦).
(٤) صحيح البخاري (٣/ ١٣٣٨)، (٣٤٥٦).

د ـ صور من إحسانه ـ رضي الله عنه ـ

الصورة الأولىٰ: صدق إيمانه ومواساته ونصرته للرسول ﷺ.

عن أبي الدرداء ـ رضي اللهعنه ـ قال: كنتُ جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبوبكرٍ آخذًا بطرف ثوبه، حتَّىٰ أبدىٰ عن رُكبتيه، فقال النبي ﷺ «**أمَّا صاحبكم فقد غامر**» فسلَّم وقال: إنِّي كان بيني وبين ابن الخطَّاب شيءٌ، فأسرعتُ إليه ثم ندمتُ، فسألتُهُ أن يغفر لي فأبىٰ عليَّ ، فأقبلتُ إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبابكر» ثلاثًا، ثم إنَّ عمر ندِم فأتىٰ منزل أبي بكر، فسأل: أثمَّ أبوبكر، فقالوا: لا، فأتىٰ إلىٰ النبي ﷺ فسلَّم، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر، حتَّىٰ أشفقَ أبوبكر، فجثا علىٰ ركبتيه فقال: يار سول الله، والله أنا كنتُ أظلم، مرتين، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله بعثني إليكم فقلتُم كذبتَ، وقال أبوبكر صدق. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي**» مرَّتين فما أوذِي بعدها[1].

وعن عروة بن الزبير قال: سألتُ عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رِداءه في عُنُقِه فخَنَقَهُ به خنقًا شديدًا، فجاء أبوبكرٍ حتَّىٰ دفعَه عنه، فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم»[2].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ؛ أنَّ أبابكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حدَّثه قال: نظرت إلىٰ أقدام المشركين علىٰ رؤوسنا ونحن في الغار، فقلتُ: يا رسول الله! لو أنَّ أحدهم نظر إلىٰ قدميه أبصرنا تحتَ قدميه، فقال: «**يا أبابكرٍ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[3].

وعن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر أخرجوا نبيَّهم إنالله وإنا إليه راجعون ليَهْلكُنَّ فنزلتْ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج: ٣٩] فعرفتُ أنَّه سيكون قتالٌ قال ابن عباس فهي أوَّل آية نزلت في القتال[4].

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٣٣٨) (٣٤٦١).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٤٥) (١٣٤٥)، (٣٤٧٥).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٨٥٤) (٢٣٨١).

(٤) سنن النسائي (٦/ ٢) (٣٠٨٥) وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن النسائي (٢/ ٦٤٦)،(٢٨٩٠).

الصورة الثانية: حلم أبي بكر - رضي الله عنه - ووقاره وحرصه علىٰ اجتماع كلمة المسلمين.

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: كان أبوبكر - رضي الله عنه - يوم السَّقيفة أحلم مني وأوقر، والله ما ترك كلمة أعجبتني في تزويري إلاَّ قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتىٰ سكت»[1].

الصورة الثالثة: كثرة إنفاقه - رضي الله عنه -.

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذٰلك مالاً، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبابكر إن سبقتُهُ يومًا، قال: فجئتُ بنصفِ مالي، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أبقيتَ لأهلك؟ قلتُ: مثله، وأتىٰ أبوبكرٍ بكل ما عنده، فقال: يا أبابكرٍ: ما أبقيتَ لأهلك؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، قلتُ: والله لا أسبقهُ إلىٰ شيءٍ أبدًا»**[2].

وعن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبوبكر معه احتمل أبوبكر معه خمسة آلاف درهم، أو ستة ألاف درهم فانطلق بها معه، قالت: فدخل علينا جدي أبوقحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلتُ عليها ثوب ثم أخذت بيده، فقلتُ: ضع أنت يدك علىٰ هـٰذا المال قالت: فوضع يده، وقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هـٰذا المال ثم رفع يده فقال: إذا كان ترك لكم هـٰذا فقد أحسن، وفي هـٰذا لكم بلاغ قالت: فلا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذٰلك[3].

الصورة الرابعة: مسابقة أبي بكر - رضي الله عنه - بالخيرات.

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: مرَّ رسول الله ﷺ وأنا معه وأبوبكر، علىٰ عبدالله بن مسعود وهو يقرأ، فقام فسمع قراءته، ثم ركع عبدالله وسجد، قال: فقال رسول الله ﷺ: «سل تُعطه» قال: ثمَّ مضىٰ رسول الله ﷺ وقال: **«من سرَّهُ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل فليقرأه من ابن أمِّ عبدٍ» قال: فأدلجت إلىٰ عبدالله بن مسعود لأبشره بما قال رسول الله ﷺ، قال: فلما ضربتُ الباب، أو قال: لمَّا سمع صوتي قال: ماجاء بك هـٰذه الساعة؟ قلتُ: جئتُ لأبشرك بما قال رسول الله ﷺ، قال: قد سبقك أبوبكر، قلتُ:**

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (١٢/ ١٤٤) (٦٨٣٠).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٦١٤)(٣٦٧٥). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٠٢) (٢٩٠٢).

(٣) معجم الطبراني الكبير (٢٤/ ٨٨) (٢٣٥).

إن يفعل فإنَّه سباقٌ بالخيرات، ما استبقنا خيرًا قطُّ إلاَّ سبقنا إليه أبوبكر»[1].

الصورة الخامسة: حرص أبي بكر - رضي الله عنه - علىٰ نوافل الطاعات.

عن أبي هريرة - رضي الله - قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصبح منكم اليوم صائمًا؟»** قال أبوبكر: أنا قال: **«فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبوبكر أنا، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا»؟ قال أبوبكر: أنا قال: فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟ قال أبوبكر: أنا فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلاَّ دخل الجنة»**[2]..

الصورة السادسة: إنعام أبي بكر - رضي الله عنه - إلىٰ قرابته وعفوه وصفحه.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]، هٰذه الآية نزلت في شأن أبي بكر - رضي الله عنه - عندما كان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثة المطلبي - رضي الله عنه - إذ كان ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين، فلما علم أبوبكر بخوضه في قصة الإفك، أقسم أن لا ينفق عليه، ولما تاب مسطح وتاب الله عليه لم يزل أبوبكر - رضي الله عنه - واجدًا في نفسه عليه، فعاتبه الله تعالى في ذٰلك وكفَّر أبوبكر عن يمينه وأعاد النفقة علىٰ مسطح - رضي الله عنه -[3].

---

(١) مسند أحمد (١/ ٦٣) (٢٦٧، وصحيح أحمد شاكر إسناده (١/ ٢٦٥) (٢٦٥) ١٧٥.

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٨٥٧) (١٠٢٨).

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير(١٨/ ٨٨- ١٨٩).

ثانيًا: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

أـ نسبه:

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبدالعزَّىٰ بن رباح بن قُرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي. . أبوحفص العدوي، الفاروق[١].

ب ـ صفاته الخلقية:

كان طويلاً جسيمًا شديد الصَّلع، شديد الحمرة في عارضه خفَّة، وسَبلته كبيرة وفي أطرافها صهبة، إذا حزبَه أمرٌ فتلها، أعْسَرَ يَسِر[٢].

ج ـ فضله ومكانته:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: صعد النبي ﷺ أُحدًا ومعه أبوبكر وعمر وعثمان، فرجف بهم فضربه برجله وقال: «**اثبت أحد، فما عليك إلاَّ نبي أو صديق أو شهيدان**»[٣].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: وُضِعَ عمر علىٰ سريره، فتكنَّفه النَّاس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعني إلاَّ رجلٌ آخذٌ منكبي، فإذا علي بن أبي طالب، فترحَّم علىٰ عمر وقال: ما خلَّفت أحدًا أحبَّ إليَّ أن ألقىٰ الله بمثل عمله منك، وايم الله، إن كنتَ لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبتُ أني كنتُ كثيرًا أسمع النبي ﷺ يقول: «**ذهبتُ أنا وأبوبكر وعمر، ودخلتُ أنا وأبوبكر وعمر، وخرجتُ أنا وأبوبكر وعمر**»[٤].

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إيهًا يابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط إلاَّ سلك فجًا غير فجك**»[٥].

د ـ صورة من إحسان عمر ـ رضي الله عنه ـ

الصورة الأولىٰ: إحسان عمر ـ رضي الله عنه ـ في صحبته للرسول ﷺ.

عن المسوار بن مخرمة قال: لما طُعِن عمر جعل يألم، فقال له ابن عباس، وكأنَّه يجزعه، يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبتَ رسول الله ﷺ فأحسنتَ صحبته، ثم فارقته وهو عنكَ راضٍ، ثم صحبت أبابكرٍ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبتهم فأحسنت

---

(١) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين للذهبي (٢٥٣).

(٢) المرجع السابق (٢٥٤).

(٣) صحيح البخاري (٣/١٣٤٨) (٣٤٨٣).

(٤) صحيح البخاري (٢/١٣٤٨) (٣٤٨٢).

(٥) صحيح البخاري (٣/١٣٤٧) (٣٤٨٠).

صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنَّهم وهم عنك راضون، قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ورضاه، فإنَّما ذاك من الله تعالىٰ منَّ به عليَّ ، وأمَّا ما ذكرتَ من صحبة أبي بكر ورضاه، فإنَّما ذاك من الله جلَّ ذكره منَّ به عليَّ، وأمَّا ما ترىٰ من جزعي، فهو من أجلك وأجلِ أصحابك، والله لو أنَّ لي طِلاعَ الأرض ذهبًا، لافتديتُ به من عذاب الله عزَّوجل قبل أن أراه[1].

الصورة الثانية: زهد عمر ـ رضي الله عنه ـ.

عن طارق بن شهاب ـ رحمه الله ـ قال: لما قدم عمر ـ رضي الله عنه ـ الشام تلقاه الجنود، وعليه إزار وخفَّان وعمامه، وهو آخذ برأس راحلته يخوض الماء فقالوا: يا أمير المؤمنين، يلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت علىٰ حالتك هـٰذه، فقال: إنَّا أعزنا الله بالإسلام، فلن يُلْتَمس العِزُّ بغيره[2].

الصورة الثالثة: عدل عمر ـ رضي الله عنه ـ.

عن عطاء، قال: كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يكتب إلىٰ عمَّاله أن يوافوه بالموسم فوافوه، فقام فقال: أيها الناس، إني استعملت عليكم عمالي هـٰؤلاء، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أموالكم ولا من أعراضكم، ولكن استعملتهم ليحجزوا بينكم، أو يردوا عليكم فيئكم، فمن كانت له مظلمة عند أحدٍ منهم فليقم، فما قام من النَّاسِ أحدٌ يومئذ إلاَّ «فلان» قام فقال يا أمير المؤمنين إنَّ عاملك فلانًا «ضربني» مائة سوط فقال: يضرب مائة!! فاستقد منه، فقام عمرو بن العاص ـ رضي اللهعنه ـ فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّك متىٰ تفتح هـٰذا علىٰ عمالك تكثر عليهم، وتكون سنَّة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد منه، وقد رأيتُ النبي ﷺ يُقيِّد من نفسه، فقال: دعنا إذن نرضيه، قال: أرضوه، قال: فافتُديت منه بمائتي دينار، فكان كل سوط بدينارين[3].

الصورة الرابعة: كثرة صدقات عمر ـ رضي الله عنه ـ.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ تصدق بمال له علىٰ عهد رسول الله ﷺ وكان يقال له: ثَمْغٌ وكان نخلاً فقال: عمر: يا رسول الله إني استفدت مالاً وهو عندي أنفس مالٍ فأردت أن أتصدق به فقال النبي ﷺ: **«تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث، ولكن ينفق ثمره فتصدق به عمر فصدقته تلك في سبيل الله والرقاب والمساكين والضيف وابن السبيل ولذي القربىٰ ولا جناح علىٰ من وليه أن يأكل منه بالمعروف أو يؤكل**

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٣٥٠) (٣٤٨٩).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان: للحليمي (٣/ ٣٨٧).

(٣) تأريخ المدينة لابن شبية (٣/ ٨٠٦، ٨٠٧).

صديقه غير متمول به»[1].

الصورة الخامسة: إنعام عمر ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ إخوانه في الله تعالىٰ.

عن أبي حيان التيمي ـ رحمه الله ـ قال: رُؤي علىٰ علي بن أبي طالب ثوبٌ كأنَّه كان يكثر لُبسه، فقيل له فيه، فقال: «هـٰذا كسانيه خليلي وصفيي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ إنَّ عمر ناصح لله فنصحه الله»[2].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه أخذ أربعماية دينارٍ فجعلها في صُرَّةٍ فقال للغلام: اذهب بها إلىٰ أبي عبيدة بن الجراح ثمَّ تلَهَّ ساعةً في البيت حتَّىٰ تنظر ما يصنعُ، فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين، اجعل هـٰذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال تعالي يا جارية اذهبي بهـٰذه السَّبعة إلىٰ فلان، وبهـٰذه الخمسة إلىٰ فلانٍ، حتَّىٰ أنفذها، فرجع الغلام وأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها إلىٰ معاذ بن جبل فقال: اذهب بهـٰذا إلىٰ معاذ بن جبلٍ ثمَّ تَلَهَّ في البيتِ حتىٰ تنظر ما يصنع، فذهب إليه، فقال: يقول لك أميرالمؤمنين: اجعل هـٰذا في بعض حاجتك، فقال: ـ رحمه الله ـ ووصله، تعالي يا جارية: اذهبي إلىٰ بيتِ فلانٍ بكذا واذهبي إلىٰ بيتِ فلانٍ بكذا فاطَّلعتِ امرأةُ معاذٍ فقالت: نحنُ والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخِرقة إلاَّ ديناران، فنحا بهما إليها ورجع الغلام إلىٰ عمر فأخبره، وسُرَّ بذٰلك، وقال: إنَّهم إخوة بعضهم من بعض»[3].

الصورة السادسة: حمد عمر ـ رضي اللهعنه ـ لربه تعالىٰ علىٰ القليل والكثير.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعد أن لبس ثوبًا جديدًا، فلمَّا بلغ ترقوته قال: «الحمدلله الَّذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي»[4].

---

(١) صحيح البخاري (٣/١٠١٧) (٢٦١٣).

(٢) كتاب الإخوان لا بن أبي الدنيا (٢٣٨).

(٣) معجم الطبراني الكبير (٢/٣٣، ٣٤) والزهد، لابن المبارك (٥١١) والحلية: لأبي نعيم(١/٢٧).

(٤) عدة الصابرين (١٢٥).

ثالثًا: ذو النورين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ

أـ نسبه:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس أبوعمر، وأبوعبدالله، القرشي الأموي[١].

ب ـ صفاته الخلقية:

كان ـ رضي الله عنه ـ لا بالطويل ولا بالقصير، حسن الوجه، كبير اللحية، أسمر اللون، بوجهه نكتات جدري، عظيم الكراديس، خفيف اللحم بعيد ما بين المنكبين، يخضب بالصفرة، وكان يشدُّ أسنانه بالذَّهب[٢].

ج ـ فضله ومكانته:

هو ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنة، وزوجٌ لاثنتين من بنات الرسول الله ﷺ بعد أن ماتت الأولىٰ تزوج الثانية، وقد كان النبي ﷺ يستحيي من عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسو الله ﷺ مضطجعًا في بيتي، كاشفًا عن فخذيه، أو ساقيه فاستأذن أبوبكر، فأذن له، وهو علىٰ تلك الحال، فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له، وهو كذٰلك، فتحدث ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوىٰ ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبوبكر فلم تهتش له، ولم تُباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك! فقال: «ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة»[٣].

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما رسول الله ﷺ في حائط من حيطان المدينة، وهو متكيء يَرْكُزُ بعود معه بين الماء والطين، إذا استفتح رجل، فقال: «**افتح وبشره بالجنة**» قال: فإذا أبوبكر، ففتحت له وبشرته بالجنة، قال، ثم استفتح رجل آخر، فقال: «**افتح وبشره بالجنة**»، قال فذهبت فإذا هو عمر، ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر قال: فجلس النبي ﷺ فقال: «**افتح وبشره بالجنة علىٰ بلوىٰ تكون**». قال فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان، قال ففتحت وبشرته بالجنة، قال: وقلتُ الذي قال، فقال: اللَّهمَّ صبرًا، أو الله المستعان»[٤].

---

(١) تأريخ الإسلام، عهدالخلفاء الراشدين: للذهبي (٤٦٧).
(٢) المرجع نفسه (٤٦٨).
(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٨٦٦) (٢٤٠١).
(٤) صحيح مسلم (٣/ ١٨٦٧) (٢٤٠٣).

د ـ صور من إحسان عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ.

الصورة الأولىٰ: كثرة صدقات عثمان وَمَبَرَّاته ـ رضي الله عنه ـ.

عن أبي عبدالرحمن السلمي ـ رحمه الله ـ قال: لما حُصر عثمان ـ رضي الله عنه ـ أشرف عليهم فوق داره ثم قال: «**أذكِّركم بالله هل تعلمون أنَّ حراء حين انتفض قال: رسول الله ﷺ: «اثبت حراء فليس عليك إلاَّ نبي أو صديق أو شهيد»، قالوا: نعم، قال: أذكركم بالله هل تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قال في جيش العُسرة من ينفق نفقة متقبلة والناس مُجهدون معسرون فجهزت ذٰلك الجيش، قالوا: نعم، ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أنَّ بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلاَّ بثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل، قالوا: نعم وأشياء عدها**»[1].

الصورة الثانية: حسن صحبة عثمان ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ، وطاعته له وللخلفاء من بعده، وتواضعه للنصيحة والناصح، وقيامه بحدود الله تعالىٰ.

عن عروة أنَّ عبيدالله بن عدي بن الخيار أخبره: أنَّ المسوار بن مخرمة وعبدالرحمن بن الأسود بن عبدبغوث قالا: ما يمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد، فقد أكثر الناس فيه، فقصدت لعثمان حين خرج إلىٰ الصلاة، قلت: إنَّ لي إليك حاجة، وهي نصيحة لك، قال: يا أيها المرء أعوذ بالله منك، فانصرفت، فرجعت إليهم إذ جاء رسول عثمان فأتيته، فقال: ما نصيحتك؟ فقلت: إنَّ الله سبحانه بعث محمَّدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ، فهاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ، ورأيت هديه، وقد أكثر الناس في شأن الوليد، قال: أدركت رسول الله ﷺ قلت: لا، ولٰكن خلَّص إليَّ من علمه ما يخلص إلىٰ العذراء في سترها، قال: أما بعد، فإنَّ الله بعث محمَّدًا ﷺ بالحق، فكنتُ ممن استجاب لله ولرسوله، وآمنت بما بُعِثَ به، وهاجرت الهجرتين كما قلت، وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته، فوالله ما عصيته ولا غششته حتىٰ توفاه الله عزَّوجل، ثم أبوبكر مثله، ثم عمر مثله، ثم استخلفت، أفليس لي من الحق مثل الذي لهم؟ قلتُ: بلىٰ، قال: «فما هٰذه الأحاديث التي تبلغني عنكم؟ أمَّا ما ذكرت من شأن الوليد، فسنأخذ منه بالحق إن شاء الله، ثم دعا عليًّا، فأمره أن يجلده، فجلده ثمانين»[2].

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٦٢٥) (٣٦٩٩). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٠٨) (٢٩١٩).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٥١) (٣٤٩٣).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ «**ادعوا لي بعض أصحابي**» قلت أبوبكر؟ قال: «**لا**» قلت: عمر؟ قال: «**لا**». قلتُ: ابن عمي علي؟ قال: «**لا**»، قلت: عثمان؟ قال: «**نعم**». فلما جاء قال: تنحي، فجعل يسارَه، ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار وحصر قلنا: يا أمير المؤمنين ألا تقاتل، قال: لا، إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهدًا وإني صابر نفسي عليه(١).

الصورة الثالثة: إحسان عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ رعيته.

عن المبارك بن فضالة قال: سمعتُ الحسن يقول: أدركت عثمان ـ رضي الله عنه ـ وأنا يومئذٍ قد راهقت الحلم فسمعته يخطب، وشهدته يقول: يا أيها النَّاس ما تنقمون علي؟ قال: وما من يوم إلاَّ وهم يقتسمون فيه خيرًا، يقول: يا معشر الناس: اغدوا علي عطياتكم فيغدون فيأخذونها وافرة، ثمَّ يقال: يا معشر المسلمين اغدوا علىٰ كسوتكم فيجاء بالحلل فتقسم بينهم، قال الحسن: والعدو منفي والعطيات دارة وذات البين حسن، والخير كثير ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا، من لقي من أي الأحياء كان، فهو أخوه ومودته ونصرته والفتنة أن يسل عليه سيفا(٢).

الصورة الرابعة: عظم سماحة عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

عن عطاء بن فرُّوخ مولى القرشيين ـ رحمه الله ـ أنَّ عثمان ـ رضي الله عنه ـ اشترىٰ من رجل أرضًا فأبطأ عليه، فلقيه فقال له: ما منعك من قبض مالك؟ قال: إنَّك غبنتي، فما ألقىٰ من الناس أحدًا إلاَّ وهو يلومني، قال: أو ذٰلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك، ومالك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدخل الله ـ عزَّوجل ـ الجنَّة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا، وقاضيًا ومقتضيًا**»(٣).

الصورة الخامسة: مداومته الحسنة وتعاهده لقراءة القرآن.

عن القاسم أبي عبدالرحمن قال: «كان عثمان بن عفان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وبالأنعام إلىٰ هود ويوسف إلىٰ مريم وبطه إلىٰ طسم فرعون وبالعنكبوت إلىٰ ص، وتنزيل إلىٰ الرحمن ثم يختتم فيفتتح ليلة الجمعة ويختم ليلة الخميس»(٤).

---

(١) فضائل الصحابة (١/ ٤٩٥) (٨٠٤) وقال محققه إسناده صحيح.

(٢) المعجم الكبير، للطبراني (١/ ٨٧) (١٣١) وحسن إسناده الهيثمي في المجمع (٩/ ٩٤).

(٣) مسند أحمد(١/ ٥٨) (٤١٦) وقال الشيخ أحمد شاكر، إسناده صحيح (١/ ٤١٠).

(٤) فضائل الصحابة، للإمام أحمد(١/ ٥١٧) (٨٥٠).

الصورة السادسة: تواضعه ـ رضي الله عنه ـ.

عن الحسن قال: «رأيتُ عثمان نائمًا في المسجد، ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس إليه، ويجيء الرجل فيجلس إليه، كأنَّه أحدهم...»[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء، سيرة الخلفاء الراشدين للذهبي (١٥٦).

رابعًا: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ

أ ـ نسبه:

هو علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، أبوالحسن القرشي الهاشمي(١).

ب ـ صفاته الخلقية:

كان علي ـ رضي الله عنه ـ شديد الأدمة، ضخم البطن، إلىٰ القصر أقرب، ثقيل العينين، عظيمهما عظيم اللحية(٢).

ج ـ فضله ومكانته:

عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: خلَّف رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب، في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله! تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «**أما ترضىٰ أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسىٰ غير أنَّه لا نبي بعدي**»(٣).

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطينَّ هٰذه الراية رجلاً يفتح الله علىٰ يديه، يحب الله ورسوله ﷺ ويحبه الله ورسوله ، قال: فبات النَّاس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فلما أصبح النَّاس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟**» فأعطاه الراية»(٤).

د ـ صور من إحسانه ـ رضي الله عنه ـ.

الصورة الأولىٰ: سبق إسلامه ـ رضي الله عنه ـ.

عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: «أول من صلَّىٰ مع رسول الله ﷺ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ »(٥).

الصورة الثانية: شدة اتباعه لسنة النبي ﷺ.

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ في حديث طويل في صفة حج النبي ﷺ وفيه: أنَّ عليًّا قدِم من اليمن بِبُدْنِ رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**ما ذا قلت حين فرضت الحج**»؟ قال: قلتُ: اللَّهمَّ إني أُهِلُّ بما أهلَّ به رسول الله ﷺ..(٦).

---

(١) تأريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين للذهبي (٦٢١).

(٢) المرجع السابق (٦٢٤).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٨٧١) (٢٤٠٤).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٨٧٢) (٢٤٠٦).

(٥) خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ للنسائي (٢٢) (٢) وقال محققه صحيح الإسناد.

(٦) صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) (١٢١٨).

الصورة الثالثة: تشدده في الرواية عن الرسول ﷺ.

عن سويد بن غفلة قال: قال علي ـ رضي الله عنه ـ «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأنْ أخِرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أقول عليه ما لم يقل..»[1].

الصورة الرابعة: عظم زهده ـ رضي الله عنه ـ.

عن الحسن بن جُرْموز، عن أبيه قال: «رأيتُ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يخرج من مسجد الكوفة وعليه قِطرِتَّيان مؤتزرًا، بواحدة مرتديًا بالأخرىٰ وإزاره إلىٰ نصف السَّاق، وهو يطوف بالأسواق ومعه درَّة، يأمر بتقوىٰ الله عزَّوجل، وصدق الحديث، وحسن البيع، والوفاء بالكيل والميزان»[2].

الصورة الخامسة: حسن ورعه ـ رضي الله عنه ـ.

عن عبدالله بن زُوَير قال: **«دخلت علىٰ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم الأضحىٰ، فقرَّب إلينا خَزِيرَةً[3]، فقلنا أصلحك الله! لو قرَّبت إلينا من هٰذا البط يعني الإوز فإنَّ الله قد أكثر الخير، فقال: يا ابن زوير! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لخليفة من مال الله إلاَّ قصعتان: قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين أيدي الناس»[4].**

الصورة السادسة: حسن معاملته حتىٰ لعدوه.

عن جعفر بن محمَّد عن أبيه أنَّ عليًا ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ قال في ابن ملجم بعدما ضربه: «أطعموه واسقوه وأحسنوا إساره، فإن عشت فأنا ولي دمي أعفو إن شئت وإن شئت استقدت، وإن مت فقتلتموه فلا تمثلوا»[5].

---

(١) صحيح مسلم (٢/٧٤٦) (١٠٦٦).

(٢) ذخائر العقبىٰ في مناقب ذوي القربىٰ، لأبي العباس أحمد بن محمَّد الطبري المكي (١٨٠).

(٣) الخَزِيرة: لحم يقطع صغارًا ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق النهاية (٢/٢٨).

(٤) مسند أحمد(١/١٢٥) (٥٧٩) وقال أحمد شاكر في تعليقه علىٰ المسند (١/٥٧٧) (٥٧٧): إسناده صحيح.

(٥) سنن البيهقي الكبرىٰ (٨/١٨٣) (١٦٥٣٦).

المبحث الثالث
صور الإحسان الأُخرى
عن غير الأنبياء عليهم السلام
والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

أوّلًا: إحسان ذي القرنين (رحمه الله):

أـ نسبه:

اختلف في اسمه قيل هو عبدالله بن الضحاك بن معد، وقيل مصعب بن عبدالله بن قنان بن منصور بن عبدالله بن الأزد بن عون بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان[1]. وقد جاء أنَّه من حمير[2].

واختلفوا في السبب الَّذي سمي به ذا القرنين والأشبه بالصواب أنَّ سبب ذلك؛ لأنَّه بلغ قرني الشمس غربًا وشرقًا، وملك ما بينهما من الأرض[2].

ب ـ مكانته:

كان رحمه الله ملكًا من الملوك العادلين أعطاه الله ملكًا عظيمًا مُمَكَّنًا فيه، ناصحًا لله تعالىٰ مكث دهرًا طويلاً يجوب الأرض يدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له. أسلم على يدي إبراهيم عليه السلام، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام[3].

ج ـ صور إحسانه ـ رحمه الله ـ:

الصورة الأولى: ما ذكر الله تعالى عن جهاده ابتغاء مرضاة الله جلَّ وعلا، وعدله في رعيته. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف].

في هذه الآيات المباركات يخبر جلَّ ذكره أنَّه أعطى عبده الصالح ذا القرنين ملكًا عظيمًا ممكنًا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من العلم والتمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات، مما جعله يملك مشارق الأرض

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ١٠٤).

(٢) المصدر السابق (١٠٣).

(٣) المصدر السابق (١٠٣ ـ ١٠٧).

ومغاربها وتدين له البلاد وتخضع له الأمم من العرب والعجم، وأنّه في مسيره في الأرض يدعو إلى الله تعالى ويجاهد في سبيله، وحينما وصل إلى أقصاها من ناحية المغرب وجد أمة من الأمم عمية، فدعاهم إلى الله تعالى فآمن قومٌ وكفر آخرون، وقد خير ذو القرنين بين تعذيبهم أو الإحسان إليهم، وكان من إحسانه وعدله أن يعذب من استمر على كفره بالله تعالى وعناده له، وزجره بما ينتظره من العقاب والنكال في الآخرة. وأمّا من آمن وعمل صالحًا فقد بشره ذو القرنين بالنجاة من العذاب في الدنيا والآخرة وأحسن له القول ووعده بالتفضل والعطية بما يصلح حاله في الدنيا[1].

الصورة الثانية: نصرته للمظلومين، وإعانته للعاجزين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف].

يقول الله تعالى مخبرًا عن ذي القرنين: ثمَّ أتبع سببًا، أي سلك طريقًا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين، وهما جبلان مرتفعان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فسادًا ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام، فلما رأىٰ هؤلاء المستضعفون ذا القرنين وما هو فيه من قوّة وغلبة وصلاح سيرة أرادوا أنْ يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إيَّاه حتى يجعل بينهم وبين قوم يأجوج ومأجوج سدًّا، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿ما مكني فيه ربي خير» أي إنَّ الَّذي أعطاني الله من الملك والتمكين خيرٌ لي من الذي تجمعونه، ولكن ساعدوني بقوّة «أجعل بينكم وبينهم ردمًا..» وهكذا أخذ العبد الصالح في وضع خطة البناء فحال بينهما بسدٍّ منيع لبناته من حديد حتى إذا ساوىٰ بين الجبلين أجج على البناء الحديدي نارًا فلمَّا احمرَّ أفرغ عليهالنحاس المذاب، فكان أعجوبة في القوّة والمنعة ممَّا جعل قوم يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين عن اختراقه أو الصعود عليه، وكان من أمر هذا العبد الصالح أن نسب الفضل في بنائه إلى الله تعالى، وأنَّ ذلك

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٣ ـ ١٦٦).

رحمةٌ منه بعباده[1].

ومن هذا نأخذ أنَّ أهل الإحسان هم أرحم الخلق بالخلق والأكثر معاونةً للعاجزين والأعظم نُصْرَةً للمستضعفين.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٦٧ ـ ١٧٠).

ثانيًا : صور من الإحسان عن مجهولين من الأمم الماضية:

الصورة الأولىٰ: الاعتراف بالفضل، والصدقة إلىٰ المسكين وابن السبيل.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثةً في بني إسرائيل: أبرص وأقرع، وأعمىٰ، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتىٰ الأبرص فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حسنٌ، وجلدٌ حسنٌ، قد قذرني الناسُ، قال: فمسحَهُ فذهب عنه، فأُعطي لونًا حسنًا، وجلدًا حسنًا، فقال: أي المالِ أحبُّ إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر، هو شكَّ في ذٰلك: أنَّ الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل. وقال الآخر البقر، فأعطي ناقةً عُشراء، فقال: يبارك لك فيها، وأتىٰ الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعرٌ حسن، ويذهب عنِّي هـٰذا، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب. وأعطي شعرًا حسنًا، قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرةً حاملاً، وقال: يبارك لك فيها، وأتىٰ الأعمىٰ فقال: أي شيءٍ أحب إليك؟ قال: يرد الله إليَّ بصري، فأبصِر به الناس، قال: فمسحهُ فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاةً والدًا فأُنْتِجَ هـٰذان وولد هـٰذا، فكان لهـٰذا وادٍ من إبل، ولهـٰذا وادٍ من بقرٍ ولهـٰذا وادٍ من غنم، ثمَّ إنَّه أتىٰ الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكين، تقطَّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلاَّ بالله ثمَّ بك، أسألك بالذي أعطاك اللَّون الحسن والجِلد الحسن والمال ، بعيرًا أتبلَّغُ عليه في سفري، فقال له: إنَّ الحقوق كثيرة، فقال له: كأنِّي أعرِفُك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثْتُ لكابرٍ عن كابرٍ، فقال إن كُنتَ كاذبًا فصيَّرك الله إلىٰ ماكنت، وأتىٰ الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهـٰذا، فرَّد عليه مثل ما ردَّ عليه هـٰذا، فقال: إنْ كُنتَ كاذبًا فصيَّرَكَ الله إلىٰ ما كنتَ، وأتىٰ الأعمىٰ في صورته، فقال: رجلٌ مسكين وابنُ سبيل، وتقطَّعت بي الحِبالُ في سفري فلا بلاغَ اليوم إلاَّ بالله ثمَّ بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلَّغُ بها في سفري، فقال: قد كنتُ أعمىٰ فردَّ الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخذْ ما شئتَ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيءٍ أخذتَهُ لله، فقال: أمسِك مالك، فإنَّما ابتُليتم، فقد رضي الله عنكَ وسخِطَ علىٰ صاحِبَيْكَ»[1].

الصورة الثانية: الصدقة الكثيرة:

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبي ﷺ قال: «بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان! فتنحىٰ عن ذٰلك

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٦) (٣٢٧٧).

السحاب فأفرغ ماءه في حرَّة فإذا شرجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبت ذٰلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته، يحول الماء بمسحاته! فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبدالله لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إنِّي سمعتُ صوتًا في السحاب الذي هٰذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لا سمك: فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هٰذا، فإنِّي أنظر إلىٰ ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثه»[1].

الصورة الثالثة: حسن الورع.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله: «**اشترىٰ رجلٌ من رجلٍ عقارًا له، فوجدالرجل الذي اشترىٰ العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترىٰ العقار: خذ ذهبك مني، إنَّما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنَّما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلىٰ رجل، فقال الذي تحاكما إليه، ألكما ولدٌ؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا علىٰ أنفسهما منه وتصدقا**»[2].

الصورة الرابعة: بر الوالدين، والعفة، وحسن معاملة الأجير.

عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتىٰ أووا المبيت إلىٰ غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنَّه لا ينجيكم من هٰذه الصخرة إلاَّ أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللَّهمَّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أَغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأىٰ بي في طلب شيء يومًا، فلم أرح عليهما حتىٰ ناما فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يديَّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا، اللَّهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذٰلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هٰذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج، قال النبي ﷺ: وقال الآخر: اللَّهمَّ كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليَّ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني، حتىٰ ألمت بها سنةٌ من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار علىٰ أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتىٰ إذا قدرتُ عليها قالت: لا أُحِلُّ لك أن تفض الخاتم إلاَّ بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي**

---

(١) صحيح مسلم (٣/٢٢٨٨) (٢٩٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٢٨١) (٣٢٨٥).

أحب الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهمَّ إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنَّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج منها، قال النبي ﷺ: وقال الثالث: اللهمَّ إنِّي استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتىٰ كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبدالله أدِّ إليَّ أجري، فقلت له، كل ما ترىٰ من أجرك، من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال يا عبدالله لا تستهزيء بي، فقلت: إني لا أستهزيء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا، اللَّهمَّ فإن كنتُ فعلتُ ذٰلك ابتغاء وجهك فافرج عنَّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[1].

الصورة الخامسة: الإحسان إلىٰ الحيوان.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشربَ منها، ثم خرج فإذا هو بِكَلبٍ يلهثُ، يأكُل الثرىٰ من العطش، فقال: لقد بلغ هـٰذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفَّه ثمَّ أمسكه بفيه، ثمَّ رقِي فسقىٰ الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل كبدٍ رطبةٍ أجرٌ»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «أنَّ امرأةً بغيًا رأت كلبًا في يوم حار، يُطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها، فغفر لها»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٧٩٣) (٢١٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٨٣٣) (٢٢٣٤).

الفصل الرابع
ثمرات الإحسان

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: **الثمرات الدنيوية**

المبحث الثاني: **الثمرات الأخروية**

المبحث الأول
الثمرات الدنيوية

أصبح من نافلة القول التأكيد علىٰ أنَّ الإحسان قيمة دينية عظيمة، بعد أن تبيَّن لنا فيما سبق سمو مكانته ورفعة شأنه، وأنه لا يرتقىٰ إلىٰ مرتبته إلاَّ أهل الهمم العلية، والعزائم الأبية، والنفوس المتوثبة، الذين تلمسوا محاب الله تعالىٰ في كل قول أو عمل أو اعتقاد، فقاموا به علىٰ خير وجه من الإتقان والإخلاص والمتابعة الصادقة لرسول الله محمَّد ﷺ، وتنزهوا عن كل ما يبغضه الله تعالىٰ من الأقوال والأعمال والاعتقادات الفاسدة تركًا كليًا ابتغاء مرضاة الله تعالىٰ، حتىٰ كأنهم جبلوا علىٰ فعل الخيرات وترك المنكرات من غير فكر ولا روية، وقاموا علىٰ أنفسهم وغيرهم من الخلق بما لا نظير له من كف الأذىٰ وبذل الندىٰ، وهم علىٰ حال وكأنهم يرون ربهم تعالىٰ يرجون رحمته ويخافون عذابه قد امتلأت قلوبهم بمحبته، كل ذٰلك لعلمهم الوافر بكرم مَنْ يعاملون وأنَّه تعالىٰ يجزىٰ المحسنين خير الجزاء في الدنيا والآخرة، وأنَّ هـٰذا الجزاء ثمراتٌ يانعاتٌ للإحسان، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠] وكما قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣٦]، ولا يخفىٰ أنَّ أهل الإحسان شاركوا أهل الإسلام والإيمان في حسن الجزاء والثواب في الدنيا والآخرة، وزادوا عليهم كما وكيفًا، ومن تلك الثمرات الدنيوية.

الأولىٰ: محبة الله تعالىٰ للمحسنين ورضاه عنهم: وهـٰذا لا يعني أنَّ الله تعالىٰ لا يحب غيرهم من أهل الإسلام، والإيمان وإنما فيه زيادة محبة لهم جزاء ما زاودا به من الإحسان عن غيرهم يقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

ويقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ويقول تعالىٰ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣].

وعن رضاه عنهم يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

آثار محبة الله تعالىٰ للمحسنين:

هٰذه المحبة الإلٰهية للعبد عظيمة وشريفة ولها آثار حميدة في حياة المحسن، إذ يجعل الله له بها نورًا وبصيرةً وحفظًا وتأييدًا ودعاء مستجابًا وإعاذة به من كل ذي شر. كما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله قال من عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه**»[(١)].

يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ المراد بهٰذا الكلام: أنَّ من اجتهد بالتقرب إلىٰ الله بالفرائض، ثم بالنوافل، قرَّبه ربه، ورقَّاه من درجة الإيمان إلىٰ درجة الإحسان، فيصير يعبدالله تعالىٰ علىٰ الحضور والمراقبة كأنَّه يراه، فيمتليء قلبه بمعرفة الله تعالىٰ، ومحبته، وعظمته، وخوفه، وإجلاله والأنس به، والشوق إليه، حتىٰ يصير هٰذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا بعين البصيرة»[(٢)].

ثم قال: «فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالىٰ، محا ذلك القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ولا إرادة إلاَّ لما يريده مولاه، فحيئنذٍ لا ينطق العبد إلاَّ بذكره ولا يتحرك إلاَّ بأمره، فإن نطق، نطق بالله، وإن سمع، سَمِعَ به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به».

ومن آثار محبة الله تعالىٰ لعبده: محبَّة أهل السماء له و ما يضعه من القبول له في أهل الأرض، كما روىٰ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدًا نادىٰ جبريل إنَّ الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»[(٣)].

الثانية : استمرار الهداية التي منحهم الله والزيادة فيها:

هداية الله لعبده المحسن ثمرة عظيمة إذ بغيرها يتغير مسيره إلىٰ الله تعالىٰ وتتجاذبه الشهوات والشبهات التي يزينها العدو اللدود الشيطان الرجيم في قلوب العباد فالحاجة ماسة للهداية من أول المسير إلىٰ الله إلىٰ حين القدوم عليه جلَّ وعلا، وليس لأحد غِنىٰ عن الهداية، حتىٰ رسل الله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٨٤) (٦١٣٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤٥ـ ٣٤٦).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٤٦) (٥٦٩٣).

قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

من أسباب الهداية:

١ـ الدعاء الخالص والإلحاح في طلبها من الله تعالىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦].

٢ـ المجاهد الدائبة في تحصلها من طرقها الشرعية وهي الكتاب والسنة، وذٰلك بتعلمها وأخذ النفس علىٰ العمل بأحكامهما، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وهـٰذان المصدران للهداية حق لا مرية فيهما ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيرهما أضله الله يقول الله تعالىٰ عن القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [لقمان: ٢ـ ٥].

٣ـ الثبات علىٰ أول الهداية مع الاستمرار في الرغبة الصادقة في الزيادة منها كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمّد: ١٧].

٤ـ ترك عوائد الآباء والأجداد وأهوائهم المنحرفة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٦].

٥ـ الاستعصام بالله تعالىٰ من الوقوع فيما يضل من الذنوب والمعاصي كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١].

الثالثة: استجابة الدعاء:

وذٰلك أنَّ المحسنين بفضل الله ورحمته تحققت فيهم الولاية لله تعالىٰ، فهم خُلَّصُ أوليائه هو وليهم ولايةً أعظم من ولايته لغيرهم تبارك وتعالىٰ، ثم إنَّهم يجدون في قلوبهم من الثقة بموعود الله وما في يده ما لايجده غيرهم، مع ما تَحَصَّلَ لديهم من تحقيق أسباب إجابة الدعاء وصرف موانعه عنهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصافات: ٧٥ـ ٨٠]. وكما قال تعالىٰ عن دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٥].

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ السابق: «ولئن سألني

لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. . .»[1].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ «يعني أنَّ هٰذا المحبوب المقرب، له عندالله منزلة خاصة تقتضي أنَّه إذا سأل الله شيئًا أعطاه إياه وإن استعاذ به من شيء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة لكرامته علىٰ ربه عزَّوجل، وقد كان كثير من السلف الصالح معروفًا بإجابة الدعوة. . .وكان سعد ابن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ مجاب الدعوة، فكذب عليه رجل، فقال: «اللَّهمَّ إن كان كاذبًا، فأعم بصره، وأطل عمره، وعرضه للفتن، فأصاب الرجل ذٰلك كله، فكان يتعرض للجوارىٰ في السكك، ويقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد»[2].

الرابعة: معية الله تعالىٰ الخاصة للمحسنين:

وهٰذه المعية علىٰ ما يليق بجلال الله تعالىٰ مما لا نعلم كيفيته والتي من لوازمها الحفظ والتأييد والنصرة والتمكين والمحبة والتثبيت وغيرها من المنح الربانية، يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ «أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهٰذه معية خاصة»[3].

أيها المحسن: هنيئًا لك رعاية الله وعنايته تكلؤك في الليل والنَّهار لا تخاف حين يخاف الناس ولا تكل حين يكلُّ العامل، وأنت في هداية من الله تعالىٰ، موعود بالنصر والظفر حين اللقاء.

الخامسة: صرف السوء والفحشاء عن المحسنين:

إنَّ المحسن بشر معرض لغوائل أهل السوء وما تشتهيه أنفسهم من الإثم والمنكر فالواجب عليه ألا يركن إلىٰ نفسه فيرد علىٰ السوء والفحشاء مطمئنًا إلىٰ قدراته في الحفظ والصون ولا سيما فتنة النساء، أما إذا ابتلي بما لا طاقة له علىٰ الفرار منه فإنَّ الله تعالىٰ بقدرته علىٰ كل شيء يخمد نار الشهوات الفطرية في نفس المحسن، ويصرفه عنها ويصرفها عنه. كما أبان الله تعالىٰ عن حفظه لنبيه يوسف عليه السلام وصونه عن المؤامرة الخبيثة التي دبرتها له امرأة العزيز ليقع بها فقال جلَّ وعلا: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٨٤) (٦١٣٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤٨، ٣٥٠)، وحديث دعوة سعد في صحيح البخاري (١/ ٢٦٣) (٧٢٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٩١٩).

عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٣ـ ٢٤].

وفي قصة جُريج العابد مثال قوي لحفظ الله لعبده المحسن وصرف السوء والفحشاء عنه، وفيها أنَّ أمه دعت عليه: فقالت اللَّهم لا تمته حتىٰ ينظر إلىٰ وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغيٌّ يَتَمَثَّلُ بِحُسْنِها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعيًا كان يأوي إلىٰ صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها...» الحديث[1].

وهٰذا الحفظ الإلٰهي لعبده المحسن جزاء لحفظه لحدود الله تعالىٰ والقيام بما يجب له جلَّ ذكره كما جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك..**»[2].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ «يعني احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره، ونوهيه، وحفظ ذٰلك: هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده، فلا يتجاوز ما أمر به، وأذن فيه إلىٰ ما نهىٰ عنه، فمن فعل ذٰلك، فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه، وقال عزَّوجل: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]. وفسر الحفيظ ها هنا بالحافظ لأوامر الله، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها... وقوله: «**يحفظك**» يعني: أنَّ من حفظ حدود الله وراعىٰ حقوقه حفظه الله، فإنَّ الجزاء من جنس العمل... وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله...

والنوع الثاني: من الحفظ وهو أشرف النوعين:

حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشَّهوات المحرَّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه علىٰ الإيمان»[3].

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٩٧٦) (٢٥٥٠). من رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) سنن الترمذي (٤/ ٦٦٧) (٢٥١٦). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣١٧) (٧٩٥٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٦٨).

السادسة: النجاة من المكائد والهلكة المتوقعة:

بما أنَّ المحسن إنسان عزَّعليه دينه، وسمت عنده نفسه فلم يرتع مع الفاسقين في وحل الخطيئة ونجس الذنب إذن فهو مستهدف في نفسه ودعوته من أهل الباطل وربما من الحساد ممن فيه نوع صلاح غير أن الله تعالىٰ منجيه من غوائلهم ومكائدهم المتوقعة. هٰذا نوع، وَالآخر أنَّ الله تعالىٰ إذا أراد بقوم سوءًا جعل لعبده المحسن مخرجًا حسنًا ينجو به، قال الله تعالىٰ عن نجاة عبده وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ من النار التي أوقدها له قومه: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ـ ٧٠].

وهٰكذا نجىٰ الله يوسف عليه السلام من كيد إخوته وما أرادوا به كما قال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٨٩ـ ٩٠].

وهٰكذا نجىٰ الله تعالىٰ نوحًا عليه السلام مما أصاب قومه من العذاب كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٦]. إلىٰ أن قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصافات: ٨٠].

ونجىٰ جل وعلا موسىٰ وهارون عليهما السلام ومن معهما من المؤمنين من العذاب والغرق الذي لحق فرعون وجنوده فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ [الصافات: ١١٤ـ ١١٥].

والحقيقة أنَّ هٰذا باب يطول ذكره وفي سيرة الرسول ﷺ وما نجاه الله تعالىٰ من كيد أعدائه عبرة قوية.

السابعة: أنَّ الله تعالىٰ يمنح المحسنين رغدًا في العيش، وزيادة في الرزق، وحياة طيبة.

قال الله تعالىٰ لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة: ٥٨].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالىٰ: ﴿رغدًا﴾ أي كثيرًا واسعًا، وفي قوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ أي نزيدهم إحسانًا علىٰ الإحسان المتقدم عندهم[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً

---

(١) جامع لأحكام القرآن (١/ ٢٨٢).

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧] وأي حياة أطيب من حياة المحسنين وقد امتلأت قلوبهم سكينة ورضًا بأقدار الله تعالىٰ فلا خوف مما هو آتٍ ولا حزن علىٰ مافات من الدنيا.

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة والعافية والظفر والغنيمة»[(١)].

ويقول تعالىٰ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٣٠].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وحسنة الدنيا هي الحياة الطيبة وما فتح الله عليهم من زهرة الدنيا مع نعمة الإيمان وخير الآخرة هو النعيم الدائم»[(٢)]، فليتَ الذين اطمأنوا بالدنيا ورضوا بها الذين ينفقون القدرات المادية الهائلة لتحصل لهم مثل هٰذه الحياة ولمَّا يحصلوا عليها، ليتهم يعلمون أنَّ ضالتهم المنشودة لا تتحقق إلاَّ من طريق الدين والبلوغ فيه مرتبة المحسنين.

الثامنة: الإحسان يزرع المودة للمحسنين في قلوب الخلق

ما من شيء يسل سخيمة الصدر عن المحسن ويردم هوة العداوة ضده ويؤلف القلوب عليه ويزرع المودة له أعظم من الإحسان إلىٰ الخلق ومقابلة إساءتهم بالانعام والتفضل والبر بهم: يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

قال الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وهٰذا تركيب من أعلىٰ طرف البلاغة لأنَّه يجمع أحوال العداوات فيعلم أنَّ الإحسان ناجع في اقتلاع عداوة المحسن إليه للمحسن علىٰ تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفًا، وتمكنًا وبعدًا، ويعلم أنَّه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قويًا بقدر تمكن عداواته ليكون أنجع في اقتلاعها، ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها»[(٣)].

التاسعة: أنَّ الله تعالىٰ يبارك على المحسن ويهبه زوجة وذرية صالحة مباركة

يقول الله تعالىٰ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٥٣).

(٢) التحرير والتنوير(١٤/ ١٤٢).

(٣) التحرير والتنوير(٢٤/ ٢٩٣).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١٠٩- ١١٣]. ومعنىٰ ﴿باركنا﴾أي جعلناه ذا بركة، والبركة زيادة الخير في مختلف وجوهه(١)

وأما ما يهبه الكريم جلَّ وعلاَّ من زوجة وذرية صالحة مباركة للمحسن، فإنَّه الغالب وهو المشاهد في أهل الإحسان وهبهم الله تعالىٰ تلك الزوجات والذرية منحة منه، يستظلون بظلال بِرِّهِمْ، ينعمون بصلاحهم وحسن سيرتهم، وإن جاء خلاف ذٰلك للمحسن فإنَّه من باب الابتلاء الذي إذا صبر عليه كان خيرًا من الولد الصالح والزوجة البارة، وفيه دلالة علىٰ أنَّ الله تعالىٰ هوالذي يهب الصلاح والبركة لمن يشاء سبحانه وتعالىٰ لا غيره، يقول تعالىٰ عما أنعم به علىٰ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الذرية الصالحة المباركة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

ويقول تعالىٰ عن زكريا ـ عليه السلام ـ وما أنعم الله جلَّ وعلا به عليه من الذرية والزوجة الصالحة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

العاشرة: أنَّ الله يتفضل علىٰ عبده المحسن بالسيرة الحسنة، والذكر الحسن بين الناس ويرزقه الظفر علىٰ أعدائه.

أجل: إنَّ المطلع على تواريخ الناس وأخبارهم والمهتم بأحديثهم وما يتناقلون عن بعضهم، يرىٰ أنَّ المحسنين شريحة حسنت سيرتهم، فقيض الله لهم من يحمد فعالهم، فلم نزل نسمع الخطب والمحاضرات والندوات تعقد في نشر فضائلهم، والثناء عليهم صباح مساء، كما أنَّه لا يخفىٰ علىٰ كل بصير ما تزخر به المكتبه من هٰذا النوع من التأليف.

وهٰذا للحي عاجل بشراه وللميت شهادة تنفعه عند ربه غدًا، يقول الله تعالىٰ عن نوح وإبراهيم، وموسىٰ وهارون وإلياس عليهم السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ٧٨].

فعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولامتفحشًا وإنَّه كان يقول: إنَّ خياركم أحاسنكم أخلاقًا»(٢).

وهٰكذا كما رفع ذكرهم في العالمين فإنَّه جعل لهم العاقبة والظفر

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير(٢٣/ ١٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٤٥) (٥٦٨٨).

علىٰ أعدائهم يقول تعالىٰ عن موسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصافات: ١١٦].

وهٰذا جزاء ما كانوا يرفعون من ذكر الله في الدنيا وما نصروا به شرعه كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمَّد: ٧].

الحادية عشر: أنَّ الله تعالىٰ مكَّن المحسنين في هٰذه الدنيا:

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦].

ويقول تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤].

وهٰذا التمكين كما حصل لهٰذا النبي الكريم فإنَّه يحصل لغيره من المحسنين بحسب ما تقتضيه حكمة الله وإرادته.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ المكين: صفة مشبهة من مكُن ـ بضم الكاف ـ إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقه من المكان(١).

الثانية عشر: أنَّ الله تعالىٰ أنار عقول المحسنين بالعلم.

من الملاحظ أنَّ الله تبارك وتعالىٰ أنار عقول المحسنين وجعلها صالحة للعلم والمعرفة والتفكر والتأمل والنظر كما قال تعالىٰ ممتنًا علىٰ يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال تعالىٰ ممتنًّا علىٰ موسىٰ ـ عليه السلام ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤]، وفي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لفظ عام(٢).

والفرق بين ما آتىٰ الله تعالىٰ الأنبياء من العلم والحكم وبين ما آتىٰ غيرهم من الأنبياء والرسل عليهم السلام أنَّ علم الأنبياء مباشرة من الله تعالىٰ عن طريق الوحي الإلـٰهي لهم أو من طريق جبريل ـ عليه السلام ـ الذي كان يتنزل عليهم بأوامر الله ونواهيه، ثم إنَّ علوم الأنبياء وحكمهم زائدةٌ كمًّا وكيفًا عن غيرهم، وهٰذا العلم لا يمكن أن يكتسب بل هو محضُ منةٍ واصطفاءٍ من الله تعالىٰ، وأما ما آتىٰ المحسنين فإنَّه من باب تهيئتهم لتلقي تلك العلوم عن الرسل ـ عليهم السلام ـ أو أتباعهم، وأنَّه جعل لهم بصائر يميزون بها وقدرة علىٰ فهم الدين والفقه فيه.

---

(١) التحرير والتنوير(١٣/٧).

(٢) انظر: فتح القدير (٣/١٤).

الثالثة عشر: أنّ الله تعالىٰ رفع عنهم الحرج لعلمه بصدق نواياهم وحسن قصدهم.

يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ [التوبة: ٩١].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ وهٰذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن[١].

وشرط الإحسان هنا تمام النصح لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ في اتباع الأوامر واجتناب النواهي.

ومعنىٰ الآية: ليس علىٰ الضعفاء ولا علىٰ من عُطف عليهم حرج، وهو الضيق، إذا نصحوا لله ورسوله لأنّهم محسنون غير مسيئين، وما علىٰ المحسنين من سبيل، أي مؤاخذه أو معاقبة، والمحسنون هم الذين فعلوا الإحسان وهو ما فيه النفع التام[٢].

الرابعة عشرة: أنّ الله تعالىٰ يمنح المحسن الثبات علىٰ الدين والقوة فيه

كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان: ٢٢]. أي فقد ثبت في أمره، واستقام علىٰ الطريق المثلىٰ، والصراط المستقيم، وتمسك من الدين بأقوىٰ سبب، فهو ثابت اليقين سالم من اضطراب القلب في الدنيا ناج من مهاوي السقوط في الآخرة كحال من تمسك بحلقة حبل وثيق متين لا ينفصم[٣].

الخامسة عشرة: ما يجده المحسن في القرآن الكريم من البشرى الحسنة وقبول عمله والوعد الحق بالخير بعد وفاته بانتفاء الخوف والحزن.

يقول الله تعالىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج: ٣٧].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ، والمعنىٰ سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله[٤].

والمخاطب هو النبي ﷺ.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٢].

يقول الطبري ـ رحمه الله ـ وهو بشري يعني القرآن العظيم للذين أطاعوا الله فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم إياه في الدنيا، فحس الجزاء من الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٤٥).
(٢) التحرير والتنوير(١٠/ ٢٩٤).
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٦٦)، والتحرير والتنوير(٣/ ٣٥٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٥٩).

لهم في الآخرة علىٰ طاعتهم إياه[1].

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ في قوله: ﴿للمحسنين﴾ ليكون ذريعة إلىٰ البشارة بنفي الخوف والحزن كمن قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [2]

يؤيد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

السادسة عشرة: أنَّ الله تعالىٰ يتقبل من المحسنين أحسن أعمالهم ويجزيهم عليها أعظم الأجر ويضاعف ثوابها لهم أكثر من غيرهم ويتجاوز عن سيئاتهم، بل يبدلها حسنات

يقول الله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاق: ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢].

وقال تعالىٰ: ﴿عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣ـ ٣٥].

والآيات في هٰذه المعنىٰ كثيرة، ومن السنة النبوية.

---

(١) تفسير الطبري من كتابه جامع البيان، للدكتور بشار عواد معروف ومن معه (٧/ ١٣).

(٢) روح المعاني (٢٦/ ١٦).

ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلىٰ سبع مائة ضعف، وكل شيء تكتب له بمثلها**»[1].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**العبد إذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه له أجره مرَّتين**»[2].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»[3].

وعن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمَّد ﷺ والعبد المملوك إذا أدىٰ حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**»[4].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين، فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء**»[5].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**صلاة الجميع تزيد علىٰ صلاته في بيته، وصلاته في سوقه خمسًا وعشرين درجة، فإنَّ أحدكم إذا توضأ فأحسن وأتى المسجد لا يريد إلاَّ الصلاة لم يخط خطوة إلاَّ رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة حتىٰ يدخل المسجد، وإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه، وتصلي عليه الملائكة ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه، اللهمَّ اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يحدث فيه**»[6].

وعن حمران بن أبان قال: أتيت عثمان ـ رضي الله عنه ـ بطهور وهو جالس علىٰ المقاعد فتوضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: رأيت النبي ﷺ توضأ وهو في هـٰذا المجلس، فأحسن الوضوء ثم قال: «**من توضأ مثل هـٰذا الوضوء، ثم أتىٰ المسجد فركع ركعتين، ثم جلس، غُفر له ما تقدم من ذنبه**

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٤) (٤٢).
(٢) صحيح البخاري (٢/ ٨٩٩) (٢٤٠٨).
(٣) صحيح البخاري (٦/ ٢٥٣٦) (٦٥٢٣).
(٤) صحيح البخاري (١/ ٤٨) (٩٧).
(٥) سنن الترمذي (١/ ٧٧)(٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٦١) (٦١٦٧).
(٦) صحيح البخاري (١/ ١٨١) (٤٦٥).

قال: وقال النبي ﷺ : لا تغتروا»[1].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: حاصله لا تحملوا الغفران علىٰ عمومه في جميع الذنوب فتسترسلوا في الذنوب، اتكالاً علىٰ غفرانها بالصلاة، فإنَّ الصلاة التي تكفر الذنوب هي المقبولة ولا اطلاع لأحد عليه[2].

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتىٰ تخرج من تحت أظفاره»**[3].

وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«ما من امريء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلاَّ كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، مالم يأت كبيرة وذٰلك الدهر كله»**[4].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتىٰ الجمعة فاستمع وأنصت، غُفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسَّ الحصىٰ فقد لغا»**[5].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«اتَّق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»**[6].

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن خلق وإنَّ الله ليبغض الفاحش البذيء»**[7].

السابعة عشرة: أنَّ المحسن مِنْ أقرب الناس محبة ومنزلة يوم القيامة من الرسول ﷺ:

فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا . . »**[8].

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٦٣) (٦٠٦٩).

(٢) فتح الباري (١٠/ ١٦٥).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٢١٦) (٢٤٥).

(٤) صحيح مسلم (١/ ٢٠٦) (٢٢٨).

(٥) صحيح مسلم (١/ ٥٨٧) (٨٥٧).

(٦) سنن الترمذي (٤/ ٣٥٥) (١٩٨٧). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٨١) (٩٧).

(٧) سنن الترمذي (٤/ ٣٦٢) (٢٠٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٨٤) (٥٦٣٢).

(٨) سنن الترمذي (٤/ ٣٧٠) (٢٠١٨). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٣٩) (٢٢٠١).

المبحث الثاني
الثمرات الأخروية

إنَّ الله تعالىٰ كما أحسن إلىٰ عباده المحسنين في الدنيا فقد ادَّخر لهم أعظم الإحسان وأجله في الآخرة مما لا يمكن وصفه، وذٰلك لينعموا به ما دامت السماوات والأرض عطاء غير مجذوذ.

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتىٰ إذا أفضىٰ إلىٰ الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها»**[1].

وهـٰذا الإحسان الرباني ثمراته يانعة منها:

الأولىٰ: سعة رحمة الله تعالىٰ ومغفرته لعباده المحسنين قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة: ٩١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: ١١].

الثانية: الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل: ٨٧ـ ٨٩].

يخبر الله تعالىٰ عن هول يوم الفزع يوم النفخ في الصور، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر ربه فينفخ فيه نفختان:

الأولىٰ: نفخة الفزع ويطولها، وذٰلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة علىٰ شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض، وفي الفزع قولان:

أحدهما: أنه الإسراع والإجابة إلىٰ النداء.

الثاني: أنَّه الفزع المعهود من الخوف والحزن، لأنَّهم أُزْعِجوا من

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢١٦٢) (٢٨٠٨).

قبورهم ففزعوا وخافوا، وهـٰذا القول الثاني هو الأقوىٰ.

واستثنىٰ الله في نفخة الفزع من شاء ومنهم المحسنون كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠١ـ ١٠٣][(1)].

وقد وصف الله تعالىٰ أحوال الناس عند النفخ فقال تعالىٰ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَـٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر: ٦ـ ٨].

الثالثة: أنَّ الله تعالىٰ بفضله وجوده وكرمه ينجي عباده المحسنين من عذاب النار:

فإنَّ النار أعظم النكال، وأسواء الداء، هي دارالبوار، جمع الله فيها من أنواع العذاب وأصنافه، لمن استحقها من الكفار والفاسقين ما لو وقع جزء منه علىٰ الأرض ومن فيها لأفسد عليهم معايشهم، وأهلكهم أجمعين غير أنَّ المحسنين في نجاة من الله تعالىٰ، كما قال جلَّ ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢] وحتىٰ يطالع المحسنون مقدار هـٰذا الفضل الرباني عليهم أن ينظروا في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها.

الرَّابعة: أنَّ الله تعالىٰ بإحسانه العميم أحل عباده المحسنين دار الرضوان والنَّعيم المقيم جنات النعيم:

يقول الله تعالىٰ: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[المائدة: ٨٢ـ ٨٥].

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة: ١٠٠]. ويقول تعالىٰ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[يونس: ٢٦].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٠٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٦١ـ ١٦٢).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الأحقاف: ١٥ـ ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الذاريات: ١٥ـ ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾[النجم: ٣١].

زيادة المحسنين النظر إلىٰ وجه رب العالمين:

قال الله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[القيامة: ٢٢ـ ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس: ٢٦]. وهٰذه الزيادة هي النظر إلىٰ وجه الله عزَّوجل والحسنىٰ هي الجنة.

عن صهيب ـ رضي الله عنه ـ قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس: ٢٦] قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النَّار نادىٰ منادٍ يا أهل الجنة إنَّ لكم عندالله موعدًا يريد أن ينجزكموه، قالوا: ما هٰذا الموعد؟ ألم يثقل موازيننا؟ ويبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب وينظرون إلىٰ وجه الله عزَّوجل فما أُعْطُوا شيئًا أحب إليهم من النظر إليه»[١].

وهٰذا النظر إلىٰ وجه الله عزَّوجل هو ألذ النعيم وأقصىٰ درجات السعادة التي يُمنحها المحسنون من رب العالمين.

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢١٧٨) (٢٨٣٤).

الفصل الخامس
صفات المحسنين

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: **الصفات الباطنة**

المبحث الثاني: **الصفات الظاهرة**

المبحث الأول
الصفات الباطنة

إنَّ الله تعالىٰ بعلمه وحكمته وقدرته البالغة رسم لعباده المحسنين أوصافًا عزيزة حميدة في الكتاب الكريم والسنة النبوية، يتميزون بها عن غيرهم، مع مشاركتهم غيرهم من المسلمين والمؤمنين في صفاتهم وزيادتهم التطبيقية فيها أوضح سبحانه تلك الصفات لمن أراد الارتقاء بنفسه إلىٰ مرتبة الإحسان السامقة، وهذه الصفات نوعان: صفات باطنة وصفات ظاهرة.

الصفات الباطنة:

والمراد بها تلك الصفات المعنوية:

الصفة الأولىٰ: الإيمان بالأركان الستة:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾[الكهف: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾[الكهف: ٨٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾[العنكبوت: ٧]. وقال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾[الصافات: ١٠٩ـ ١١١]. وقال تعالىٰ عن موسىٰ وهارون عليهم السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾[الصافات: ٧٩ـ ٨١]. وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾[الصافات: ١٠٩ـ ١١١].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر: ١٠].

الصفة الثانية: الإخلاص.

يقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾[الزمر: ١١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾[مريم: ٥١].

وقريء في السبع بفتح اللام وكسرها من «مخلَصًا»[1] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء: ١٢٥].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل

---

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢٣٩).

لله . . .[1]

الثالثة: اتباع الكتاب والسنة الصحيحة:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام: ١٥٣].

ويقول تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[الزمر: ٣٩].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ١٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾[النساء: ١٢٥].

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذرُ جيشٍ يقول: صبحكم ومساكم ويقول: «**أما بعد فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمَّد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[2].

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال: أتىٰ النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: «**أمتهوكون فيها ياابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسىٰ ﷺ كان حيًا ما وسعه إلاَّ أن يتَّبعني**»[3].

الرابعة: العلم بكتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله محمَّد ﷺ:

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[محمد: ١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١].

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[يوسف: ٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ . . .﴾ [النمل: ١٥].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٩٠).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٥٩٢) (٨٦٧).

(٣) سنن النسائي (٣/ ١٨٨) (١٥٧٨).

وقال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[البقرة: ٢٦].

وقال تعالىٰ عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص: ١٤].

وجاء عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»[١] **أي أحسنكم**.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. .»[٢]

الخامسة: المراقبة لله تعالىٰ:

قال الله تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[غافر: ١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[النساء: ١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. . .**»[٣].

السادسة: الصبر بجميع أنواعه:

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[الشورىٰ: ٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر: ١٠].

السابعة: التأمل والتفكر والتدبر:

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾[ص: ٤٥-٤٧].

يعني بالبصر بصر القلب، وبه تنال معرفة الأشياء،[٤] والمقصود بالبصر هو النظر الذي يعني التأمل،[٥] يدل علىٰ ذٰلك قوه تعالىٰ: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾[الأعراف: ١٩٨].

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٣٧٦) (١٤٧٣٦)، وحسنه الألباني في المشكاة (١/ ٦٣).
(٢) صحيح البخاري، الفتح (٩/ ٧٤) (٥٠٢٧).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ٧١٥) (١٠٣١).
(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ١٧٠).
(٥) انظر بصائر ذوي التمييز (٥/ ٨٢).

الثامنة: الخوف من عذاب الله تعالىٰ:

قال الله تعالىٰ عن إمام المحسنين محمَّد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[الزمر: ١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر: ٩، ١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الحج: ٣٤، ٣٥]، إلىٰ قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾[الحج: ٣٧].

والمخبتون: هم الخائفون كما قال الأخفش[1]، وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم[2]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[الرحمن: ٤٦]، ثم ألحق تعالىٰ بعد آيات بقوله جلَّ ذكره: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[الرحمن: ٦٠]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[المؤمنون: ٥٧، ٦١].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هٰذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون: ٦٠]. قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولٰكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم، أولـٰئك الذين يسارعون في الخيرات[3].

التاسعة: الخشية:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[البينة: ٧، ٨]. وخير هنا أصلها أخير: أفعل تفضيل بمعنىٰ أحسن.

عن عمر بن أبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ وذكر الحديث بطوله قال: قال

(١) مدارج السالكين (٢/٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) سنن الترمذي (٥/٣٢٧) (٣١٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣/٧٩) (٢٥٣٧).

ﷺ: «. . . أما والله إنِّي لأتقاكم لله وأخشاكم له»(١).

العاشرة: علو الهمة:

عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله عزَّوجل كريم، يحب الكرم، ومعالي الأخلاق، ويبغض سفسافها**»(٢).

الحادية عشر: العزم في امضاء الخير:

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاق: ٣٥].

وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالىٰ: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[آل عمران: ١٨٦].

الثانية عشر: التوكل: .

أخبر الله تعالىٰ في كتابه العزيز عن جملة الأنبياء عليهم السلام وأبان عن إحسانهم ومنه التوكل الحق علىٰ ربهم ومن أولئك الرسل الكرام:

١ـ نوح ـ عليه السلام ـ قال الله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾[الصافات: ٧٩، ٨٠]. وعن توكله يقول تعالىٰ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾[يونس: ٧١].

٢ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾[الصافات: ١٠٩، ١١٠]، وعن توكله يقول تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾[الممتحنة: ٤].

٣ـ موسىٰ ـ عليه السلام ـ قال الله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الصافات: ١٢٠، ١٢١]. وقال عن توكله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[غافر: ٤٤]. وكان يأمر قومه بالتوكل كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٧٧٩) (١١٠٨).

(٢) مستدرك الحاكم (١/ ١١١) (١٥١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣/ ٣٦٦) (١٣٧٨).

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾[يونس: ٨٤، ٨٥].

٤ـ محمَّد ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر: ٣٣، ٣٤].

وعن توكله ﷺ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾[الشورىٰ: ١٠]

الثالث عشر: التواضع:

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الحجر: ٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[لشعراء: ٢١٥].

الرابعة عشر: الزهد:

قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وعن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: أتىٰ النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، دُلني علىٰ عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال رسول الله ﷺ: **«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»**(١).

الخامسة عشر: محبة الله تعالىٰ ومحبة ما يحبه جل وعلا:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»**(٢).

السادسة عشر: الرجاء فيما عندالله تعالىٰ:

قال الله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر: ٩، ١٠].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: **«ما من الأنبياء نبي إلاَّ أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة»**(٣).

---

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٧٣) (٤١٠٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٠).

(٢) سنن أبي داود (٥/ ٦٠) (٤٦٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٣/ ٨٨٦) (٤٦٨١).

(٣) صحيح البخاري، الفتح (٩/ ٣) (٤٩٨١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾[الإسراء: ٢٨].

السابعة عشر: التقوىٰ:

قال الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾[المائدة: ٩٣].

وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[النجم: ٣١، ٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾[النحل: ٣٠]. وقال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾[الحج: ٣٧]

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر: ١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾[المرسلات: ٤١-٤٤].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**»[(١)].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتق المحارم تكن أعبدالناس**»[(٢)].

الثامنة عشر: الخشوع:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلىٰ الصلاة قال: «**وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله**

---

(١) صحيح البخاري(٣/ ١٢٣٤) (٣١٩٤).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٥٥١) (٢٣٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع(١/ ٨٢) (١٠٠).

رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين، **اللّهم أنت الملك لا إلـه إلاّ أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمتُ نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنَّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، اصرف عنِّي سيئها لا يصرف عني سيئها إلاّ أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**»، وإذا ركع قال: «**اللّهمَّ لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي وعصبي**» وإذا رفع قال: «**اللّهمَّ ربَّنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**» وإذا سجد قال: «**اللّهمَّ لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**» ثم يكون مْن آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «**اللّهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنتُ وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخر، لا إلـه إلاّ أنت**»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾[الإسراء: ١٠٧ـ ١٠٩].

التاسعة عشر: تعظيم الله تعالىٰ وتعظيم شعائره:

قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾[الحج: ٣٠].

عن أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما توفي ابن رسول الله ﷺ، بكىٰ رسول الله ﷺ ثم قال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنَّه وعدٌ صادقٌ وموعودٌ جامع، وأنَّ الآخر تابع للأول لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل مما وجدنا وإنا بك لمحزونون**»[2].

عن المسوار بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ: في حديث صلح الحديبية وفيه قال: فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إيّاها**»[3].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٥٣٤) (٧٧١).

(٢) سنن ابن ماجه (١/ ٥٠٦) (١٥٨٩)، وحسنة الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: (١/ ٢٦٥) (١٢٩٢).

(٣) سنن أبي داود (٣/ ١٩٤) (٢٧٦٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٨١) (٣٨٩١).

العشرون: حسن الظن بالله تعالىٰ:

يقول الله تعالى عن كليمه ورسوله موسىٰ عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ـ ٦٨].

وهٰذا إمام المحسنين نبينا محمَّد ﷺ، وهو في طريق الهجرة إلىٰ المدينة أوىٰ إلىٰ الغار هو وصاحبه الصديق أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ، تخفيًا من قريش وقد خرجت بقضها وقضيضها في طلبه، وجعلوا ألف ناقة لمن يأتي به حيًا أو ميتًا، فلم يتركوا سهلاً ولا جبلاً، إلاَّ والتمسوا فيه الرسول ﷺ وصاحبه، وبينما هما في الغار وإذا بكوكبة من الفرسان واقفةٌ في فم الغار، إلاَّ أنَّ الله أخذ أبصارهم.

قال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ متعجبًا من قدرة الله تعالىٰ علىٰ حفظهما قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»(١).

الواحد والعشرون: الفرح بفضل الله تعالىٰ وبرحمته:

عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قطُّ إلاَّ في غزوة تبوك، غير أنِّي قد تخلفتُ في غزوة بدرٍ، ولم يُعاتِب أحدًا تخلَّف عنه إنَّما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريشٍ حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوِّهم، علىٰ غير ميعادٍ، [الحديث وفيه]: فبينا أنا جالسٌ علىٰ الحال التي ذكرالله عزَّوجل عنَّا، قد ضاقَتْ عليَّ نفسي وضاقتْ عليَّ الأرض بما رحُبت، سمعتُ صوت صارخ أَوْفَىٰ علىٰ سلع يقول: بأعلىٰ صوته: يا كعبُ بن مالك، أبشر قال: فَخَرَرْتُ ساجدًا، وعرفتُ أنْ قد جاء فرجٌ، قال: فآذن رسول الله ﷺ الناسَ بتوبةِ الله علينا، حينَ صلَّىٰ صلاة الفجر. فذهب الناسُ يبشروننا، فذهب قِبَلَ صاحبَيَّ مبشرون وركض رجلٌ إليَّ فرسًا، وسعىٰ ساع مِنْ أَسْلَمَ قِبلي، وأوفىٰ الجبل، فكان الصَّوت أسرع من الفرس، فلما جاءَني الذي سمعتُ صوته يُبشرني فنزعتُ له ثوبيَّ فكسوتهما إيَّاه ببشارته، والله، ما أملك غيرهما يومئذٍ،

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٧/ ٨) (٣٦٥٣).

واستعرتُ ثوبين فلبستهما فانطلقتُ أتأمَّمُ رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يُهنئُونني بالتوبة ويقولون: لِتهنئك توبةُ الله عليك، حتىٰ دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناسُ فقام طلحة بن عُبيدالله يُهرولُ حتَّىٰ صافحني وهنَّأني، والله، ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة، قال كعبٌ: فلما سلَّمتُ علىٰ رسول الله ﷺ قال: وهو يبرقُ وجهُهُ من السرور ويقول: «**أبشرْ بِخير يوم مرَّ عليك منذُ ولدتْكَ أمُّك**» قال: فقلتُ: أَمِن عندك؟ يا رسول الله ، أم من عندالله؟ فقال: «**لا بل من عندالله**» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ، كأنَّ وجههُ قطعةُ قمرٍ قال: وكنَّا نعرفُ ذٰلك. . . الحديث»[1].

الثانية والعشرون: موالاة أولياء الله تعالىٰ ومعاداة أعدائه:

يقول الله تعالىٰ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

الثالثة والعشرون: اليقين بالله تعالىٰ وبما أخبر وما وعد به.

قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥ـ ٢٣].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٣، ٢٤].

وموسىٰ ـ عليه السلام ـ من أئمة المحسنين.

الرابعة والعشرون: الإحسان إلىٰ النفس، ودواخل الإنسان:

يقول الله تعالىٰ: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ٢١٢٠) (٢٧٦٩).

المبحث الثاني
الصفات الظاهرة

الأولىٰ: كثرة تلاوة القرآن الكريم وذكر الله تعالىٰ

لقد كان إمام المحسنين محمَّد ﷺ تاليًا للقرآن الكريم آناء الليل والنهار، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء: ٤٥ـ ٤٧].

وقال تعالىٰ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٨ـ ٧٩]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٣]. وقال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ١ـ ٣]. وممن أسلم من أهل الكتاب واطمأن قلبه للإيمان محسن يتلو آيات الله، قال تعالىٰ: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٤﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وبالجملة فإنَّ أحسن خلق الله من تعلَّم القرآن وعلَّمه.

وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»(١).

وأمَّا كثرة الذكر والمداومة عليه

فمن عباد الله المحسنين الذاكرين الله كثيرًا، موسىٰ وهارون ـ عليهما السلام ـ قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ [طه: ٢٩ـ

---

(١) صحيح البخاري، الفتح (٩/ ٧٤) (٥٠٢٧).

.[٣٥

وقد كان نبينا محمَّد ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحايينه فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**كان النبي ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه**»(١).

وقد وصف الله عباده المحسنين بذكره كما قال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

الثانية: حمدالله تعالىٰ وشكره والاعتراف بالفضل لأهله.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥]. وقال تعالىٰ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وعن عبدالله بن أبي أوفىٰ ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول: «**اللَّهمَّ لك الحمد، ملء السماء وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللَّهمَّ طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللَّهمَّ طهِّرني من الذنوب والخطايا كما ينقىٰ الثوب الأبيض من الوسخ**»(٢).

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعد أن لبس ثوبًا جديدًا فلمَّا بلغ ترقوته، قال: «**الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي**»(٣).

قال الله تعالىٰ عن الشكر: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وقال تعالىٰ عن سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ النبي ﷺ بأناسٍ من اليهود قد صاموا يوم عاشوراء فقال: «**ما هٰذا من الصوم؟**» قالوا: هٰذا اليوم الذي

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٨٢) (٣٧٣).

(٢) صحيح مسلم (١/٣٤٦) (٤٧٦).

(٣) عدة الصابرين (١٢٥).

نجىٰ الله فيه موسىٰ وبني إسرائيل من الغَرق، وغرق فيه فرعون، وهـٰذا يومٌ استوت فيه السفينة علىٰ الجودي، فصامه نوحٌ وموسىٰ شكرًا لله تعالىٰ، فقال النبي ﷺ: «**إنَّنا أحق بموسىٰ وأحق بصوم هـٰذا اليوم**» فأمر أصحابه بالصَّوم[1].

وقال تعالىٰ عن اعتراف يوسف ـ عليه السلام ـ بالفضل: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقال تعالىٰ عن سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل: ٤٠].

الثالثة: كثرة الدعاء:

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥ـ ٥٦].

الرابعة: الصدق:

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٤﴾ [الزمر: ٣٣ـ ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦﴾ [مريم: ٥٦].

الخامسة: الاستقامة:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٥﴾ [هود].

السادسة: الطاعة لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

السابعة: عمل الصالحات.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) مسند أحمد(٣/ ٤٤) (٨٥٠٠). وأصله في البخاري (٢/ ٧٠٤) (١٩٠٠).

الثامنة: المسارعة والمسابقة والمنافسة في الخيرات:

قال الله تعالىٰ عن نبي الله المحسن زكريا ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة، فكان النبي ﷺ أسبقهم، علىٰ فرس وقال: وجدناه بحرًا»(١).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ رسول الله ﷺ وأنا معه وأبوبكر، علىٰ عبدالله بن مسعود وهو يقرأ، فقام فسمع قراءته، ثم ركع عبدالله وسجد، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**سل تُعطه**» قال: ثم مضىٰ رسول الله ﷺ وقال: «**من سرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأه من ابن أم عبدٍ**» قال: فأدلجتُ إلىٰ عبدالله بن مسعود لأُبشره بما قال رسول الله ﷺ: فلما ضربتُ الباب، أو قال: لمَّا سمع صوتي قال: ما جاء بك هٰذه الساعة؟ قلتُ: جئتُ لأُبشرك بما قال رسول الله ﷺ قال: قد سبقك أبوبكر، قلتُ: إن يفعل فإنَّه سبَّاق بالخيرات، ما استبقنا خيرًا قطُّ إلاَّ سبقنا إليه أبوبكر»(٢).

التاسعة: الطهارة الحسية:

عن سفينة صاحب رسول الله ﷺ ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يغتسل بالصَّاع ويتطهر بالمد»(٣).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ﷺ يتوضأ كل صلاة، قلتُ: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يجزيء أحدنا الوضوء ما لم يحدث»(٤).

العاشرة: إقامة الصلاة والمحافظة عليها:

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود: ١١٤، ١١٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ

---

(١) صحيح البخاري(٣/ ١٠٣٨) (٢٦٦٥).

(٢) مسند أحمد(١/ ٦٣) (٢٦٧)، وصحح أحمد شاكر إسناده (١/ ٢٦٥) (٢٦٥).

(٣) صحيح مسلم (٣٩١).

(٤) صحيح البخاري (١/ ٨٧) (٢١١).

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ـ ٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [لقمان: ١ـ ٤]

وقال تعالىٰ علىٰ لسان لقمان في وصيته لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

الحادية عشر: طول القنوت:

قال الله تعالىٰ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ـ ١٢٢].

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إنَّ معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ كان أ مَّة قانتًا لله حنيفًا فقال: ما نسيت، هل تدري ما الأمة وما القانت؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله وللرسول.

وكان معاذ يعلم الناس الخير ومطيعًا لله ولرسوله ﷺ[1].

وقال تعالىٰ عن مريم ـ عليها السلام ـ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

الثانية عشر: إيتاء الزكاة والإنفاق والتصدق: قال الله تعالىٰ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣]. وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [لقمان: ١ـ ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ـ ٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٣٠).

﴿وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

الثالثة عشر: صيام الفرض والإكثار من نافلة الصيام:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سأل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**عليك بالصوم فإنَّه لا عدل له**»[1]، أي لا مثيل له.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُخبر رسول الله ﷺ أنَّه يقول: لأقومن الليل ولأصومن النَّهار، ماعشت، فقال رسول الله ﷺ: آنت الذي تقول ذٰلك؟ فقلتُ: له: قد قلته يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**فإنك لا تستطيع ذٰلك، فصم وأفطر، ونم، وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإنَّ الحسنة بعشر أمثالها، وذٰلك مثل صيام الدهر**» قال: قلتُ: فإني أطيق أفضل من ذٰلك قال: «**صم يومًا وأفطر يومين**»، قال: قلتُ: فإنِّي أطيق أفضل من ذٰلك يا رسول الله! قال: «**صم يومًا وأفطريومًا، وذٰلك صيام داود ـ عليه السلام ـ، وهو أعدل الصيام**» قال: قلتُ فإني أطيق أفضل من ذٰلك قال رسول الله ﷺ: «**لا أفضل من ذٰلك**»[2].

الرابعة عشر: أداء الحج والعمرة واتقانهما:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا

---

(١) سنن النسائي (٤/ ١٦٥) (٢٢٢٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٤٧) (٤٠٤٤).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٨١٢) (١١٥٩).

يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٢٥ـ ٣٧].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بوادي الأزرق فقال: أي وادٍ هٰذا؟ فقالوا: هٰذا وادي الأزرق قال: كأني أنظر إلىٰ موسىٰ ـ عليه السلام ـ هابطًا من الثنيَّة وله جوار إلىٰ الله بالتلبية؟ ثمَّ أتىٰ على ثنية هرش، فقال: «أي ثنية هذه»؟ قالوا: ثنية هرشي، قال: «كأني أنظر إلىٰ يونس بن متىٰ عليه السلام علىٰ ناقة حمراء جعدة عليه جُبَّة من صوف خطام ناقته خِلْبَةٌ وهو يلبي»[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يحدث عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده ليُهلَّنَّ ابن مريم بفجِّ الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو ليثنيهما**»[2].

الخامسة عشر: الجهاد

المحسنون هم الثلة الذين تحققت فيهم صفة الجهاد بجميع أنواعه كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة]

وعن أبي سعيدالخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «**رجلٌ جاهدٌ بنفسه وماله،**

(١) صحيح مسلم (١/ ١٥٢) (١٦٦).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٩١٥)، (١٢٥٢).

ورجل في شِعْب من الشعاب، يعبدالله ويدع الناس من شره»[1].

عن بريدة عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: «غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة قاتل في ثمان منهن»[2].

السادسة عشر: الهجرة عندالحاجة إليها:

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر: ١٠]. وقال الله تعالىٰ عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: ٢٠ـ ٢٥].

السابعة عشر: الإحسان إلىٰ النفس ظاهرًا بالمأكل والمشرب والمنكح والمركب والمسكن وغيرها.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل: إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة قال: «**إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكبر بطرُ الحق وغمط الناس**»[3].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حبب إليَّ النساء والطيب، وجعلت قرَّة عيني في الصلاة**»[4].

وقد سبق الحديث مفصلاً عن الإحسان إلىٰ النفس ظاهرًا وأنَّه من صفات المحسنين بما أغنىٰ عن التكرار هنا[5].

الثامنة عشر: الشجاعة في الحق.

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٠٢٦) (٢٦٣٤).
(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٤٤٨) (١٨١٤).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٣) (٩١).
(٤) سنن النسائي (٧/ ٦١) (٣٩٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).
(٥) يراجع في الإحسان إلىٰ النفس ظاهرًا، انظر: الفهرس العام.

الناس وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم علىٰ فرس وقال: وجدناه بحرًا»[1].

التاسعة عشر: العدل:

فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال بينا النبي ﷺ يقسم ذات يوم، فقال ذوالخويصرة رجل من بني تميم يا رسول الله اعدل قال: «**ويلك من يعدل إذا لم أعدل**» فقال عمر: ائذن لي فلأضرب عنقه، قال: «لا» إنَّ له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. . »[2].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ قريشًا أهمَّهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجتريء عليه إلاَّ أسامة حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «**أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، فقال: أيها الناس إنَّما أهلك الذين قبلكم أنَّهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها. . .**»[3].

العشرون: الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ:

هـٰذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ محسن وداعية قال الله تعالىٰ: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

وقد دعا أباه وقومه إلىٰ التوحيد ونبذ عبادة الأصنام كما قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصافات: ٨٣ـ ٨٧].

الحادية والعشرون: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر:

قال الله تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . . ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالىٰ عن لقمان: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) صحيح البخاري(٣/ ١٠٣٨) (٢٦٦٥).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٨١) (٥٨١١).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٣١٥) (١٦٨٨).

الثانية والعشرون: النصيحة والتواصي بالخير:

قال الله تعالىٰ عن نوح ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

وقال تعالىٰ عن هود ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

وقال تعالىٰ عن إبراهيم ويعقوب ـ عليهما السلام ـ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

الثالثة والعشرون: الإصلاح بين الناس:

قال الله تعالىٰ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وعن سهل بن سعدٍ ـ رضي الله عنه ـ «أنَّ أناسًا من بني عمرو بن عوفٍ كان بينهم شيءٌ فخرج إليهم النبي ﷺ في أناسٍ من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة، ولم يأت النبي ﷺ فأذَّن بلالٌ بالصلاة، ولم يأت النبي ﷺ فجاء إلىٰ أبي بكر، فقال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ حُبس، وقد حضرتِ الصَّلاةُ فهل لك أن تؤمَّ الناس؟ فقال: نعم، إن شئتَ فأقام الصلاة فتقدم أبوبكر... »الحديث(١).

الرابعة والعشرون: الإحسان إلىٰ الوالدين والزوجة والقرابة والضعفة.

قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي...**»(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الساعي علىٰ الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل، الصائم**

(١) صحيح البخاري (١/ ٤٠٢) (١١٤٣).

(٢) سنن الترمذي(٥/ ٧٠٩) (٣٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٢٦) (٣٣١٤).

النهار»[1].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: الساعي هو الذي يذهب ويجيء في تحصيل ما ينفع الأرملة والمسكين[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

الخامسة والعشرون: حسن الخلق:

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[3].

السادسة والعشرون: حسن المعاملة للإنسان والحيوان:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وذكرت قصة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مهلاً يا عائشة، إنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله**»[4].

وفي رواية عنها ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الرِّفق لا يكون في شيء إلاَّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاَّ شانه**»[5].

وفي رواية ثالثة لها ـ رضي الله عنها ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يا عائشة إنَّ الله رفيق يحب الرفق، ويعطي علىٰ الرفق ما لا يعطي علىٰ العنف، وما لا يعطي علىٰ ما سواه**»[6].

وعن أبي يعلىٰ، شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»[7].

السابعة والعشرون: حسن المعاشرة لكل أحد ومنهم الزوجات:

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

الثامنة والعشرون: الكرم:

قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ـ ٢٧].

---

(١) صحيح البخاري(٥/ ٢٠٤٧) (٥٠٣٨).
(٢) فتح الباري (٩/ ٤٩٩).
(٣) سنن الترمذي (٤/ ٣٥٥) (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٨١) (٩٧).
(٤) صحيح البخاري(٥/ ٢٢٤٢)، (٥٦٧٨).
(٥) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠٤) (٢٥٩٤).
(٦) صحيح مسلم (٣/ ٢٠٠٣) (٢٥٩٢).
(٧) صحيح مسلم (٢/ ١٥٤٨) (١٩٥٥).

وعن المقداد ـ رضي الله عنه ـ قال: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ، فانطلق بنا إلىٰ أهله، فإذا ثلاثة أعنز، فقال النبي ﷺ: «**احتلبوا هٰذا اللبن بيننا**» قال: فكنا نحتلب فيشرب كل إنسان منّا نصيبه، ويرفع للنبي ﷺ نصيبه..»(١).

وعن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما أسيرُ مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقت الناس يسألونه حتىٰ اضطروه إلىٰ سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هٰذه العضاة نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا**»(٢).

التاسعة والعشرون: كظم الغيظ: .

قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

الثلاثون: العفو والصفح:

قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٤٠، ٤٣]. والإحسان من عزم الأمور. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر: ٨٥].

الواحدة والثلاثون: الحلم:

قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة: ١١٤].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٦٢٥) (٢٠٥٥).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٠٣٨) (٢٦٦٦).

وقال تعالىٰ عن إسماعيل ـ عليه السلام ـ ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١٠٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: إنَّ رجلاً أتىٰ النَّبيَّ ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإنَّ لصاحب الحق مقالاً**» ثم قال: «**أعطوه سِنًّا مثل سِنِّه**» قالوا: يا رسول الله، إلاَّ أمثل من سنه، فقال: «**أعطوه، فإنَّ مِنْ خيركم أحسنكم قضاء**»(١).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ يوم السَّقيفة أحلم مني وأوقر، والله ما ترك كلمة أعجبتني في تزويري إلاَّ قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتىٰ سكتُّ»(٢).

الثانية والثلاثون: الرحمة:

قال الله تعالىٰ عن الخضر ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف: ٦٤، ٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: قيل: يا رسول الله ادع الله علىٰ المشركين قال: «**إني لم أبعث لعَّانًا، وإنما بعثت رحمة**»(٣).

الثالثة والثلاثون: الأمانة:

قال الله تعالىٰ عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٥ـ ١٠٧].

وقال تعالىٰ عن هود ـ عليه السلام ـ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٣، ١٢٥].

وقال جلَّ وعلا عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الدخان: ١٧ـ ١٨]. وحكىٰ الله عن ابنة شعيب قولها عن موسىٰ ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالَتْ

---

(١) صحيح البخاري(٢/ ٨٠٩) (٢١٨٣).
(٢) صحيح البخاري، الفتح (١٢/ ١٤٤) (٦٨٣٠).
(٣) صحيح البخاري، الفتح (١٢/ ١٣٠) (٦٨٣٠).

إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

وقال سبحانه عن يوسف - عليه السلام - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٦].

الرابعة والثلاثون: الحياء:

يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها»[١].

وعن حياء موسىٰ - عليه السلام - روىٰ أبوهريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ موسىٰ كان حَييًّا سِتِّيرًا، لا يُرىٰ من جلده شيءٌ؛ استحياءً** »[٢].

الخامسة والثلاثون: الاستئذان:

عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال؛ إنَّ رجلاً من الأنصار يقال له: أبوشعيب كان له غلام لحّام فقال له أبوشعيب: اصنع لي طعام خمسةٍ لعلِّي أدعو النبي ﷺ خامس خمسة، وأبصر في وجه النبي ﷺ الجوع، فدعاه، فتبعهم رجل لم يُدْع، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ هـٰذا قد اتَّبعنا أتأذن له؟**»قال: نعم[٣].

وعن أبي موسىٰ - رضي الله عنه - قال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل حائطًا وأمرني بحفظ باب الحائط فجاء رجل يستأذن فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة**» فإذا أبوبكر، ثم جاء آخر يستأذن . فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة**»، فإذا عمر. ثم جاء يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: «**ائذن له وبشره بالجنة، علىٰ بلوىٰ ستصيبه**» فإذا عثمان بن عفان[٤].

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٦٣) (٥٧٥١).
(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٢٤٩) (٣٢٢٣).
(٣) صحيح البخاري(٢/ ٨٦٧) (٢٣٢٤).
(٤) صحيح البخاري(٣/ ١٣٥١) (٣٤٩٢).

السادسة والثلاثون: العفة:

قال الله تعالىٰ عن العفيف يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

وقال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ لأصحابه وقد خرجوا يوم عيد: «إنَّ أوَّل ما نبدأ به في يومنا عفة أبصارنا»(١).

وعن العفة في السؤال يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾﴾ []النساء: ٦.

وروىٰ أبوسعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: «**إنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ إذا نفِدَ ما عنده قال: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يصبر يصبره الله وما أُعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر**»(٢).

السابعة والثلاثون: السماحة.

فعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ في حجة النبي ﷺ أهلَّت بعمرة، قال: وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويتَ الشيء تابعها عليه، فأرسلها مع عبدالرحمن بن أبي بكر فأهلت بعمرة من التنعيم»(٣).

وعن فرقد السبخي ـ رحمه الله ـ قال: «لم يكن أصحاب نبي قط فيما خلا من الدنيا أفضل من أصحاب محمَّد ﷺ لا أشحَ لقاءً ولا أسمح أكفًا»(٤).

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا (٦٣).
(٢) صحيح البخاري(١٤٠٠).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٨٨١) (١٢١٣).
(٤) المنتقىٰ من مكارم الأخلاق (١٣٢).

الخاتمة

أولاً: أهم النتائج:

بعد هٰذه الرحلة الطويلة الممتعة مع الإحسان التي أزكت النفوس وهذبت الطباع، ونادت بأعلىٰ صوت، كله حنو ومودة، يا عبدالله، يا باغي الإحسان، مِنْ هاهنا الطريق إلىٰ الحياة الجميلة الفاضلة، من ها هنا السبق والتفرد، مِنْ هاهنا طريق الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحتىٰ لا يخفت هٰذا النداء أو يعز المنادي كان من المناسب وضع إشارات موجزة، تذكر بالعبارات المطولة، هي نتائج مهمة لجهد أحسب أنّه حريٌّ بالمذاكرة والتطبيق.

الأولى: أنَّ معنىٰ لفظةِ الإحسان في اللغة يدور حول الجمال والزينة معنىٰ أو حسًا.

الثانية: أنَّ تعريف الإحسان الاصطلاحي يتوقف علىٰ ما تقتضيه القرائن والسياق في النصوص الشرعية التي ورد فيها، فإذا ورد لفظ الإحسان في نص وكانت هناك قرينة مما يجب لله تعالىٰ من العبادة فإنه يفسر بما فسره به الرسول ﷺ بقوله: «**أن تعبدالله كأنّك تراه**» فإن لم يقترن بشيء من ذٰلك فيكون المراد به فعل مايقتضيه فعله من المعروف سواء أكان للغير أم للنفس.

الثالثة: أنَّ هناك ألفاظًا ذات صله بلفظة الإحسان تشاركه في بعض معانيه، مثل: «فَضُلَ، ونعِم، وخير، وجَمُلَ، وَتَقَنَ، وصَلَحَ، والمعروف، وكَمُلَ، وطَابَ، وَالبِرُ، وزيَّن، والتَحْبِيْرِ، وما يتصرف منها».

الرابعة: أنَّ مصادر الإحسان تنحصر أولاً في صحيح المنقول والمقصود به كتاب الله العزيز القرآن العظيم، وما صحَّ أو حسن من السنة النبوية المطهرة، وثانيًا: صحيح المعقول: والمقصود به الإجماع، والقياس بشروطهما المعتبرة.

الخامسة: أنَّ الإحسان أعلىٰ مراتب الدين الثلاث وهو لبه وروحه وكماله، ومن شرفه وكماله أنَّ الله تعالىٰ محسن يحب الإحسان، وأنّه صفة الأنبياء والرسل وصالحي بني آدم، وأنَّ المتصفين به قلة في جنب المؤمنين والمسلمين، وأنَّ الله تعالىٰ أنزل أهله أعظم المنازل في الآخرة، ولهٰذا اعتنت النصوص الشرعية به أشد عناية.

السادسة: أنَّ الإحسان من حيث هو مرتبة واحدة، وهي أن يعبدالمؤمن ربه في الدنيا علىٰ وجه الحضور والمراقبة، حتىٰ يغلب عليه مشاهدة الله

تعالىٰ بقلبه كأنّه يراه بعينه، وأما قوله ﷺ: «**فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**» فليس بداخل في تعريف الإحسان، بل هو بيان لمنزلة المراقبة الموصلة إلىٰ مرتبة الإحسان.

السابعة: أنَّ الإحسان يزيد وينقص بحسب إحسان أهله وبموجبه فإنَّ المحسنين درجات وكل درجة متفاوتة في القدر وأعلىٰ درجات المحسنين الأنبياء، والرسل عليهم السلام وهٰذه الدرجة محض منَّة من الله تعالىٰ لا يصل إليها أحد، إلاَّ من اصطفاه الله تعالىٰ، وقد ختمت برسولنا محمَّد ﷺ يلي هٰذه الدرجة درجة الصديقين ثم الشهداء ثم الصالحين.

الثامنة: أنَّ الإحسان كغيره من الأعمال الشرعية يشترط لصحته وتحقق وقوعه وقبوله شروط: بحسب جهته:

فإذا كان الإحسان في عبادة الله تعالىٰ: فله ثلاثة شروط.

الأول: الإخلاص لله تعالىٰ بها.

الثاني: تجريد المتابعة فيها للرسول محمَّد ﷺ.

الثالث: إجراؤها علىٰ حالة وكأن العبد يرىٰ ربه تعالىٰ.

وأما إذا كان الإحسان إلىٰ النفس أو الغير فإنَّه يكتفي فيه بالشرطين السابقين دون الثالث.

التاسعة: أنَّ الله تعالىٰ هو المحسن الحقيقي للخلق كلهم وهو القادر وحده دون سواه علىٰ إيصال النفع ودفع الضر عنهم، وأنَّهم جميعًا مفتقرون إليه ظاهرًا وباطنًا عاجلا وآجلا .

العاشرة: أنَّ العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، ويمكن إحسانها وذٰلك بأن يعبدالمؤمن ربه في الدنيا علىٰ وجه الحضور والمراقبة والإتقان والإخلاص حتىٰ يغلب عليه مشاهدة الله تعالىٰ بقلبه كأنه يراه بعينه، وذٰلك يقتضي أن لا يترك العبد المؤمن شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت والإتقان ظاهرًا وباطنًا إلاَّ أتىٰ به.

الحادية عشر: الحذر الشديد عند عبادة الله تعالىٰ علىٰ وجه المشاهدة له تعالىٰ بالقلب من أن يظن أحد أنه يمكنه أن يرىٰ ربه تعالىٰ ببصره لأنَّ ذٰلك منفي عنا في هٰذه الحياة الدنيا. وكذٰلك التحذير الشديد من أن يزل الفؤاد عند مشاهدة الله تعالىٰ بالقلب إلىٰ التشبيه أو التمثيل له تعالىٰ بخلقه، فالله جلَّ وعزَّ ليس له شبيه ولا مثيل.

الثانية عشر: أنَّه لا يمكن حصر أعمال الإحسان العقائدية والقولية والفعلية فيما ذكر في هٰذه الرسالة بل كل ما يندرج تحت مسمىٰ الدين بمراتبه الثلاث وهي الإسلام والإيمان، والإحسان، يمكن الإحسان فيه إذا

تحققت شروطه، وسبب الاقتصار علىٰ ما ذكر من أعمال الإحسان هنا، أنّه هوالذي وردت به النصوص الشرعية في الكتاب والسنة النبوية.

الثالثة عشر: أنه يجب مراعاة تحقيق مرتبة الإحسان أولاً في أركان الإسلام والإيمان ثم التعقيب بغيرها من الأعمال الأهم ثم الذي يليه.

الرابعة عشر: أنَّ من أنواع الإحسان: الإحسان إلىٰ النفس باطنًا متمثلة في مسمىٰ النفس والروح، والصدر، والقلب، والفؤاد، والفكر، واللب، والعقل، والحجا، والنهي، مجتمعة أو متفرقة. وذٰلك بالمؤثرات الخيرية المتمثلة في الاستجابة للدعوة الإلٰهية لها بالبر والتقوىٰ، وصرف المؤثرات الشريرة عنها المتمثلة في اتباع الشيطان والهوىٰ.

وأنَّ من أنواع الإحسان كذٰلك: الإحسان إلىٰ النفس ظاهرًا بتحقيق الضروريات التي لا تقوم الحياة إلاّ بها، والحاجيات التي بفقدها تصعب الحياة، والتحسينات التي تجعل الحياة جميلة مع الاعتدال والتوسط وتحرىٰ الحلال الطيب.

الخامسة عشر: أنَّ المحسن الحقيقي شخصية اجتماعية راقية كونتها مجموعة كبيرة جدًّا من مكارم الأخلاق، فهو لا يكتفي بالعموميات عند تخلقه بالأخلاق الاجتماعية، بل يقف عند كل جزئية من الجزئيات الخلقية و هي تدور بين العدل والإحسان وهو في كل ذٰلك يسير وفق محددات شرعية ترتب أولويات الاحسان وبمن يبدأ به.

السادسة عشر: أنَّ الدين لا يمنع من الإحسان إلىٰ غير المسلمين ما لم يكونوا حربيين.

السابعة عشر: أنَّ الإحسان لغير الإنسان مطلب شرعي كالإحسان إلىٰ الملائكة الكرام، والإحسان إلىٰ الحيوانات النافعة أو غير الضارة، والإحسان إلىٰ البيئة بعمارتها وعدم الفساد فيها.

الثامنة عشر: أنَّ للإحسان وسائل نبيلة موصلة إليه أهمها العلم بالتكليفات الشرعية، واستشعار إحسان الله إلىٰ العبد، واستشعار مراقبة الله لعبيده، والتوبة النصوح، والمنافسة في فعل الطاعات والقرب، ودوام المجاهدة للشيطان والهوىٰ، والصبر بأنواعه، وكثرة الدعاء مع توفر شروطه، وأن يضع العبد لنفسه ميزانًا شرعيًا يقيس به أعماله وهل هي أعمالُ إحسانٍ أم لا.

التاسعة عشر: أنَّ في الكتاب العزيز والسنة النبوية صورًا مشرقة من إحسان المحسنين كثيرة جدًا تعد قدوة لمبتغي الإحسان وتؤكد أنَّ الإحسان عمل مقدور عليه.

العشرون: أنَّ الإحسان يثمر ثمرات يانعات، ينعم بها المحسن في

الدنيا والآخرة، وأنَّ هـٰذه الثمرات تعد حوافز حقيقة للعباد بأن يسعوا جاهدين في ابتغاء مرتبة الإحسان السامية.

الحادية والعشرون: أنَّ الكتاب العزيز والسنة المطهرة عندما حددت مفهوم الإحسان بأنواعه، ودعت إليه ورتبت عليه الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، رسمت للمحسنين صفات باطنة وظاهرة يُعْرَفُونَ بها يمكن رصدها والتخلق بها.

ثانيًا: أهم التوصيات: وهي:

الأولى: يوصي الباحث طلاب الدراسات العليا في الأقسام التربوية ذات العلاقة بالتخصصات الشرعية أن تكون هـٰذه الرسالة موضوع دراسة للإفادة منها وصياغتها في مواد تربوية إسلامية.

الثانية: أنَّ في مضامين هـٰذه الرسالة مواضيعَ عدة يمكن أن تكون نواة لرسائل علمية سواء في مرحلة الماجستير أم الدكتواره.

الثالثة: يوصي الباحث بأن يكون موضوع الإحسان بمفهومه الشامل من مفردات المناهج التعليمية في شتىٰ المراحل.

الرابعة: يوصي الباحث المؤسسات الدعوية والإصلاحية في المجتمعات الإسلامية بأن تتبنىٰ موضوع الإحسان بمفهومه الشامل بقوة وتضع أهدافها وخططها انطلاقًا من مفاهيمه.

وبهذا تمت الرسالة بحمد الله تعالى، فله الحمد في الأولى والآخرة

وصلى الله على محمد وعلى آ له وصحبه أجمعين.

الفهـارس

أولاً : فهرس الآيات

سورة الفاتحة

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمّد

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ 8 727
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ 6 537، 535
- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ 9 661، 663

سورة الملك

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة البلد

سورة الشمس

سورة الضحىٰ

سورة التين

سورة العلق

سورة البينة

سورة الزلزلة

سورة التكاثر

سورة العصر

سورة الماعون

سورة الكوثر

سورة الكافرون

سورة الإخلاص

سورة الفلق

سورة النّاس

فهرس الأحاديث

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الدَّال

حرف الذال

حرف الرَّاء

حرف الزاي

حرف السين

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

فهرس الآثار

الأثر	الراوي	الصفحة
حرف الألف		
ـ أبىٰ الله أن يقبل الصلاة إلاَّ	عبدالرحمن بن أسلم	٤٢٢
ـ أتيت عمر بن عبدالعزيز بعدما	دكين الراجز	٢٣٧
ـ أحسنوا الظن بالله	سفيان الثوري	٢٨٧
ـ أدركت عثمان وأنا يومئذٍ	المبارك بن فضالة	٨٢٧
ـ إذا أتاك رجل يشكوا	الفضيل بن عياض	٣٧٩
ـ إذا اشتبه عليك أمران	العباس بن عبدالمطلب	١٠١
ـ إذا توضأ أصفر	علي بن الحسين	٢٧٨
ـ إذا أحسنت أخلاق الإنسان	الماوردي	٥٩٣
ـ إذا سكن الخوف القلب	إبراهيم بن سفيان	٣٢٠
ـ إذا صمت فتحفظ ما استطعت	أبوذر	٤٤١
ـ إذا صمت فليصم سمعك	جابر بن عبدالله	٤٤١
ـ إذا عقبت فانظر	محمَّد بن السعدي	٦١٨
ـ إذا لا يكون له غاية دون الجنَّة	قبابي	٢٣٧
ـ أرسلني العباس إلى عثمان أدعوه	أبوصالح	٥٦٦
ـ أستأذن على أختي؟	عطاء	٦٢٩
ـ أعداء الإنسان ثلاثة	يحيى بن معاذ الرَّازي	٧٤٦
ـ أعلم أنَّ من شواهد الفضل	الماوردي	٢٣٦
ـ أفضل أخلاق المؤمن	الحسن	٦١٢
ـ أفضل نعم الله تعالىٰ علىٰ المرء	ابن حزم	٥١٨
ـ أما إنِّي لا أبكي علىٰ دنياكم	أبوهريرة	٢٣٣
ـ أما أول ما تبدأ به في يومنا	سفيان الثوري	٦٥٣
ـ أمطر المعروف مطرًا	عبدالله بن جعفر	٦٠٢
ـ إنَّ أخًا لكم لا يقول	أبوهريرة	٣٠٧
ـ إنَّ أهون الصوم ترك الطعام	ميمون	٤٤١
ـ إنَّ أوَّل ما أحذرك	أبوبكر الصديق	٧٤٦
ـ إنَّ أوَّل ما نبدأ به في يومنا	سفيان الثوري	٨٧٩
ـ إنَّ السماء قحطت فخرج	سليم بن عامر	٧٦٧
ـ إنَّ العمل إذا كان خالصًا	الفضيل	٣٩١
ـ إنَّ القضاء فريضة محكمة	عمر بن الخطاب	٥١٤

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدَّال

حرف الرَّاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللّام

حرف الميم

فهرس المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

حرف الألف

ـ الأحاديث المختارة، ضياء الدِّين أبي عبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي، تحقيق ودراسة: عبدالملك بن هديش، مكتبة النهضة، مكة، ط الأولىٰ، ١٤١٠هـ.

ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الأمير علاء الدِّين علي بن بلبان الفاسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، د.ت بيروت، دار الكتب العلمية، ج١٤، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

ـ أحكام أهل الذمة، لابن القيم، حققه وعلّق على حواشيه: طه عبدالرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

ـ أحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، كتب هوامشه عبدالغني عبدالحق، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٥هـ.

ـ أحكام القرآن، لأبي بكر الرَّازي الجصاص، دار الكتاب العربي، بيروت.

ـ أحكام القرآن، أبوبكر ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٥٧م.

ـ الأحكام السلطانية، أبوالحسن الماوردي، تحقيق: خالد عبداللطيف العلي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٨هـ.

ـ إحياء علوم الدِّين، أبوحامد محمد بن محمد الغزالي، القاهرة، دار الشعب، كتاب الشعب، د.ت. بيروت، دار المعرفة، ٤مج، ١مج، ملحق د.ت.

ـ الاختيارات الفقهية من فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، اختارها علاء الدِّين أبوالحسن البعلي، بتحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

ـ الخراج، لأبي يوسف.يعقوب بن إبراهيم، ط: السلطية مصر.

ـ اختلاف الفقهاء، لأبي جعفر محمد بن جرير للطبري، دار الكتب العلمية.

ـ أخلاق أهل القرآن، أبوبكر محمد بن حسين الآجري، تحقيق: محمد عمرو عبداللطيف، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ.

ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكه الميداني، الطبعة الأولىٰ، دمشق، دار القلم، وط ثانية، ١٤٠٧هـ.

ـ أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد بن عبدالعزيز ابن قاسم الحداد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م.

ـ الإخوان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبدالرحمن طوالبة، إشراف ومراجعة: نجم عبدالرحمن خلف، القاهرة، دار الاعتصام، د.ت.

ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية، للعلامة شمس الدِّين محمد بن مفلح، توزيع رئاسة إدارت البحوث العلمية، الرياض، سنة ١٩٧٧م.

ـ أدب الدنيا والدِّين، الماوردي، بيروت، دار الريان، للتراث ط١، ١٤٠١هـ.

ـ الأدب المفرد، البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٠٩هـ.
ـ الأذكار النووية، أبوزكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: حمزة سبيع حاكمي، بيروت، جدة، ١٤١٢هـ.
ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني.
ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط أولىٰ، ١٣٩٩هـ.
ـ أساس البلاغة، الزمخشري، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ.
ـ الاستيعاب، ابن عبدالبر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط أولى، ١٤١٢هـ.
ـ الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، د: عبدالله بن إبراهيم الطريقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
ـ أسد الغابة، ابن الأثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، بيروت، دار الفكر، د.ت. (مصورة دار الشعب بالقاهرة).
ـ الأسماء والصفات، للبيهقي.
ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، تحقيق: عادل عبدالواحد وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولىٰ، ١٤١٥هـ.
ـ أصول الفقه، محمد بن عفيفي الخضري، دار الاعتصام، ط: ١٣٤٥هـ.
ـ الأضداد، ابن الأنباري، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الكويت، ١٩٦٠م.
ـ الأضداد، ابن السكيت، تحقيق: أ. هفز، ضمن ثلاثة كتب في الأضداد، بيروت، ١٩١٣م.
ـ الأضداد، الأصمعي، تحقيق: أ. هفز، ضمن ثلاثة كتب في الأضداد.
ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ط ثانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ، مكتبة ابن تيمية.
ـ الاعتبار، لأبي بكر عبدالله ابن أبي الدنيا، دار البشير، عمان، ١٤١٣هـ، ط: الأولىٰ، تحقيق: نجم عبدالرحمن خلف.
ـ الاعتصام، أبوإسحاق الشاطبي، تحقيق: محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: محمد محيي الدِّين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت.
ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبدالكريم العقل، ط١، ١٤٠٤هـ.
ـ اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد

الفقي، القاهرة، ١٩٥٠م.
ـ اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدِّين الألباني، الكويت، دار الأرقم، د.ت.
ـ الإكليل في استنباط التنزيل، جلال الدِّين للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، أبي عبدالله محمد بن المرتضىٰ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
ـ إيثار الحق على الخلق.
ـ الإيمان، محمد نعيم يس، انظر كتاب الإيمان (رقم ٨٠٩)، القاهرة، د.ت.

حرف الباء

ـ البحر المحيط، أبوحيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ.
ـ بدائع الفوائد، ابن القيم، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.
ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، أبوبكر بن مسعود الطاساني، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٤م.
ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي محمد بن رشد، الطبعة الرَّابعة سنة ١٣٩٨هـ، دار المعرفة.
ـ البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبومسلم وآخرون، القاهرة، دار الريان، ١٤٠٨هـ.
ـ البرهان في تجويد القرآن، محمد الصادق قمحاوي، القاهرة، دار القرآن، د.ت.
ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت. مصورة من طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
ـ البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، الطبعة الثالثة، القاهرة، د.ت.

حرف التاء

تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضىٰ الزبيدي، بيروت، دار الفكر، د.ت.
ـ تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١١هـ.
ـ تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، محمد أبوالفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، د.ت.
ـ تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق: محيي الدِّين العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ.
ـ تاريخ المدينة، عمر بن شبة، تحقيق: فهيم شلتوت، المملكة العربية السعودية، جدة، ١٣٩٣هـ.

ـ التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر ـ ابن الجوزية ـ تعليق : محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
ـ التبيان في آداب حملة القرآن، أبوزكريا شرف الدِّين النووي، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، المملكة العربية السعودية، جدة، ١٩٨٧م.
ـتحفة الأحوذي، شرح جامع الترمذي، محمد بن عبدالرحمن المباركفوري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
ـ تحفة الأذكار، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، المجلد الأوَّل من الفتاوىٰ.
ـ تخريج أحاديث إحياء علوم الدِّين، العراقي، وابن السبكي، والزبيدي، إخراج: أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد، الرياض، دار العاصمة، ١٩٨٧م.
ـ التخويف من النَّار والتعريف بمجال دار البوار، ابن رجب الحنبلي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٥هـ.
ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، المنذري، تحقيق: الشيخ مصطفى عمارة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ.
ـ تسهيل النظر وتعجيل الظفر، الماوردي، تحقيق: محيي الدِّين السرحان، بيروت، ١٩٥٣م.
ـ التصاريف، يحيى بن سلام، تحقيق: هند شلبي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٠م.
ـ التعريفات للجرجاني، بيروت دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.
ـ تفسير الطبري من كتابه جامع البيان، بشار عواد.
ـ تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.
ـ تفسير غرائب القرآن، ورغائب الفرقان، النيسابوري، مطبوع بهامش جامع البيان للطبري، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٩٨٧م.
ـ تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، ط. ثانية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧م، وط: مكتبة الرياض الحديثة، دار الفكر، ١٤٠٠هـ.
ـ التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، القاهرة، مكتبة السنة المحمدية، د.ت.
ـ التفسير الكبير، الفخر الرَّازي، بيروت، دار التراث العربي، د.ت.
ـ تنبيه الغافلين، ابن النحاس، تحقيق: نصر السمرقندي، جدة، دار الشروق، ١٤٠٠هـ.
ـ تهذيب الأخلاق، الجاحظ، القاهرة، دار الصحابة للتراث، د.ت.
ـ تهذيب السنن لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية ١٣٦٧هـ.
ـ تهذيب الكمال، المزي، تحقيق: بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م.
ـ التوبة إلى الله، صالح السدلان، دار بلنسية، الرياض..

- تيسير العلاَّم شرح عمدة الأحكام، عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام، مكتبة السوادي، جدة، ط: السابعة.
- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة، ١٤١٠هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، يطلب من المؤسسة السعيدية بالرياض.

حرف الجيم

- جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ويوسف الشيخ، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣هـ.
- جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، القاهرة، دار الحديث ١٤٠٧هـ، ١٢مج وبهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري.
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، عَمَّان، مكتبة الرسالة الحديثة، د.ت، القاهرة مؤسسة الكتب الثقافية. د.ت.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٤٠٨هـ، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
- الجرح والتعديل، أبومحمد الرَّازي، الهند، مطبعة مجلس دائر المعارف العثمانية، ط١، د.ت.
- جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، ابن القيم، تحقيق: يوسف شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت. ونسخة أخرىٰ بتحقيق: محيي الدِّين نتو، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ١٤٠٨هـ.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، القاهرة، دار الريان، ١٤٠٨هـ.
- الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، ابن تيمية، مطبعة النيل، القاهرة، ١٣٢٢هـ.

حرف الحاء

- حاشية ابن عابدين على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، لابن عابدين، دار الفكر، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٩هـ.
- حادري الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م.
- الحسبة، لابن تيمية. تحقيق: محمد زفري النجار، المؤسسة العلمية، الرياض، ١٩٨٠م.
- حُسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مخلص محمد، الرياض، دار طيبة، د.ت، ط١، ١٤٠٨هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبونعيم الأصفهاني، القاهرة، دار الرياض، ط٥، ١٤٠٧هـ، وبيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

حرف الخاء

- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلى، الكويت، ط٦، ١٤٠٦هـ.

حرف الدال

- الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد جميل غازي، جدة، دار المازني، ١٩٨٣م.
- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠١هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدِّين السيوطي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠٣هـ.
- الدعاء، لأحمد الحمد، دار النفائس، الرياض، ط، ١٤١٩هـ.
- الدفاع عن السنة والاتباع، للشيخ حميد بن عتيق، المؤسسة السعيدية، الرياض.
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان الصديقي، القاهرة، دار الريان، ٣مج، ١٤٠٧هـ.
- ديوان الشافعي، أبوعبدالله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: محمد عفيف الزغبي، حمص، دار المعرفة، وجدة، دار المعلم، ١٩٧٤م.
- دخائر العقبي في مناقب ذوي القربىٰ لأبي العباس أحمد بن محمد الطبري المكي، تحقيق: أكرم البوشي، ومحمود الأرناؤوط، مكتبة الصحابة، جدة، ط: ١٤١٥هـ.

حرف الذال

- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م.
- رسائل الإصلاح، الخضر حسين، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، بيروت، دار الفكر، د.ت.

حرف الراء

- الروح، ابن القيم، تحقيق: عبدالفتاح محمود عمر، دار الفكر، عمان، ١٩٨٥م.
- روح المعاني، الألوسي، ط٤، بيروت، دار إصدار التراث، ١٩٨٥م.
- الروض المربع، شرح زاد المستقنع، للبهوتي، المطبعة السلفية، ط. سادسة، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، تحقيق: علي بن شرف العمري، القاهرة، ١٩٨١م.
- رياض الصالحين، أبوزكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبدالعزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق، راجعه: شعيب الأرناؤوط، دار المأمون للتراث، مكتبة المنارة الزرقاء، ودار ياقوت للتراث ط١، ١٤٠٩هـ.

- الرياض النَّاضرة والحدائق النيرة الزَّاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، منشورات المؤسسة السعدية، الرياض، د.ت.

حرف الزاي

- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٥، الكويت، مكتبة المنار، ١٤٠٧هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الزهد، ابن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
- الزهد، أحمد بن حنبل، القاهرة، دار الريان، ١٤٠٨هـ.
- الزهد، الإمام وكيع بن الجراح، تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالجبار الفريوائي، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبوالعباس أحمد بن محمد الهيثمي: ابن حجر الهيثمي، ضبط: أحمد الشامي، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

حرف السين

- سبل السلام شرح بلوغ المرام، الصنعاني، تحقيق: فؤاد أحمد أزمرلي، وإبراهيم محمد الجمل، القاهرة، دار الريان للتراث، ط٤، ١٤٠٧هـ.
- سراج الملوك، الطرطوشي، تحقيق: محمد فتحي أبوبكر، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدِّين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٥، ١٤٠٥هـ.
- السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، لابن حجر.
- سنن ابن ماجة، أبوعبدالله محمد بن يزيد بن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث، ١٣٩٥هـ، وطبعة دار الفكر، د.ت.
- سنن الدَّارمي، الدارمي، تحقيق: السيد المدني، وفيصل إياد، الرياض، رئاسة إدارة البحوث العلمية، ١٤٠٤هـ.
- السنن الكبرىٰ، البيهقي، تحقيق: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
- سير ابن هشام، ابن هشام المعافري، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد القاهرة، د.ت.

حرف الشين

شأن الدعاء، الخطابي، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دمشق، بيروت، ١٩٨٤م.
- شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام، تحقيق: إياد خالد الطباع، دمشق، ١٩٨٩م.

- شخصية المسلم، محمد علي الهاشمي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط٤، ١٤١٠هـ.
- شرح السنة، للبغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.
- شرح سنن ابن ماجة لأبي الحسن السندي، تحقيق: خليل مأمونللسيوطي.
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، حققه: جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها: محمد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤٠٣هـ.
- شرح فتح القدير.
- الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي.
- شرح المعاني الآثار، أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق: محمد زهدي النجار، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ.
- شرح النووي لصحيح مسلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٤٩هـ.
- الشريفة للآجري.
- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق: البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.
- شفاء الغليل، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ، القاضي عياض، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ، مصورة عن طبعة الحلبي في القاهرة، ١٩٨٨م.
- الشفا في مواعظ الملوك، ابن الجوزي، بيروت، دار الفكر، د.ت.
- الشكر، ابن أبي الدنيا، تحقيق: يس السواس ومحمود الأرناؤوط، بيروت، ١٩٨٥م.

حرف الصاد

- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، القاهرة، ١٩٨٢م.
- صحيح البخاري، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفىٰ البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ.
- صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد الأعظمي، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ.
- صحيح الترمذي، محمد ناصر الدِّين الألباني، بيروت، ١٩٨٨م.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدِّين الألباني، دمشق، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٠هـ.
- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدِّين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ.
- صحيح سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدِّين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ.
- صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ، وبيروت، دار الكتب

العلمية، ١٣٤٩هـ.
- صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، السعودية، الدمام، مكتبة ابن الجوزي، ١٩٨٩م.
- صفة الصفوة، أبوالفرج بن الجوزي، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ.
- صفة صلاة النبي ﷺ محمد ناصر الدِّين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨١م.
- صفة جزيرة العرب للهمداني.
- صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: عبدالقادر عطا، دار القبلتين للنشر والتوزيع، د.ت، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

حرف الطاء

- الطبقات الكبرىٰ، محمد بن سعد، بيروت، دار صادر، ١٩٥٧م.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم الجوزية، تصحيح أحمد عبدالحليم العسكري، المؤسسة العربية، القاهرة، سنة ١٣٨٠هـ.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧٩م.

حرف العين

- العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٣٩٢هـ.
- عدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن قيم الجوزية. تصحيح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.
- عقيدة التوحيد، لصالح الفوزان.
- العقيدة الواسطية، ابن تيمية، شرح الشيخ صالح الفوزان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٥، ١٤١١هـ.
- العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي.
- عمدة القاري، شرح صحيح البخاري، بدر الدِّين العيني، القاهرة، المطبعة المنيرية، د.ت.
- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدنيوري، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

حرف الغين

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، على هامش تفسير الطبري، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٧م.

حرف الفاء

- الفتاوىٰ السعدي، للشيخ عبدالرحمن بن سعدي، دمشق، دار الحياة، ط الأولىٰ، ١٣٨٨م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدِّين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني،

القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٩٦٤م، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٣م.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبدالرحمن آل الشيخ، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤١٢هـ.
- الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية لابن علان.
- الفروق للقرافي، دار المعرفة، بيروت.
- الفروق اللغوية، أبوهلال العسكري، لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت.
- فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد عباس، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ.
- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، فضل الجيلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٤٠٧هـ.
- فضل علم السلف على الخلف، ابن رجب، تحقيق: محمد عبدالحكيم قاضي، ط، الدار السلفية، الكويت، ١٤٠٧هـ.
- فقه الزكاة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ١٤١٠هـ.
- فقه السنة، السيد سابق، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.
- الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، د.ت.
- الفوائد، ابن القيم، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.
- فيض القدير، شرح الجامع الصغير، محمد عبدالرؤوف المناوي، القاهرة، ١٩٣٨م.

حرف القاف

- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمي، حققه وخرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، ط. ثانية، دمشق، الرياض، ١٩٩٣م، مكتبة دار البيان، بيروت، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، بيروت، دار الجيل، د.ت.
- قصص الأنبياء عماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: علي بن عبدالحميد، ومحمد وهبي ومعروف زريق، دار الخير، بيروت، ط: ١٤١٦هـ.
- قضاء الحوائج، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا، موسوعة رسائل اب نأبي الدنيا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- القواعد الحسان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المجموعة الكاملة المجلد الثامن، ١٤٠٨هـ، مركز صالح بن صالح الثقافي، غيره.

حرف الكاف

- كتاب الأمالي يحيى بن الحسن الشجري، طبعة محمد الباز، مكة.
- كشاف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي، تحقيق: لطفي عبدالبديع، القاهرة، ١٩٦٣م، (الترجمة العربية).

- كشاف اصطلاحات الفنون، أو موسوعة العلوم الإسلامية، محمد بن علي التهانوي، بيروت، شركة خياط، د.ت. (الأصل المكتوب بالفارسية).
- كشاف القناع عن متن القناع، منصور بن يونس البهوتي، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٣٦٩هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، جار الله الزمخشري، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٤.
- كشف السرائر في معنىٰ الوجوه والأشباه والنظائر، ابن العماد، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم أحمد، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، د.ت.
- الكليات معجم المصطلحات والفروق اللغوية، أبوالبقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.

حرف اللّام

- لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ١٩٥٦م.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ.

حرف الميم

- المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، للحافظ الدمياطي، تحقيق: عبدالله حجاج، القاهرة، مكتبة دار التراث الإسلامي، د.ت.
- المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، للحافظ الدمياطي، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٤٠٣هـ.
- المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، القاهرة، دار السعادة، د.ت/ بيروت، ط٣، دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ.
- المجمل في اللغة، ابن فارس، تحقيق: زهير عبدالحميد سلطان، بيروت، ١٨٩٤م.
- المجموع، شرح المهذب، أبوزكريا يحيى شرف النووي، بيروت، دار الفكر، د.ت، ٢٠مج.
- مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، انظر (الفتاوىٰ لابن تيمية، رقم ٧١٤).
- مجموع الرسائل الكبرىٰ، ابن تيمية، القاهرة، المطبعة العامرة الشرفية، ١٣٢٣.
- محاسبة النفس والإزراء عليها، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مصطفىٰ بن علي بن عوض، بيروت، ١٩٨٦م.
- محاسن التأويل، جمال الدِّين القاسمي، تحقيق: فؤاد عبدالباقي، القاهرة، مطبعة الحلبي، د.ت.

ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تحقيق: المجلس العلمي، المغرب، فاس، د.ت.
ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرَّازي، دراسة وتقديم: عبدالفتاح عبدالعليم البركاوي، القاهرة، دار المنار، ١٩٩٣.
ـ مختصر شعب الإيمان، عمر بن عبدالرحمن القزويني، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، دمشق، مكتبة دار البيان، ١٤٠٣هـ.
ـ مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، قدَّم له: محمد أحمد دهمان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط، القاهرة، دار التراث، ١٩٨٢م.
ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.
ـ مداواة النفوس، ابن حزم، تحقيق: أبوحذيفة بن محمد، مصر، طنطا، مكتبة الصحابة، ط١، ١٤٠٧هـ.
ـ مرشد الخطيب، محمد إبراهيم سليم، القاهرة، د.ت.
ـ مساوىء الأخلاق ومذمومها، الخرائطي، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، الرياض، مكتبة الساعي، د.ت/ القاهرة، مكتبة القرآن، ١٩٨٩م.
ـ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، الهند، حيدرآباد الدكن، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
ـ المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف، الأبشيهي، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٩٨م، وبيروت دار الفكر.
ـ مسند أبي يعلىٰ، أبويعلىٰ الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط ثانية، دمشق، ١٤١٠هـ.
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٣٩٨هـ (ست مجلدات).
ـ مسند الإمام أحمد بتعليقات أحمد شاكر، نشر دار المعارف، بمصر.
ـ مشكاة المصابيح، محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدِّين الألباني، ط. ثانية، بيروت، دمشق، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥هـ.
ـ مصباح الزجاجة، في زوائد ابن ماجة، أحمد بن أبي بكر الكتاني البوصيري، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ، دار العربية.
ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد الفيومي، دار الفكر، بيروت، د.ت.
ـ المصنف، لأبي بكر عبدالرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٣م.
ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، تحقيق: مختار أحمد الندوي، ط١، الهند، ١٤٠٣هـ.

- المطلع على أبواب المقنع. لمحمد البعلي، نشر المكتب الإسلامي: ١٤٠١هـ.
- معارج القبول، الشيخ حافظ حكمي، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٤٠٤هـ.
- المعرفة والتاريخ، أبويوسف بن سفيان الفسوي، تحقيق: إكرام ضياء العمري، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٥م.
- معالم التنزيل، الإمام البغوي، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، ط. ثانية، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- معالم السنن للخطاب بهامش مختصر سنن أبي داود، انظر: مختصر سنن أبي داود للمنذري رقم ٥٠٩.
- معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق، تحقيق: عبدالجليل شلبي، بيروت، ١٩٧٣م.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم.
- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق: محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، ١٩٨٧م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، بيروت، ١٤١٠هـ.
- المعجم الصغير، الطبراني، تصحيح: عبدالرحمن عثمان، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ.
- المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، القاهرة، وزارة الأوقاف، د.، مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ أيضًا.
- معجم مقاييس اللغة، لأحمد ابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، ١٩٦٩م.
- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية، ط٢، لبنان، بيروت، دار الأمواج، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- المغني، لأبي محمد عبدالله بن قدامة المقدسي مع الشرح الكبير، دار الكتاب العربي، سنة ١٣٩٢هـ.
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني الألفاظ، لمحمد الخطيب الشربيني، دار الفكر..
- مفتاح دار السعادة، ابن القيم، بيروت، دار الكتب العلمية.
- المفردات في غريب القرآن، الرَّاغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٦١م.
- المقصد الأسنىٰ في شرح معاني أسماء الله الحسنىٰ، أبوحامد الغزالي، قبرص، ١٤٠٧هـ.
- مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا، تحقيق: ج. أ. بالمي، ألمانيا، بادن بادن، ١٩٧٣م.
- مكارم الأخلاق ومعاليها، الخرائطي، تحقيق: سعاد سليمان الخندقاوي، مصر، مطبعة المدني، ١٩٩١م.
- مناهل العرفان، محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤١٦هـ.
- المنتقىٰ شرح موطأ مالك، للباجي، نشر دار الكتب العربية، بيروت، ط: الثانية.
- المنهاج في شعب الإيمان، أبوعبدالله الحسن بن الحسن الحليمي، تحقيق: حلمي فودة، القاهرة، دار الفكر، ١٩٧٩م.

ـ الموافقات في أصول الأحكام، الشاطبي، دار الفكر، ١٣٤١هـ.
ـ الموطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، دار الحديث، ١٤١٣هـ، بيروت، دار إحياء الكتاب العربية.

حرف النون

ـ نزهة الأعين النواظر، في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالكريم الراضي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ.
ـ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، صالح بن عبدالله بن حميد وزملاه، دار الوسيلة، المملكة العربية، ط/الأولىٰ.
ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٣هـ.
ـ نواسخ القرآن لجمال الدِّين أبوالفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي الملباري، ط: الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية، ط الأولىٰ، ١٤٠٤هـ.

حرف الهاء

ـ هداية الحيارىٰ، لابن القيم الجوزية، دار النشر، الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية.

حرف الواو

ـ الوجوه والنظائر، لأبي عبدالله محمد بن علي الدامغاني، تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهدل، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ٤، سنة ١٤٠٣هـ.
ـ الورع، ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبوعبدالله محمد بن حمد الحمود، مطابع القبس، ١٤٠٨هـ.
ـ الولاء والبراء في الإسلام، محمد سعيد القحطاني، الرياض، دار طيبة للنشر، ط٣، ١٤٠٩هـ.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس